جامعة مؤتة

عمادة الدراسات العليا

الرسائل الفنيّة في العصر المملوكيّ الأوّل
(784/648هـ)

سلامة هليّل عيد الغريب

رسالة

مقدّمة إلى

عمادة الدراسات العليا

لمتطلّبات الحصول على درجة الدكتوراه

في الأدب – قسم اللغة العربية

جامعة مؤتة، 2003م

جامعة مؤته

اجازة رسائل جامعية

عمادة الدراسات العليا

تقرر اجازة الرسالة المقدمة من الطالب سلامه هليل عيد الغريب والموسومة بـ:

"الرسائل الفنية في العصر المملوكي الاول" .استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراة في اللغة العربية .

القسم اللغة العربية

الاسم	التوقيع	التاريخ	
أ.د سمير الدروبي		٢٠٠٣/١١/١٢	مشرفا
أ.د رشدي الحسن		٢٠٠٣/١١/١٢	عضوا
أ.د جهاد المجالي		٢٠٠٣/١١/١٢	عضوا
أ.د شفيق الرقب		٢٠٠٣/١١/١٢	عضوا

عميد الدراسات العليا

د.ذياب البداينة

الإهداء

إلى والدتي العزيزة، ثمرة من ثمار صبرها،
إلى زوجتي الوفيّة.

سلامة الغريب

فهرست المحتويات

الملخّص

الرسائل الفنيّة في العصر المملوكي الأوّل

سلامة هليّل عيد الغريب

جامعة مؤتة، 2003م

يمثّل هذا العمل دراسة للرسائل الفنيّة في العصر المملوكي الأوّل، ويظهر في الوقت ذاته مدى تطوّر الرسائل الفنيّة في ذلك العصر، ويتألّف هذا العمل من تمهيد وأربعة أبواب لكل باب ثلاثة فصول إضافة إلى الخاتمة.

فقد تمّ في التمهيد مناقشة الأوضاع الاجتماعيّة والثقافيّة والسياسيّة لذلك العصر.

وخصّص الباب الأوّل للرسائل السياسيّة، إذ دُرست في الفصل الأول الرسائل ذات العلاقة المباشرة بالخلفاء والسلاطين، ودُرست في الفصل الثاني الرسائل الإداريّة والشؤون الداخليّة، وخُصّص الفصل الثالث لدراسة الرسائل الخاصة بالعلاقات الخارجيّة بين المماليك والممالك الأُخرى.

وتناول الباب الثاني الرسائل ذات الصبغة الإخوانيّة، فتمّت دراسة الرسائل ذات المظاهر الاجتماعيّة في الفصل الأول، بينما تكفّل الفصل الثاني بدراسة الرسائل ذات الصّلة الشخصيّة، وخُصّص الفصل الثالث لدراسة الرسائل ذات العلاقات التعليميّة.

وعُقد الباب الثالث للرسائل ذات الصبغة الأدبيّة التعبيريّة، فكان الفصل الأول حول رسائل الوصف، بينما تضمّن الفصل الثاني رسائل الطرد وقِدْمات البندق، واعتنى الفصل الثالث برسائل المفاخرات والأسئلة والأجوبة.

وكشف الباب الرابع عن الدراسة الفنيّة، إذ تناول الفصل الأول بناء الرسالة، واللغة والأُسلوب، والصورة والخيال. ويُعنى الفصل الثاني ببيان مدى تأثُر الكتّاب بالمدرسة الفاضليّة في الفنون البديعيّة، ويهتمّ الفصل الثالث بالكشف عن مدى تغلغل بذور المناهج الحديثة؛ كالتّناص والشعرية في الرسالة الأدبيّة.

Abstract

Artistic Letters in the First Mamluki Period

Salameh Hlail Al-Ghareeb

Mu'tah University, 2003l

The present work studies the artistic letters in the first Mamluki period and their development. This work consists of an introduction and four chapters each of which consists of three divisions, in addition to the conclusion.

The introduction discusses the social, cultural and political circumstances in the Mamluki period. The first chapter is allocated to the study of political letters. The first division studies the letters that are directly related to Caliphs and Sultans. The second division describes letters relevant to administrative and internal matters while the third division is dedicated to the study of private letter that represents the external relationship between Mamlukis and others states.

The second chapter discusses letters of friendship. The first division of this chapter studies letters that pertain to social aspects of life while the second division studies letters relevant to personal attributes. The third division studies letters that pertain to learning.

The third chapter is dedicated to the study of literary and expressive letters. While the first division studies letters of description, the second division handles letters of hunting. The third division discusses letters of boasting, questions and answers.

The fourth and last chapter focuses on the artistic aspects of letters. Thus the division handles the structure of letters their language , style and image. The second division explicates the degree of influence of the Fadilite School of Rhetoric on writers of that period. Finally, the third division uncovers the penetration of modern curriculum ideas, such as crowded ideas and being poetic, in artistic letters.

الفصل الأول

الرسائل السياسيّة

التمهيد

الحياة الاجتماعيّة:

تميّـزت الحـياة الاجتماعـيّة في العصر المملوكيّ بالطبقيّة، إذ برزت طبقتان: إحـداهما طبقة السّادة الذين تقلّبوا في نعيم الدّنيا وملذّاتها، والأُخرى طبقة العامّة الذين عاشـوا حـياة الكفـاف والعـوز، فقد ذكر المقريزي أنّ نظام الطبقيّة كان متفشّياً في العصـر المملوكي، وكان أساس الطبقية – في مجمله – ناشئاً عن الأحوال الاقتصادية، إذ جعل المجتمع في طبقات سبع: فـ "القسم الأول أهل الدولة، والقسم الثاني أهل اليسار من التجّار، وأولى النعمة من ذوي الرفاهيّة، والقسم الثالث الباعة، وهم متوسّطو الحال من التجّار، ويقال لهم أصحاب البز، ويلحق بهم أصحاب المعايش، وهم السوقة، والقسم الرابع أهل الفلح، وهم أهل الزراعات والحرث، سكان القُرى والرّيف، والقسم الخامس الفقـراء، وهـم جـلُّ الفقهاء، وطلاّب العلم، والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم، والقسم السادس أرباب الصنائع والأُجراء أصحاب المهن، والقسم السابع ذوو الحاجة والمسكنة، وهم السؤّال الذين يتكفّفون النّاس ويعيشون منهم"(1).

وقـد أحصـى ايـرا. لابـدوس المجتمع في العصر المملوكيّ في طبقات أربع تنحصـــر فـي النُخـبة الحاكمـة، والأعيان أو الوجهاء، وعامّة الشعب، والجماهير البروليتارية(2)، بينما ترى حياة الحجيّ أنّ المجتمع المملوكيّ انحصر في طبقتين اثنتين حوَتْ الطبقات السابقة جميعها: طبقة المماليك من السلاطين والأمراء والأجناد، وطبقة

---

(1) المقريـزي، أحمـد بن علي (845هـ/1441م): إغاثة الأمّة بكشف الغُمّة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (1359هـ/ 1940م)، ص72–73.

(2) انظـر ايـرا. لابدوس: مُدن إسلاميّة في عهد المماليك، ترجمة علي ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيـروت، ط2، 1987م، ص136.

وينكرون عليهم ما هم يرتكبون أضعافه"[1]، لا بل يستكثرون عليهم الأرزاق، ويعيبون عليهم ركوب الخيل، ولبس الثياب الفاخرة، ولذا يرى السبكيّ أنّه يخشى على تلك الطبقة من الأُمراء زوال النّعمة عن قريب، فإنّها تتبختر في أنعم الله مع الجهل والمعصية[2].

وعليه فإنّ تاجّ الدّين السبكيّ وضع إصبعه على الدّاء، وأدرك خطر أمراض اجتماعيّة جمّة جمعها في مصنّفه معيد النعم ومبيد النقم، كما تابعه المقريزي في ذلك المجال فصنّف كتابه: إغاثة الأمّة بكشف الغمّة، وجعل فساد الأحوال كامناً في أمور ثلاثة لا رابع لها:

فأوّلها وهو أصل الفساد الرشوة، وثانيها غلاء الأطيان، وثالثها رواج الفلوس، فأصبحت ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة: كالوزارة، والقضاء، ونيابة الأقاليم، وولاية الحسبة، وسائر الأعمال، وهذا أدّى إلى تمكين كلّ جاهل ومفسد وظالم وباغٍ إلى ما لم يكن يؤمّله من الأعمال الجليلة والولايات العظيمة، بينما أدّى غلاء الأطيان – وهو يرتكز على نظام الإقطاع – إثقال كاهل الفلاحين بارتفاع الأُجور والأسعار؛ ممّا أدّى إلى ترك العمل بالفلاحة، أمّا رواج الفلوس فيعني استحداثها دون الدراهم[3].

وقد فشت في المجتمع المملوكي مظاهر الظّلم والاضطهاد، وكثرة المكوس، ومصادرة الأموال؛ ممّا دعا الشيخ شرف الدّين النوويّ (ت676هـ/1277م) يكثر المكاتبات إلى السلطان الظّاهر بيبرس (ت676هـ/1277م)، ويعظه في أُمور

---

(1) السبكيّ، تاج الدّين عبد الوهاب (ت771هـ/1369م): معيد النعم ومبيد النقم الإصلاح السياسي والإداري في الدولة العربية الإسلامية، دار الحداثة للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، ص47.

(2) انظر المصدر نفسه، ص49.

(3) انظر المقريزيّ: إغاثة الأمّة، ص43-47.

المسلمين، فكتب إليه رسالة تتضمّن العدل في الرعيّة وإزالة المكوس، وكتب إليه أُخرى لمّا احتيط على أملاك دمشق[1] *.

ولا شكّ أنّ هذه المكاتبات تكشف عن الأوضاع السائدة في المجتمع آنذاك، ولم تقتصر الأحوال السيئة على الأوضاع الاقتصادية بل اجتمعت كوارث طبيعية وأمراض فتّاكة ساهمت في فتّ عضد المجتمع، وزادت من ويلاته، فانتشرت الأوبئة، وحدثت الزلازل؛ ممّا حدا بالكتّاب أن يصفوا تلك الأوضاع، فألّف ابن الورديّ (749 هـ/ 1348م) رسالة أسماها "النبأ عن الوبا"، وأخرى في وصف زلزلة، وسوف يتمّ بحثهما في مكانهما من البحث.

ولا يمكن في صفحات قليلة استيعاب مظاهر حياة مجتمع زاخرة بالأحداث، إذ كان له عادات وتقاليد في أفراحه وأتراحه، وفي مواسمه وأعياده، فضلاً عن أثر الأنظمة السياسيّة الموجّه لذلك المجتمع.

الحياة الثقافية:

تبوّأت القاهرة زعامة العالم الإسلاميّ بعد نكبة بغداد على يدّ المغول (656هـ/ 1258م)، فأصبحت القاهرة محطّ أنظار العلماء وطلبة العلم، وقد تضافرت مجموعة من العوامل جعلتها حاضرة العالم الإسلاميّ وقتذاك، فأوّل هذه العوامل جوّها الآمن البعيد نسبياً عن الأخطار الآتية من المشرق والمغرب، فلقد استفحل أمر التتار في مشرق العالم الإسلاميّ، بينما شدّد الغوط الخناق على المسلمين في شبه جزيرة الأندلس؛ ومن هنا رأى العلماء في القاهرة الملاذ الآمن، فهاجروا إليها من مشرق العالم الإسلامي ومغربه.

---

(1) انظر السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (911هـ/1505م): حُسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبيّ وشركاه، ط1، 1387هـ/1968م، 2/97-103.

* كتب الإمام النوويّ أربع رسائل في نصح السلطان الظاهر بيبرس، وقد قام سمير الدروبي بتحقيق تلك الرسائل. انظر الدروبي، سمير محمود: رسائل الإمام النوويّ إلى الظاهر بيبرس، المجلة الثقافية – تصدر عن الجامعة الأردنية، العدد الثالث، 1404هـ/1984م، ص117-138.

وقـــد ساهم انتقال الخلافة العباسيّة سنة (659هــ/1260م) إلى القاهرة في زيادة حظــوتها فـــي الحياة الثقافيّة، إذ أصبحت الزعامة الدينيّة مرتبطة بها، كما أنّ تشجيع الســـلاطين المماليـــك للعلماء له أكبر الأثر في نشر العلم والثقافة، إضافة إلى اهتمامهم ببناء المدارس.

ومهمـــا يكـــن، فقد "ورثت مصر العراق في الزعامتين الدينيّة والسياسيّة للعالم الإســـلامي والعربي، كما عقد لها لواء الزعامة الفكرية والحضارية، وصارت القاهرة خليفة بغداد منذ منتصف القرن السابع وطوال قرون طويلة تالية"(1).

وقـــد أظهر بعض السلاطين المماليك جانباً من اللّين والعطف العلماء، وكنُّوا لهم التقديـــر محاولـــين رفع شأنهم، فكانت معاملة السلاطين تشي بذلك، وهذا الأمر أعطى ثماره في تقدّم الحياة الثقافيّة، ورفع سويتها، فمن ذلك ما حدث للقاضي ابن بنت الأعزّ (ت695هــــ/1295م)، فقد حضر إليه الملك الظّاهر بيبرس في دار العدل لكي يتحاكم مـــع أحـــد الأُمراء في بئر، فلمّا وصل السلطان وقف النّاس إلاّ القاضي، فقد أشار إليه السلطان بعدم القيام(2).

ومـــن ذلـــك احتـــرام الســـلطان حسام الدّين لاجين (698هــ/1298م) للعلماء وتوقيـــرهم، فروى الصفديّ (764هــ/1362م) في حقّ ابن سيّد النّاس اليعمريّ (734 هــ/1333م) – الذي قصد القاهرة من الأندلس برفقة والده – إذ "كان الأمير علم الدين الـــدواداري يحـــبّه كثيـــراً، ويقضـــي أشغال الناس عنده، ودخل به إلى السلطان الملك المنصـــور حسام الدين لاجين، وقد امتدحه بقصيدة، وقال: أحضرت لك هذا، وهو كبير من أهل العلم، فلم يدعه السلطان يبوس الأرض، وأجلسه معه على الطرّاحة"(3).

---

(1) سلام، محمد زغلول: الأدب في العصر المملوكي (الدولة الأولى 648/783هــ)، دار المعارف، القاهرة، 1979م، ص106.

(2) انظر السيوطي: حُسن المحاضرة، 95/2.

(3) الصـــفديّ، صـــلاح الدين خليل بن أيبك (764هــ/1362م): أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق علي أبي زيد وآخرون، دار الفكر، دمشق، ط1، 1998م، 207/5.

وهذا الخبر أورده ابن تغرّي برديّ (874هـ/1469م) بصورة أكثر إشراقاً حيث قال: "أهل العلم منزّهون عن هذا، وأجلسه عنده"[1].

ففي تلك العبارة توقيرٌ للعلماء وأهل العلم؛ لأنّ إعفاءهم من تقبيل الأرض بين يديّ السلطان ممّا كان يفعله خاصّة السلطان يصوّر مدى احترام السلاطين للعلم وأهله، فكان السلطان لاجين ينزل عن سريره ويقبّل يدّ القاضي ابن دقيق العيد (712هـ/1312م)[2].

والحوادث في مثل هذه المواقف كثيرة، وربّما كان دافعها كسب ودّ العلماء في توطيد أركان الحكم، إذ كان العلماء المتنفّس الوحيد لهموم العامّة، وهم الطبقة التي تثق بها الجماهير، ففي كسب ودّهم تهدئة لخواطر النّاس.

ومن مظاهر الاهتمام بالثقافة تسابق السلاطين في بناء المدارس، وتخصيص الأموال الطائلة لها، وإقامة الاحتفالات عند الانتهاء من بنائها، فروى العينيّ (855هـ/1451م) خبر الانتهاء من بناء المدرسة الظاهريّة في القاهرة سنة (662هـ/1263م) قائلاً: "وفي أوّل السّنة كملت المدرسة الظاهريّة التي بين القصرين، ورتّب لتدريس الشّافعيّة بها القاضي تقيّ الدّين محمد بن الحسن بن رزين، ولتدريس الحنفيّة مجدّ الدّين عبد الرحمن بن كمال عمر بن العديم، ولمشيخة الحديث بها الشيخ شرف الدّين الدمياطي عبد المؤمن بن خلف الحافظ، وكان الإجلاس بها في الخامس من صفر في هذه السّنة، واجتمع بها أهل العلم والأدب والفقهاء، ودرّس المدرّسون، واندفع الشعراء يمتدحون"[3].

---

(1) ابن تغرّي بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (874هـ/1469م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصوّرة عن نسخة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1935م، 108/8.

(2) انظر ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني (852هـ/1448م): الدُرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيّد جاد الحقّ، ط2، (1385هـ/1966م)، مطبعة المدني، القاهرة، 212/4.

(3) العيني، بدر الدّين محمد (855هـ/1451م): عقد الجمان في تاريخ أهل الزّمان، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1407هـ/1987م، ج1، ص382.

فأنشد السرّاج عمر الورّاق في هذا الحفل يشيد بالملك الظّاهر، ويثمّن له بناء هذه المدرسة التي تُشدُّ الرحال لها من مختلف بلدان العالم الإسلامي آنذاك:

مَلِيكٌ لَهُ فِي العِلْمِ حُبٌّ وأَهْلِهِ ... فَلِلَّهِ حُبٌّ لَيْسَ فِيهِ مَلاَمُ
فَشَيَّدَهَا لِلْعِلْمِ مَدْرَسَةً غَدَا ... عِرَاقٌ إِلَيهَا شَيِّقٌ وَشَآمُ
فَلاَ تَذْكُرَنْ يَوْماً نِظَامِيَّةً لَهَا ... فَلَيسَ يُضَاهِي ذَا النِّظَامِ نِظَامُ
وَلاَ تَذْكُرَنْ مَلْكاً وَبَيْبَرْسُ مَالِكٌ ... وكُلُّ مَلِيكٍ فِي يَدَيْهِ غُلاَمُ
وَقَدْ بَرَزَتْ كَالرَّوْضِ فِي الحُسْنِ أَنْبَأَتْ ... بِأَنَّ يَدِيهِ فِي النَّوَالِ غَمَامُ(1)

كما أنشد الأديب أبو الحسين الجزّار في المناسبة ذاتها مشيداً بالملك الظّاهر، ومقدِّراً له إنجاز ذلك الصّرح العلمي:

أَلاَ هَكَذَا يَبْنِي المَدَارِس مَنْ بَنَى ... ومَنْ يَتَغَالَى فِي الثَّوابِ وفي الثّنا
لَقَدْ ظَهَرَتْ لِلْظَّاهِرِ المَلْكِ هِمَّةٌ ... بِهَا اليَوْمَ فِي الدَّارَيْنِ قَدْ بَلغ المُنَا
تَجَمَّعَ فِيهَا كُلُّ حُسْنٍ مُفَرَّقٍ ... فَرَاقَتْ قُلُوباً للأَنَامِ وأعْيُنا
وَقَدْ جَاوَزَت قَبْرَ الشَّهِيْدِ فَنَفْسُهُ ... النَّفِيسَةُ فِيها فِي سرُورٍ وفي هَنَا
ومَا هِيَ إلاَّ جَنَّةُ الخُلْدِ أُزْلِفَتْ ... لَهُ فِي غَدٍ فاخْتَارَ تَعْجِيلَهَا هُنَا(2)

والحقيقة أنّ أغلب السلاطين المماليك شيَّدوا مدارس وسمِّيت بأسمائهم، فبنى الظاهر المدرسة الظّاهرية، وبنى المنصور قلاوون المدرسة المنصورية، وبنى الناصر محمد بن قلاوون المدرسة الناصرية، كما بنى الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون المدرسة العظمى، وبنى الأشرف شعبان بن حسين المدرسة الأشرفية(3).

---

(1) المصدر السابق، 383/1.

(2) المصدر نفسه، 383/1-384.

(3) انظر القلقشندي، أحمد بن علي (821هـ/1418م): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نسخة مصوّرة عن الطبعة الأميرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، 1383هـ/1963م، 363/3.

ولـــم يقتصر بناء المدارس على السلاطين بل تعدّى ذلك إلى الوزراء والأمراء والأغنياء والعلماء والمقتدرين[1]، فبنى الأمير شيخون المدرسة الشيخونية "وهي مدرسة هائلة، جمع فيها المذاهب الأربعة، ودارا للحديث، وخانقاة للصوفيّة، وقف عليها كثيراً، وقرّر فيها معاليم وقراءة ودار"[2]، كما بنى ناصر الدين محمد بن مسلم البالسي الأصل كبير التجّار المدرسة المسلميّة في مصر سنة ست وسبعين وسبعمائة[3].

وقـــد كان للمساجد دورٌ مهمٌ في حلقات الدرس إلى جانب الوظيفة الدينية، فكانت تلقـــى فيها الدروس، وخاصة العلوم الدينية، كما أسهمت البيمارستانات في نشر الثقافة الطبية، إذ كانت إلى جانب الخدمات الطبية وتقديم العلاج للناس تدرّس الطب[4].

كمـــا راجـــت أســـواق الكـــتب، فكانت تلك الأسواق عامرة بما يصل إليها من مخطـــوطات ممـــا جعلهـــا مصـــدراً للعلماء الراغبين في اقتناء الكتب[5]، وقد ساهمت الإجـــازات العلمية بأنواعها في تنظيم الحركة العلمية وإثرائها، إضافة إلى سنّة تقريض المصـــنّفات جلـــيلة الشأن، وسيتمُ تناول الإجازات والتقاريض في فصل خاص من هذا البحث.

ونتـــيجة للعـــوامل الســـابقة مجتمعة ازدهرت العلوم بشتّى ألوانها، وفي الحقول المخـــتلفة، فظهـــرت المؤلّفات الموسوعيّة التي أصبحت سمة غالبة لذلك العصر، فهو

---

(1) انظـــر الحجيّ، حياة ناصر: السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، مكتبة الفلاح، الكويت، ط1، 1403هـ/1983م، ص107.

(2) ابـــن كثير، أبو الفداء الحافظ الدمشقيّ (774هـ/1372م): البداية والنهاية، تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1407هـ/1987م، جزء 14، ص258.

(3) انظر المقريزي: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط المقريزية، دار صادر، بيروت، طبعة جديدة بالأوفست، 401/2.

(4) انظر الحداد، محمد حمزة إسماعيل:السلطان المنصور قلاوون، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1413هـ/1993م، ص55-56.

(5) انظـــر الدروبـــي، سمير محمود: ظاهرة التعدد والكثرة في مؤلّفات السيوطي، مجلة المنارة، جامعة آل البيت، مجلد 4، عدد3، 1420هـ/1999م، ص628.

عصر الموسوعات الكبرى والمتون العلميّة المنظومة، وكتب التاريخ والطبقات الشهيرة، والشروح المبسوطة على النصوص التراثيّة المهمّة[1].

الحياة السياسيّة:

كانـــت وفاة السلطان صلاح الدّين الأيّوبيّ (589هـ/1193م) بعد تقسيمه البلاد بين أبنائه وإخوته[2] البداية الممهّدة لظهور دولة المماليك، إذ اجتمعت عدّة عوامل أدّت إلـــى أفول نجم الأيوبيّين، فكان أشهرها الاستكثار من العنصر المملوكي، بالإضافة إلى النـــزاع القائم بين الحكام أنفسهم، فقد أفرط الصالح نجم الدّين في اقتناء المماليك، فذكر المقريـــزي أنّ "الملك الصالح هو الذي أنشأ المماليك البحريّة بديار مصر، وذلك أنّه لمّا مـــرّ به ما تقدّم ذكره في الليلة التي زال عنه ملكه بتفرّق الأكراد وغيرهم من العسكر عـــنه حتـــى لم يثبت معه سوى مماليكه رعى لهم ذلك، فلمّا استولى على مملكة مصر أكثـــر مـــن شـــراء المماليـــك، وجعلهم معظم عسكره ... فصاروا بطانته والمحيطين بدهليزه، وسمّاهم بالبحريّة لسكناهم معه في قلعة الروضة على بحر النيل"[3].

والحقيقة أنّ شراء هؤلاء المماليك ساهمت فيه أسباب كثيرة، أبرزها فرار سكّان الـــبلاد الشـــمالية الشرقية من الزحف المغوليّ، إضافة إلى رغبة الحكّام الأيّوبيّين في توطـــيد أركان حكمهم فاستكثروا منهم، وقد تمّ تدريبهم على فنون القتال والحرب حتى أصبحوا عمدة الجيش الأيّوبي في مصر.

وقد أحسّ هؤلاء الجند بنفوذهم في ذلك الزمن فواتتهم الفرصة في تلبية رغبتهم باستلام زمام الأمور، فبعد أن توفي الملك الصالح نجم الدّين أيّوب (647هـ/ 1249م)

---

(1) انظـــر ناجـــي، هلال: سمات العطاء الأدبي والفكري في القرن الثامن الهجري، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد 63، السنة 26، (1423هـ/2002م)، ص196.

(2) انظـــر أبـــا الفداء، الملك المؤيّد إسماعيل بن علي (732هـ/1331م): تاريخ أبي الفداء المسمّى المختصـــر في أخبار البشر، علّـــق علـــيه ووضع حواشيه محمود ديّوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1417هـ/ 1997م، 2/174-175؛ انظر ابن كثير: البداية والنهاية، 13/7.

(3) المقريـــزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، مطبعـــة دار الكتـــب المصـــرية، 1355هـ/1936م، 339/1.

تولّــى الأمــر بعده ابنه توران شاه سنة (648هـ/1250م)، وقد كانت البلاد في أزمة حقيقيّة حيث الصليبيون في حالة كرٍّ وفرٍّ مع الجيش المملوكي، وقد استطاع المماليك أن يحقّقــوا انتصــارات كبيرة، وهذا الأمر زاد الرغبة لديهم في استلام الحكم، وقد شعر تــوران شــاة بهــذه الــرغبة فقلب لهم ظهر المجنّ "وسيطر عليه شعور بأنّ المماليك يــزاحمونه الحكم، ويقاسمونه سلطانه، ولم يلبث أن أضمر توران شاه للمماليك البحريّة أمراً"[1]، وقد تجاوز في إفراطه وشعوره العدواني إلى تهديد أرملة أبيه، و "بدت منــه أسباب نفّرت القلوب عنه فاتّفقوا على قتله، وكان فيه نوع خفّة"[2].

ولمّــا أدركت شجرة الدُّرّ خطر ذلك الملك "خافت منه فكاتبت فيه فاتّفق الجميع عــند ذلك على قتله"[3]، وبمقتل توران شاه (648هـ/1250م) انتهى حكم الأيّوبيّين في مصــر، وتحقّقت رغبة المماليك الكامنة في نفوسهم، فسوّدوا عليهم أرملة سيدهم شجرة الدُّرّ حتى تتّضح الأمور وتنجلي، ويختاروا من يتولّى الأمر.

ولــم تكــن توليــتهم لتلك المرأة لحُسنها وتدبيرها وحزمها كما ذكر ابن تغرّي بــــرديّ فإنّهم "اتّفقوا على ولايتها لحسن سيرتها، وغزير عقلها، وجودة تدبيرها"[4] لا بــل لتكون لهم ذريعة في عدم وجود رجل من بني أيّوب يشغل ذلك المنصب، وعندئذ يتــزوّجها أحد الأمراء ويحكم باسمها، ولذا "جعلوا المعزّ أيبك التركماني أتابكاً لها"[5]، وذكــر ابن خلدون (808هـ/1405م) أنّهم "نصّبوا للملك شجرة الدُّرّ أمّ خليل، وخُطب لهــا على المنابر ونقش اسمها على السكّة، ووضعت علاماتها على المراسم ونصّها أمّ خليل"[6].

---

(1) عاشور: العصر المماليكي في مصر والشّام، ط2، 1976م، دار النهضة العربية، القاهرة، ص9.

(2) ابن تغرّي برديّ: النجوم الزاهرة، 371/6.

(3) المصدر نفسه، 371/6.

(4) المصدر نفسه، 373/4.

(5) المصدر نفسه، 373/6.

(6) ابن خلدون، عبد الرحمن (808هـ/1405م): تاريخ ابن خلدون، ضبط خليل شحادة، دار الفكر، 430/5.

وقــد أحدث توليتها للحكم ثورة من الغضب في أوساط الأيوبيّين في بلاد الشّام، كما عاب الخليفة المستعصم على الأمراء موقفهم، وأرسل لهم كتاباً جاء فيه: "إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتّى نسيّر إليكم رجلاً"(1).

والحقيقة تكمن في تولية شجرة الدُرّ الحكم، فقد خطّط المماليك لتلبية رغبتهم في الحكــم بالزّواج منها، فكان زواج عزّ الدّين أيبك منها البداية الفعلية لحكم المماليك "ولم يكن أيبك أكبر المماليك سنّاً أو أقدمهم خدمة أو أقدرهم مكانة ونفوذاً، إذ كان يوجد من هــو أكبر وأقدم وأقدر منه مثل فارس الدّين أقطاي، والظّاهر بيبرس، ممّا جعل بعض المؤرّخين مثل أبي المحاسن يتّهمه بضعف النفوذ والشوكة، وأنّ الأمراء لم ينتخبوه إلاّ لكي يتمكّنوا من عزله متى شاءوا"(2).

وأحسّت شجرة الدُرّ بالأطماع المحيطة بها و "تزايدت الوحشة بين الملك المعــزّ أيبك، وشجرة الدُرّ، فعزم على قتلها"(3)، فلم تمهله بل أعدّت له من يقتله وأشاعت الخبر بأنّه مات فجأة في الليل، فلم تصدّق مماليكه بذلك(4).

وقد اتّخذ مماليكه من قتله ذريعة بأن ولّوا ابنه علي بن المعزّ، وعندئذٍ نقل شجرة الــدُرّ إلــى أمّــه "فضربها الجواري بالقباقيب إلى أن ماتت"(5) سنة 655هـ/1257م، وعندئذٍ آلت الأمور كليّة إلى المماليك.

ولكــنّ النّاس لم يرضوا عن الملك علي بن المعزّ لطيشه، ولم يظفر بثقة الرعيّة "لكثــرة لعبه بالحمام، ومناقرته بالديوك، ومعالجته بالحجارة، وركوبه الحمير الغرّة في القلعــة، ومناطحته الكباش"(6)، كما تعرّض مشرق العالم العربي ودار الخلافة في عهده

---

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ق2/ ص368.

(2) عبد الدايم، عبد العزيز محمود: مصر في عصر المماليك والعثمانيين، مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة، 1996م، ص43.

(3) المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص401.

(4) انظر المصدر نفسه، ج1، ق2/ ص403.

(5) المصدر نفسه، ج1، ق2، ص404.

(6) ابن العماد، عبد الحيّ الحنبليّ (1089هـ/1678م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، طبعة جديدة دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، 271/5.

إلى أكبر هجمة همجيّة تمثّلت في تدمير بغداد على يد المغول 656هـ/1358م، فأحسَّ المماليك بالخطر وفقدوا الثقة بالملك لطيشه وخفّته، فوثب قطز على السلطنة (657هـ/1259م)، وأودع الملك المنصور وأفراد أسرته السّجن.

وأعدَّ السلطان المظفّر قطز العدّة لمواجهة الخطر وملاقاة العدوّ، كما أنّه أثار الحمية في الأمراء والجند، وهبَّ مواجهاً الخطر المغولي، فانتصر عليهم في معركة عين جالوت (658هـ/1259م)، فمكّنت تلك الوقعة العالم العربي والإسلامي من تمالك أنفاسه بعد أن أنهكه الزحف المغوليّ، كما أنها أعادت للعالم الإسلامي هيبته، لا بل جرّعت المغول درساً قاسياً ما عرفوا مثله منذ خروجهم من ديارهم.

وكان أشهر سلاطين المماليك على الإطلاق الملك الظّاهر بيبرس، فقد حَسُنت سيرته، وذاع صيته، فكان في حكمه فتوحات كثيرة، ومن أكبر إسهاماته نقل الخلافة العباسيّة إلى القاهرة، فبايع المستنصر بالله خليفة، وتابعه الأُمراء وعامّة النّاس، ونقش اسمه على السكّة وخطب له على المنابر، وكان ذلك سنة (659هـ/1260م).

ومن آثاره الحسنة الاهتمام بالعلماء والتعليم، وكما أمر في أيّامه بإراقة الخمور وإبطال المفسدات والخواطئ وإسقاط المكوس المرتبة عليها[1]. وقد بلغت الدولة المملوكية أوج عزّها في زمنه، وبعد وفاته آلت الدولة لابنه سلامش ابن الملك الظّاهر، ولم تدم سلطته طويلاً حتى خُلع وانتقل الحكم إلى البيت القلاووني الذي استأثر بهذه الدولة ردحاً من الزّمن، فقد "استمرَّ قلاوون في السلطنة فكانت له مشاهد حسنة، وفتوحات منها طرابلس ... وهو الذي أحدث وظيفة كاتب السرّ، وأحدث اللعب بالرّمح

(1) انظر السيوطي: حُسن المحاضرة، 2/96.

أيـــام إدارة المحمل*، وكسوة الكعبة، وغيَّر ملابس الدّولة عمّا كانوا عليه في دولة بني أيّوب"[1].

وخلفه في الحكم ولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل، وكانت له إنجازات منها فــتح آخــر معاقل الصيليبيّين في عكّا 690هـــ/1291م، ثمّ قتل سنة 693هـــ/1293م، فخلفه في السلطنة أخوه أبو الفتوح الملك الناصر محمد بن قلاوون، وقد انتهى به الأمر في المرّة الأولى أن خُلع وتسلطن زين الدّين كتبغا المنصوريّ، وقد تمّ قتله (696هـــ/ 1296م)، وتولّى الحكم السلطان حسام الدين لاجين (696هـــ/1296م). وبعد مقتله عاد الملك الناصر محمد مرّة ثانية للحكم سنة (698هـــ/1298م)، وقد أجبر على ترك الحكم فتظاهــر بقصد الحجّ وتسلطن الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوري، وقد تمّ قتله (709هـــ/1309م)، وأعيد الناصر محمد للحكم مرّة ثالثة حتى وفاته سنة 741هـــ/ 1340م.

وقــد ظهــر المماليك أمام شعوب البلاد في صورة المجاهدين في سبيل الإسلام والمســلمين فنالوا التأييد والتعضيد[2]، إلاّ أنّ الأمور ساءت واهتزّت صورة السلاطين بعــد الملك النّاصر محمد بن قلاوون لصغر سنّهم وكثرة اغتيالاتهم، فكانت تلك الفترة سلســلة حوادث بؤس وشقاء، فالسلاطين كانوا أطفالاً لم يبلغوا الحلم ، يولّون ويعزلون على حسب إرادة مماليك ذلك العهد[3].

* هي عبارة عن محفّة شبه الهودج ذات قمّة هرميّة كُسيت بثوب مزخرف يصحب ركب الحاج إلى مكّة زادها الله تشريفاً. انظر ابن بطوطة، شمس الدين أبا عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي (779هـ/ 1377م): رحلة ابن بطوطة، تحقيق عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة التراث (1417هـ/1997م)، ص221.

(1) السيوطي: حُسن المحاضرة، 110/2.

(2) انظــر الحجّي، حياة ناصر: أنماط من الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في سلطنة المماليك في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، 1995، ذات السلاسل، الكويت، ص8.

(3) انظــر موليــر، السير وليم: تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1415هـ/1995م، ص104.

واستمرّ الملك يسوسه بنو قلاوون وأحفاده حتّى نهاية الدولة المملوكيّة الأولى التي تعرف بالبحريّة، فقد حكم ثمانية من أبنائه حتى عام 762هـ/1360م؛ أي ما يقرب من عشرين عاماً وهم[1]: الملك المنصور سيف الدين أبو بكر (741- 742هـ)، والملك الأشرف علاء الدين كجك (742هـ)، والملك الناصر شهاب الدين أحمد (742 هـ)، والملك الصالح عماد الدين إسماعيل (743-746هـ)، والملك الكامل زين الدّين شعبان (746هـ)، والملك المظفّر زين الدين حاجي (747-748هـ)، والملك الناصر ناصر الدين أبو المحاسن حسن (748-752هـ)، والملك الناصح صالح (752 -755هـ)، وأُعيد الملك الناصر حسن مرّة ثانية (755-762هـ).

وبعد مقتل الناصر حسن انتقل الحكم إلى أحفاد الناصر محمد بن قلاوون حتّى نهاية الدولة البحرية (784هـ/1382م)، وهم[2]: الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي محمد بن المظفّر حاجي (762-764هـ)، والملك الأشرف أبو المفاخر شعبان (764-778هـ)، والملك المنصور علاء الدين علي (778-783هـ)، والملك الصالح صلاح الدين حاجي (783-784هـ).

وهكذا انتهت فترة الدّولة المملوكيّة الأولى، وانتقل الحكم إلى المماليك الجراكسة وكان أوّلهم السلطان الملك الظاهر برقوق في رمضان سنة 784هـ/1382م[3].

---

(1) انظر السيوطي: حُسن المحاضرة، 2/116-118.

(2) انظر المصدر نفسه، 2/118-120.

(3) انظر المصدر نفسه، 2/120.

أولاً: شؤون الخلفاء والسلاطين

احــتلّت الرسائل السياسيّة في العصر المملوكيّ مكانة عالية، ومنزلة رفيعة، إذ أصبحت الوجه الحضاري الذي يحمل فكر الدّولة، والرموز السياسيّة في تلك الحقبة من الــزمن. وقــد اســتأثرت تلــك الرسائل بالاهتمام البالغ، والعناية الفائقة، حيث حظيت بطائفـــة مــن الكتّاب الذين كرّسوا مواهبهم في خدمتها، وإخراجها بالوجه الذي يليق بالمهمّة التي نهضت بها تلك الرسائل.

وقــد تــنوّعت المهمّــات التي أُلقيت أعباؤها على هذا اللون من المكاتبات، فقد أصــبحت المنبر الحرّ الذي يُخاطب به الجمهور والخاصة في الأُمور التي تخصّ القادة والساسة في أمر تعيينهم وعزلهم، كما كان لها دور في بيان سياسة الدولة تجاه الرعية.

وقــد نشــأت تلــك الرســائل في حضانة ديوان الإنشاء الذي نظّم أمرها حسب الأغراض التي استخدمت من أجلها، وقد رُتّبت تلك المكاتبات على حسب ما حمّلت من أغــراض، فكانت تلك الرسائل الموجّه الحقيقي الذي يكشف عن السياسة المملوكيّة تجاه الخاصّة والعامّة.

فمــن هــذه الرسائل ما ينظّم علاقة الخلفاء بالخاصّة والعامّة من خلال البيعات والعهود التي تكفل سيادة أمر الخليفة، ونفاذ أحكامه وأوامره ونواهيه في جوٍّ من الأمن والاستسلام؛ فضلاً عن كونها السند الذي يحمي ظهره، ويؤكّد شرعيته في أداء واجبه.

وبعض هذه الرسائل ما يهتمّ بحياة الأفراد والجماعات في حالات الحروب والفتن والخصـومات، ككـتب الأمان التي تدبّج لتأمين الخائف على نفسه وخواصه، وبعضها تكون لحفظ الأمن وتجنُب الدمار؛ كرسائل الهدن بين الدولة ومناوئيها.

المبايعات:

تُعدُ رسائل المبايعات من الكتب ذات الحضور البارز في أذهان الخاصّة والعامّة حـال تنصـيب الخليفة الجديد، وقد أخذت هذه الرسائل أهميتها من القضية الدينيّة التي تمـسّ العقيدة الكامنة في نفس كل فرد من المسلمين، لذا كانت المبايعة من أهم ركائز الحكم الإسلامي في عصر الخلفاء الراشدين، والعصور التالية له.

والمـبايعة نـوعان: خاصّة *، وتكون بين الخليفة وخاصّته ولا تقوم إلاّ برضى هـؤلاء الأشخاص، ولا تنعقد إلاّ بعد أخذ رأيهم، فإذا اجتمع أهل العقد والحلّ للاختيار تصفّحوا أحوال أهل الإمامة الموجودة فيهم شروطها**، فقدموا للبيعة منهم أكثرهم فضلاً وأكملهم شروطاً[1]، وعامّة***، وهي التي نحن الآن بصددها، فهي من تسميتها توجّه إلى العامّـة؛ ولمّـا كـان من الصعب أن يبايع الخليفة كل العامّة درجت العادة بأن تكتب الرسائل، وتقرأ على مسامع العامّة في المساجد، والأماكن المأهولة بالأفراد حتى يتسنّى للنّاس كافة أن يسمعوا بالبيعة.

---

* البيعة الخاصّة تعني مبايعة أهل الحلّ والعقد للخليفة وإقراره، وهم العلماء والرؤساء وسائر وجوه الناس. انظر القلقشندي: أحمد ابـن علـي (821هـ/1418م): مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستّار أحمد فرج، ط1، 1964، عالم الكتب – بيروت، ج1/ص42.

** شـروط الإمامـة تنحصر في : العدالة والعلم وسلامة الحواس، وسلامة الأعضاء، وصحّة الرأي، والشجاعة، والنسب. انظر المـاوردي: أبـو الحسن علي (450هـ/1058م): الأحكام السلطانيّة والـولايات الدينيّة، دار الكتب العلميّة – بيروت، د.ت، ص6.

(1) انظر المصدر نفسه، ص8.

*** البيعة العامّة: موافقة الأمّة على اختيار الخليفة ومعاهدته على الطّاعة له والانصياع لأوامره. انظر آل محمود؛ أحمد محمود: البيعة في الإسلام (تاريخها وأقسامها بين النظريّة والتطبيق)، دار البيارق – البحرين، ص22.

وتشتمل رسائل المبايعات على عناصر أساسيّة ينبّه الكتّاب على أهميتها، ومراعاة وجودها في كتابة المبايعات؛ كبراعة الاستهلال: من ذكرٍ لاسم الخليفة وألقابه، وأهميّة حاجة الأمّة له دون غيره؛ لاستيعابه لشروط الإمامة التي اجتمعت فيه، ويظهر فيها حصافة العقل عند المختارين لصاحب البيعة من العلماء والرؤساء، ومنبّهاً على قضية الطّاعة والانقياد وتفويض الأُمور إليه جميعها فيما يوافق الأحكام الشرعيّة[1].

وقد حفظت لنا جملة من المصادر التاريخيّة والأدبيّة[2] نصّاً كاملاً لبيعة أحد الخلفاء العباسيين في مصر، وهو الخليفة الحاكم العباسيّ (741هـ) بعد عزل الخليفة الواثق بالله، وكان منشئ هذه المبايعة ابن فضل الله العمري.

وقد تمثّلت الأُسس السابقة في تلك المبايعة، حيث ركّز الكاتب في خطبة الرسالة على أهميّة شرعيّة البيعة، فبدأ تلك الرسالة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يُبَايِعُوْنَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُوْنَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرَاً عَظِيماً﴾ [3].

وهذه الآية الكريمة تبيِّن مدى أهميّة البيعة وشرعيتّها وتوطيد أركانها، فلذا نرى الكاتب يتبع هذه الآية بقضيّة الرضوان والإحسان والطّاعة المطلقة، والرضا التّام من قِبَل الخاصّة والعامّة، فـ "هذه بيعة رضوان وبيعة إحسان وبيعة رضا تشهدها الجماعة ويشهد عليها الرحمن"[4]. فالكاتب يبيّن أهميّة البيعة من خلال رضا العامّة والخاصّة، ويؤكّد كذلك صحّتها وشرعيتها، ويلحّ على مسألة إجماع الأمّة حيث لا منازع لها ولا خصم، فالاتّفاق عليها حاصل بإجماع الأمّة، حيث يشير إلى ذلك بقوله: "أجمع على هذه البيعة أرباب العقد والحلّ وأصحاب الكلام فيما قلّ وجلّ وولاة الأُمور والأحكام وأرباب

(1) انظر القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، 9/276-277.

(2) ينظر المصدر نفسه، 9/3؛ السيوطي، ج2/70-79؛ تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، د.ت، ص491-499؛ حمادة محمد ماهر: الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط2، 1403هـ/1983م، ص95-105.

(3) سورة الفتح، آية 10.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 9/320.

المناصب والحكّام وحملة العلم والأعلام وحُماة السُيوف والأقلام وأكابر بني عبد مناف ومن انخفض قدره وأناف، وسروات قريش ووجوه بني هاشم، والبقية الطاهرة من بني العبّاس وخاصّة الأئمّة وعامّة النّاس"[1].

فالبـــيعة نالت حظّاً وافراً من قبول أصحاب الأمر والنهي في الدّولة، وقد تعدّت ذلـــك إلـــى أن نالـــت قَبول طبقات العامّة. ويمكن أن يجمل القول في هذه المسألة بأنّ مشروعيّة البيعة وقوة مصدرها تكمن في رضا الخاصّة والعامّة عنها، فلذا يؤكّد الكاتب فـــي ثـــنايا مكاتبته ذكر أطياف الخاصّة والعامّة مستهدفاً أولاً أرباب العقد والحلّ: وهم أصحاب البيعة الخاصّة، متبعاً هؤلاء بالعامّة ذاكراً طبقاتهم وأجناسهم ومهنهم، وكل ما يميّـــزهم، محـــاولاً حصرهم، حيث يقول: "ولا باد ولا حاضر، ولا مقيم ولا سائر، ولا أوّل ولا آخر ولا مسرّ في باطن، ولا معلن في ظاهر، ولا عرب ولا عجم، ولا راعي إبـــل ولا غـــنم، ولا صـــاحب أنـــاة ولا إبدار، ولا ساكن في حضر وبادية بدار، ولا صاحـــب عمد ولا جدار"[2].

والمتتـــبّع لهذه المبايعة يجد الكاتب يذكر أطيافاً وأصنافاً من العامّة كثيرة، وهذا الأمـــر يلفـــت النظر إلى أهميّة العامّة في قبول البيعة، والرضا عنها والوثوق بالمبايع، ويجعـــل الكاتب من ذكر هذه الأطياف حجّة بالغة على خاصّة الأُمّة وعامّتها، حيث إنّ ورود ذكـــرهم يعنـــي إقرارهم بالبيعة، ورضاهم عنها وشهادتهم على صحّتها، فبعد أن ســـرد فئات العامّة أردف ذلك بقوله: "حتى آمن بهذه البيعة، وأمّن عليها، ومنّ الله عليه وهـــداه إلـــيها، وأقـــرّ بها وصدّق، وغضّ لها بصره خاشعاً وأطرق ومدّ يده بالمبايعة ومعـــتقده بالمتابعة، رضي بها وارتضاها، وأجاز حكمها على نفسه وأمضاها، ودخلت تحت طاعتها وعمل بمقتضاها"[3].

(1) المصدر السابق، 321/9.
(2) المصدر نفسه، 322/9.
(3) المصدر نفسه، 322/9.

أمّـا الأمــر الثاني الذي يلتفت إليه كاتب المبايعة بالاهتمام فهو ذكر اسم الخليفة المــبايع وألقابه، والإتيان بالصّفات التي تليق بالمقام، والتي تنسجم مع براعة الاستهلال التي نبّه القلقشندي عليها عند ذكر ما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة البيعة(1).

فالكاتب يحمد الله على تنصيب الحاكم ليحكم بين العباد بالعدل، فيقول: "والحمد لله الذي نصّب الحاكم ليحكم بين عباده، وهو أحكم الحاكمين، والحمد لله الذي أخذ حقّ آل بيت نبيّه من أيدي الظالمين والحمد لله ربّ العالمين ثمّ الحمد لله رب العالمين"(2).

ويسهب الكاتب في تعداد خصاله الحميدة، من عراقة نسبه وعلوّ مكانته، وقداسة ســريرته: فـــ "لم يكن في النسب العباسيّ ولا في جميع ما في الوجود، لا في البيت المسترشــدي، ولا في غيره من بيوت الخلفاء بقاياهم جدود، ولا من تلده أخرى الليالي وهــي عاقــر غير ولود من تسلّم إليه أمّة محمّد ﷺعقد نيّاتها، وسرّ طويّاتها إلاّ واحد، وأين ذلك الواحد؟"(3).

فالخلــيفة المــبايع فرد لا ندّ له في زمانه؛ ولذلك لم يكن غيره مؤهّلاً لأن يسدّ مكانه، فاختياره للمبايعة ناجم عن حاجة الأمّة إليه، وقد جاء إجماع الأمّة نتيجة للقناعة التي تولّدت عندهم بأنّ غيره لا يملك شروط الإمامة التي اجتمعت فيه دون سواه، فيرى الكاتــب أنّه "فرد الأيّام، وواحدٌ وهكذا في الوجود الإمام، وإنّه الحائز لما زُرِّرت عليه جيوب المشارق والمغارب، والفائز بملك ما بين الشارق والغارب المجتمع فيه شروط الإمامة"(4).

وبعد سرد صفاته التي ندر وجودها عند غيره استحقّ التقدمة على أبناء خاصّته، فيذكــر الكاتب ألقابه تلميحاً من خلال عبارات مدحه فيقول في حقّه: "والذي ما ارتقى صــهوة المنبــر بحضرة سلطان زمانه إلاّ قال ناصره وقام قائمه، ولا قعد على سرير

(1) المصدر السابق، 276/9.
(2) المصدر نفسه، 323/9-324.
(3) المصدر نفسه، 323/9.
(4) المصدر نفسه، 323/9-324.

الخلافة إلاّ وعرف بأنّه ما خاب مستكفيه ولا غاب حاكمه، نائب الله في أرضه، والقائم بمقـام رسـول الله ﷺ وخليفـته وابن عمّه وتابع عمله الصالح ووارث علمه، سيدنا ومولانا عبد الله ووليه أحمد أبو العبّاس الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين"(1).

ويؤكّد الكاتب صفاته التي توارثها عن بيت النبوّة، والتي لم تنبغ لأحد غيره؛ ولذا فهـو حـاكم بأمر الله، ونائبه في أرضه، وقائم بمقام رسول الله ﷺ وخليفته، ووارث علمـه، وبعد سرد تلك الخصال يفصّل الكاتب في ذكر الأعمال التي تعينه على خلافة الأرض ونصرة الأمّة، وعزّة الدّين ونشر العدل بين الرعيّة، فقد: "أيّد الله تعالى ببقائـه الدّين، وطوّق بسيفه رقاب الملحدين، وكبت تحت لوائه المعتدين، وكتب له النصر يوم الدّين، وكفّ بجهاده طوائف المفسدين ونصر أنصاره، وقدّر اقتداره، وأسكن في قلوب الرعيّة سكينته ووقاره، ومكّن له في الوجود وجمع له أقطاره"(2).

ويرمـي الكاتب من وراء ذكر خصاله إلى أهداف كثيرة أهمّها استحقاقه للتقدمة علـى من سواه، وجلب رضا الخاصّة من أصحاب الرأي والمشورة، وطمأنة نفوسهم، وقبولهم لأحكامه التي خوّلتها له سلطته الدينيّة، كما يطمح الكاتب إلى إرضاء الجمهور عـن المبايع، من خلال سرد تلك الصفات التي حصرها الكاتب في شخصه، فالخاصّة والعامّـة أمام هذا الرجل المتميّز سواء، فقد بهرتهم تلك الشخصيّة المتمثّلة في الرسالة، ولهـذا أصبحت قلوبهم مطمئنة وجوارحهم ساكنة لسيادة عدله في رعيّته، وإنصافه في أحكامه ونصرته لخاصّته وعامّته. فالكاتب جعل منه شخصيّة نموذجيّة يندر وجودها في عالم الأفراد، وهذا الأمر يحتمل وجوهاً من التأويل والتفسير، فالمبالغة هنا لا يمكن أن نحملها على إظهار براعة الكاتب بل تتعدّى ذلك إلى الحالة التي وصل إليها الخلفاء في مصـر مـن سـلب سلطتهم من قِبَل السلاطين الّذين استبدّوا بالمُلْك، فالقارئ للرسالة والمطّلع على سياسة السلاطين مع الخلفاء يشعر بأنّه أمام أُضحوكة يصعب تعليلها.

---

(1) المصدر السابق، 324/9.

(2) المصدر نفسه، 324/9

وممّـــا يزيد في خيوط تلك الأُضحوكة ذكر السبب الموجب لتلك البيعة، فقد ترك مـــوت الخليفة سليمان أبي الربيع الإمام المستكفي بالله أمير المؤمنين فراغاً وأثراً بالغاً، وثغـرة لا تســدّ ولا بــدّ من استدراك الأُمور، وتنصيب خليفة يمسك ما بقي من آثار الخلافـــة ولا بدّ لنا من الإشارة عن إعراض الكاتب عن ذكر سبب عزل الخليفة الواثق بـــالله وإغفال دوره، وتجاهل فترة خلافته وجعل موت سليمان المستكفي السابق للواثق فـــي الحكم سبباً موجباً لمبايعة الحاكم بأمر الله. فقد "خلا العصر من إمام يمسك ما بقي مـــن نهـــاره، وخلـــيفة يغالب مربد الليل بأنواره، ووارث نبي بمثله ومثل أبيه استغنى الوجود بعد ابن عمّه خاتم الأنبياء ﷺ"[1].

ويشير الكاتب إلى قضيّة لها الحضور البارز في أُمور الخلافة، وهي مسألة العهد الـــذي يعهـــد فيه الخليفة السابق إلى الخليفة اللاحق، ويرى ابن فضل الله العمريّ وهو كاتب الرسالة أنّ البيعة تكون واجبة إذا لم يعهد الخليفة لمن بعده وذلك ظاهر من خلال قـــولـــه: "فأمّا من قام من الخلفاء بغير عهد ممّن تقدّم فإنّما يكتب له مبايعة"[2]، وحينئذ يصبح من المحتّم أخذ البيعة بالإجماع، ويشير إلى ذلك قوله: "ونسي ولم يعهد، فلم يبقَ إذ لـــم يـــوجد الـــنصّ إلاّ الإجماع، وعليه كانت الخلافة بعد رسول الله ﷺ بلا نزاع، اقتضـــت المصـــلحة الجامعـــة عقـــد مجلس كل طرف به معقود، وعقد بيعة عليها الله والملائكة شهود"[3].

واللافـــت للنظـــر أنّ الكاتـــب أخذ كثيراً من العهود، والذمم على المبايعين حتى يُلزِمهم بالوفاء، فليس من الأمر اليسير الإخلال بتلك البيعة، فقد تحوَّط الكاتب بعبارات كثيـــرة ملـــزمة لا يستطيع الشخص أن ينسلخ منها، وهذه الصيغ مرتبطة بعقيدة الفرد؛ ولـــذلك لا يجد المرء بدّاً من التمسُّك بتلك البيعة الكاملة غير منقوصة، وهذا يتجلّى من

(1) المصدر السابق، 325/9.

(2) العمـــري، أحمد بن يحيى (749هـ/1348م): التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق ودراسة سمير الدروبي، منشورات جامعة مؤتة، ط1، 1413هـ/1993م، ص112.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، 325/9.

*

خـــلال قـــولـــه: "وجمـــع النّاس له ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُوْدٌ ﴾

فحضـــر مـــن لـــم يعبأ بعده بمن تخلّف، ولم يربأ معه وقد مدّ يده طائعاً بمن مدّها وقد تكلّف، واجتمعوا على رأي واحد، واستخاروا الله تعالى فيه فخار ... حتى تقلّد كل من حضر في عنقه هذه الأمانة، وحطّ يده على المصحف الكريم، وحلف بالله العظيم، وأتمّ إيمانه ..."[1]، وقد أسهب الكاتب في العبارات الملزمة بحقّ الوفاء فلم يترك عذراً لفرد يحول دون إعطاء البيعة.

ويحـــرص الكاتـــب على أنّ هذه البيعة جاءت عن رضا واستخارة، وليس فيها إجـــبار وتســـلّط، وعليه فإنّ شروطها تامّة على عادة غيرها من البيعات، ويظهر ذلك بوضوح من قوله: "وقد نوى كلٌ من حلف أنّ النيّة نيّة من عقدت هذه البيعة له ونيّة من حلـــف لـــه وتـــذمّم بالوفاء في ذمّته وتكفّله على عادة أيمان البيعة بشروطها وأحكامها المردّدة، وأقسامها المؤكّدة"[2].

وبعد وثوقه من وجوب الطاعة والأخذ بأحكام هذه البيعة والتسليم لشروطها، أخذ الكاتب يبيّن مهام أمير المؤمنين كما تقتضيها المصلحة العامّة، فيبدأ بإقرار كل والٍ على ولايـــته وحاله ويشرع في بيان أولئك الولاة من الكبير إلى الصغير حتى يتبيّن الصالح فيقـــرّه والطـــالح فيقيله، كما يصدر أوامره بأن يلهج الخطباء بذكره وذكر سلطانه على مخـــتلف المنابر وهذه القضية تعيدنا إلى أُضحوكة ترسيمه حيث الأمر والنهي والكلمة القاطعة للسلطان، ويأمر بأن يضرب اسمه على النقود؛ والخطباء والنقود في ذلك الزمن لســـان الأمّة، فالخطباء ناطقو إعلام والنقود تدخل جيوب الكبير والصغير، فالغاية من تلك المهمّة نشر الذكر.

---

* سورة هود: آية 103.

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، 325/9.

(2) المصدر نفسه، 325/9.

ويعلّــل الكاتــب الجمع بين الذهب والخطب بأنّ "معناهما واحد وبهما يذكر الله قــيماء المســاجد، ولــولا الأعمال ما بذلت الأموال، ولولا الأموال ما ولّيت الأعمال، ولأجــل مــا بيــنهما من هذه النسبة قيل إنّ الملك له السّكّة والخطبة، وقد أسمع أمير المؤمنين في هذا الجمع المشهود ما يتناقله كل خطيب ويتداوله كل بعيد وقريب"[1].

ومن المهام التي يوليها الخليفة الجديد اهتماماً خاصّاً إقامة فروض الحجّ والجهاد، ونشر العدل بين الأنام، وقد أكّد بالجملة والتفصيل فريضة الجهاد "وقد قدّم الوصيّة بأن يوالــي غــزو العــدو المخــذول بــرّاً وبحــراً، ولا يكفّ عمّن يظفر به منهم قتــلاً وأســراً..."[2]. وقد تكفّل برعاية الممالك والقلاع والحصون والثغور، ونبّه على توفير مــا يحــتاجه الجند من الآلات فهو "يحمي الممالك ممّن يحوز أطرافها بإقدام، ويتخوّل أكــنافها الأقدام وينظر في مصالح القلاع والحصون والثغور، وما يحتاج إليه من آلات القتال ..."[3].

ويهــدف من وراء بيان سياسة الخليفة إلى نيل ثقة النّاس وطمأنتهم على أنفسهم وأمــوالهم وأوطــانهم وأعراضهم ومراتبهم، حيث أقرَّ كل والٍ على ولايته وإقطاعه، وتكفّل برفع راية الجهاد لحماية الأوطان والأعراض والأموال، وضمن لهم إقامة موسم الحجّ والحرص على سلامة الحجيج.

ويخــتم الكاتــب المــبايعة بإلزام الخاصّة والعامّة بها، بعد أن كشف عن سياسة الخليفة في اتّباع الشرع وأداء الأمانة، فالكلّ عنده وديعة على اختلاف مقاديرهم، وبعد ذلك رسم الكاتب واجبات الرعية تجاه الخليفة، فله عليهم أداء النصيحة، وإبداء الطّاعة بسريرة صحيحة.

---

(1) المصدر السابق، 328/9.

(2) المصدر نفسه، 329/9.

(3) المصدر نفسه، 330/9.

العهود:

تُعــدُ رســائل العهــود من أكثر الرسائل السياسيّة انتشاراً لما لها من ذُيوع في الأوساط الحاكمة، حيث جبلت النفوس على حبّ المُلْك والسيادة، وبقاء الذكر والسمعة؛ ولذا كثر من يكتب العهد لابنه أو أحد خواصّه المقرّبين، والعهد يقصد به الوصية، ومنه قوله تعالى: : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ﴾[1]، فالخليفة أو السلطان عندما ينشئ هــذه الرقعة، يقصد من ورائها الوصيّة لمن ارتضى ورأى فيه قرّة عينه، وسلو همّه، وبقاء ذكره، وصون مُلْكِه.

ورســالة العهــد لا تتــباين كثيراً عن سابقتها رسالة المبايعة، حيث تتضمّن من الأفكار والمضامين ما تتضمنه رسالة المبايعة، إلاّ أنّ هناك خصوصيّات تتماز بها كُلُّ مــنهما عــن الأُخرى، والعهد يكون مصدره الخليفة أو السلطان قبل موته؛ ولذلك يمثّل قــراره سنداً قويّاً للمعهود له، وذريعة لا يمكن التحايل عليها والخلاص منها، والإفلات مــن ســلطانها. فهو يقوم على مبدأ توريث الخلافة أو السلطنة، حيث يعهد الخليفة أو الســلطان إلــى ابــنه أو أخيه أو أحد أقربائه، وفي هذا الأمر يتمثّل التمسّك بالمنصب والاستئثار به والتشبّث بأسبابه.

ورسالة العهد سواء أكانت صادرة عن خليفة أم سلطان تتضمّن أفكاراً ومضامين مــتوارثة، وتتمثّل هذه المضامين في تعظيم شأن الخلافة أو السلطنة، وحاجة الأمّة إلى من يسوسها، وتزكية من عهد له بالخلافة أو السلطنة، وبيان خصاله الحميدة، والإكثار مــن عبارات المدح والثناء، وتوضّح سياسته في إقامة العدل بين الرعية، وحماية الدّين والدنــيا، وحمــل رايــة الجهــاد، وتنبــيه الأمّة على وجوب السمع والطاقة، وإعطاء النصيحــة.

---

(1) سورة طه، آية 115.

وقــبل أن نبدأ بدراسة بعض هذه الرسائل لا بُدّ من الإشارة إلى أنّ هناك خلطاً واضــحاً بــين العهد والتقليد، حيث تُعَنْوَن بعض العهود بالتقاليد، علماً أنّ العمريّ في كتابه التعريف بالمصطلح الشريف قد فرّق بينهما حين قال: "فمنها عهود ولا تكون إلاّ للخلفــاء عــن الخلفــاء أو للملوك ولا تكون إلاّ عن الخلفاء أو الملوك"(1). وسوف يرد مفهــوم التقليد في مكانه من الدراسة، وقد نبّه سابقاً محمود رزق سليم إلى ذلك الخلط، ونســبه إلـــى المؤرّخين الذين لم يتحرّوا الدقّة تماماً في تسمية كل نوع باسمه، وسمّوا أحــدهما باسم الآخر(2). ومهما يكن من أمر، فإنّ هذه المسمّيات تحمل خصوصيّة تتبع من الوظيفة التي تحملها كل رسالة، فالبناء الداخلي كفيل بالتفريق بينها.

وقــد تعدّدت رسائل العهود في ذلك العصر لتعدّد دواعيها، ومن تلك العهود عهد الخليفة الحاكم بأمر الله لابنه المستكفي سنة (701هــ/1301م)، زمن السلطان المنصور لاجــين، وقد بدأه الكاتب بالحمد والثناء والشكر على النعمة التي خوّلت إلى وليّ العهد الجديــد، ونــبّه فيه على شرف الخلافة، ومكانة قريش في زعامة الأمّة الإسلاميّة، وقد حــرص الكاتــب على اصطياد عبارات الاستهلال الحسنة المناسبة للحدث حيث قال: "الحمــد لله الــذي رفع المستكفي به لما انتصب بشرف همّته للمحل الأسمى ... وأدام الأئمة في قريش ... وجعل النّاس تبعاً لهم في هذا الأمر، فغيرهم بالخلافة المعظّمة لا يرعى ولا يسمى"(3).

وجعــل الكاتب الأهميّة للنسب الشريف حيث الخلافة محصورة في قريش، ولذا كــان لــزاماً علـــى الخلــيفة أن يعهد لابنه بالخلافة حتّى تبقى الخلافة في قريش ولا تــتجاوزها إلـــى غيــرها، فالمسوّغ الشرعي حاجة الأمّة إلى خليفة من قريش "فغيرهم

(1) العمريّ: التعريف بالمصطلح الشريف، ص112.

(2) انظــر ســليم: محمــود رزق: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب بالجماميز، المطبعة النموذجية، 1374هــ/1955م، مجلد 5، ق1، جزء 3، ص133.

(3) السيوطي: حسن المحاضرة، 63/2.

بالخلافــة المعظّمة لا يُدعى ولا يسمى"[1]، ويؤكّد كاتب العهد قضية شرعيّة تظهر من خــلال قــوله: "استودع الخلافة في بني العبّاس الذي كان لنبيِّه الكريم عمّاً، وفرّج عنه بلـيلة العقــبة بمبايعة الأنصار كربة وغمّاً، فبشّره بأنّ الخلافة في عقبه فعمّه السُّرور عمّــاً"[2]. ولمّا كانت الخلافة محصورة في قريش آلت إلى وليّ العهد حفاظاً على تلك الخصوصيّة "فلمّا انتهى ذلك السرّ في العوالم إلى الحاكم، قيل وقد أمسكت هيبة الخلافة علــى معــرفة حقــوقها العظيمة من كل عظيم فماً ﴿فَفَهمنَاهَا سُلَيْمَان وَكلاً آتَيْنَا حُكْمَاً وعِلْمَـــاً﴾[3] "[4]، ويجعل الكاتب من مسوّغات الخلافة في قريش ذلك السرّ الذي ينتقل فــي أصــلاب قريش، ولا يكون في النّاس مثله، وهذا السرّ يؤهّلهم إلى سياسة النّاس وتولــية أمــرهم، وإقامة حكم الله فيهم، ولا أكون مجانباً للحقيقة إذا ما قرنت ذلك السرّ بالحقيقة المحمّدية التي تؤمن بها بعض الفرق الإسلاميّة*.

ويلــحّ الكاتب على قضيّة الطاعة والامتثال والتسليم لأمر ذلك الخليفة، حيث إنّ طاعــته واجــبة محتّمة، وتتجلّى تلك الحقيقة من خلال قوله: "فإنّ الملك السلام منذ أن أســجد لآدم ملائكــته الكِرام في سالف الزمان، جعل طاعة خلفائه في بلاده على سائر عــباده حــتماً"[5]، ويعلّــل هذه الطّاعة بالوظيفة التي يرعاها الخلفاء في البلاد والعباد ((كــيف لا؟ وبهم يعمر الوجود وتقام الحدود وتهدم أركان الجحود هدماً، فبحياتهم تأمن البـــلاد"[6].

---

(1) المصدر السابق، 63/2.

(2) السيوطي: حسن المحاضرة، 63/2.

(3) سورة الأنبياء، آية 79.

(4) السيوطي: حسن المحاضرة، 63/2.

* حقــيقة النّور المحمّديّ تعني أنّ النور الذي خلقه الله قبل خلق البشر ما زال يتنقّل من ناطق إلى ناطق إلى وصي حتى اتّصل بالإمــام. انظر المؤيّد في الدّين داعي الدعاة (470هـ/1077م): الديوان، تقديم وتحقيق محمد كامل حسين، ط1، 1949، دار الكتاب المصري، ص152.

وجــاء في المجالس المؤيّدية: ((نحن نور من نور الله وشيعتنا منّا)). المؤيّد في الدين داعي الدعاة: المجالس المؤيّدية، تحقيق وتقديم مصطفى غالب، 1974، دار الأندلس للطباعة والنشر – بيروت، ص147.

(5) السيوطي: حسن المحاضرة، 63/2.

(6) المصدر السابق، 63/2.

ومـن شـروط صـحّة تلـك الرسائل إشهاد الخليفة على نفسه واتّخاذ المواثيق الغلـيظة، ويذكـر اسمه وألقابه حتى يأخذ العهد شرعيّته ويستمدّ من ذلك قوّة سلطانه ونفـوذه "ولمّا كان سنة من تقدم من الأئمة الخلفاء-إذا خاف أن يهجم الحمام هجماً ... تفويض الأمر بولاية العهد على الخلف لخير ذويه وبنيه نجدة وحزماً، أشهد على نفسه الشريفة مولانا الإمام الحاكم-والحاكم عليه تقواه- المراقب لله في سرّه ونجواه ... وهو في حالة يسوّغ معها الشهادة عليه، ويرجع في الأمور المنوطة للخلافة الشريفة إليه، أنّه عهد إلى ولده لصلبه الإمام المستكفي بالله أبي الربيع سليمان"[1].

ومن الرسوم الهامّة في العهد، تركيز الكاتب على ذكر تزكية الخليفة ولي العهد، حيث يُكْثِر الخليفة من ذكر خصال الفضيلة المتمثّلة في شخص وليّ العهد، والتي بسببها نـال رتـبة الخلافة، وتتمثّل هذه الخصال في "أهليته، وعدالته وكفالته وصلاحه لذلك، وكفايـته وشخصـه لشـهود هذا المكتوب الشريف"[2]. فوليّ العهد أهلٌ لأن يرقى في مـراتب الخلافة نظراً لأهليته إلى تلك الرتبة، فاختياره لم يكن عبثاً من بين أقرانه، بل كان نتيجة لخصال رآها الخليفة فيه أهّلته لأن يعهد إليه بالخلافة، وقد اطمأنّ الخليفة إلى كفاية وليّ عهده ولموالته، وإقامة حكم الله وشرعه في رعيّته، ونشر عدله بين خاصّته وعامّته، وجاء في عهد الخليفة المعتضد إلى ولده المتوكّل بالخلافة سنة 763هـ أنّ من لـوازم الخلافـة "أن لا يؤتى تقليدها إلاّ من اتّصف بصفاتها المرضية، وتحلّى بحلاها المـرعية، ورقـى بجميل سيرته إلى مراتبها العليّة"[3]. وقد تحلّى ذلك المعهود له بتلك الصفات التي تؤهّله لأن يرتقي في سلّم الخلافة، وقد حقّق شرطها ووافق لوازمها التي لا تنبغي لأحدٍ غيره "وهو حقيق بها لا محاله، وجدير بها يبلغه حسن الظنّ منها آماله، إذ كـان متّصـفاً بصفاتها الحميدة مقتدياً بآرائها السديدة"[4]. وهذه الخصال تظهر على

---

(1) المصدر السابق، 2/63-64.

(2) المصدر نفسه، 2/64.

(3) المصدر نفسه، 2/82.

(4) المصدر نفسه، 2/82.

المعهود له لتميّزه عن غيره من أبناء عترته، وتمكّن الخليفة من اختياره لهذا المنصب، فالخلافــة لها صفات مخصوصة يُخص بها الفرد دون غيره، ولا يلحظها إلاّ من ارتقى سـلّمها "وقـد لاحت عليه آثار الخلافة، وظهرت وذاعت محامده واشتهرت، وقد قامت الأدلّة بأهليته لتقليدها، وأنّه كفء لتناول طريفها وتالدها"[1].

ولا بُدَّ للخليفة أن يبيّن أنّ اختياره لولي عهده لم يكن عشوائياً، بل كان فيه رويّة وحـزم واستخارة لله سبحانه وتعالى؛ لأنّ منصب الخلافة "أشرف ملابس أهل الديانة، وأزهى حلل الصيانة، وهي أصل كل سيادة يتوصّل إليها، ورياسة جلّ الاعتماد عليها، إذ هي أجلّ المناصب وأنماها، وأشرفها وأرفعها وأسناها وأنفسها وأعلاها وأغلاها"[2]. ولمّـا كانت هذه مزايا الخلافة، فلا بُدَّ من أن يكدَّ الذهن في اختيار من يُناسبها، ويؤدّي حقّ الله فيها؛ ولذا تكون عملية اختيار وليّ العهد غير ميسورة بل تحتاج إلى استخارة.

ولا ينسـى الخلـيفة التنبيه على صحّة العهد نظراً لاستيفائه شروط الإمامة، فقد عهـد إليه "عهداً صحيحاً شرعياً، تامّاً معتبراً مرضياً، وفوّض إليه أمر الخلافة تفويضاً صريحاً وعقد له ولاية العهد على الرعية عقداً صحيحاً"[3]، ولا يغفل الكاتب عن شروط صـحّة العقد الذي لا يتمّ إلاّ بقبول الطرف المعهود إليه، فقد "قَبِلَ ذلك قبولاً شرعيّاً"[4]، وقـد ختم الخليفة الحاكم عهده لابنه المستكفي بالشهود "وشهد عليه بذلك أربعة شهود، ورسموا خطوطهم تحت نسخة العهد بما نصّه: أشهدني مولانا الإمام جامع كلمة الإيمان ... وهـو علـى الحالـة التي يسوّغ معها تحمّل الشهادة عليه ... وشخص إلى مولانا وسـيدنا الإمـام المستكفي بالله"[5]، واكتفى كاتب نصّ عهد المعتضد لابنه بعبارةٍ تفي

---

(1) المصدر السابق، 82/2.

(2) المصدر نفسه، 82/2.

(3) المصدر نفسه، 83/2.

(4) المصدر نفسه، 83/2.

(5) المصدر نفسه، 65/2.

بالغـرض المقصـود، وهـو وجود الشهود دون أن يصرِّح بنصِّ الشهادة، حيث قال: "وصدر الإشهاد بذلك"[1].

ومـن مستلزمات صحّة العهد كذلك التصريح بالتاريخ المعهود فيه لوليّ العهد، فجـاء في عهد المستكفي "وهم يستمعون لذلك في اليوم المبارك من العشر الأخير من جمـادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة، أحسن الله تقضيها في خير وعافية"[2]، بينما جاء فـي عهد المعتضد لابنه المتوكّل: "وصدر الإشهاد بذلك في اليوم المبارك يوم الثلاثاء الثالث عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وستين وسبعمائة"[3].

وبعد الحديث عن عهود الخلفاء لولاة العهد، لا بُدَّ من الحديث عن عهود الخلفاء للسـلاطين، ويكـاد أن يـتطابق عهد الخليفة لولي عهده مع عهد الخليفة للسلطان في الخطـوط العريضة التي ترسم سياسة كلٍّ منهما، إلاّ أنّ هناك أُموراً وفروقات آتية من طبيعة المنصب المراد إشغاله، فالسلطان أو الملك يتطلّب شغل منصبه قضايا خاصّة لا يكلّف بها الخليفة، ومن هنا تأتي خصوصيّة عهد السلطان، فهناك أمورٌ تكون من براعة الاستهلال في ثنايا رقعة العهد، منها التنبيه على شرف السلطنة، وعلوّ رتبتها، ووجوب القـيام بأمـر الرعيّة، وذكر اسم السلطان، وألقابه والإشارة إلى اجتهاد الخليفة وإعمال فكـره فـيمن يقـوم بأمر الرعيّة، وأنّه لا يجد بذلك أحقّ من المعهود إليه، ولا بدّ من الوصيّة بحسب ما يقتضيه الحال[4].

وقـد كثرت عهود السلاطين نظراً لكثرتهم، وحاجة الأمّة إليه، فقد عهد الخليفة المستنصـر بـالله بالسلطنة إلى الملك الظاهر بيبرس سنة (659هـ/1260م) ، وعهد الخلـيفة الحـاكم بتقلـيد قلاوون السلطنة سنة (678هـ/1279م)، وعهد الحاكم كذلك بالسـلطنة إلـى الملك العادل كتبغا سنة (694هـ/1292م)، وعهد كذلك إلى المنصور

(1) المصدر السابق، 83/2.
(2) المصدر نفسه، 67/2.
(3) المصدر نفسه، 83/2.
(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 405/9.

لاجين سنة (696هـ/1296م)، وعهد كذلك إلى الناصر محمد سنة (698هـ/1299م). ومن الجدير بالذكر، أنّ هذه العهود صوريّة في مجملها تملى على الخليفة إملاءً ، وهي كثيرة في هذا الباب[1].

واللافت للنظر في هذه العهود طول الخطبة، حيث يحشد الكاتب من عبارات الحمد والثناء والشكر الجمّ الغفير، ولا أكون مجانباً للحقيقة إذا ما قلت بأنّ عهد السلطنة يستهوي الكاتب، ويعصر فكره، ويشحذ همّته أكثر من عهود الخلفاء، وربّما يعود السبب إلى تقرُّب الكتّاب من السلاطين، حيث السلطنة الفعلية في إدارة الشؤون السياسية والإدارية في أيدي السلاطين دون الخلفاء؛ ولذا نجد الكتّاب تجود قرائحهم في مدح الملوك والسلاطين أكثر من الخلفاء، فكاتب العهد يلهج بمدح السلطان الذي كان له الفضل في إعادة الخلافة العباسيّة بعد أن عفت رسومها "وكيف لا وقد أقام الدعوة العباسيّة بعد أن أقعدتها زمانة الزمان، وأذهبت ما كان لها من محاسن وإحسان، وعتب دهرها المسيء لها فأعتب وأرضى عنها زمنها"[2]، فالفضل يعود للسلطان الظاهر بيبرس في عود الخلافة بعد نكستها (659هـ/1260م)؛ ولذا استحقّ أن يتولّى أمر السلطنة، فالسلطان الظاهر أسدى إلى الخلافة من المكرمات ما أهّله لأن يفوّض إليه أمر السلطنة ((فهذه منقبة أبى الله إلاّ أن يخلّدها في صحيفة صنعه، ومكرمة تضمّنت لهذا البيت الشريف بجمعه بعد أن حصل الأياس من جمعه))[3].

وجاء عهده ذاك جزاء صنيعه مع العباسيّين، فلذا استحقّ أن يعهد له بالحكم في جميع أملاك الخلافة برّاً وبحراً وغوراً ونجداً "وقد قلّدك الديار المصرية والبلاد الشاميّة والديار البكريّة والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدّد من الفتوحات غوراً ونجداً وفوّض أمر جندها ورعاياها إليك حيث أصبحت بالمكارم فرداً"[4].

---

(1) حمادة: الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي، ص114-150.
(2) السيوطي: حسن المحاضرة، 2/54-55.
(3) المصدر السابق، 2/55.
(4) المصدر نفسه، 2/55.

ويشتمل عهد الخليفة للسلطان مضامين أساسيّة من أهمّها الأخذ بنصيحة الخليفة، والامتثال لأوامره، والنصح له في الرعية وإقامة عَلَم الجهاد خافقاً، والحفاظ على حماية الثغور والحصون ونشر العدل بين الرعية والنصح لها، فمن أهم أعمال السلطان التي وكّل بها رفع المظالم، ومحي سيئ السنن، ونشر العدل، وإنصاف وإغاثة الملهوف، وحفظ حقوق الرعية والنصح لها، وسياسة الخَلْق بالأناة والرفق والحلم[1].

والمحور الأساسي الآخر في رسالة العهد، التأكيد على شرف الجهاد ودور السلطان في رفع رايته "فقد تقدّمت لك في الجهاد يدٌ بيضاء ... وبكَ صان الله حمى الإسلام عن أن يبتذل، وبعزمك حفظ على المسلمين نظام هذه الدولة"[2]. ومن عهد بسلطنة قلاوون "وجيوش الإسلام وكماته وأمراؤه وحماته، فمنهم من قد علمت قدم هجرته، وعظم نصرته، وشدّة بأسه وقوة مراسه ... والحصون والثغور فهي ذخائر الشدّة وخزائن العديد والعدّة"[3].

ومن المحاور الأساسيّة كذلك التنبيه على اختيار الولاة والحكّام الذين يتوسّم فيهم الخير والصلاح، ويرشدهم إلى "مخالفة الهوى إذا ظهرت أدلّة الحقّ، وأن يقابلوا الضعفاء في حوائجهم بالثغر الباسم والوجه الطلق"[4]. ومن عهد سلطنة قلاوون "ونوّاب الملك ونوّاب الأمصار فأحسن لهم الاختيار، وأجمل لهم الاختبار، وتفقّد لهم الأخبار"[5].

وهذه المحاور تكشف لنا عن سياسة السلاطين المماليك في حكمهم للبلاد، كما تكشف كذلك عن سياستهم الخارجيّة المتمثّلة في التوسّع والفتوحات واسترداد معاقل المسلمين من الصليبيين والتتار.

---

(1) انظر: المصدر السابق، 56/2.
(2) المصدر نفسه، 57/2.
(3) المصدر نفسه، 109/2.
(4) المصدر نفسه، 56/2.
(5) المصدر نفسه، 110/2.

ولا يفـوت الكاتـب في رسالة العهد أن يذكر خصال الخليفة من بُعْد للنظر، فلا يخـتار سلطاناً إلاّ بعد امتحان فكره، وشحذ ذهنه، فجاء في عهد الخليفة الحاكم العادل كتـبغا "وعصـم آراءه ببركة آبائه من الخلل، وجعل سهم اجتهاده هو المصيب أبداً في القول والعمل"[1].

ومن عهد آخر له في حقّ المنصور لاجين "وأنّ أمير المؤمنين لما اختصّه الله به مـن البـرّ المودع في قلبه، والنُّور الذي أصبح فيه على بينة ربّه، والتأييد المنتقل إليه عمّن شرف بقربه، والنصّ الذي أسرّه رسول الله ﷺ إلى جدّه العبّاس من بقاء هذا الأمر فـي ورثـته دون أقاربـه وصحبه"[2]، ومن هنا نلحظ إطراء الخليفة من جانب نسبه الشريف، وإنّ خصاله تلك لم تؤت لأحدٍ غيره، بل استأثر بها دون سواه، فهذه السمات تنقّلت في الأصلاب حتى حلّت فيه، ومنحته بُعْد النظر وإصابة الحقيقة.

ويمكن أن يلحظ قارئ هذه العهود أنّ الوصايا فيها أكثر من وصايا الخلفاء لولاة عهـودهم، كمـا يشهد الخليفة على نفسه عند منحه لولي عهده، ويفعل الأمر ذاته عند مـنحه العهد للسلطان، ويظهر ذلك جليّاً في العهود السابقة، فمن عهد الحاكم للمنصور لاجـين "وأشهد الله وملائكته ومن حضره من المؤمنين على نفسه بما تضمّنه هذا العهد الكـريم، وحكـم علـى الأمّـة بمقتضاه ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فإنَّمَا إثْمهُ على الَّذيْنَ يُبَدِّلُوْنَـهُ إنَّ اللهَ سَمِيْعٌ عَلِيْم﴾[3] "[4].

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 48/10.
(2) المصدر نفسه، 55/10.
(3) سورة البقرة، آية 181.
(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 58/10.

الأمانات:

تُعـدُ رسائل الأمان من المكاتبات الشائعة في أغلب العصور لحاجة النّاس إليها أفـراداً وجماعـات، ويكثـر تداولها في الحروب والنزاعات والفتن لِمَا فيها من بعث الأمـن والطمأنينة والسكينة، وحفظ النُفوس.

ورسـائل الأمان توجّه للمسلم ولغير المسلم، ولكن يشترط أن تكون صادرة عن مسـلم "فالعاقـد للأمان من المسلمين"[1]، ويجب فيها كذلك قبول المؤمَّن، وأن لا يشكِّل عقدها ضرراً للمسلمين[2].

والأمان قد يكون من فرد إلى فرد، وقد يكون لجماعة كأهل مدينة أو بلد، وربَّما مُـنِحَ الأمـان مـن غيـر طلب من المؤمَّن، وقد يكون بطلب مسبق من الراغب في الأمان[3]، وفي الأمرين كليهما تكون المصلحة في منحه أو عدم منحه بتقدير من المانح سواء بطلب أو بدون طلب، وأن لا تتجاوز مدّته السّنة الواحدة بخلاف الهدنة[4].

ويتعهّد مانح الأمان بحفظ النُفوس والأموال، وكافةِ تبعات المؤمَّن، وتأمينهم على أنفسـهم وأهليهم، وسائر أملاكهم[5]، ولمّا كانت كتب الأمان تحمي الأفراد والجماعات مـن غوائل الدهر وتمنحهم لذّة التمتّع بالحياة بعد شموسها، فإنَّ كاتبها يعيد النظر فيها مـرّة بعد أخرى، متفحّصاً كل عبارة شُكِّل منها ذلك الأمان؛ لأنّ أمن ذلك الفرد يتوقّف على صياغة عباراته، وقد ذاع في الأفاق ذكر الأمان الذي منحه المنصور لعمّه عبد الله بن علي بسبب تشدّد ابن المقفّع في صياغة عباراته.

---

(1) المصدر السابق، 322/13.

(2) انظر المصدر نفسه، 322/13.

(3) انظـر بـيوض، حسين: الرسائل السياسية في العصر العبّاسي الأول، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، 1996، ص101.

(4) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 322/13-323.

(5) الدروبـي، محمـد محمود: الرسائل الفنيّة في العصر العبّاسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، دار الفكـر للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 1420هـ/1999م، ص47.

وقد كثرت هذه الرسائل في العصر المملوكي، واقتضت جملة من الظروف رواجها فمنحت للمسلمين وغيرهم، ولذا تعارف كتّاب ديوان الإنشاء على صيغ مخصوصة تكتب بها تلك الرسائل مع ترك الحريّة الفرديّة تأخذ مجراها على حسب طاقة الكاتب وقدرته الفنيّة المميّزة له عن غيره.

وكتب الأمان في العصر المملوكي على ضربين: أولهما ما يخصّ غير المسلمين، ومن هذه الأمانات ما منحه السلطان محمد بن قلاوون لأحد ملوك النصارى وزوجته، ومن معهما من الأتباع لزيارة القدس، وقد كتبه عنه الشهاب محمود الحلبي، والنّاظر في ذلك الأمان تتجلّى له أبعادٌ كثيرة هدف الكاتب إليها، وتتمثّل هذه الأبعاد في إظهار عزّة دولة المماليك، وعلوّ شأنها وسلطانها، وقوّة شوكتها، ويظهر ذلك من خلال مقدّمة الأمان حيث أغدق الكاتب عبارات المدح والثناء والتعظيم والتبجيل لسلطان تلك الدولة، فهي تمنح الأمان لما لها من عزّة ومهابة ورهبة، فجاء في مقدّمة الأمان: "أمّا بعد: حمدٌ لله الذي أمّن بمهابتنا المناهج والمسالك ومكّن لكلمتنا الطّاعة في الأقطار والآفاق والممالك، وأعان على لساننا بدعوة الحقّ التي تقي كل كرب حاكٍ، وتكفي كل كرب حالك"(1).

ويشير الكاتب كذلك إلى حريّة السلطان في منح الأمان أو منعه –حيث جعلت أماكن حجّ النصارى في الممالك الشّاميّة سيفاً بيد السلاطين يسلطونها على رقاب النصارى من خارج دولتهم– فهذا الأمان أعطي لذلك الملك بعد تضرّع ورجاء واعتراف مطلق بسيادة المماليك على تلك المدينة المقدّسة "فليس آملٌ عن أبواب سماحنا بمردود، ولا متوسّل إلينا بضراعة إلاّ ويرجع بالمرام ويعود"(2) ، وهو هنا أي الكاتب يجد فرصة في مدح أخلاق سلاطين المماليك من حفظهم للذمم وحمايتهم للحقوق،

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 327/13.

(2) المصدر السابق، 327/13.

ويقتضـــي منح الأمان أن يؤمَّن صاحبه وما يتبع له من أهل وخواص وأموال؛ ولـــذا جاء فيه "وأن يمكَّن من الحضور هو وزوجته ومن معهما من أتباعهما إلى زيارة القـــدس الشريف، وإزالة الأعراض عنهم وإكرامهم ورعايتهم، واستصحاب العناية بهم إلى أن يعودوا إلى بلادهم آمنين على أنفسهم وأموالهم"[1].

كمـــا أنّ النّاصـــر محمد بن قلاوون منح أماناً لرعايا البندقيّة، فجاء في الأمان "ويمكنهم الحضور إلى ممتلكاته في أمن تام لأشخاصهم وأموالهم، وأنّه إذا أراد البنادقة أن يـــزوروا قبـــر السيِّد المسيح فإنّه يزوّدهم بحرس يرافقهم يذهبون ويعودون معه في أمـــان، وإذا كـــان منهم من يريد الاستقرار في إقليمه؛ فإنّه يكفل له الحماية والمعاملة الكريمة"[2].

وعـــند الانتقال إلى الشقّ الآخر من كُتب الأمان؛ وهي الممنوحة للمسلمين، نجد العـــبارات تأخذ منحى آخر، وتظهر رسوم الأمان بوضوح، وتتجلّى فيه حاجة المؤمَّن للأمـــان، حتـــى ليظهـــر أنّ القســـم السابق –الموجّه لأهل الكفر– رسائل جلب منفعة وإغـــراء بـــزيارة بـــلاد المســـلمين، بينما يشعر القارئ بحقيقة الأمان عندما يتصفّح الأمانـــين اللذين وجّه أولهما إلى أمير مكّة أسد الدين رميثة[3]* سنة (731هـ/1330م) من السلطان النّاصر محمد بن قلاوون، فذلك الأمان مطابق لرسائل الأمان التي درجت فـــي العصور السابقة، من اتّخاذ ديباجة شكليّة خاصّة ممّا حدا بالقلقشندي أن يقول في حقّه "هذا الأمان إنشاء مبتكر مطابق للواقع، وهكذا يجب أن يكون كل أمان يكتب"[4].

---

(1) المصدر السابق، 328/13.

(2) ف. هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج2، ص271.

(3) انظـــر ابـــن الوردي، عمر بن المظفّر (749هـ/1348م): تاريخ ابن الوردي، ط1، 1417هـ/1996م)، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2، ص286.

* رميـــثة بـــن أبي نمي الشريف أسد الدين الحسني أمير مكّة، ولّي مكة نحو ثلاثين سنة كان في بعض تلك السنوات شريكاً لأخيه حميضـــة وقـــع له مع إخوته وغيرهم حروب وحوادث إلى أن مات سنة (746هـ/ 1345م). انظر ابن تغرّي برديّ: المنهل الصـــافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين وسعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهـــرة (1405هـ/1984م)، 356/5.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 346/13.

وتطابق عبارات هذا الأمان الصيغة التي أنشأها العمريّ لنصّ الأمان في كتابه التعـــريف[1]، علماً أنّ منشئ هذا الأمان القاضي تاج الدّين البارنباري*، وتتّضح معالم الأمـــان من بدايته حيث يقول الكاتب "هذا أمان الله سبحانه وتعالى، وأمان رسوله سيدنا محمـــد ﷺ، وأماننا الشريف"[2] ، ويتمحور في هذا المقطع القصير أمر جليل حيث يلزم مـــانح الأمـــان نفسه أغلظ الصيغ القسميّة عندما يجعل هذا الأمان أمانَ الله ورسوله ثمّ يقـــرن نفسه بهذا الميثاق، وفي هذه الصيغة طمأنة للمؤمَّن عندما يشعر أنّه في أمان الله ورســـوله وسلطان المسلمين، فإلزام السلطان نفسه بهذه الصيغ دلالة على حُسن نواياه، وصـــدق عفوه، وينصّ الكاتب على ذكر اسم المؤمَّن صراحة مقروناً بعظيم ألقابه أخذاً بـــتهدئة نفســـه وتطييب خاطره "للمجلس العالي الأسدي رميثة ابن الشريف نجم الدين محمـــد بـــن أبي نمي"[3]. وزيادة في طمأنته، ومنحه الثّقة بهذا الأمان يجهّز له موكب لجلبه إلى حضرة السلطان، مع توفير الأمان لجميع تبعاته من ماله وأهله وولده، ويظهر ذلـــك من خلال قوله: "بأن يحضر إلى خدمة السنجق* الشريف صحبة الجناب السيفي، أيـــتمشَ الناصري آمناً على نفسه وماله وولده، وما يتعلّق به، ولا يخشى حلول سطوة قاصـــمة، ولا يخاف مؤاخذة حاسمة، ولا يتوقّع خديعة ولا مكراً"[4] ، ويلحّ الكاتب في تأمـــين المـــؤمَّن مـــن خلال كثرة التراكيب الموجبة للوفاء بالأمان، فهذا الأمان مؤكّد الشروط، صحيح العقد "بل يحضر إلى خدمة السنجق آمناً على نفسه وماله وآله مطمئناً واثقـــاً بـــالله وبرسوله، وبهذا الأمان الشريف المؤكّد الأسباب، المبيّض للوجوه الكريمة والأحساب"[5].

---

(1) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص234.

* ينظر ترجمته: الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، 170/5.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 345/13.

(3) المصدر نفسه، 345/13.

* وهي رايات صفر صغار تربط بطرف الرماح ويحملها السنجدار. ينظر المصدر السابق، 8/4.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 345/13.

(5) المصدر نفسه، 345/13.

ويحـــرص الكاتـــب كذلك على إظهار حُسن النوايا، وصدق العهد وتجاوز كل موجـبات الغضـــب، فيقول "وكلّ ما يخطر بباله أنّا نؤاخذه به فهو مغفور، ولله عاقبة الأمور، وله منّا الإقبال والتأمير والتقديم، وقد صفحنا الصفح الجميل"[1].

وفي القسم الأخير من الأمان يجمل الكاتب بعض الوصايا التي تعزّز من صدق الـــنوايا، وتـــؤكّد صـــحّة هذا الأمان، وتحثّ صاحب الأمان على حُسن النيّة، وصفاء الســـريرة، وإخلاص الأمر إلى السلطان، وتقديم الظنّ الحسن على سوء النيّة وإضمار الغدر.

ومثل هذا الأمان يؤكّد إحكام قبضة المماليك على الحجاز والتحكّم في سياستها، وهذا الأمر سيناقش في الفصل الثالث من هذا البحث.

أمّا ثاني هذين الأمانين، فهو الأمان الذي منحه نائب السلطنة في حلب في الدولة الأشـــرفيّة "شـــعبان بـــن حسين" لبعض من أراد تأمينه[2]. والناظر في هذا الأمان يجد تطابقـــاً كبيـــراً في مضمونه مع الأمان السابق من حيث العبارات والصيغ، والاختلاف الوحـــيد بينهما في مانح الأمان حيث الأول السلطان والثاني نائب السلطان وترتّب على ذلـــك عـــدم ورود ألقـــاب الســـلطان فـــي الأول بل اكتفى الكاتب بعبـــارة "وأماننـــا الشـــريـــف"[3]؛ لأنّ كاتـــب الأمـــان أنشأه على لسان السلطان، بينما نجد كثرة الألقاب الســـلطانيّة في مقدّمة الثاني، ويمكن تعليل هذه الكثرة نظراً لحاجة مانح الأمان لسلطة السلطان في إنفاذ تأمينـــه لمن أراد تأمينه.

ومـــن رسائل الأمان ما منحه السلطان قلاوون للتجّار المسلمين من غير حدود دولته من الصّين والهند والسند واليمن، والعراق وبلاد الرُّوم[4]، وهذا الأمان لا يجد فيه

---

(1) المصدر السابق، 346/13.

(2) ينظر نصّ الأمان في المصدر نفسه، 350/13-351.

(3) المصدر نفسه، 345/13.

(4) ينظر المصدر نفسه، 340/13-342.

القارئ روح الأمان كما مرّت في الأمانين السابقين، بل هو أشبه ببروتوكول تجاري، ففيه حثٌ ورغبة أكيدة للتعامل مع الدول الأخرى لجلب المصالح الاقتصاديّة، والاستفادة من الموقع الجغرافي لدولة المماليك، وجاء في هذا الأمان "فمن وقف على مرسومنا هذا من التجّار المقيمين باليمن والهند والصيّن والسند وغيرهم، فليأخذ الأهبة في الارتحال إليها، والقدوم عليها؛ ليجد الفعال من المقال أكبر، ويرى إحساناً يقابل في الوفاء بهذه العهود بالأكثر، ويحلّ منها في بلدة طيّبة وربّ غفور، ولهم منّا كل ما يؤثرونه من معدلةٍ نجيب داعيها وتحمد عيشتهم دواعيها، وتبقى أموالهم على مخلّفيهم ..."[1].

والقارئ لهذا الأمان يجد فيه وثيقة سياسيّة مهمّة، حيث إنّ وصول هذا النصّ إلى آفاق تلك الممالك المذكورة في غرّة ذلك الأمان لدليل على هيبة دولة المماليك وامتداد سلطانها، ومن ناحية أُخرى يفصح هذا الأمان عن حاجة الدولة المملوكيّة لإقامة علاقات وثيقة مع تلك الممالك، وهل التجّار إلاّ رُسل بلادهم ولسان حالهم؟! والأمان كذلك يؤكّد رغبة المماليك في التبادل التجاري مع تجّار تلك الأقطار، وخاصّة أنّ بعض تلك السلع تشكّل عمادة الجيش المملوكي، فهؤلاء التجّار يحضرون معهم الجواري والغلمان، وينصّ الأمان صراحةً على رغبة المماليك في شرائهم "ومن أحضر معه منهم مماليك وجواري فله في قيمتهم ما يزيد على ما يريد والمسامحة بما يتعوّضه بثمنهم على المعتاد في أمر من يجلبهم من البلد القريب، فكيف من البعيد؟ لأنّ رغبتنا مصروفة إلى تكثير الجنود، ومن جلب هؤلاء فقد أوجب حقاً على الجود، فليستكثر من يقدر على جلبهم، ويعلم أن تكثير جيوش الإسلام هو الحاثّ على طلبهم"[2].

ومهما يكن من أمر، فإنّ وثائق الأمان في العصر المملوكي اتّخذت منحيين رئيسين، وتبعاً لذلك جاءت صياغتهما متباينة، فالأمانات التي يؤمَّن بها أفراد الرعيّة، ومن هم تحت سلطة الدولة حال خروجهم عن نظامها وإثارتهم القلاقل، فإنّ رسائل

(1) المصدر السابق، 341/13.

(2) المصدر نفسه، 341/13.

الأمان التي تمنح لهم تشبه في سمتها رسائل الأمان التي تؤمّن الخائف وتذهب عنه سوء النيّة من الغدر به، كما في رسائل الأمان في العصور السابقة لعصر المماليك، بينما نجد منحـى آخـر عـند قـراءة كتب الأمان الموجّهة لغير المسلمين أو المسلمين الذين لا يخضـعون لسلطان دولة المماليك، فهذه الأمانات أشبه بالمعاهدات السياسيّة والتجاريّة، فـلا يظهـر فيها حاجة المؤمّن للأمان بقدر حاجة المماليك لهؤلاء المؤمَّنين، والتقرُّب منهم، والرغبة في إقامة علاقة معهم.

الهدن:

رسـائل الهدن من الرسائل التي ذاعت ذيوعاً واسعاً في الدولة المملوكيّة نظراً لحاجـتهم إليها؛ وذلك لمجاورتهم لمعاقل الصليبيين المتحفّزين للغدر بالمسلمين. والهدنة رسالة تكون بين ملك المسلمين وملك آخر، أو من ينوب عن أحدهما، يتكفّل فيها أحدهما للآخـر بحفـظ النفوس والذّمم، وكل ما يجب حفظه خلال المدّة المضروبة لتلك الهدنة وبالشروط التي تمٌ الاتفاق عليها.

وهـناك محـاور أساسيّة تتضمّنها رسائل الهدن القائمة بين المسلمين وغيرهم، ومن هذه المحاور تقديم اسم السلطان المسلم على الملك الكافر "استقرّت الهدنة المباركة المـيمونة بين مولانا السلطان الملك الظّاهر ركن الدّين بيبرس الصالحيّ النجميّ وبين المقدّم الكبير الهمام فلان مقدّم بين الاستبار الفلاني بعكّا والبلاد الساحليّة"[1]. وجاء من هدنـة أخرى بين السلطان الظّاهر وملكة بيروت "استقرّت الهدنة المباركة بين السلطان الملـك الظّاهـر ركـن الـدّين بيبرس وبين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة فلانة ابنة فـلان"[2]. وعلى غرار ذلك درجت جميع الهدن بين الدولة المملوكيّة ومن هادنتهم من ملوك، ويستشف من هذه الصيغة إظهار عزّة المسلمين، ونفوذ سلطانهم، وتأكيد قدرتهم

(1) المصدر السابق، 31/14.

(2) المصدر نفسه، 40/14.

علـــى إمـــلاء شـــروطهم على من يهادنونهم، وتؤكّد كذلك حاجة المهادنين لهذه الهدن، واعترافهم الضمني بسطوة المسلمين وشدّة بأسهم.

ومن المحاور الأساسيّة كذلك في كتابة رسائل الهدن حفظ حقوق المسلمين بحيث لا تخـــلّ أو تضيّع حقّاً من حقوقهم بل تكفل لهم حفظ نفوسهم وتبعاتهم، لا بل تكون في مصـــلحتهم، ولـــذلك جاءت رسائل الهدن متضمّنة حقوقاً كثيرة للمسلمين. فالمطّلع على تلـــك الهـــدن يجـــد المســـتفيد الأول منها المسلمين قبل الطرف الآخر، فنبرة الخطاب صـــادرة عن المسلمين إلى من يهادنونهم، فالشروط لهم، والقبول على الطرف الآخر، وهذا يؤكّد الهدف الذي من أجله عُقدت الهدنة وهو الأخذ بمصلحة المسلمين.

وهـــناك محـــور آخر في كتابة الهدنة، ويتمثّل هذا الأساس في بيان البلاد التي تشـــملها الهدنـــة بدقّة بالغة، ويقودنا هذا المحور إلى رغبة المماليك في زيادة الحيطة والحذر من غدر الصليبيين والفرنجة، ومن جهة أُخرى الرغبة في تحديد الأماكن التي ينالها سلطان المسلمين ليتسنّى للتجّار القادمين لدولة المماليك من المرور بها.

ومن المحاور التي يلتفت إليها كاتب الهدنة، ويُعدّها غاية في الأهميّة مدّة الهدنة، حـــيث يشـــير إلـــى بدئها باليوم وإلى آخر مدّتها مشيراً إلى التاريخ القمري والشمسي، ومتعرّضـــاً للأيّـــام التـــي تعقب انتهاء الهدنة، فقد جاء في الهدنة الواقعة بين السلطان الظّاهـــر والاســـتبارية على قلعة لُدّ بالشّام "المدة عشر سنين كوامل متواليات متتابعات وعشـــرة أشهر أولها مستهلّ رمضان سنة تسع وستين وستمائة للهجرة النبويّة المحمّديّة الموافق للثامن عشر من نيسان سنة ألف وخمسمائة واثنتين وثمانين للإسكندر بن فيلبس اليوناني"(1).

وتتضـــمّن رســـائل الهدن كذلك شروطاً يتّفق عليها الطرفان كمنع الفرنجة من التوسُّع خارج حدود ممالكهم "وعلى أن لا يجدّدوا في غير عكّا وعثليث وصيدا مما هو

(1) المصدر السابق، 43/14.

خـــارج عــن أســـوار هذه الجهات الثلاث المذكورات لا قلعة ولا برجاً ولا حُصناً ولا مســـتجداً"[1] ، وكذلك حماية أمن التجّار الذين يمرّون بهذه الممالك الواقعة ضمن الهدنة مـــن غيـــر أهلها، والحفاظ على نفوسهم وأموالهم "ويكون التجّار والسفّار والمتردّدون آمنـــين مطمئنين مخفّرين من الجهتين في حالتي سفرهم وإقامتهم، وصدورهم وورودهم بما صحبتهم من الأصناف والبضائع التي هي غير ممنوعة"[2].

وتــتعدّى شروط تلك الهدن إلى تحمّل أهل تلك الممالك الدفاع عن المسلمين إذا حصـــل لهـــم ما يروّعهم من عدوٌ، ويظهر ذلك من خلال ما نُصٌ عليه في هدنة الملك المنصـــور قـــلاوون وحكّـــام الفـــرنج "وإن حصل جفلٌ من البلاد الإسلامية إلى البلاد الســـاحليّة الداخلة في هذه الهدنة فيلزم كفيل المملكة بعكّا والمقدمين بها حفظهم والدفع عـــنهم، ومـــنع مـــن يقصدهم بضرر، ويكونون آمنين مطمئنين بما معهم"[3]. ولا تقف شروط تلك الهدن عند هذا الحدّ، بل تتعدّاها إلى شروط كثيرة يحشدها الكتّاب ويصعب حصرها هنا.

وينـــبّه هـــؤلاء الكـــتّاب إلـــى اســـتمرار ســـريان هذه الهدن حتى نهاية مدّتها المضـــروبـــة بالأيّام والشهور والسنين، فهي لا تنتهي بموت أحد قطبيها أو كليهما بل تبقـــى ســـارية المفعول، فـــ "هذه الهدنة المباركة بين السلطان وولده وأولادهما وأولاد أولادهـــم، وبـــين الحكـــام بمملكـــة عكّا وصيدا وعثليث ... لا تتغيّر بموت ملوك أحد الجهتـــين، ولا يتغيّـــر مقدم وتولية غيره، بل تستمر على حالها إلى آخرها وانقضائها، بشـــروطها المحدّدة، وقواعدها المقرّرة"[4] ، وزيادة في الحرص على أهميّة تلك الهدن ودرء الخطـــر الذي يشكّله غيابها، يحرص المتهادنون على منح مدّة زمنيّة إضافيّة في حـــال فســـخ تلك الهدنة أو انقضائها، ويؤكّد ذلك قول الكاتب "ومتى انقضت هذه الهدنة

(1) المصدر السابق، 56/14.
(2) المصدر نفسه، 61/14.
(3) المصدر نفسه، 60/14.
(4) المصدر نفسه، 61/14.

المــباركة أو وقــع –والعياذ بالله– فسخ كانت المهلة في ذلك أربعين يوماً من الجهتين، ويــنادى بــرجوع كــل أحــد إلى وطنه بعد الإشهاد؛ ليعود النّاس إلى مواطنهم آمنين مطمئنين، ولا يمنعون من السفر من الجهتيــن"[1].

وبعــد كــتابة نصــوص تلك الهدن والاتفاق عليها يأتي دور القسم؛ ولذا اهتمّ المماليــك بنســخ الأيمــان أيّمــا اهتمام، ولذلك عقد العمريّ لها قسماً خاصّاً في كتابه التعريف تحدّث فيه عن أيمان المسلمين وأهل الكتاب والمجوس وأهل البدع[2].

ونســخ الأيمــان لا تخصّ رسائل الهدن بل يلزم وجودها في البيعات والعهود وتولية المناصب الإدارية والقضائية والمالية في الدولة المملوكيّة، ولكنّ الهدن أكثر تلك الرســائل حاجة إلى نسخ الأيمان؛ لما فيها من حفظ للنفوس والممتلكات، والحاجة إلى اليمــين فيها ماسّة لا يستغنى عنها، ولا يكتفى بتحليف أحد المتهادنين دون الآخر، بل يحلف الطرفان على ما في شروط تلك الهدنة، فجاء في الهدنة السالفة الذكر "ويفي كلٌ مــنهم بمــا حلف به من الأيمان المؤكّدة؛ من أنّه يفي بجميع ما في هذه الهدنة على ما حلفــوا بــه"[3] ، ولأهمــيّة تلك اليمين تقرن برسائل الهدن، ويشير إلى ذلك القلقشندي صراحة بقوله: "وأعلم أنّه قد جرت العادة أنّه إذا كُتبت الهدنة، كُتب قرينها يمين يحلف بهــا السلطان أو نائبه القائم بعقد الهدنة على التوفية بفصولها وشروطها، ويمين يحلف عليها القائم عن الملك الكافر بعقد الهدنة، ممّن يأذن له في عقدها عنه بكتاب يصدر عنه بــذلك أو تجهّــز نسختها إلى الملك الكافر ليحلف عليها، ويكتب خطّه بذلك، وتعاد إلى الأبواب السلطانيّة"[4].

(1) المصدر السابق، 63/14.

(2) انظر العمريّ: التعريف، القسم الثالث، ص202-245.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 62/14.

(4) المصدر نفسه، 71/14.

ونسخة اليمين عبارة عن صيغة تُثقل بألوان القسم المفخّمة كلٌّ حسب دينه، فإن كـــان المقسم مسلماً حشد الكاتب فيها ألوان القسم الإسلاميّة، وحسب المذهب الذي يدين به، وإن كان من غير المسلمين راعى الكاتب الملّة التي يعتقد بها ذلك المحلَّف.

وقـــد قُـــرن بالهدنة السابقة يمينان أُولاهما اليمين التي أقسم بها الملك المنصور قلاوون، ونجتزئ منها للتمثيل عليها:

"أقول وأنا فلان: والله والله وبالله وبالله وبالله وتالله وتالله وتالله والله العظيم، الطالـــب، الغالب، الضّار، النافع ..."[1] ، فيكثر كاتب النصّ من ألوان القسم المتضمّنة لأسماء الله وصفاته، ويقرن ذلك بالقرآن الكريم، ومكانته في النفوس "وحقّ القرآن ومن أنـــزله ومن أنزل عليه ..."[2] ، وبعد ذلك القسم يفضي الكاتب إلى الوفاء بشروط تلك الهدنة تامّة غير منقوصة "إنّني أفي بحفظ هذه الهدنة المباركة ... إلى مدّتها"[3] ، ويختم هذا اليمين بقوله "والله على ما نقول وكيل"[4].

وثانـــيهما اليمين التي حلف عليها الفرنج المتعاقدون على تلك الهدنة، ونجتزئ كذلك منها للغاية ذاتها:

"والله والله، وبـــالله وبالله وبالله، وتالله وتالله وتالله، وحقّ المسيح ... وحقّ الصـــليب، وحـــقّ الأقانـــيم الثلاثة من جوهر واحد المكنّى بها عن الأب والابن وروح القُدس إله واحد"[5].

(1) المصدر السابق، 312/13.

(2) المصدر نفسه، 312/13.

(3) المصدر نفسه، 312/13.

(4) المصدر نفسه، 312/13.

(5) المصدر نفسه، 313/13.

ويأخــذ الكاتــب فــي حشــد عقائد النصارى التي يدينون بها، والطقوس التي يمارســونها فــي عبادتهم على شتّى أنواعها، ثمّ بعد ذلك يذكر شرط الوفاء بتلك الهدنة بجميع فصولها وشروطها حتّى انقضائها.

ثانياً: الشؤون الإداريّة والماليّة

اهــتمّ المماليك أيّما اهتمام بالأمور الإدارية والماليّة، وقد حرصوا على اختيار الأكفاء من نوّابهم لإشغال المناصب السياسيّة في ممالكهم على امتداد بلاد الشّام ومصر، وقــد كان ذلك الحرص ظاهراً من خلال رسائل التقاليد التي تنسّب تعيينهم، وقد يكون ذلك الاهتمام مظهراً من مظاهر إدّعاء العدالة والنزاهة حيث لا يعيّن إلاّ من كان كفؤاً.

وقــد تكفّلت رسائل التقاليد والتواقيع والمراسيم بتعيين النوّاب والوزراء وكافلي الملك، واهتمّت بأرباب السيوف والأقلام، وبيّنت السياسة التي ينبغي أن ينتهجها المعيَّن في منصبه.

وعلــى الــرغم من تشابه تلك الرسائل إلاّ أنّ هناك خصائص سنشير إليها في مواضــعها، وهــذه الخصائص تدلُّ على مدى الدقّة في تنظيم الهرم الإنشائي في ذلك الزمن.

وكمــا اهتمّ المماليك بالشؤون الإدارية، فقد أولوا الأمور الماليّة اهتماماً خاصّاً، وقــد خصّصت المناشير لتخدم هذه القضية، بالإضافة إلى الوظائف الخاصّة ببيت مال المسلمين ونظر الجوالي*، وقد مهّد السلاطين المماليك السُبل لإنماء الحركة التجاريّة من خلال تأمين التجّار الوافدين ومسامحة بعض البضائع من المكوس والضرائب، وتمثّلت هذه الإعفاءات في رسائل المسامحات.

---

* نظر الجوالي: هي ما يُؤخذ من أهل الذمّة عن الجزية المقرّرة على رقابهم في كل سنة. (القلقشندي: صبح الأعشى، 458/3).

التقاليد:

إنّ مــن أكثــر رســائل ديــوان الإنشاء المملوكيّ دوراناً تلك الرسائل المسمّاة بالتقالــيد، وقد كثُر تداولها لحاجة الدولة إليها، حيث تكتب للوظائف العسكريّة والمدنيّة علــى حــدٍّ سواء، ولكن يشترط فيها أن تكون لكبار موظفي الدولة ونوّابها، فيرى ابن فضل الله العمريّ أنها "لا تكون إلاّ لكفلاء الملك كأكابر النوّاب والوزراء، ومن كان في معناهما، وقد يكون لأكابر قضاة القضاة"(1).

"والتقاليد جمع تقليد، يُقال قلّدته أمر كذا إذا وليته إيّاه"(2)، وهي عبارة عن رسائل يتولّــى كتّاب ديوان الإنشاء تدبيجها بأمرٍ من الخلفاء أو السلاطين أو نوّاب الممالك في الدولة المملوكيّة لأغراض إداريّة ودينيّة وعسكريّة، فهذه التقاليد تصدر لأرباب السُّيوف والأقــلام والمناصــب الدينــيّة، وهي تتّخذ طابعاً خاصّاً يميّزها عن الرسائل الديوانيّة الأُخــرى الصــادرة عــن الديوان، وهذا التمييز يقودنا إلى القول بالدقّة المتناهية التي يتّصف بها ديوان الإنشاء في ذلك العصر.

ويــرى الشهاب الحلبيّ أنّ التقاليد في جملتها لا تخرج عن أربعة أقسام متقاربة فــي المقاديــر "فالربع الأول الخطبة، والثاني ذكر موقع الإنعام في حقّ المقلَّد، وذكر الــرتبة وتفخيم أمرها، والثالث في أوصاف المقلَّد، وذكر ما يناسب تلك الرتبة"(3)، ونبّه الحلبــيّ كــذلك علــى بــراعة الاســتهلال في تلك الرسائل، ومراعاة أحوال المقلَّدين والمقلِّدين، وذكر الأُمور التي تُناسب ذلك الشخص، فإن كان نائباً فيناسب حاله في عدل وسياسة ومهابة وبُعد صيت أو سمعة وشجاعة، وإن كان وزيراً يوصف بالعدل وحُسن

---

(1) العمريّ: التعريف بالمصطلح الشريف، ص112.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 101/11.

(3) الحلبـي: شــهاب الدين محمود (725هــ/1324م): حسن التوسّل في صناعة الترسّل، تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، 1980، ص368.

التدبير والمعرفة: بوجدة الأموال، وعمارة البلاد، وصلاح الأحوال، وكذلك في كل رتبة بحسبها[1].

والقسم الرابع وهو الأهمّ حيث ترسم فيه سياسة المولّى مشفوعة بالوصايا، وهي شـــرط في كتابة التقاليد "وهذه هي القاعدة في مثل ذلك، ومنها أن يراعي المناسبة، وما تقتضيه الحال فلا يعطي أحداً فوق حقّه، ولا يصفه بأكثر ممّا يراد من مثله"[2].

ويـــبدي العمـــريّ اعتراضاً على شيخه الحلبيّ في مقدار خطبة التقليد وتقسيمه بقـــوله: "واعلم أنّ شيخنا شهاب الدّين محمود الحلبي –رحمه الله– قسّم مقدار التقليد أو التوقيع تقسيماً لا أرضاه، والذي أراه اختصار مقدار التحميدة التي في الخطبة والخطبة مطلقاً، وإطالة ما بعد ذلك"[3].

ويمكـــن تعليل هذا الاعتراض بالتطوّر الذي أصاب رقع التقاليد زمن العمريّ، ولعلّ ذلك راجع إلى التنافس بين التلميذ وشيخه، أو بين العائلتين، ومهما يكن من أمر، فـــإنّ ذلك يقودنا إلى منتهى الدقّة التي تحكم عمل كتّاب الإنشاء، ونظرة لأغلب التقاليد تـــؤكّد ما ذهب إليه الحلبي، حيث إنّ أغلب التقاليد تحمل خطباً طويلة، وتخضع للتقسيم ذاته.

والتقالـــيد مـــن الرسائل التي تهتمّ بالجانب الداخلي للشؤون الإدارية، وإن كان بعضـــها يـــتمّ فـــيها تنصيب بعض كفلاء الملك في السلطنة، لكنّ هذا الأمر يبقى شأناً داخليّاً. فالتقاليد ترسم الخطوط الأساسيّة التي يجب أن يتّبعها المقلّد فيما قُلّد من أمور.

ومـــن التقاليد التي جاءت لتبيّن المنهج الذي يجب أن يكون عليه المقلّد في بيان سياســـته تجـــاه مـــا قلّـــد من أمور تلك الرسالة التي وجّهت إلى شمس الدّين قراسنقر المنصـــوريّ (ت728هـ/1327م) بنيابة دمشق، فجاء فيها –بعد التحميدة الطويلة التي

---

(1) المصدر السابق، 368.

(2) المصدر نفسه، 368.

(3) العمريّ: التعريف بالمصطلح الشريف، 117.

تتلاءم وكلام الحلبي حول تقسيم التقليد- قوله: "فإنّ الممالك أولى من قام بنصرها، وقعد بالمصلحة في أمرها، وأقيمت له دعوتها، وعزّت بعزمه ذروتها ..."[1].

إنّ النّاظـر فـي ذلـك التقليد يلمس براعة الاستهلال من خلال رسم الخطوط العريضة للمقلَّد في سياسته الواجب اتّباعها، فالممالك أولى بها من قام بنصرتها، وجعل مصلحتها فوق كل اعتبار، وتحرّى لها العزّة، وصانها من كل سوء وحماها من عثرات الدهـر، فكاتب التقليد يفصح عن السياسة التي ينبغي أن تكون حاضرة في ذهن المقلَّد، فهو المؤتمن عليها وعليه أن يكون واضح السياسة، مصيب الرأي، نافذ البصيرة، مقدماً في مواطن الإقدام، محجماً في مواطن الإحجام، متبصّراً بالأمور.

وتظهر سياسة المقلَّد جليّة من خلال التوجيهات والوصايا التي يرسمها له المقلِّد فـي القسم الـرابع من التقليد، حيث يرسم الخطوط الأساسيّة له من عدل وحُسن نيّة "فلـيمضِ علـى رسله فيما رتّبناه فيها وقرّرنا، ويتحقّق حُسن النيّة فيما أعلنّا من أمره وأسـررنا، ويـدأب فـي بسـط المعدلة والسيرة المجملة، والعمل بالعدل فإنّه الطريق المسلوك ويشمل الرعايا بنظره"[2].

ومـن تقليد آخر بكفالة السلطنة بالشّام -من إنشاء العمريّ- تظهر سياسة الحكم مـن خلال الوصايا والتوجيهات، حيث جاء فيه "ويمعن النظر في مصالح هذه المملكة الشّـاميّة المحروسة، ويعتمد على حُسن تدبيره ما تغدو ربوعها بحسن ملاحظته عامرة مأنوسـة، وهـو يعلم أنّ العدل من شيم دولتنا الشريفة ... ويعلم أنّ عدل سنّة خير من عـبادة سـتّين سنة، ولينشر على الرعايا ملابسه الحسنة ..."[3]، وجاء في تقليد لم يسمِ كاتـبه بكفالة السلطنة بالشّام "فليمهّد بالعدل أكناف البلاد والنظر بعين الرعاية والسّداد، ولينشـر لـواء الإنصاف ... وليدرّ الأرزاق من الأخلاق، وليأمر بإقامة الحدود على

(1) الصفديّ: أعيان العصر وأعوان النصر، 334/4.

(2) المصدر نفسه، 336/4.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 21/12.

شــارب الســلاف أو علــى الســارقين بالقطع من خلاف، وليسترهف عزائم العساكر المنصورة في القتال والجهاد"[1].

ومــن خــلال دراسة التقاليد التي مرّ ذكرها، التي تخصّ كفالة السلطنة ونوّابها يتبيّن للنّاظر فيها أنّ سياسة الحكم والشؤون الإدارية ترسمها الدولة لا المقلّد، وما على الــنائب إلاّ تنفيذ تلك السياسة التي تولّت الدولة رسمها له، والتي أُسديت له على شكل نصــائح وتوجيهات، وهي في ظاهرها نصائح، لكن وجوب وجودها في كل تقليد يقود إلى القول بوجوب العمل بها، والالتزام بحدودها وعدم تجاوز رسومها.

وقــد تنوّعت التقاليد بتنوّع أغراضها التي أشرنا إليها سابقاً ولكنّها حافظت على رســومها الأصــيلة فــي بنائها، فمن الموضوعات التي تدبّج من أجلها التقاليد وظائف القضاء، وخاصّة قضاة القضاة، وهنا يركّز كتّاب التقاليد على تقوى الله والالتزام بحدود الشــرع، ونــبذ البدع والخرافات والأساطير، فمن تقليد أنشأه الصفديّ في قضاء قضاة الشّــام حثّ فيه المقلّد القاضي على كثير من الأمور الواجب اتّباعها في سياسة إشغال ذلــك المنصب؛ فعليه الأخذ بحقّ المظلوم، والتسوية بين المتخاصمين، ورعاية الأيتام، وتــزويج الأيامى، والحفاظ على بيت أموال المسلمين، ويتحرّى الصدق والأمانة فيمن يولّيه أُمور القضاء[2].

وجــاء فــي وصــيّة تقليدٍ لقضاء قضاة الشافعيّة من إنشاء محيي الدّين بن عبد الظاهر "فليستصحب من الحقّ ما هو مليء باستصحابه، وليستمرّ على إقامة منار الحقّ الــذي هو موثق عراه، مؤكّد أسبابه، وليحتلب من أخلاق الإنصاف ما حفّله اجتهاده ليد احــتلابه ..."[3]. ومــن تقلــيد قضــاء قضاة الحنفيّة "وليسوِّ بين الخصمين في مجلسه

(1) المصدر السابق، 12/23-24.
(2) الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، 5/602.
(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 11/177.

ولحظه، ويعدل بينهما في إنصاته ولفظه ... ولا ينتقض حكماً لم يخالف نصّاً ولا سنّة ولا إجماعاً"[1].

والنّاظر في التقاليد التي تناولت وظيفة القضاء يجدها لا تخرج في مجملها عن جملـــة من الوصايا التي يوجّهها المقلِّد للقاضي، وتجري تلك النصائح في سلك التقوى والعـــدل والالتـــزام بحـــدود الشّـــرع، والتسوية بين الخصوم والحفاظ على بيت مال المسلمين، ونشر روح المساواة بينهم، وردع الظالم، وإنصاف المظلوم، وتدل كثرة تلك الوصايا على تهاون بعض القضاة في الأحكام.

وقـــد تأتي التقاليد بأمر الوزارة، وحينئذ تنصبُّ الوصايا التي تمثّل بيان السياسة المتّبعة في وزارته في إقامة المصالح العامّة للدولة ونشر العدل، وعمارة البلاد، وتثمير الأمـــوال، ومـــن ذلك تقليد بوزارة من إنشاء شهاب الدّين الحلبيّ، جاء في بيان سياسة المولّـــى "فلتجرِ أقلامه في مصالح دولتنا الشريفة على أفضل عادتها، ويرسلها في نشر العـــدل علـــى سجيّتها، وفي إجراء الجود على جادّتها، ويكفُّ بها أكفَّ الحوادث؛ فإنّما تـــزال أسباب الظلم بحسم مادّتها ... ويطلقها في عمارة البلاد ... وكذلك الخزائن التي هي معاقل الإسلام وحصونه ... وليلاحظ من مصالح كلّ إقليم ما كأنّه ينظر إليه بعين قلبه"[2].

والمطّلِـــع على تلك التقاليد التي تدبّج في الوظائف السالفة الذكر؛ يلحظ عنصر الإطناب في إنشائها، ويعلّل هذه الظاهرة محمود رزق سليم بقوله: "وهذا النسق الكتابي يتّسق وروح العصر، ومنطق حوادثه، وسياق حياته، إذ هو عصر تموج فيه المبالغات والتهاويل وإراعة الجماهير بادّعاء العدالة، وحماية الدّين، واختيار الأكفاء النزاه لولاية الشؤون العامّة"[3].

(1) المصدر السابق، 181/11.

(2) المصدر نفسه، 283/1.

(3) سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مجلد 5، ق1، جزء 3، ص133.

ويمكـــن الـــركون إلى هذا الرأي إلاّ أنّه يمكن الميل إلى عزو تلك الظاهرة إلى القـــدرة الفائقة التي تحلّى بها نفر من كتّاب ديوان الإنشاء، ممّا حدا بهم إلى نقل وظيفة النثر من الإخبار إلى الأدبيّة، وربما التنافس بينهم قاد إلى تلك الظاهرة.

ومهما يكن من أمر، فإنّنا نميل إلى تعليل آخر لمحمود رزق سليم لهذه الظاهرة، حـــيث عدّ تلك المبالغة من أجل جلب الصلات الوديّة التي تربط رجال الإنشاء برجال القضاء والوزارة[1].

المناشير:

أخـــذت المناشـــير اسمها من الوظيفة التي كفلت بها حيث يتمّ نشرها بين النّاس ليعلموا بها ويعملوا بمقتضاها، إلاّ أنّ المناشير في العصر المملوكيّ اختصّت بنوعٍ واحدٍ خـــاص، يتمـــثّل بالاهتمام بإقطاع الأمراء والجند، وبما يجري في أرزاقهم من ديوان الإقطـــاع[2]، وبذلك التحديد لغرض المنشور، وخصّه بهذا الجانب يخرج المنشور عن مفهومه العام المتمثّل "بأنّه بيان إعلامي يُذاع بين النّاس ليتسنّى لهم العلم بمضمونه"[3]، إلاّ أنّ بقـــاء المنشور يختصّ بأرزاق الأمراء والجند ليدلّ على كثرة تداوله بين النّاس، ولا ســـيّما أنّ الأمراء والجند من أكبر الشرائح الاجتماعيّة في العصر المملوكيّ، وأنّ الاهتمام بأمرهم من أولى أولويات الدولة.

وتشـــبه رســـوم المناشير التقاليد "إلاّ أنّ المناشير أخصر ولا وصايا فيها، ولا إطـــناب فـــي مقاصد للكاتب يستوفيها"[4]، وهذا يقودنا إلى تفسير الإطالة والإطناب في التقالـــيد، حـــيث يعود ذلك إلى بيان أهميّة أمر التقليد وخاصّة بيان سياسة المولّى التي ينتهجها.

---

(1) المرجع ذاته، 133/5.

(2) انظر العمريّ: التعريف بالمصطلح الشريف، ص117.

(3) الدروبي: الرسائل الفنيّة في العصر العبّاسي، ص14.

(4) العمريّ: التعريف بالمصطلح الشريف، ص117.

وهـــناك طبقات معيّنة من الأمراء والجند تختصّ بتلك المناشير فتكتب لمقدّمي الألـــوف*، ولـــذوي الطـــبلخانات**، ولذوي العشرات***، ولمقدّمي الحلقة**** وجندها***** ولأمـــراء العربان، ولهذا يختصّ المنشور بالمناصب العسكرية من جهة الإنفاق عليهم وتوزيع أرزاقهم المعلومة.

ويذكـــر القلقشندي أنّه "قد اصطلح كتّاب الزمان على تسمية جميع ما يكتب في الاقطاعات من عاليها ودانيها للأمراء والجند والعربان والتركمان وغيرهم مناشير جمع منشـــور"(1)، ويلفـــت القلقشندي النظر إلى استحداث تلك التسمية وخصّها بذلك الجانب، وهـــذا يفـــيد الباحثـــين في تحديد تاريخ تلك المصطلحات ودلالاتها، فيقول: "واعلم أنّ تخصـــيص ما يكتب في الاقطاعات باسم المناشير ممّا حدث الاصطلاح عليه في الدولة التركية، أمّا الزمن المتقدّم فقد كانوا يطلقون اسم المناشير على ما هو أعمّ من ذلك ممّا لا يحتاج إلى ختم)"(2).

ولذا أصبحت المناشير إذا أطلقت لا تدلّ إلاّ على تلك الإقطاعات للفئات السالفة الذكـــر، ولكل فئة من هذه الطبقات مناشير خاصّة تميّزها عن غيرها، ومن هنا قسّمت المناشـــير أربعـــة أقســـام: القســـم الأول يخصّ مقدّمي الألوف من أولاد السلطان أو

---

* مقدّمـــي الألوف: هم أعلى مراتب الأمراء، ومنهم يكون أرباب الوظائف والنوّاب وعِدة كل منهم مائة فارس. انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 14/4.

** أمراء الطبلخانات: وهي الرتبة الثانية من أرباب الوظائف والكشاف بالأعمال وأكابر الولاة. وعدّه كل منهم في الغالب أربعون فارساً. انظر المصدر نفسه، 15/4.

*** أمراء العشرات: ومنهم يكون صغار الولاة ونحوهم من أرباب الوظائف وعدّه كل منهم عشرة فوارس. انظر المصدر نفسه، 15/4.

**** مقدّمي الحلقة: وهم أعظم الأجناد شأناً وأرفعهم قدراً. المصدر نفسه، 15/4.

***** جند الحلقة: وهم عدد جمّ وخلق كثير، وربّما دخل فيهم من ليس بصفة الجند. انظر المصدر نفسه، 16/4.

(1) المصدر نفسه، 157/13.

(2) المصدر نفسه، 157/13.

الخاصكية* أو غيرهم، وكذلك جميع النوّاب الأكابر بالممالك الإسلاميّة والمقدمون بدمشق[1].

والقسم الثاني ما يكتب فيه لأمراء الطبلخانات بمصر والشّام، سواءٌ في ذلك الخاصكية وغيرهم، وكذلك الأمراء المقدمون، من نوّاب القلاع الشّامية، وفي معناهم المقدمون بحلب وغيرها[2].

والقسم الثالث ما يكتب فيه لأمراء العشرات مطلقاً بسائر الممالك الإسلاميّة[3].

والقسم الرابع ما يكتب فيه للمماليك السلطانيّة ومقدمي الحلقة ورجال الحلقة[4].

وللكتّاب أفانين في تدبيج تلك المناشير، يظهرون من خلالها قدرتهم الفائقة على امتلاك زمام البلاغة والبيان، حيث يبدون مهاراتهم في براعة الاستهلال، ومن المناشير التي عنيت بهذا الجانب ذلك المنشور الذي أنشأه القاضي محي الدّين بن عبد الظاهر للناصر محمد في سلطنة أبيه الملك المنصور، حيث بدأه بقوله: "الحمد لله الذي زيّن سماء الملك بأنوار كوكب بزغ، وأعزّ ملك نبغ، وأشرف سلطان بلغ إلى ما بلغ ذوو الاكتهال من اختيار شرف الخلال وما بلغ"[5]. ففي تلك التحميدة القصيرة نرى الكاتب يشرع في الثناء والمدح لذلك الأمير بعبارات تؤمّل طلعة الخير بطلعته، ولو لم يكن صاحب المنشور ابن السلطان لعدّت تلك التحميدة هجاءً للسلطان؛ لما فيها من مبالغة، فهو الذي أنار الظلام، وهو الكوكب الوحيد الذي بزغ، وهو أعزّ ملك نبغ، وأشرف

* هم الذين يلازمون السلطان في خلوته ويسوقون المحمل الشريف والمتعيّنون للإمرة والمتقرّبون في المملكة. انظر غرس الدين الظاهري: خليل بن شاهين (873هـ/1468م): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، صحّحه بولس داوبس، طبع في مدينة باريس 1312هـ/1894م، ص115-116.

(1) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 158/13.

(2) انظر المصدر نفسه، 158/13.

(3) انظر المصدر نفسه، 158/13.

(4) انظر المصدر نفسه، 159/13.

(5) المصدر نفسه، 168/13.

سلطان بلغ، فما الذي تبقّى لأبيه من الشرف والريادة؟ ولا أحسب أنّ محي الدّين قصد إلى ما ذهبنا إليه.

وقد انتقل الكاتب من التحميد إلى غرض المنشور، لكنه بقي أسيراً لعبارات المدح والثناء حتى لتظنّ أنّ المنشور رسالة مدح، فقد أكثر إلى حدٍّ كبير في تلك العبارات: "وبعد فإنّ الهواتف أبين ما تشدوا إذا حفّت الرياض بها من كل جانب، والسماء أحسن ما تبدو إذا تزيّنت بالكواكب السيّارة والشُهب الثواقب، والسعادة أحمد ما تحدو إذا خصّصت بمن إليه ..."(1).

إنّ كثرة تلك العبارات التي تتموّج بأصناف المدح والثناء لتقودنا إلى القول بطمع الكاتب في مودّة ذلك الأمير والتقرّب منه، والحصول على صلاته، فالمنشور قد تحوّل من رسالة إقطاع إلى غرض آخر مشحون بعبارات الإعجاب والمدح وفنون البلاغة، ولا نجد تفسيراً لذلك إلاّ ما أشير إليه من طلب المودّة والطمع في الصّلات.

وله من منشور آخر في الأمير بدر الدّين بيدرا استادار الملك المنصور "فهو المجاهد للكفّار، وهو المتهجّد في الأسحار، وهو حاكم الفقراء، وإن كان سلطانه جعله أستاذ الدار، وهو صاحب العصا التي أصبح بحملها مضافة إلى السيف يتشرّف 000 وهو الذي تحمد الكشوف والسُيوف فتوحه وفتحه، والذي يشكر يده عنان كل سابح، وزمام كل سُبحه"(2).

فالكاتب يمزج بين عبارات الثناء وطبيعة عمل ذلك الأمير، فجعل الأعمال الجليلة التي يقوم بعبئها ذلك الأمير في السّلم والحرب سلْماً استحقَّ به ذلك الإقطاع الذي يحمل الفيء بعد الفيء والعطاء الجزيل والحظوة لدى السلطان.

والدّارس لتلك المناشير يجدها لا تخرج عن تلك الميزة من خصّ صاحب المنشور بالمدح والثناء، وبيان ذكره العطر، والتذكير بحاجة الدولة إليه، والتأكيد على

---

(1) المصدر السابق، 168/13.

(2) المصدر نفسه، 170/13.

أهمـــية مـــوقعه الذي يشغله، والتنويه بالأعمال التي يقوم بعبئها، والمحامد التي ما زال يفـــتّق أستارها، والكتّاب في ذلك الشأن يتسابقون في حيز قصب السبق، فما تلك الكثرة من هذه الصيغ والعبارات إلاّ من تنافس ذلك النفر من الكتّاب.

فالناظـــر في هذه الفقرة وهي من منشور أنشأه ابن فضل الله العمريّ لمن لقّب بســيف الـــدّين: "كم له من همّة تترقّى به إلى المعالي، كم له من عزمة يروى حديثها المسند من العوالي، كم به أمور تناط، كم جهود يحاط، كم له من احتفاء واحتفال، وكم له من قبول وإقبال، وكم له من مناقب تصحب وتمسي، وكم له من معارف لمّا علم بها ملكـــه –خلّـــد الله ملكـــه– قال الملك ﴿أئتوني به استخلصه لنفسي﴾[(1)]" [(2)]، ليتأكّد له أنّ الكـــتّاب يجـــدون في تلك المناشير الفرصة المواتية لتحقيق مآربهم على شتّى أنواعها، ســـواء أكانـــت التقرّب من الأمراء، أم إظهار مهاراتهم البلاغيّة، ومحاولة التفوّق على بعضـــهم. فالمتأمّل في الفقرة السابقة والمنشور بعامّة لا يجد فيه إلاّ الكيل من عبارات التبجيل والتفخيم والتنويه، ونشر إحسانه حتى ليخيّل إلى القرّاء أنّ صاحب المنشور لم يكتب له الدهر سيئة أو عثرة.

ومهمـــا حشـــدنا مـــن الأمـــثلة على تلك المبالغات لا نخلص إلاّ إلى القول بأنّ المناشـــير بشـــتّى أقسامها الآنفة، لا تكاد تخرج عن فكرة واحدة، ألاّ وهي بيان صفات صاحب الإقطاع العطرة، وسيرته المحمودة التي خوّلته ذلك الإقطاع، وربّما تعود تسمية هذه الإقطاعات بالمناشير إلى نشر ذكر صفات وخصال صاحبها بين الناس.

التواقيع:

تُطلق التواقيع في العصر المملوكي على الرسائل الديوانية التي تُعنى بالوظائف الإدارية فيما دون النيابة والوزارة، ولذلك يبتعد التوقيع عن المعنى الذي يطلق عليه في

---

(1) سورة يوسف، آية 54.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 172/13.

العصور السابقة من كونه "عبارة موجزة إنشاءً أو اقتباساً في حاشية الرسالة المرفوعة إلى الرئيس في أمرٍ ما، فتكون هذا العبارة جواباً يعمل بمقتضاه"[(1)].

والتوقيع في أصل اللغة الإصابة وخفّة الأثر[(2)]، ولكن التطوّر الدلالي نال ذلك التوقيع حتّى أصبح يطلق على الرسائل التي يكتب فيها "لعامّة أرباب الوظائف: جليلها وحقيرها، وكبيرها وصغيرها، حتّى النواب اللاحقين بشأو الكبار فمن دونهم"[(3)].

ومن الجدير ذكره، أنّ التواقيع أخذت تتخصّص بأرباب الوظائف الدينيّة والديوانيّة، ولا يكتب بها لأرباب السيوف إلاّ القليل[(4)]، وقد أخذ الكتّاب في ديوان الإنشاء يضعون لها رسوماً خاصّة تميّز كل توقيع حسب رتبة صاحبه، وقد تنوّعت كذلك الوظائف التي يكتب لأربابها التواقيع فمنها: كاتب السرّ، والقضاة، وناظر الجيش، وناظر الدولة، وناظر البيمارستان، ووكلاء بيت المال، وإفتاء دار العدل، والمحتسبين، وكتّاب الدست، ونظّار الأحباس، ومشيخة الخانقاة، وتقدمة الأكراد والتركمان[(5)]*.

ومن مظاهر الدقّة في كتابة تلك التواقيع تمييزها عن بعضها من خلال الطرة، حيث تكون الألقاب وبعض التراكيب مختلفة حسب اختلاف الجهات الموجّهة إليها

---

(1) الدروبي: الرسائل الفنيّة في العصر العباسيّ، ص69.

(2) ابن منظور، جمال الدين (711هـ/1311م)، لسان العرب، دار صادر، (وقع).

(3) العمريّ، التعريف بالمصطلح الشريف، ص112.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 114/11.

(5) انظر المصدر نفسه، 116/11-121.

* نظّار: جمع ناظر وهم كبار الموظّفين ورؤساء الدواوين الذين شاركوا الوزير في تصريف أعماله، فمنهم: ناظر الدولة: وهو من يتحدّث مع الوزير في كل ما يتحدّث فيه ويشاركه في الكتابة في كل ما يكتب فيه. ومنهم ناظر البيمارستان: وهو المتحدّث عن أحوال المستشفيات ومعالجة المرضى = = وإقامتهم، ومنهم ناظر خزانة السلاح: وهم المتحدّث عن السلاح السلطاني وكيفية استعماله وإعادته إلى الخزائن، ومنهم نظّار الأحباس: وهم المتحدّثون في رزق الجوامع والمساجد والربط 000 .انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 29/4، 32، 38. نقيب الأشراف: وهم المتحدّثون عن ولد علي وفاطمة رضي الله عنهما، والتحدّث عن أنسابهم وأقاربهم. انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 38/4. إفتاء دار العدل: وهم القضاة الأربعة: المالكية والحنفية والشافعية والحنبلية. القلقشندي: صبح الأعشى، 36/4. المحتسبون: وهم القائمون بالأمر والنهي، والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح. القلقشندي: صبح الأعشى، 37/4. كتّاب الدست: وهم الذين يجلسون مع كاتب السرّ بمجلس السلطان بدار العدل، ويقرأون القصص على السلطان بعد قراءة كاتب السر على ترتيب جلوسهم. القلقشندي: صبح الأعشى، 137/1. مشيخة الخانقاه: وهم المتحدّثون عن أمر الخوانق وهي البيوت الخاصة بالانقطاع للعبادة. القلقشندي: صبح الأعشى، 193/4.

التواقيع، مراعين بذلك براعة الاستهلال فيما يختارون من ألفاظ وعبارات تناسب الحال التي يكتبون فيها لأرباب تلك الوظائف.

وتشـــبه التواقيع التقاليد إلى حدٍّ كبير في المضامين التي تحملها ولا تفترق عنها إلاّ في الجهات التي تُرسل إليها، فهي تحوي الخطبة، وصفات المولِّي والمولَّى والوصايا ولكن كل حسب مقداره.

ومـــن توقـــيع بخطابة من إنشاء الحلبيّ "فإنّ أولى المنابر أن يرتاد له من أئمة العلمـــاء علاّمـــة عصـــره، أو رحلة مصره، وإمام وقته 000"[1]. ففي هذه الفقرة التي اجتـــزأناها من التوقيع نرى الحلبيّ ينبّه على أهمية الخطابة والخطباء، ويرى ضرورة الصـــدع بالحقّ والشكر لله، وتذكير عباده بآلائه، والتنويه بشرف الجهاد في سبيل الله، ورفـــع رايّـــة الـــدّين عالية، وهذه الأُمور تحتاج إلى من يقوم بأعبائها طائعاً راغباً لا مستكرهاً؛ ولذا ينبغي أن توجد فيه خِصال تؤهّله لأن يحتلّ تلك المكانة "ولمّا كان فلان هـــو تعيّن لرقي هذه الرتبة فخطب لخطابتها، وبيّن أنّه كفؤها الذي تتشوّق النُّفوس إلى مواعظه، فترغب في إطالتها لإطابتها"[2].

فوضع الكاتب مبرّرات ومسوّغات لبلوغ هذه الرتبة، حيث استحقّها لما حازه من الشـــرف وحُسن التدبير، وجميل الخصال، وكما مرَّ في التقاليد والمناشير، فإنّ الكتّاب مولعون بعبارات المدح والثناء، حتى ليتوهّم القارئ أنّ تلك الوظائف لا يشغلها إلاّ ذاك النفر الذين تحلّوا بتلك الخصال التي اجتمعت فيهم دون سواهم، والإغداق بهذه الخصال عليهم لتدلّ دلالة قاطعة على مقدار الاهتمام بتلك الوظائف، ولو من الجانب الإعلامي، حـــيث لا يتولّى تلك المناصب إلاّ من استحقّ ذلك عن جدارة واقتدار، ونحّى مصالحه ومآربه الشخصيّة جانباً، فجاء في توقيع للصفديّ بنظر الجوالي "وخُلِقَ ما له من مُشاكل

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 223/11.

(2) المصدر نفسه، 223/11.

ولا ضـــريب، وثـــناءٌ هـــو في الذكر أبو الطيب، ووجةٌ إلى القلوب حبيب، فكأنّه كعبة قصاد، ومنزل روّاد، ومنهل ورّاد ... وقد تودّع عن المناصب الدنيويّة"[1].

والقـــارئ لـــتلك التواقيع يجدها متطابقة من ناحية مثاليّة المولّى، وتنزيهه عن النوايا الخبيثة، والعنايات المريبة، فالمولًّى كأنَّما خُلق لتلك الوظيفة حيث لا تليق إلاّ به ولا يســـتحقّها إلاّ هـــو، ويـــرمون من وصف هؤلاء الأشخاص بالصّفات المثاليّة إلى الشـــفافيّة التـــي يتعامل بها أصحاب النفوذ في الدولة المملوكيّة، فكل من ينال إعجابهم ويتفانـــى في عمله، ويخلص في وظيفته يغدقون عليه عبارات الشكر والثناء، وينشرون خصـــاله لـــيوهموا العامّـــة بحسن فعاله وكريم صنيعه، ليركنوا إلى موادعته والثّقة به وبمـــن عيّنه في ذلك المنصب.

فمثل هذه المجاملات والمبالغات لا يراد بها فقط التقرّب من المولًّى، بل الهدف أكبر من ذلك وأسمى، فالمولّي يسعى لكسب ثقة العامّة، حيث لا يعيّن في المناصب إلاّ من اتّصف بصفات نادرة بل تكاد تكون معجزة، ولذا تطمئن نفوسهم ويركنون إلى من تولّـــى تلـــك المناصب، وهنا يجد الكتّاب فرصة مزدوجة حيث ينالون إعجاب المعيّنين والسلاطين والنوّاب، فالمعيّن تسمو نفسه بالمدح والثناء، والسلطان أو النائب يزداد ثقة في ميزان العامّة.

وكمـــا تُرسم السياسة الواجب اتّباعها في التقاليد من خلال الوصايا، نجد الأمر ذاته في التواقيع، ومن يقرأ صفات ذلك المولّى ويدرك مثاليتها لا يجد مبرّراً لوجود تلك الوصايا، حيث عُرِف بحصافة العقل وسرعة البديهة، والدراية بأمور منصبه، ولهذا لا تفسّر هذه الوصايا إلاّ ببيان سياسة المعيَّن كما يريدها السلطان أو النائب.

فمـــن وصية محتسب "وقد ولّى أمر هذه الرتبة، ووكّل بعينه النظر في مصالح المســـلمين لله تعالـــى حســـبه، فلينظر في الدقيق والجليل، والكثير والقليل، وما يحصر

---

(1) الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، 619/5.

بالمقاديـــر ولا يحصر، ... وليعمل لديه معولاً لكل عمل ... وليتعرّف الأسعار ويستعلم الأخبار"[1]. فيظهر من تلك الوصية رسم السياسة الواجب عليه اتّباعها، حيث نبّهه على دقائق الأُمور وجليلها، وأراد له الوجهة السليمة في التعامل مع تلك الأمور، وهو كذلك يذكِّـره كلمـــا أرعـــوى ونســـي بما وكِّل إليه من أُمور تلك الحسبة، وتختلف الوصية باخـــتلاف المنصب الذي يشغله المولّى، وقد استوفى العمريّ في كتابه التعريف طرفاً كبيراً من تلك الوصايا[2].

المراسيم:

هي جنس من رسائل التقاليد المتقدّمة الذّكر، فهي رسائل ديوانيّة تخصّ طبقة أو فـــئة من فئات أرباب الوظائف في الدولة المملوكيّة، ووجود مثل هذه الرسائل له دلالة واضـــحة، حـــيث يشير إلى مقدار الدقّة التي يتّصف بها ديوان الإنشاء المملوكيّ، فما الفروق الضئيلة بين تلك الرسائل إلاّ دليلٌ على مبلغ عنايتهم بها.

وقـــد لاحـــظ كتّاب ذلك العصر مدى مطابقتها للتقاليد، ولذا لم يتعرّض العمريّ لذكر المراسيم المكبّرة، وعلّل القلقشندي عدم ذكرها لتأخّر استحداثها عن عصره، ومن الـــراجح أنّها كانت في زمانه تُعدُّ جنساً من التقاليد، وقد وردت المراسيم المصغّرة في كـــتابه التعـــريف عرضـــاً ولـــم يعلّـــق عليها كما هو الحال بالنسبة للتقاليد والتواقيع والمناشير[3].

وقد نقل القلقشندي عن التثقيف أنّ المراسيم على نمط التقاليد ليس بينهما اختلاف إلاّ فـــي أمـــرين: أحدهما –أنّه لا يكتب شيء من المراسيم في قطع الثلثين بل في قطع النصف أو الثلث، والثاني أنّه لا يقال فيها "تقليد شريف" بل "مرسوم شريف"، ولم يكتفِ ناقـــل هذا الرأي بهذين الفرقين بل جعلها أربعة أُمور، وكل هذه الأُمور تتعلّق ببنائه –

---

(1) المصدر السابق، 619/5.

(2) العمريّ: التعريف بالمصطلح الشريف / قسم الوصايا، 121-207.

(3) انظر المصدر السابق، 120-121.

علماً أنّ البناء من مستلزمات وجوه استخدامه- فقد ارتأى أنّ المرسوم يقتصر في طرته علـى الأميـري دون الكبيري بخلاف التقاليد؛ فإنّه يُقال فيها "الأميري الكبيري" وهذا الاخـتلاف ناشـئ عن الجهة التي يوجّه إليها المرسوم، حيث يشير ذلك إلى دنو درجة المرسوم عن التقليد، والأمر الثاني يُقال في المرسوم أنّ يستقرّ ولا يُقال أن يفوّض ولا أن يقلّد، وهذا الفرق كذلك ناتج عن طبيعة المنصب المراد شغله. والفارق الثالث: يقال على عادة من تقدّمه وقاعدته، ولا يُقال على أجمل العوائد وأتمّ القواعد، وهذا الاختلاف كذلك يردّ إلى موقع المعيَّن، والرابع: يقال في صدره وبعد ولا يقال أمّا بعد(1).

وهـذه الفـروق تعـود في مجملها إلى بنية المرسوم سواء ما قال بها صاحب التثقيف أو القلقشندي، ولكن هذه الفروق تحمل معنىً ومضموناً، فهي تعني للموجهّة إليه أمـراً وليسـت كالمـوجّهة لصـاحب التقليد، فالمبنى ينعكس على المعنى، ولذا تكون المراسيم في درجة أدنى من التقاليد.

والمراسيم على خلاف التقاليد والمناشير والتواقيع، تندرج في قسمين حسب رتبة مـن تـوجّه إلـيه، فمنها المراسيم المكبّرة ويكتب بها لنوّاب القلاع من مقدّمي الألوف والطبلخانات وبعض أمراء العربان وشادّي البريد(2)، وأمّا المراسيم المصغّرة فيكتب بها لأرباب السيوف بالولايات الصغيرة، مثل نظر الأوقاف ونحوه(3).

ومـن الملاحظ أنّ المراسيم في مجملها تكتب في الشؤون العسكريّة وما والاها، وطبـيعة تلـك المناصـب تُناسبها هذه التسمية، حيث "المراسيم جمع مرسوم أخذاً من قـولهم: رسمت له كذا فارتسمته إذا امتثلته، أو قولهم: رسم عليَّ كذا إذا كتب أو يحتمل أن يكون منهما جميعاً"(4)، والمناصب العسكريّة تستوجب امتثال الأوامر والأخذ بالطّاعة

(1) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 110/11.
(2) المصدر نفسه، 108/11.
(3) انظر المصدر نفسه، 110/11.
(4) المصدر نفسه، 107/11.

والالتــزام؛ ولــذا نرى تناسب المسمّى مع غرضه، وهذا أمر غاية في الحصافة، حيث يقصد من اللفظ معناه ومن المبنى مدلوله.

وللتدلــيل على الشبه الكبير بين المراسيم والتقاليد نجتزئ بعض الفقرات الممثّلة لأقســام المرسوم من مرسوم أنشأه المقرّ الشهابيّ ابن فضل الله بنيابة قلعة دمشق، وقد راعــى العمريّ في خطبته براعة الاستهلال، حيث مزج عبارات التحميد بألفاظ تخصّ القــلاع ووصــفها، فجــاء فيه "الحمد لله مشرِّف القلاع ومصرِّف رجالها في الامتناع، ومعرِّف من جاد لها أنّ الشمس عالية الارتفاع، ونشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك لــه شــهادة نرجو بها لما بقي من قلاع الكفر الاقتلاع، واستعادة ما قرَّ معهم من قرى وضاع من ضياع"[1].

يستشــفّ مــن تلك الخطبة رغبة المماليك في ضمّ قلاع الصليبيين إلى قلاعهم، وفــي الخطــبة كــذلك إشارة إلى استيلاء الصليبيين والتتار على بعض قرى وضياع المســلمين حتــى زمــن ذلك المرسوم، ولمّا كان المرسوم بشأن نيابة قلعة، فقد أسهب العمريّ في ذكر فضائل القلاع والحصون، وحاجة المسلمين إليها، فيرى "أنّ للحصون حواضر كما للبلاد، وحواضن تضم بقاياها ضمّ الأمّهات للأولاد، أو معاقل يُرجع إليها إذا نابت النوب الشّداد، ومعاقد يعتصم من منعتها بجبال ويتمسك بأطواد"[2].

ولعلّ اهتمامه بوصفها وتفانيه في جلب كل عبارة مستملحة، ونكتة بلاغيّة يعود إلى رغبة مكبوتة في نفسه وربّما في نفوس معاصريه، فالاهتمام الكبير الذي يظهر في خطــبة ذلــك المرسوم ليدلّ دلالة قاطعة على شعور صادق، نابع من إدراك أهمية تلك القلاع ودورها في حفظ ديار المسلمين من الطامعين.

ويتّفق كذلك المرسوم مع التقليد في بيان صفات المولِّي والمولَّى، فقد أغدق عليه أجمل الصّفات وأفضل الخلال، فقال: "وكان فلان هو حامي هذا الحِمى، ومانع ما يحلو

(1) المصدر السابق، 26/12.

(2) المصدر نفسه، 26/12.

فـــي الثغور من موارد اللُّمى، وغيور الحيّ فلا تبرز له إلاّ من عقائل المعاقل قاصرات الطــرف كالدُّمى، وحافظ ما استودع من مصون واستجمع من حصون، واستجهر من مــوارد تــردها مــن زرد الــدُّروع عــيون، ويفــرّق منها المجانيق سحائب ممطرة بالمنــون"(1).

وتماثــل المراسيم التقاليد في الوصايا إلاّ أنّ الوصايا في المراسيم غالباً ما تكون بصــيغة الأمر؛ لما في المراسيم من صيغة الأمر، فالقارئ لجملة الوصايا في المرسوم ســابق الذكر يجدها تبدأ بصيغة الوجوب "فعليك بحفظها ليلاً ونهاراً، وتفقّد أحوال من فيها سرّاً وجهاراً، وفتح بابها وغلقها مع الشمس، وتصفّح ما بها من لبس وتتبّع أسبابها كمــا فــي النفس ... وخذ بقلوبهم وأوصل إليهم حقوقهم، واجمع على طاعتنا الشريفة متفرّقهم"(2).

فالمــتأمّل لتلك الوصايا يجدها تزخر بأفعال الأمر الموجبة للامتثال بها، ولعظم أهمــيّة تلك الوظيفة يفصّل العمريّ أدقّ الأُمور التي تخصّ تلك القلعة حتى لتقترب تلك الوصايا من التقرير.

ومــن وصــية مرســوم آخر أنشأه المقرّ الشهابيّ بإمرة آل علي* "ونحن نأمرك بــتقوى الله، فــيها صــلاح كل فريق وإصلاح كل رفيق، ونجاح كل سالك في طريق، والحكــم فليكن بما وافق الشّرع الشريف، والحقوق فحصّلها على وجه الحقّ من القويّ والضعيف"(3).

---

(1) المصدر السابق، 28/12.

(2) المصدر نفسه، 28/12-29.

* وهم من آل فضل الذين ينتسبون إلى طيء، وهم يزعمون أنّهم من ولد عليّ بن جعفر بن يحيى البرمكيّ ونزلوا غوطة دمشق. انظــر العمــري: التعريف بالمصطلح الشريف، 104؛ انظر القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط2، 1400هـ/1980م، دار الكتاب المصري – القاهرة، ص107.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 127/12.

والذي يُنعم النظر في تلك الوصيّة يجدها تفيض بأفعال الأمر الموجبة للأخذ بها، وهــذه الميــزة تفــرّق وصايا التقليد عن المرسوم، حيث تعتمد وصايا التقاليد النصح والإرشــاد، بيــنما المراســيم تتميّز باللغة الآمرة. فالمولّي يريد من المعيّن امتثال تلك الوصايا على وجه الخصوص لا على سبيل إسداء النصيحة.

المسامحات:

تُعدُّ المسامحات لوناً من ألوان المراسيم، ولكنها أُخذت تسميتها من الغرض الذي أُنشــئت من أجله، وتمثِّل تلك الرسائل مدى التسامح الذي ينعم به قطاع الاقتصاد جرّاء سياســة الســلاطين المماليــك فــي تنشــيط حــركة الاقتصاد، وإعفائها من المكوس والضرائــب.

والمســامحات جمع مسامحة، وهي "الجود والموافقة على ما أُريد منه، والمُراد المســامحة بما جرت به عادة الدواوين السلطانيّة من المقرّرات واللوازم السلطانيّة"[1]. وتــنال تلــك المســامحات الأُمــور العظيمة كالإعفاء من المكوس، أو تخفيض بعض الضرائب المفروضة على البضائع جزئيّاً.

وأيّــاً كــان هذا الإعفاء، فإنّ السلاطين يبتغون من ورائه أُموراً ظاهرة وأخرى خافــية، فهــم يســتميلون قلوب العامّة بما يعفونهم من تلك المكوس، ومن جهة أُخرى ينشِّــطون الحركة التجاريّة، كما يسهمون في تشجيع التجارة الخارجيّة التي تعود على الدولــة بالأموال الطائلة، وتشكّل تلك المسامحات أجواءً لطيفة تصقل العلاقة بين كبار التجّار وسلاطين المماليك. فضلاً عن شعور الرعيّة باهتمام الدولة بهم ومساعدتهم على تجاوز المحن الاقتصاديّة.

ومن الناحية الفنيّة تتطابق رسالة المسامحة مع المرسوم، فتبدأ بالتحميدة الطويلة التي تمتزج فيها عبارات الحمد بالمسامحة بما يتماشى وحسن الاستهلال، فمن مسامحة ببواقــي دمشق وأعمالها من إنشاء الشهاب الحلبيّ: "الحمد لله الرؤوف بخلقة، المتجاوز لعــباده عمّا قصّروا فيه من حقّه، المسامح البريّة بما أهملوه من شكر ما بسط لهم من رزقه ... نحمده على نعمه التي عمّت الرعايا بتوالي الإحسان إليهم، وأنامتهم في مهاد الأمــن بما وضعت عنهم مسامحتنا من إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، وأنالتهم ما

---

(1) المصدر السابق، 23/13.

ورسالة المسامحة لا بُدَّ لها من الدّعاء لإظهار أثر النعمة التي أسداها ذلك المسامح لتلك الشريحة من النّاس، فمن المسامحة بالأغنام السالفة "فرسم بالأمر الشريف -لا زالت مواهبه تشمل الآفاق، وتزيد على الإنفاق، وتقدّم ما ينفد إلى ما هو عند الله باق"[1]، ومن المسامحة ببواقي دمشق "فرسم بالأمر الشريف -زاده الله تعالى علوّاً وتشريفاً وأمضاه بما يعمّ الآمال رفقاً بالرعايا وتخفيفاً، وأجراه من العدل والإحسان بما يعمّ البلاد، ويجير العباد"[2].

ولقد وجد كتّاب الديوان في رسائل المسامحات فرصة سانحة للثّناء على السلاطين والنوّاب من أجل كسب ثقتهم، فأصبحت تلك المسامحات طريقاً ممهّداً لنيل رضا الملوك والسلاطين والنوّاب، حيث ينالون أعطياتهم وصلاتهم.

ومهما يكن من أمر، فإنّ رسائل المسامحات تمثّل طرفاً من العلاقة التي تربط الطبقة الحاكمة بباقي طبقات المجتمع، حيث تمثّل تلك المسامحات همزة الوصل بين الطبقتين، وتُعدُّ تلك الرسائل نافذة خير لما فيها من سماحة السلاطين والنوّاب، فيجد الشّعب فيها متنفّساً يخفّف أعباءهم، فتلهج ألسنتهم بعبارات الثناء والشكر، وهذا ما يبتغيه أصحاب السلطنة، ولذا لا تختم رسالة المسامحة إلاّ بمثل تلك العبارات "فليتلقّوا هذه النعمة بباع الشكر المديد، ويستقبلوا هذه المنّة بحمد الله تعالى، فإنّ الحمد يستدعي المزيد"[3]. ومن مسامحة أُخرى ((والمسارعة إلى العمل بهذه المسامحة التي تستدعي مسارّ القلوب وثناء الألسنة"[4].

وهذه المسامحات تكون منّة من السلاطين لا واجباً مفروضاً عليهم، وهذا يزيد من العلاقة التي تبتغيها الطبقة الحاكمة، وتستغلّ مثل هذه المسامحات في ظروف معيّنة

---

(1) المصدر السابق، 37/13.

(2) المصدر نفسه، 27/13.

(3) المصدر نفسه، 30/13.

(4) المصدر نفسه، 27/13.

لترأب الصدع بين الطبقة الحاكمة وعامّة الشعب، خاصة وأنّ المكوس والضرائب أثقلت كواهل النّاس.

البشارات والتّهاني:

إنّ رســـائل البشارات والتّهاني من الرسائل العامّة التي توجّه إلى مختلف طبقات المجـــتمع؛ ليعبّروا عن بالغ سرورهم؛ ولهذا فإنّها تقرأ على المنابر، وتُذاع في أوساط الخاصّة والعامّة ليتسنّى لهم المشاركة في الفرحة وإظهار مدى السرور الذي أحدثته في نفوسهم.

وكُـــتب التّهانـــي من الكتب التي تفصح عن مواهب الكتّاب وتبيّن مقدرتهم على ارتقاء صهوة البلاغة وضُروب الكتابة "فهي من ضروب الكتابة الجليلة النفيسة لِمَا في التهنـــئة البلـــيغة مـــن الإفصـــاح بقدر النعمة، والإبانة عن موقع الموهبة، وتضاعف السُرور"[1]، ولذا يَعدُّها محمود رزق سليم من أطرف رسائل الديوان معلّلاً ذلك بما يُتاح فـــيها للمنشـــئ من ألوان الوصف والمبالغة، وكأنّه فيها حرّ الزمام طليق اللجام يسرح ويمـــرح كمـــا لذّ لقمه وطاب[2]، فهذه الرسائل يتعيّن فيها تخيّر العبارات كما لو كانت قطعة فسيفسائية أو لوحة فنيّة؛ لأنّ النفس تألف الزخارف والألوان، ورسالة التهنئة أشبه بتلك الفقرات الموسيقيّة التي تشنّف السمع.

وقد تشعّبت الموضوعات التي عالجتها رسائل البشارات والتهاني، وقد كان أجلّها قـــدراً، وأعمّهـــا سروراً تلك البشارات التي تحمل أنباء الفتوح والانتصارات، وفي هذا الموضـــوع يـــرى الشـــهاب الحلبيّ أنّ كتب التهاني بالفتوح لا يناسبها إلاّ بسط الكلام

---

(1) المصدر السابق، 9/5.

(2) انظر سليم، محمود رزق: العصر المملوكي ونتاجه العلمي والأدبي، 143/5.

والإطـنـاب في شكر نعم الله والتبرّي من الحول والقوة، ووصف شجاعة الملك وجيشه، وكثرة عدّة الأعداء وعددهم؛ ليكون ذلك شاهداً على استبسال المسلمين وتضحياتهم(1).

وفي بيان عظم هذه الانتصارات والفرحة الغامرة التي تعمّ أرجاء الدولة يحرص المماليك علـى إبلاغ خبرها للدّول الصديقة من أجل مشاركتهم في الفرح والابتهاج، والـدول العدوّة من أجل التهكّم والسخرية منهم، ولهذا يخبرنا ابن تغرّي برديّ عن نبأ فـتح طرابلس زمن الملك المنصور قلاوون سنة (678هـ)، مصوّراً الأجواء السعيدة قـائلاً: "وكتبت البشائر إلى الآفاق بهذا النّصر العظيم، ودقّت البشائر والتهاني، وزيّنت المُدن، وعُملت القلاع في الشوارع، وسرّ النّاس بهذا النصر غاية السُرور"(2)، ومثل هذه الأخبار تضعنا في الأجواء السعيدة الغامرة بنشوة النّصر والشعور بالعزّة، بعد استرجاع مديـنة إلـى معاقل المسلمين، ومثل هذه الانتصارات تقوّي العلاقة بين العامّة والطبقة الحاكمـة، حـيث يشعر العوام بالعزّة ونشوة النصّر؛ ومن أجل ذلك يحرص السلاطين علـى تعمـيم البشـائر والتّهانـي لتغطّـي فئات المجتمع، فترتفع أكفّهم بالدّعاء للقادة والجيوش، وألسنتهم بالضّراعة والثّناء والشّكر.

وتـدبج تلك الرسائل كذلك عندما ينوي السلطان الخروج مع الجنود إلى ساحات الوغـى وملاقـاة الأعـداء، وهم بذلك يصوّرون مدى شجاعة السلطان وسطوته على أعدائـه، وقـوة بأسـه، ويبسطون الكلام في مدح قادته وجنوده؛ مسجّلين أنباء الفتوح والحصـار والمعارك والغنائم والسبي، واصفين أعداءهم بالجبن والغدر والمكر والذلّ والتواطؤ، ومن الجدير ذكره أنّ هذه الأوصاف للأعداء تكون عندما يهبّ السلطان إلى ملاقـاة الأعـداء "وفـي أوقـات حركات العدوّ إلى أهل الثغور يعلمهم بالحركة للقاء عـدوّهم"(3)، ويكـون وصف العدوّ بعد إنجلاء المعركة وحصول النصر على غير تلك

(1) انظر الحلبي: حسن التوسّل، ص335.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 322/7.

(3) الحلبي: حُسن التوسّل، ص332.

الصـــورة، حـــيث يهوّل أمره بوصفه بالكثرة والإقدام؛ لأنّ تصغير أمره تحقيرٌ للجهود الذي بُذلت للظفر به[1].

ومـــن رســـائل البشارات بالفتوح تلك الرسالة التي كتب بها إلى قاضي القضاة بدمشق شهاب الدّين بن الخويي بفتح السلطان الأشرف خليل قلعة الرُوم سنة 691هـــ، وقد تضمّنت تلك الرسالة البشائر والتهاني العظيمة، وصوّرت الحالة النفسيّة التي عمّت أرجـــاء العالم الإسلامي لهذا الفتح العظيم، حيث طارت الأخبار في الآفاق "ومن أحسن قصـــص هـــذا الفتح المبين والمنح الذي تباشر به سائر المؤمنين، وتعادل في الإعلان والإعـــلام به كل من قرّ عيناً من الأبعدين والأقربين، ويخصّ بمسرى مبشّراته الحكام، ليعمّوا ببشرها عامّة النّاس"[2].

وتتضـــمّن تلـــك التهانـــي وصف السير إلى المعركة والصعوبات التي واجهت الجنود والقادة، وقد تنبئ العبارات وجمال التصوير عن مدى الفرح والسُرور "وما زلنا نصـــل الســـرى بالســـير، ونرســـل الأعنّة إلى نحوها فتمدّ الجياد أعناقها إليها مدّاً ... وحاصـــرناها حصـــاراً ألحقهـــا بعكّـــا وأخواتها ... ونصبنا عليها عدّة مجانيق تنقضّ حجارتهـــا انقضـــاض النُسور، وتقبض الأرواح من الأجسام، وإن ضرب بينها وبينهم بسور، وتفترس أبراجها بصقور صخور افتراس الأسد الهصور"[3].

ويعـــزون هذه الانتصارات إلى تأييد الله سبحانه لهم، بسبب رفعهم راية الجهاد، وتبني الدفاع عن حمى المسلمين، وهم بذلك يطمحون إلى إبراز مكانة دولتهم بين الدول الإسلاميّة الأخرى وإظهار هيبتهم في نفوس القريب والبعيد، ولعلّهم ببعث البشارات إلى الدول الإسلاميّة يهدفون إلى التعريض بهم ومن ذلك البشارة التي بعثت إلى اليمن تبثّ أخبار فتح طرابلس، حيث جاء منها "وكانت الخلفاء والملوك من ذلك الوقت ما فيهم إلاّ

---

(1) المصدر السابق، ص335.

(2) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، 1/1005-1006.

(3) المصدر نفسه، 1/1006.

من هو مشغول بنفسه، مكبّ على مجلس أُنسه، يرى السلامة غنيمة، وإذا عنّ له وصف الحرب لم يسأل منها إلاّ عن طريق الهزيمة، وقد بلغ أمله من الرتبة، وقنع من ملكه – كما يقال– بالسكة والخطبة، أموال تنهب، وممالك تذهب، لا يبالون بما سُلبوا، وهم كما قيل:

إنْ قاتلوا قُتلوا أو طاردوا طُردوا ... أو حاربوا حُربوا أو غالبوا غُلبوا

إلى أن أوجد الله من ينصر دينه، وأذلّ الكفر وشياطينه"[1].

ومن الأغراض التي تسطّر من أجلها رسائل البشارات المواسم الدينيّة: كالأعياد والعـودة مـن الحـجّ، ويحرص الكتّاب في تلك الرسائل على ذكر فضائل تلك الأيّام وتشـريفها على ما سواها من أيّام، وإظهار البهجة، والدعاء للخليفة والسلطان بالتمكين والعزّة، والظفر بالأعداء، فمن ذلك رسالة كتب بها الشّهاب الحلبيّ بمناسبة عيد الفطر، جـاء فيها: "وسائر الأيّام أجساد، وسائر الأعياد هي الأرواح؟ فإذا كان المولى قد زُهيَ علـى أبـناء جنسـه، ويـوم العيد على غده وأمسه، فقد صار كلٌّ منكما إلى صاحبه يتقـرّب... وهو أحق النّاس بأن يبهجه مقدمه، وأن يهنّىَ بيومه الذي هو مجمع السُّرور وموسمه"[2].

ومـن تهنـئة بعيد الأضحى للشّهاب الحلبيّ "جعله الله أبرك الأعياد، وأسعدها، وأيمـن الأيّـام وأمجـدها، وأجمـل الأوقات وألذّها وأرغدها"[3]، ومن مستلزمات تلك الرسـائل الدعـوة للمهـنّأ بالسّـلامة، وتمام العافية، وإعادة تلك المناسبة عليه باليُمن والتمكين، فمن تلك الرسالة: "وأعاده الله على المولى في صحّة دائمة، وسلامة ملازمة، وصـار عـبده مطـيعاً لأوامره كسائر العبيد ... ومتّعنا بدوام حياته واستجلاء جميل صفاته"[4].

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 323/7.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 44/9.

(3) المصدر نفسه، 46/9.

(4) المصدر نفسه، 46/9.

ورســـائل تلــك المواســم لا تخرج عن فكرة وصف البهجة والسُّرور والدعة، والأمــن والطمأنيــنة، والدعوة للمهنّأ بالصحّة والعافية، ودوام السّلامة على مرّ الأعياد والمواسم.

ومــن دواعي كتابة التهنئة كذلك النهوض من المرض، وفيها يشرع الكاتب في حمــد الله وشكره على ذهاب المرض وقدوم العافية، مصوِّراً الحالة التي أصابت الأمّة جرّاء مرضه، والحُزن الذي أنتابها، فلم تهدأ النُّفوس ويذهب حُزنها إلاّ بشفاء ذلك المهنّأ وزوال المــرض، فاستبشرت الممالك والأُمم بشفائه، فمن رسالة أنشأها جمال الدين بن نــباته: "تمّ لطف الله تعالى وعجّل خير العافية المأمولة، والصحّة المقبلة عقب الدعوات المقبولة، فيا لها من مسرّة شملت، ومبرّة كملت، وتهنئة جمعت قلوب الأودّاء وجملت... فهنيئاً له بهذه الصحّة المتوافرة الوافية"[1].

والمناســبات التــي تســتوجب هذه الرقاع كثيرة، فمنها التهنئة بميلاد الأولاد، والعــودة مــن الصَّيد، والزواج، وقرب المزار والقدوم من السفر، ولأنّ هذه المناسبات يشترك فيها العامّة مع الخاصّة نُؤَخِّر الحديث عنها إلى الباب اللاحق الخاصّ بالمظاهر الاجتماعيّة عند الحديث عن كتب التهنئة.

---

(1) المصدر السابق، 68/9.

ثالثاً: العلاقات الخارجيّة

- العلاقة مع الدول الإسلاميّة:

حرصت الدّولة المملوكيّة على إقامة علاقات طيّبة مع الدّول الإسلاميّة في ذلك الزمن، وحكمت هذه العلاقة المصالح السياسيّة والاقتصاديّة، ولسنا بصدد البحث في تاريخ أو أسباب وأهداف تلك العلاقات، بقدر ما نهدف إليه من دراسة تلك الوثائق، وبيان دور الأدب النثري في تصوير الحياة السياسيّة والاقتصاديّة لدولة المماليك.

العلاقة مع الممالك الإسلامية الشرقية:

كان الهدف الأهمّ في إيجاد العلاقات الوديّة مع تلك الممالك الوقوف في وجه زحف التتار، وتأمين طريق التجارة الآتية من الشرق الأقصى، فقد ربطت المماليك على طول فترة حكمهم علاقة حسنة مع ممالك القفجاق•، والممالك الإيرانيّة، فقد عقد العمريّ في كتابه التعريف بالمصطلح الشريف حيّزاً لا بأس به لبيان كيفيّة الكتابة لهؤلاء الملوك[1]، وهذا دليل على كثرة الرسائل المتبادلة بين المماليك وتلك الممالك، وقد توطّدت تلك العلاقات حتّى بلغت درجة المصاهرة، فقد تزوّج السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون من ابنة السلطان أزبك خان "وقد خطب إليه السلطان فزوّجه بنتاً تقرُّباً إليه"[2].

• القفجاق أو القبيلة الذهبية، وهم فرع من المغول ومملكتهم متّسعة الجوانب طولاً وعرضاً، كبيرة الصحراء، قليلة المدن، بها عالم كثير لا يدخل تحت حدّ، وتُعرف بالذهبية نسبة لسرير الذهب الذي يجلس عليه ملوكها. انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 451/4؛ انظر كاهن، كلود: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، ط1، 1995، سيا للنشر – القاهرة، ص257.

(1) انظر العمريّ: التعريف بالمصطلح الشريف، ص56-73.

(2) المصدر نفسه، ص62.

وقـد بـيّن العمريّ أواصر تلك العلاقة بقوله: "وما زال بين ملوك هذه المملكة وبين ملوكنا قديم اتّحاد، وصدق وداد، ومن أول أيّام الظّاهر بيبرس وإلى آخر وقت"[1]، ويؤكّد هذا الرأي التبادل الدبلوماسي الذي جرى بين الظّاهر بيبرس والملك بركة خان، فقـد جاء في ذكر إنفاذ الرُسل إلى الملك بركة أنّ الظّاهر "كتب على أيدي الرُسل كتاباً فـيه شـيء عظـيم مـن الاستمالة، والحثّ على الجهاد، ووصف العساكر الإسلاميّة وكثـرتهم"[2]، وقـد وردَ كذلك أنّ الملك بركة خان قد بعث بالرُسل إلى الملك الظّاهر "وحمـل إلى الرسل من الأنعام ما لا يحصى، ورسم بتجهيز الهديّة إلى الملك بركة من كـل شـيءٍ على اختلافه"[3]. ولا شكّ أنّ مثل هذه الهدايا المتبادلة ساهمت في توطيد العلاقة، ورصّ الصُفوف في وجه الخطر القاتل آنذاك وهم التتار.

وقـد بيّنت الرسائل المتبادلة بين هاتين المملكتين المصالح السياسيّة التي تخصّ شـؤون الحـرب والسِّلم، والحثّ على الجهاد، والوقوف في وجه الغزو التتريّ، وصدّ عدوانه، وكذلك اهتمّت بالمصالح الاقتصاديّة وخاصة أُمور التجارة، والتبادل الاقتصادي الآمـن. فقد عزا بيرتولد شبولير الاتّفاق الذي جرى بين القفجاق والمماليك إلى أسباب جغـرافيّة، ومصالح تجارية، إضافة إلى تشابه الدولتين في الظّروف السياسيّة وعنصر الـدّين[4]. وحملت كذلك البشارات بأنباء الانتصارات، وخذلان العدوّ، وفي ذلك إشارة إلى قوّة دولة المماليك وسطوتها؛ لتبقى مرهوبة الجانب من قِبَل تلك الممالك الإسلاميّة.

فمـن رسـالة بُعثتْ إلى محمد أزبك خان سنة (776هـ/1374م) أيّام السلطان شعبان من إنشاء القلقشندي: "فإنّ قلوب الأولياء وإن تناءت الأجسام متعارفة بالائتلاف، متقاربة على بُعد الدّيار، حيث لا تناكر بينها ولا اختلاف، ولا سيّما ملوك الإسلام الذين

---

(1) المصدر السابق، ص62.

(2) عـبد الظاهـر، محـيّ الـدّين (ت692هـ/1292م): الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط1، 1396هـ/1976م، ص139.

(3) المصدر نفسه، ص171.

(4) انظـر شبولير، بيرتولد: المغول في التاريخ، ترجمة يوسف شلب الشّام، ط1، 1989، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ص53.

هـم متّحدون بالمصافاة والاستسلام"[1]، فقد كان مطمح المماليك من تلك الرسائل كسب ودّ تلك الممالك، والوقوف إلى جانبهم "وأردنا بداءته بهذه المخاطبة؛ ليعلم ما نحن عليه من صحيح الوداد، وأكيد الاتّحاد، وجميل الاعتقاد، وحُسن الموالاة الخالصة من شوائب الانــتقاد"[2]، فالواضــح مــن الرسالة أنّ المماليك هم البادئون في تسطير تلك الرسائل لحاجـتهم إلى خطب ولاء هذه الممالك، وجعلهم في صفّهم؛ لترجح كفتهم على مناوئيهم من المسلمين وغيرهم.

وتحفــل كذلك الرسالة بالمحافظة على تلك العلاقة الودّية، وتجنيبها كل العوائق والشــوائب "وتســتدني ولاءه الــذي أحكــم عقده؛ لتؤكّد المصافاة بين هاتين الدولتين، والمخالصة من كلتا الجهتين، والموالاة بين المملكتين"[3].

وظاهر من هذه الرسالة مدى العلاقة الودّية التي تربطهم بتلك المملكة المشرقيّة، ولا حاجــة لهــم في كسب ودّها إلاّ ما أشير إليه كما تقدّم من الوقوف إلى جانبهم في مــواجهة التــتار، وتأمــين الأمن والطمأنينة لتجارهم والتجّار الوافدين إلى دولتهم من الشرق، وقد اعتنت تلك الرسالة بذكر التجّار وبضائعهم، وحمايتهم، وتوفير الأمان لهم، فقد جاء فيها "ويأمر المقام العالي لا زال عالياً بتردّد التجّار من تلكم الدّيار، والمواصلة بالأخبار على حسب الاختيار، ومتابعة الرُسل والقصاد، على أجمل وجه معتــاد"[4].

فالمصلحة التجاريّة في مثل إقامة تلك العلاقات بارزة أيما بروز، حيث مواصلة المودّات مع مثل هذه الممالك ضمانٌ لحريّة التجارة، وزيادة العائدات الاقتصاديّة، حيث تكثر البضائع، وتتنوّع في البلاد الشرقيّة كبلاد الصّين والهند؛ ولذا مرَّ في فصل سابق رسالة الأمان التي أمّن فيها الملك المنصور قلاوون التجّار الوافدين من بلاد المشرق.

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 297/7.
(2) المصدر نفسه، 298/7.
(3) المصدر نفسه، 298/7.
(4) المصدر نفسه، 298/7.

ومـــن أجـــل إعـــلان هيــبة دولـــة المماليــك؛ حملت تلك الرسائل البشارات بالانتصارات، وخذل العدو، وغالباً ما تأتي مثل هذه البشارات عرضاً في الرسائل فمن ذلك – معتذراً عن عدم بعث الرُسل– "وقد تأخّرت رسلنا عن حضرته، ولم تصدر من جهتــنا الشريفة كذلك ولا وردت رسل من جهته، ولم يشغلنا عن ذلك إلاّ مواقعة الفرنج المخذولــين أعــداء الدّين، ومقارعتهم في سائر السواحل بشدّة البأس والتمكين، إلى أن أمكن الله عزّ وجلّ من نواصيهم وصياصيهم بنصرٍ من عنده"(1).

وتُضــمَّن مــثل تلــك السفارات عادة الهدايا؛ لأنّ فيها حفظاً للصّلات، وإدامة المودّات، وكسب الثقات، فجاء في تلك الرسالة "وقد وجّهنا إلى المقام العالي –أعلى الله شــأنه– صــحبة رســلنا المذكورين من الأقشمة السكندري وغيرها على سبيل الهديّة، والمواهب السنيّة"(2).

وقــد حفظت لنا بعض المصادر التاريخيّة أخبار تلك السفارات بين المملكتين، مشــيرة إلى الحفاوة التي ينعم به الرُسل القادمون من تلك الدّيار، ففي أحداث سنة 704 هـــ قال بيبرس المنصوريّ "وفيها وصل من جهة الملك طقطا ملك التتار رسول إلى الأبواب العالية اسمه قرقجي، فأُكرم غاية الإكرام، وأُنزل بمنظرة الكبش في خير مقام، ووُصِل بكثيرٍ من الإنعام، وتفرّج في الجيزة والأهرام، وأُعيد جوابه، وجهّز إلى مرسله بأنواع التُحف، والهدايا واللُطف"(3).

ومن خلال هذا الخبر يتأكّد لنا مدى الحفاوة والاحترام الذي يقدَّم للرُسل القادمين مــن الدّيار القفجاقية، فقد بقيت العلاقة طيّبة بين المماليك وهذه المملكة من أيّام الظّاهر بيبرس، حتى أواخر الحكم القلاووني، والدليل على صفاء العلاقة ما ذكره القلقشندي في رسالته السابقة.

---

(1) المصدر السابق، 297/7.

(2) المصدر نفسه، 298/7.

(3) المنصـــوري، ركن الدّين بيبرس (ت725هـ/1325م): زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق دونالد س. ريتشاردز، بيـــروت، ط1، 1419هـ/1998م، ص381؛ انظر العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزّمان، ج4، ص345.

العلاقة مع الحجاز:

رغبت الدولة المملوكيّة في بسط نفوذها الدينيّ والسياسيّ على الممالك الإسلاميّة المجاورة، فأخذت على عاتقها حماية الحرمين الشريفين، وهذا جعلها تتدخّل في الشؤون الداخليّة لأمراء الحجاز، تعزل من تشاء وتؤمّن من تشاء بحجّة فضّ الخصام بين أولئك الأمــراء، فقد حدث خلاف سنة (667هـ/1268م) في مكّة بين الشريف نجم الدّين أبي نمـــي وعمّه وشريكه في إمارة مكّة، الشريف بهاء الدّين إدريس فوجد السلطان الظّاهر بيبـــرس فرصـــة في ذلك للتدخّل في الشؤون الداخليّة لتلك الدّيار بحجّة التسوية بينهما مشترطاً عليهما أن يخطبا باسمه في الحرم والمشاعر، وأن تُضرَب السكّة باسمه[1].

وقد استمرّ هذا التدخّل حتى أيّام النّاصر محمد بن قلاوون، حيث علت الشكوى مـــن الأخوين حميضة وأسد الدّين رميثة ممّا جعل السلطان النّاصر محمد يُرسل حملة سنة (714هـ/1314م) لينصّب أخاهما أبا الغيث محلهما في الحكم[2].

وكمـــا تقدّم، فقد أبدى أُمراء مكّة الطّاعة والامتثال لأوامر السلاطين المماليك، وقـــد ثبت ذلك جليّاً من خلال اليمين التي حُلِّف بها الأمير نجم الدّين أبو نمي أمير مكّة المشرّفة في الدّولة المنصوريّة قلاوون الصالحيّ، وقد جاءت تلك اليمين ضامنة لسلطة المماليـــك كل عناوين الطّاعة والانقياد، فقد تكفّل نصّ اليمين للسلطة المملوكية بالسيادة التّامّة على الدّيار الحجازيّة، وممّا جاء في تلك اليمين: "وإنّني ألتزم ما اشترطته لمولانا الســـلطان ولولده في أمر الكسوة الشريفة المنصورية... وأن أقدم علمه المنصور على كل علم... وإنّني والله استمرّ بتفرّد الخطبة والسكّة بالاسم الشريف المنصوري... وإنّني والله والله أمتثل مراسيمه امتثال النائب للمستنيب"[3].

(1) انظر المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص579؛ انظر عاشور: العصر المماليكي في مصر والشّام، ص238.

(2) المرجع نفسه، ص239.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 13/318-319.

ويمـــثّل هـــذا النصّ وثيقة بالغة الأهميّة في العلاقة الرسميّة التي تربط المماليك بالـــدّيار المقدّســـة، حـــيث لا يعـــدو أميرها عن كونه نائباً من نوّابهم، منفّذاً رغباتهم ومراسيمهم في تلك الدّيار.

وقد مرَّ في مبحث الأمانات الأمان الذي منحه السلطان الناصر محمد لأسد الدين رميثة، وهذا يدلّ على مدى إحكام سلاطين المماليك قبضتهم على أُمراء الحجاز[1].

وقـــد بلـــغ هـــذا التدخّل السافر إلى أن أصبح السلاطين المماليك يقلّدون أمراء الحجاز ويعزلونهم، حسب ما يتمشّى ومصلحتهم، فقد قام السلطان محمد بعزل أمير مكّة عطيفة، وتقليد أخيه أسد الدين رميثة، وقد ظهرت السياسة المملوكيّة واضحة في الخلع والتقليد من خلال تلك الرسالة –الأمان– فقد جاء فيها "فمن صلح منهم أقمناه، ومن حاد عـــن الطاعة، وجحد النعمة أزلناه، ومن أخاف فيه السبيل لم نجعل له إلى الخير سبيلا، ومن استقام على الطريقة توكّلنا على الله وولّيناه"[2].

وهكـــذا حصـــل للمماليك ما أرادوا من طي الدّيار المقدّسة تحت جناح سياستهم؛ لكي يظهروا أمام المسلمين في كل بقاع الدّنيا أنهم أصحاب الكلمة الأُولى والأخيرة في حمايـــة وكسوة الكعبة المشرّفة، وإنّه لا يأتي حاجٌّ من أيّ بلدٍ إلى تلك الدّيار إلاّ ويشعر بهيبة المماليك وسعة نفوذهم، وكثرة إحسانهم.

العلاقة مع اليمن:

ســـعت الدولة المملوكيّة لإقامة علاقة وديّة مع حكّام اليمن، فوجدت في الخلافات الداخلـــيّة بـــين حكّامهـــا ســـبيلاً إلى فرض هيمنتها على تلك البلاد، وقد بودلت بينهما السفارات، وصفت الأجواء، وجُلبت الهدايا، ولكنّها في هذه المرّة من جانب واحد، حيث

---

(1) انظر المصدر السابق، 345/13.

(2) المصدر نفسه، 235/12.

تأتـــي تلـــك الهـــدايا من جهة اليمن، فأصبحت لذلك شبه أتاوة أو ضريبة، ذات مقدار مخصّص.

ومهمـــا يكن من أمر، فإنّ العلاقة بين المماليك وحكّام اليمن بني رسول تذبذبت بـــين الصّفاء والتوتّر، ولكن أيّام الوفاق كانت غالبة، ولم يشعر المماليك بتوتّر العلاقات إلاّ زمـــن المؤيّد هزبر الدّين داود (ت721هـ/1321م) الذي لم يتبع أسلافه من ملوك الـــيمن فـــي التودّد إلى سلاطين المماليك، بل قام بأعمال أخلّت بتلك المودّة، ورأى في الهدايا التي كانت مقرّرة إلى سلاطين المماليك ضريبة يدفعها مرغماً، فامتنع عن ذلك، وقد تحقّقت نبوءته في هذه القضية، حيث أحسّ المماليك بأنّ هيبتهم قد خدشت من جانب حكّام اليمن، ولذلك أرسل الخليفة المستكفي بالله زمن السلطان النّاصر محمد رسالة إلى ذلـــك الملك، يهدّده فيها جرّاء فعلته تلك فجاء منها: "ولو أوضحنا لك ما اتّصل بنا من أمـــرك لطـــال، ولاتّسعت فيه دائرة المقال، رسمنا بها والسيف يودّ لو سبق القلم حدّه، والعلم المنصور يودّ لو فات العلم واهتزّ بتلك الروابي قدّه..."[1].

وقـــد جعل الخليفة من تلك الرسالة مناورة عسكريّة، حيث عرض فيها قطاعاته العسكريّة، موضّحاً الرغبة الأكيدة في إرغامه بالإذعان إلى أخذ عصا الطّاعة، والانقياد إلـــى تنفـــيذ كـــل أوامـــره على عادة من سبقوه من حكّام اليمن، فجاء فيها "والكتائب المنصـــورة تخـــتار لـــو بدرت عنوان الكتاب، وأهل العزم والحزم يودّون إليك إعمال الـــرّكاب، والجواري المنشآت قد تكوّنت من ليل ونهار، وبرزت كصور الأفيلة، لكنّها على وجه الماء كالأطيار"[2].

واتّســـمت نبرة خطاب تلك الرسالة بالتهديد والوعيد، وعدّت تلك الرسالة إنذاراً لـــذلك الملك من أجل أن يسلك سبيل أسلافه، ويمتثل سُنّة آبائه التي رسمها لهم سلاطين الممالـــيك، وظهـــر ذلك من خلال قول الخليفة في الرسالة: "وما عمدنا إلى مكاتبك إلاّ

(1) المصدر السابق، 425/6.

(2) المصدر نفسه، 425/6.

للإنـــذار، ولا احتجـــنا إلـــى مخاطبتك إلاّ للإعذار، فأقلع عمّا أنت بصدده من الخيلاء والإعجــاب، وانتظم في سلك من استخلفناه فأخذ بيمينه من أعطي من كتاب"[1]، وينهي رســالته تلك بالتقريع والتخويف، محذِّراً من العواقب السيئة التي سوف تلحق به، وبمن هم في طاعته، وتحت رايته إذا استمرّ في معاندته، وتمثّل ذلك الوعيد بقوله: "وإن أبى حالــك إلاّ أن استمرّيت على غيّك، واستمريت مرعى بغيك، فقد منعناك التصرّف في الــبلاد، والنظــر في أحكام العباد، حتى تطأ خيلنا العناق مشمخرات حصونك، وتعجّل حينئذٍ ساعة منونك"[2].

وظاهــر من هذه الرسالة أنّ سلاطين المماليك يرسمون السياسة في اليمن على حسب ما تقتضيه مصلحتهم، وهم بذلك أصحاب اليد الطُولى في تسيير الأمور، وترتيب أحوال البلاد والعباد، وقد كانت أطماعهم أبعد من ذلك، فهم يرغبون في ضمّ تلك الدّيار إلى مملكتهم، سيراً على نهج سادتهم الأيوبيين.

وفــي الواقع الملموس لا تشكِّل هذه الرسالة إلاّ حلقة ناتئة في عقد انتظم، مشكِّلاً علاقة طيّبة تقوم على المصافاة والصّلات والمودّات بين السلطتين، فقد كثرت السفارات بين هاتين الدولتين، وحملت الدولة المملوكيّة على عاتقها إبلاغ اليمن بأنباء الفتوح، من خـــلال كــتب البشارات التي بعث بها السلطان المنصور قلاوون أثناء فتحه طرابلس، وابنه السلطان الناصر محمد بدخول جنوده بلاد الأرمن، وقد جاءت تلك البشارات مغلّفة بالــتهديد من جانب، وبالحثّ على الجهادِ والإنفاق من جانب آخر، فجاء فيها من جهة التهديد والحثّ على الجهاد قول الشهاب الحلبيّ على لسان السلطان النّاصر محمد "اللهم إلاّ أن تلبــي دعــوة الجهـــاد مـــن تلك الجهة بألسنة النفير، وتعبّي صفوف الجلاد في

(1) المصدر السابق، 425/6.
(2) المصدر نفسه، 426/6.

الجـواري التي تكاد بأجنحة القلوع تطير، أو تنوب عنها خزائن الأموال التي تنفق في سبيل الله تعالى"[1].

والواضـح مـن هذه الرسائل أنّ المماليك يطمحون في ضمّ اليمن إلى مملكتهم لأجـل أمـوالها، وخيراتها، فقد جاء في تلك الرسالة: "وهذه المملكة قد اجتمع فيها من الأموال ما يُربى على الحصر والحدّ، ويزيد على الإحصاء والعدّ..."[2].

والقـارئ لمـثل تلـك البشارات التي وجّهت لحكّام اليمن يشمُّ من طيّاتها روح الإنكـار لتصرّفاتهم من تركهم الجهاد، وجلوسهم عنه، وارتيادهم اللهوّ والمسرّات، ففي العتاب المغلّف بالتهديد والإنكار يبيّن السلطان سياسة حكّام اليمن، حيث تركوا الجهاد، ولم ينفقوا الأموال في سبيل الله، بل أُبيحت تلك الأموال لمن ترك الجهاد جانباً، ورضي باللهـوّ صـاحباً، واقتنى السّلاح لغير يوم البأس، واعتنى بارتباط الجياد بطراً ورئاء النّاس[3].

وعلـى كـلّ حـال، فـإنّ المماليك أبقوا تلك الشعرة من العلاقة مع اليمن ولم يقطعـوها، متّبعين دبلوماسيّة تحقيق المصالح التي تعود على خزينتهم بالأموال الوفيرة أثـناء صـعود أمـواج تلـك الخلافات، وقد ركّزنا في بيان تلك العلاقة على الجوانب الخلافيّة حتى لا يُفهم أنّ العلاقة بين الدولتين كانت على وتيرة واحدة، بل تخلّلتها بعض العوائق التي مثّلتها تلك الرسالة سالفة الذكر، وحفظت المصادر التاريخيّة والأدبيّة كثيراً من الرسائل التي تحمل الودّ والصّفاء بين الدولتين[4].

(1) المصدر السابق، 351/7.
(2) المصدر نفسه، 350/7.
(3) انظر المصدر نفسه، 350/7.
(4) انظر المصدر نفسه، 353/7-370.

العلاقة مع الممالك الإسلاميّة في شمال أفريقيا:

طمحت الدولة المملوكيّة في إقامة علاقات مع دول شمال أفريقيا، فأقامت علاقات طيّبة مع حكام تونس وتلمسان والمغرب، وكان الهدف من إيجاد تلك الرابطة يعود في مجملـــه إلـــى رابطـــة الجـــوار والإسلام والخلافة، والخطر المشترك الذي يهدّد العالم الإســـلامي من جانب الغرب الأوروبي، إضافة إلى الحجّ، كون المماليك يهيمنون على الطريق الوحيد لحجّاج تلك الممالك(1).

والنّاظـــر في الرسائل المتبادلة بين المماليك وحكّام تلك الممالك وخاصّة مملكتي تلمســـان وفأس يلمس مدى الرغبة الجامحة في كسب ودّ المماليك، حيث العلاقات بين بنـــي زيّان وبني مرين لم تكن صافية، بل كانت مكدّرة ومتناحرة، وكلا الطرفين يطمح في ضمّ المماليك إلى صفّه.

ولـــبعد نظر سلاطين المماليك واستشرافهم لأطر المستقبل، وتقديمهم لمصالحهم في تلك البقاع لم يظهروا انحيازهم بشكل علنيّ إلى فئة دون أُخرى، بل أقاموا علاقاتهم مـــع النظامين مستخدمين سياسة شحن الأعصاب، حيث يستميلون أحد الطرفين؛ ليقدّم الآخـــر الودّ والصّلات؛ من أجل استمالتهم إلى جانبه، فكانت تلك العلاقة تشبه لعبة شدّ الحبل ولكن دون قطعه.

فمن رسالة بعث بها صاحب تلمسان إلى السلطان النّاصر محمد يشرح فيها مدى ولائـــه له وطاعته "سلام عليكم ورحمة الله وبركاته من أخيكم البرّ بكم، الحريص على تصـــافيكم"(2)، وقد جاءت هذه الرسالة ردّاً على رسالة بعث بها الناصر محمد لصاحب تلمسان: ولذا وجب الشُكر والثّناء، وإعلامه بوصول رسالته، ولكن الغرض الأهمّ الذي تحمله الرسالة موافقة السلطان المملوكيّ للحجّاج القادمين من تلمسان بالعُبور إلى الديار

(1) انظر عاشور: العصر المماليكي في مصر الشّام، ص243.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 86/8.

المقدّســة، فجــاء في الرسالة "ومن أعظم ذلك أذنكم لنا في أداء فرض الحجّ المبرور، وزيارة سيد البشر، والشفيع في المحشر"[1].

وقد تضمّنت الرسالة عتاباً ظاهراً للسلطان الناصر من صاحب تلك المملكة جرّاء تحســين علاقــته مــع مملكــة المرينيين بفاس حيث العداء بين حكّامها وحكّام تلمسان مســتحكم. فقد جاء التعريض بهم واضحاً من خلال قوله: "وقد وجب شكركم علينا من كل الجهات، واتّصلت المحبّة والمودّة طول الحياة، غير أنّ في قلوبنا شيئاً من ميلكم إلى غيــرنا واستئناســكم، ونحــن والحمـــد لله أعلم النّاس بما يجب من حقوق ذلكم المقام الشريف، ولنا القدرة على القيام بواجبكم، والوفاء بكريم حقكّم..."[2]، والظّاهر من ذلك الخطـــاب مدى حرص حكّام تلمسان على احتكار صلة المماليك بهم دون جيرانهم بني مـــرين فـــي فـــاس، وقد ظهر ذلك جليّاً من خلال السفارة التي بعث بها بنو مرين إلى السلطان الناصر محمد، حيث بعث برسالة شرح فيها موقفه صريحاً من حكّام تلمسان، مبيّـــناً خيانتهم للمسلمين وخذلهم لأهل الأندلس، ومعاضدتهم لأهل الكفر، محاولاً إفساد علاقـــتهم مع المماليك، فجاء من تلك الرسالة "وأمّا تشوّق ذلكم الإخاء لمواصلة الكتب بســـارّ الأنباء؛ فإنّ من أقربها عهداً وأعذبها حديثاً يهادى ويهدى ما كان من أمر العاقّ قاتـــل أبـــيه، الحال من إقليم تلمسان، وممالكها في سالف الزمان، ولم يزل بينهم وبين أســـلافي المحـــتوين على ملك المغرب الأقصى وقائع توردهم الحمام، وتذيقهم الموت الزؤام، فيدعون إلى المنازعة ويعودون للموادعة ثمّ لم يلبثوا أن ينكثوا..."[3]. وقد جاء فـــي تلـــك الرسالة تقرير عامّ حول سيرة حاكم تلمسان السيئة وطريقتهم معه في سحق جيوشه والانتصار عليهم، وتأمين طريق حجيجهم.

---

(1) المصدر السابق، 8/86.

(2) المصدر نفسه، 8/86.

(3) المصدر نفسه، 8/91.

والنّاظـــر في تلك الرسائل يجد الفائز الوحيد في تلك الخصومات المماليك، فكلا الطـــرفين يخطب ودّهم ويصلهم بالأعطيات، ويحاول احتكار صداقتهم، مع أنّ المماليك لم يقطعوا سفاراتهم عن كلا الجانبين، فالمستفيد في عالم المصالح المماليك لا غيرهم.

والمـــنعم النظر في تلك العلاقة يجدها أوثق عُرىً مع بني مرين من بني زيان، ولعـــلّ السبب يعود لغلبتهم وكثرة صلاتهم ودوامها، إذ كان أبرز المواضيع التي تغذي تاريخ بني مرين السياسيّ موضوع صلاتهم ببلاد المشرق وخاصة ملوك مصر والشّام والحجاز والعراق، وكانت لهم مراسلات وسفارات ومناصرات ومهاداة[1]، وخير شاهد على ذلك ما أرسله الحسن المريني إلى السلطان الناصر محمد من سفارة محمّلة بالتّحف والهـــدايا "وهكـــذا سيَّرنا من تحف هذه البلاد إليكم ما تيسّر في الوقت تسييره"[2]، وفي موقع آخر من الرسالة: "وقد عيّنّا بيد محلّ الوالدة المذكورة فيه من المال ما يشترى به في تلكم البلاد المُحوطة من المستغلاّت ما يكون وقفاً للقرأة فيه"[3].

وأمّـــا علاقة المماليك مع بني حفص في تونس فقد بقيت فاترة، ويُعلّل فتور تلك العلاقـــة لادّعائهم الخلافة في تونس، فوجود مثل تلك الخلافة لا تروق لخلفاء العباسيّين في مصر[4].

العلاقة مع الأندلس:

لم تتجاوز علاقة المماليك مع صاحب غرناطة حدود التعبئة النفسيّة، حيث بقيت العلاقـــة بين الدولتين في أسر المجاملات، واكتفت العلاقة بينهما بالسفارات التي تبلّغ أخبار الفتوح والانتصارات من جهة المماليك، ومن جهة المملكة الغرناطية بالإخبار عن مدى السُّرور بهذه البشارات.

---

(1) انظـــر الـــتازي، عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم (عهد بني مرين)، (1408هـ/1988م)، مطابع فضالة – المحمدية، ص8.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 102/8.

(3) المصدر نفسه، 102/8.

(4) انظر العمريّ: التعريف بالمصطلح الشريف، ص32؛ انظر عاشور: العصر المماليكي، ص243.

واتّخذت الرسائل بينهما سمة التبادل الدبلوماسيّ، حيث يقدّم حاكم غرناطة تفاصيل أمر الجهاد في مملكته، فيردّ المماليك عليه الجواب بالتشمير لمساعدته لولا بُعْد الشقّة بينهما، فمن ذلك رسالة بعث بها صاحب غرناطة إلى الملك الأشرف شعبان، مبدياً له فيها مشاعره تجاه المماليك إثر إغارة الصليبيين على ثغر الإسكندرية فجاء فيها: "وإلى هذا فإنّنا اتصل بنا ما رامت الرّوم من المكيدة التي كان دفاع الله دونها سدّاً والملائكة جنداً، والعصمة سوراً، والروح الأمين مدداً منصوراً، وأنّها استنفدت الوسع في احتشادها، حتى ضاقت اللجج عن أعوادها..."(1)، وأخذ يعدّد دوافع الصليبيين لأخذ ثغر الإسكندرية، ولكن العسكر المنصور قطع شأفتهم "فخرج العدو الخاسر عمّا حازه والسُّيوف ترهقه حيث تلفيه"(2).

والناظر في هذه الرسالة يجد فيها كثرة المجاملات والمبالغات في وصف تلك الوقعة، حيث يعجز عن وصفها بهذه التفاصيل من عاينها، فكيف يصفها بهذه الأوصاف؟ لا بل لم يكتفِ بذلك بل تمنّى لو أنّ السُّبل ممهّدة للاشتراك في تلك الوقعة "ولولا العوائق التي لا تبرح، والموانع التي وضحتِ حتى لا تشرح، ومكايدة هذا العدوّ الذي يأسو به الدهر ويجرح، لم نجتز بإعلام القلم عن إعمال القدم، حتّى نتشرّف بالورود على تلك المثابة الشريفة، ونمتاز بزيارة الأبواب المنيفة..."(3).

ولمّا كانت هذه الأعذار والحجج دامغة، حيث العدوّ يتبرّص بهم الدوائر، والمسافات بعيدة، اكتفى بالتهنئة بهذا الانتصار "فبادرنا عند تعرّف الخبر، المختال من أثواب المسرّة في أبهى الحبر، المهدى أعظم العبر، إلى تهنئتكم تطير بنا أجنحة الارتياح، مبارية للرياح..."(4).

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 111/8.
(2) المصدر نفسه، 112/8.
(3) المصدر نفسه، 113/8-114.
(4) المصدر نفسه، 113/8.

وكانت الرُسل المملوكيّة كذلك تفد إلى صاحب غرناطة تحمل بعض الرسائل التي تكـــون غالباً أجوبة عن كتب بُعِثَ بها أولاً، فمن ذلك جواب صاحب غرناطة بُعث به ســـنة 765هـــــ، وكان قد تضمّن كتاب صاحب غرناطة أخبار الجهاد، وبعض القلاقل السياسيّة الداخليّة في مملكته، فجاء في ذلك الردّ:

"فوقفـــنا علـــى مضمونه جميعه... من استمراره على عادة سلفه من القيام بأمر الجهاد، وقطع دابر الكفرة ذوي الشقاق والعناد، وتوطيد ما لديه من تلك البلاد، وتطمين ما بها من العباد"(1).

وقـــد تضـــمّنت الرسالة كذلك إخبار المماليك عن استيلاء أحد أقاربه على ملكه، وكيفـــية استرجاعه، وقتل ذلك المستبدّ: "وما اتّفق من قريبه في الصورة لا في المعنى، وكيف أساء إليه فعلاً وقد أحسن به ظنّاً"(2).

ومهما يكن، فإنّ تلك السفارات المتبادلة بين المملكتين تؤكّد عُمق الروابط بينهما، فالهـــدف الـــذي تظهره تلك الرسائل يكمُن في نقل أنباء الفتوح والانتصارات والتهاني والمسرّات، ولكنها في الوقت ذاته تعبّر عن صفاء العلاقة ودوام المودّات.

---

(1) المصدر السابق، 114/7.

(2) المصدر نفسه، 114/7.

- العلاقة مع الدول غير الإسلامية:

العلاقة مع التتار:

اتّســمت العلاقة بين المماليك والتتار بالعداوة المستحكمة، وقد مثّلت تلك العداوة المراسلات بين الطرفين، حيث شكّلت تلك المراسلات ما يسمّى بأدب الحرب، فقد اتّخذ التـــتار من رسائلهم لسلاطين المماليك وسيلة للوعيد والترهيب، وحرق الأعصاب، وقد قُــوبلت تلــك الرســائل بالغضب والتهديد من جانب المماليك، والاستهزاء والسخرية أحيانــاً.

ومن الجدير ذكره، أنّ المماليك تولّدت علاقتهم تلك بالتتار منذ وقت مبكّر، حيث طمــح التتار إلى ضمّ دولة المماليك في مصر والشّام إلى باقي ممالكهم، فكان من أولى المراسلات بين المماليك والتتار الرسالة التي بعث بها الملك هولاكو إلى السلطان قطز، مــبدياً فــيها صنوفاً من التهديد والوعيد، فجاء فيها: "فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرقّ لمــن شــكى، وقد سمعتم أنّنا قد فتحنا البلاد، وطهّرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا الطلب، فأيّ أرض تأويكم، وأيّ طريق تنجيكم، وأيّ بلاد تحمــيكم، فمــا مــن سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال"[(1)].

والنّاظر في تلك الرسالة يجد غلظة الحرب ومكرها، فهذه الرسالة تمثّل طرفاً من سياسة الحرب البادرة، فاستعراض القوى العسكريّة، وخشونة التعامل، والتهديد والوعيد تضعف قوى الخصم، لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للمماليك، حيث أثارت هذه الرسالة ثائــرة قطز، وحفّزته إلى أن يحفز النّاس فما لثبوا أن هبُّوا عن بكرة أبيهم يدفعون شرّ التتار عن بلادهم، وقد جمع الأمراء واتّفقوا على قتل الرُّسل، وحثّ النّاس على الجهاد،

---

(1) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، القسم الثاني، الجزء الأول، ص428.

ورغّبهم فيه، وعزم على ملاقاة التتار خارج حدود مصر[1]، على الرغم من أنّه وجد معارضة من بعض الأُمراء في خوض تلك الحرب، فقد أبدى بعضهم الخوف من التتار، وهرب بعض ضعاف النفوس من مصر إلى المغرب واليمن والحجاز، إلاّ أنّ معظم الأمراء رأوا الدفاع عن مصر[2].

وتمثّل تلك الرسالة طرفاً من سياسة التتار في نشر مظاهر الخوف والفزع بين طبقات النّاس، سيما وإنّ أفعالهم قد ظهرت في البلاد التي تمَّ اجتياحها واستيلاؤهم عليها، فأفعالهم مطابقة لقولهم.

فهذه الرسالة تمثّل استفزازاً للأمّة الإسلاميّة، وقد ظهر ذلك جليّاً من خلال مصاهرة هولاكو للصليبيين، وتمذهب بمذهبهم، فأحكم ذلك الاعتقاد في نفسه كره المسلمين، وضرورة الانتقام منهم، فجاء في الرسالة: "وقد ثبت عندكم أنّ نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة"[3]. فهذه العبارة تمثّل سياسة الحرب العقدية لديهم، حيث يوجّه الاعتقاد الديني مسيرة العلاقة وطبيعتها.

وقد اكتفى قطز بالردّ على تلك الرسالة بالفعل لا بالقول، فبعد أخذ رأي أُمرائه قام بقتل رُسل هولاكو جميعاً، مقدّماً السيف على اللسان.

وبقيت علاقة التتار مع السلطان الظاهر بيبرس تدور في فلك الحرب والمطاردة، حيث تابع فلولهم حتّى ضفاف الفُرات، وقد بعث أبغا برسالة إلى السلطان الظّاهر يهدّده فيها، مذكّراً إيّاه بمقتل الرُسل، متوعّداً له بسوء العاقبة، فجاء في تلك الرسالة المشوّشة الترجمة: "بقوة الله تعالى بإقبال قاآن فرمان أباقا يعلم السلطان ركن الدّين أنّه لأجل أن

---

(1) انظر المصدر السابق، ج1، ق2، ص429.

(2) انظر عاشور، فايد: العلاقات السياسيّة بين المماليك والمغول في الدولة المملوكيّة الأولى، 1975، دار المعارف – القاهرة، ص49.

(3) انظر المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص428.

عــرض علـــى رأينا كُتب إلى عند التكفور أنّ الرسل الذين أنفذهم أيلخان ما قتلهم إلاّ قطز، والملوك يطلبون التوسُّط حتّى يصيروا إيل"[1].

وقــد جـــاء في تلك الرسالة تأنيب للسلطان الظّاهر لعدم إرساله في تلك السفارة لأحـــد أبنائه أو إخوانه، وقد زعم أبغا سلامة هؤلاء الرُسل وأنّه لن يغدر بهم، فقد كفل قانـــون شريعتهم ذلك، فالابن لا يؤخذ بذنب أبيه ولا أخ بذنب أخيه[2]، ولعلّه يرمي إلى طمأنة الظّاهر بإرسال أحد أبنائه أو إخوانه ليقتصّ منهم.

وتظهر الرسالة إلى جانب ذلك اللّين لوناً من الوعيد والتهديد، حيث يدلّ على ذلك قــولـــه فـــي الرسالة: "فمن مطلع الشّمس إلى مغيبها في جميع العالم من الذي استقبل وأطـــاع ودخـــل فـــي العبودية"[3]، فهذه العبارة لا تدلّ إلاّ على منطق القوة والسطوة والتقـــريع، حيث لا مفرّ لكم إلاّ إلى ملجأ العبودية، فجاء ردّ السلطان على تلك الرسالة أكثر حزماً وقوة، مفنداً تلك المزاعم، فجاء في ردّه: "وقد أعطانا الله ملك أربعين ملكاً، وأمّـــا ذكـــره من أنّه من مطلع الشّمس إلى مغيبها أطاعوه، فأي شيءٍ جرى على كتبغا نوين؟ وكيف كان دماره"[4]، وقد أظهر السلطان كذلك زيف زعمه، وسوء نيّته، حيث لم يــبعث إلى السلطان أحد خواصّه، وهذا ما دعا السلطان إلى عدم بعث أحد أقربائه في تلك الوفادة[5].

---

(1) عبد الظّاهر، محي الدين: الروض الزاهر، ص340.

(2) المصدر نفسه، ص340.

(3) المصدر نفسه، ص340.

(4) المصدر نفسه، ص341.

(5) المصدر نفسه، ص342.

وقـــد توالت رسائل التهديد من الملك أبغا بن هولاكو (680هـ/1281م) للظاهر بيبـــرس، إلاّ أنّـــه لم يتمكّن من تنفيذ تهديداته في هذه الآونة لوقوع الخلاف بينه وبين مغول القفجاق وانشغلوا بأنفسهم(1).

ومهمـــا يكـــن مـــن أمر، فإنّ تلك السفارات بين التتار والملك الظاهر استمرّت، ولكنها بقيت في إطار الوعيد والتهديد، فقد أرسل أبغا وفداً إلى نائب السلطنة في حلب، وكـــان لديهم رسالة شفويّة مضمونها يتمثّل في "الصلح أي شيء جاء منه من المضرّة، والعداوة أي شيء جاء منها من الفائدة"(2)، وكانت وفادتهم تلك تتمثّل في إخبار السلطان الظاهـــر بـــأنّ أوامر أبغا تقتضي ذهاب السلطان أو نائبه إلى الملك أبغا لأجل الصّلح، فكـــان الـــردّ من السلطان بأنّ أبغا إذا قصد الصلح يمشي فيه هو أو أحد من إخوته(3). وتمـــثّل تلـــك المراسلات نوعاً من المناكفات، إذ يملي كل من الزعيمين أوامره، مبدياً قوّته وشجاعته وسطوته.

وبعـــد أن اعتنق التتار الدين الإسلامي اتّخذت العلاقة مع البيت القلاووني طابعاً آخر، يتمثّل في الخداع حيناً والتهديد حيناً آخر، فهم لم يتركوا الحرب والنضال والفساد فـــي الأرض(4). فقد اتّخذ التتار من الإسلام غطاءً لتنفيذ مآربهم، وبسط سيطرتهم على ممالـــك المســـلمين، وخاصّـــة دولة المماليك، وقد كانت أُولى تلك المراسلات ما بعثها الســـلطان أحمد أحد أبناء هولاكو- إلى السلطان المنصور قلاوون مبشّراً إيّاه باعتناقه الإســـلام، وموضّـــحاً له السياسة الجديدة في ظلّ الإسلام، طالباً منه الانقياد والطّاعة، وتـــرك الحرب والقتال، فجاء في تلك الرسالة: "فإن وفّق الله سلطان مصر إلى ما فيه صـــلاح العالم، وانتظام أمور بني آدم، فقد وجب عليه التمسّك بالعروة الوثقى، وسلوك

(1) انظر عاشور، فايد: الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي، ط1، 1995، جرّوس برس – طرابلس – لبنان، ص280.

(2) عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص404.

(3) انظر المصدر نفسه، ص404.

(4) انظر أبا زهرة، محمد: الدعوة إلى الإسلام، ط جديدة، 1992، دار الفكر العربي- القاهرة، ص62-63.

الطريقة المثلى، بفتح أبواب الطّاعة والاتحاد، وبذل الإخلاص بحيث تعمر تلك الممالك، وتـــيك البلاد، وتسكن الفتنة الثائرة، وتغمد السيوف الباترة، وتحلّ العامة أرض الهوينى وروض الهـــدون، وتخلـــص رقاب المسلمين من أغلال الذلّ والهوان، وإن غلب سوء الظـــنّ بمـــا تفضّل به واهب الرحمة، ومنع معرفة هذه النعمة، فقد شكر الله مساعينا، وأبلى عذرنا"[1].

والمطّلـــع علـــى تلك التفاصيل التي تضمّنتها الرسالة يخلص إلى مجموعة من المحاور الأساسيّة، حيث تتضمّن خبر إسلام تلك الأمّة، وتغيير سياسة حكّامها، وتحوّلهم إلـــى نـــبذ الفتن والقتال، ولكن المآرب التوسّعيّة لم تزل تحدوهم حيث ما زال أُسلوب التقـــريع والتهديد والوعيد ينتظم سلك تلك الرسالة، وقد قابل السلطان المنصور قلاوون تلك الرسالة برسالة أبدى فيها حذره الشديد من نبأ إسلام تلك الملّة، ومدى صدق نيّاتهم، وأخـــذ في تفنيد آراء السلطان التتريّ الواردة في تلك الرسالة السابقة الذكر، متهكّماً في كثيـــر من الأحيان، ومهدّداً أحياناً أُخرى، فمن محاور رسالته "ومن المشافهة إذا كانت رغبتـــنا غير ممتدّة إلى ما في يده من أرض ومال، فلا حاجة إلى إنقاذ المغيرين الذين يُـــؤذون المسلمين بغير فائدة تعود، فالجواب أنّه لو كُفَّ كَفٌّ العدوان من هنالك أو خلّى لملوك المسلمين ما لهم من ممالك سكنت الدهماء، وحقنت الدّماء، وما أحقّه بأن لا ينهى عن خلق ويأتي مثله، ولا يأمر بشيءٍ وينسى فعله"[2].

ولا شـــكّ أنّ العداوة ظلّت بين الدولتين مستحكمة والأحقاد ظاهرة وباطنة، وقد بقـــيت هـــذه المراسلات بين الطرفين، تحمل طابع التهديد والوعيد والكشف عن سوء النـــيّات، وقد أخذت تلك الرسائل لوناً آخر في أدب الحرب، حيث نهج السلطان غازان مـــنهجاً آخـــر يتمثّل في كتب الأمان والفرمانات، إذ كان له مآرب من اعتناقه الإسلام، فهـــو يـــريد أن يـــتفوّق علـــى الأُمراء الأقوياء، وأن يكتسب الكثير من الأعوان؛ لأنّ

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 68/8.

(2) المصدر نفسه، 241/7.

المسلمين حينئذٍ سيقفون إلى جانبه وتزداد قوّته باعتناقه للإسلام[1]، حيث أخذ يبعث في تلك الكُتب إلى حواضر الشّام، والتي لا تعني إلاّ أمراً واحداً يتمثّل في الاستسلام، والانقياد لأوامره، وقد سوّغ اجتياحه لتلك الحواضر بالظلم الواقع عليهم من نوّاب السلطنة فيها، وعدّهم خارجين عن الطّاعة، وأمر الجماعة، فجاء في أحد فرماناته لأهل دمشق "ولمّا سمعنا أنّ حكّام مصر والشّام خارجون عن طرائق الدّين، غير متمثّلين بأحكام الإسلام، ناقضون لعهودهم، مخالفون لمعبودهم، حالفون بالأيمان الفاجرة، ظالمون في أحكامهم المتغايرة، ليس لديهم وفاء ولا ذمام، ولا لأمورهم التئام، ولا انتظام"[2].

وتنطوي تلك الرسالة على ألوان من التهديد والتقريع، وتمثّل كذلك سياسة الخداع والمكر والتستّر تحت ذرائع العقدية لتسويغ نهبهم وسلبهم، واجتياحهم لممالك المسلمين، فهم على بطشهم وقتلهم وترويعهم الآمنين، يدّعون أنّهم جاءوا لنصرة الدّين، ورفع الظلم عن المظلومين، فقد "حملتنا الحميّة الدينيّة، والحفيظة الإسلاميّة على أن توجهنا إلى هذه البلاد، لإزالة العدوان والفساد"[3].

وقد كشفت هذه الرسالة بما انطوت عليه من فكر حاقد عن سياسة التتار الدمويّة، القائمة على القتل والسلب والنهب، حيث وصف الصفديّ رحيل غازان عن دمشق بعد اجتياحه لها وقد أخذ أموالاً كثيرة، فدقّت البشائر لذلك"[4].

وتبادل غازان والسلطان النّاصر محمد (700هـ/703هـ) رسائل التهديد والترهيب، ولم تتغيّر سياسته بل ظلّت أسيرة الخطاب الآمر، الذي ينظر إلى المماليك من أعلى، ويعدّهم طغمة خارجة على الدين، ظالمة للنّاس، متسلّطة على حقوقهم، ولم يكن هذا الوصف خاصاً بالطبقة الحاكمة، بل كل من رضي بطاعتهم يُعدُّ مفسداً، عاصياً

---

(1) انظر إقبال، عبّاس: تاريخ المغول، ترجمة عبد الوهاب علّوب، (1420هـ/2000م)، المجمع الثقافي – أبو ظبي، ص264.

(2) الصفديّ: أعيان العصر، 15/4-16.

(3) المصدر نفسه، 16/4.

(4) انظر المصدر نفسه، 18/4.

لله. وقد جاء هذا الوصف في رسالة بعثها غازان للنّاصر محمد يهدّده فيها، ويتوعّده جرّاء ما قام به عسكره، فجاء في تلك الرسالة: "ليعلم السلطان الملك النّاصر أنّه في العام الماضي بعض عساكرهم المفسدة دخلوا أطراف بلادنا، وأفسدوا فيها لعناد الله وعنادنا كماردين ونواحيها، وجاهروا الله بالمعاصي، فيمن ظفروا به من أهلها، وأقدموا على أمور بديعة، وارتكبوا آثاماً شنيعة، من محاربة الله، وخرق ناموس الشريعة" [1]. وقد تناولت الرسالة صنوفاً من التهديد، بل تعدّت ذلك إلى أُسلوب الشتم المباشر للسلطان، والتقليل من شأنه، فجاء في هذا المعنى قوله: "وخالفتم سنن الملوك وحسن السلوك، وصبرنا على تماديكم في غيكم، وخلودكم إلى بغيكم"[2].

وبلغ به التحدّي والاستخفاف بالسلطان النّاصر أن يعدّ له الهدايا والتحف مع حامل تلك الرسالة على ما هي عليه من التهديد والتقريع والتوبيخ[3]. وأجاب النّاصر عن تلك الرسالة بأُخرى نقض فيها مزاعم غازان، وبيّن فيها سوء نيّته، وفساد عقيدته، فجاء في تلك الرسالة: "لا أن تقصدوا الإسلام بالجموع الملفّقة على اختلاف الأديان، وتطئوا البقاع الطاهرة بعبدة الصلبان، وتنتهكوا حرمة البيت المقدّس الذي هو ثاني بيت الله الحرام"[4].

وتمثّل تلك المراسلات لوناً جديداً في تاريخ العلاقة بين التتار والمماليك،فمثل هذه الرسائل تعدّ وثائق حربيّة مهمّة لدراسة تاريخ الغزو المغوليّ للبلاد العربيّة إبّان الحكم المملوكي.

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 69/8.

(2) المصدر نفسه، 69/8.

(3) المصدر نفسه، 70/8.

(4) المصدر نفسه، 244/7.

العلاقة مع الصليبيين:

شـكّلت الحمـلات الصليبية خطراً عظيماً على العالم الإسلامي، حيث تضافرت مجمـوعة من العوامل أدّت إلى زيادة رغبة الصليبيين في ضمّ الكنائس في ممالك بلاد الشّـام ومصـر إلـى البابوية في أوروبا[1]، وقد تميّزت علاقة المماليك مع الصليبيين بالجانب الدينيّ العقديّ، حيث نظر المماليك إلى تلك الحملات على أنّها غزوٌ يهدف إلى اقـتلاع جـذور المسـلمين مـن تلـك الممالك، ولذا أخذت الحرب معهم صفة الجهاد المقـدّس.

وقـد وقـع العـالم الإسـلامي حينذاك بين خطرين داهمين: التتار من الشرق والصـليبيين مـن الغرب، وهذا الأمر جعل سلاطين المماليك يفكّرون في إقامة بعض الهـدن ليتسنّى لهم الخلاص من أذى التتار الفتّاك. فبعد أن تمّ للمماليك الانتصار على التـتار في عين جالوت، وجّه السلطان الظّاهر نظره لتحرير البلاد من الصليبيين، "وقد بدأت الحرب الشّاملة التي شنّها بيبرس على الصليبيين بعدّة محاولات من جانبهم لطلب الصـلح"[2]، وقد تمّ للسلطان بيبرس اجتياح أكثر معاقلهم مثل: قيسارية ويافا، وعثليت وأرسـوف، وكانـت له محاولات جريئة في عكّا، وقد استمرّت محاولات المماليك في القضـاء علـى الوجود الصليبي في بلاد الشام ومصر في فترة حكم السلطان الظاهر والبيت القلاووني.

وقـد مثّلت تلك المحاولات الرسائل السياسيّة ككتب الهدن والبشارات، وقد تميّز الخطـاب السياسي في تلك الرسائل باللغة الفوقيّة من جانب المماليك، ممّا يدلّ على قوّة قبضتهم على زمام الأمور، وقد اتّسمَ ذلك الخطاب بالسخرية والتهكّم.

(1) انظر زتلمة، أنور: المماليك في مصر، مكتبة مدبولي، ط1، 1415هـ/1995م، ص38-39.

(2) عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص60.

فمن تلك الرسائل التي حملت ذلك الطابع السّاخر، الرسالة التي بعث بها السلطان بيبرس إلى بوهمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس بعد فتح أنطاكية سنة 667هـ، فقد جـاء فـيها: "قـد علم القومص المبجّل المعزّز الأسد الضرغام... ما كان من قصدنا طـرابلس، وغزونا له في عقر الدّار، وما شاهده بعد رحيلنا من إخراب العمائر، وهدم الأعمـار، وكيف جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر؟ وكيف قـتلت الـرّجال، واستخدمت الأولاد، وتملّكت الحرائر... وكيف استغنَ الفقير، وتأهّل العازب واستخدم الخديم، وركب الماشي"[1].

وقد فصّل السلطان القول في هذه الرسالة التي تشبه بياناً عسكرياً يصدره الجانب المنصـور؛ لزيادة النكاية بالمخذول، وقد بلغت قمّة السخرية والتهكّم مداها عندما جعل تلك الرسالة بشارة تلامس مسمعه، فجاء فيها "وكتابنا هذا يتضمّن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة وطول العمر بكونك لم يكن له في أنطاكية في هذه المدّة إقامة، وكونك ما كنت بها فتكون إما قتيلاً، وإمّا أسيراً، وإمّا جريحاً، وإمّا كسيراً، وسلامة النّفس هي التـي يفـرح بهـا الحيّ إذا شاهد الأموات"[2]، وقد اتّخذت تلك الرسائل التي بعث بها السلطان الظاهر إلى بوهمند السادس طابع التهكّم والسخرية والتهديد في آن معاً، وتشير مـثل تلـك الرسائل إلى غلبة كفّة المماليك في تلك الحروب، فقد بعث السلطان الظاهر رسـالة إلى صاحب طرابلس بوهمند السادس مبشّراً إياه على سبيل السخرية والتحقير بفـتح عكّـار*، وطـرد عسكره منها، وإحلال علم المسلمين مكان أعلامه "وكتابنا هذا يبشّـرك بـأنّ علمـنا الأصفر نصب مكان علمك الأحمر، وأنّ صوت الناقوس صار

---

(1) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ق3، ص966.

(2) المصدر نفسه، ج1، ق3، ص968.

* وحصـن عكّـار وهو أحد الحصون في مملكة طرابلس في بلاد الشام، وهو حصن منيع من بناء الإسلام وينصبّ إليه ماء من الجـبل المطلّ عليه. انظر شيخ الربوة الدمشقي، شمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري (727هـ/1327م): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبع في مدينة بطربورغ في مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية، 1281هـ/1865م، ص208.

عوضه "الله أكبر"، ومن بقي من رجالك أطلقوا ولكن جرحى القلوب والجوارح، وسلموا ولكن من ندب السُيوف إلى بكاء النوائح، وأطلقناهم ليحدّثوا القومص بما جرى"[1].

وتحمــل هــذه الرســائل مضــموناً آخــر، وهو تصوير قوّة الجيش المملوكي، وشجاعته، وقوة شكيمته وشدّة بأسه، فمن تلك الرسالة: "وكيف نقلنا المنجنيقات إليها في جبال تستصعبها الطُيور لاختيار الأوكار، وكيف صبرنا في حرّها في مناكدة الأوحال، ومكابــدة الأمطــار، وكــيف نصــبنا المنجنــيقات علــى أمكنة يزلق عنها النمل إذا مشــى..."[2].

فقــد أوغل الكاتب في وصف عزيمة السلطان وقوة سطوته وصبره على تحمّل الأذى فــي سبيل تحرير البلاد من أولئك الأوغاد، وفي ذلك إشارة إليهم من أجل تركها والرحيل عنها؛ لأنّ عزيمته لا يثنيها ثانٍ دون تحقيق ما تسمو إليه نفسه.

ولــم ينتقل الحكم إلى البيت القلاووني إلاّ بعد نهنهة أركان معاقل الصليبيين في بــلاد الشّــام، ولــم يــبقَ لهم سوى طرابلس وعكّا وبعض المعاقل الداخلية في هاتين المملكتــين، وقد استمرّ الملك المنصور قلاوون في سياسة تقويض الكيان الصليبي، فقد وجــد الفرصــة ســانحة فــي الإغــارة على طرابلس سنة 689هــ وتمّ له فتحها بعد محاصــرتها، ولم يلبث الصليبيون أن أخلوا ما لهم من مراكز ومُدن في إمارة طرابلس مــثل بيــروت وجــبلة فاحتلّها المماليك في سهولة[3]، وقد أنهى الأشرف خليل الوجود الصــليبي فــي بلاد الشّام بعد تحريره عكّا وصور وحيفا، وبذلك لم يبقَ للصليبيين في الشّــام ســوى انطــرطوس وعثليث فاستسلمتا، وبذلك تكاملت بهذه الفتوح جميع البلاد الساحليّة للإسلام[4].

---

(1) المصدر السابق، ج1، ق3، ص972.

(2) المصدر نفسه، ج1، ق3، ص972.

(3) عاشور: العصر المماليكي، ص71.

(4) انظر المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ق3، ص765-766.

وقـد كشـفت رسـائل الهدن والبشارات بأنباء الفتوح عن العلاقة بين المماليك والصـليبيين، فقـد تناولـنا طرفاً من تلك الهدن في مبحث سابق، حيث وضّحت تلك الرسـائل موقف المماليك الحازم من الوجود الصليبي، وقد أظهرت تلك الرسائل بطولة المماليك، وشدّة أسرهم، وكشفت من جانب آخر قوة الخطاب السياسي للمماليك، حيث كانت الشروط تملى-كما أشرنا سابقا- من المماليك لا الصليبيين، وهذا يدلّ على إحكام قبضتهم على السّاحة العسكريّة والسياسيّة، وقد ساهمت رسائل البشارات التي بُعثت إلى العالم الإسلامي آنذاك في تزيين صورة المماليك، حيث أصبحوا القوة الضاربة المدافعة عن حِمى المسلمين ومقدّساتهم، كما بيّنت سياستهم في كشف تخاذل بعض دول الإسلام في تركهم للجهاد والخلود إلى الدعة والرّاحة، وتجنّباً للتكرار نشير إلى التمثيل على تلك الظاهرة في المبحث الخاص بالتهاني والبشارات.

علاقة المماليك بالنوبة:

اتّصـفت العلاقة بين المماليك وأهل النوبة بالنزاعات التي كان الرابح فيها دائماً المماليـك، ولـم تهدأ تلك النزاعات حتى وقعت مصر تحت الفتح العثماني وطول حكم المماليـك كانت النوبة تدفع الجزية لسلاطين المماليك، وهذه الإتاوة كانت مقرّرة عليهم مـن زمـن الفـتح في إمارة عمرو بن العاص رضي الله عنه، ثمّ صارت تنقطع تارة وتحمـل أخرى، بحسب الطّاعة والعصيان[1]. وقد ساهم موقعها المتاخم لدولة المماليك أن تقـع تحـت سيطرتهم، ولذا أجبر حكّامها على أن يحلفوا الأيمان بالطّاعة لسلاطين المماليـك، فمـن هذه الأيمان اليمين التي حلف بها مشكد ملك النوبة للسلطان الظاهر بيبرس، مُظْهِراً فيها الولاء والطّاعة، فجاء من تلك اليمين: "إنّني أخلصت نيّتي وطويتي مـن وقتـي هذا، وساعتي هذه للسلطان الظاهر ركن الدّنيا والدين بيبرس، وإنّني أبذل جهدي وطاقتي في تحصيل مرضاته، وإنّني ما دمت نائبه لا أقطع ما قرّر عليَّ في كل

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 6/8.

سنة تمضي، وهو ما تفضل عن مشاطرة البلاد على ما كان يحصل لمن تقدّم من ملوك النوبة"[1].

وفي هذا الجزء من اليمين يتّضح مدى تدخّل المماليك في شؤون النوبة حيث يعدّ ملكهم نائباً للسلطان يقوم بتعيينه، ويبقيه ما دام موفياً باليمين، وعند الإخلال بها يخلعه، ويستبدله بآخر.

وقـد فصّـلت تلك الرسالة الجزية المفروضة على أهل النوبة، وهي "من الأفيلة ثلاثــة، ومن الزرافات ثلاث، ومن إناث الفهود خمس، ومن الصهب الجياد مائة، ومن الأبقــار الجياد المنتجة أربعمائة، وإنّني أقرّر على كل نفر من الرعية الذين تحت يدي في البلاد من العقلاء البالغين ديناراً عيناً"[2].

وتظهــر هــذه الرسالة مدى تحكّم المماليك، وإحكام قبضتهم على ملوك النوبة، حـيث تملــى الشروط عليهم ولا سبيل إلاّ إلى تنفيذها. وقد استمرّت العلاقة على هذه الشــاكلة طــوال حكم البيت القلاووني، حيث رُقّع الأيمان التي ترجح كفّتها لصالحهم، فهــناك يمين حلف بها ملك النوبة للسلطان المنصور عندما استقرّ نائباً لقلاوون، وهذه اليمــين لا تخــرج فــي مضمونها عن اليمين السالفة الذكر، حيث قرّرت الولاء التّام للسلطان، وحدّدت الجزية المفروضة، وقد تجاوزت هذه الأيمان إلى إعلام السلطان بكل نبأ يرد إلى ملك النوبة جهراً أو سرّاً، نافعاً أو ضاراً[3].

---

(1) ابــن الفــرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت807هـ/1405م): تاريخ ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق، المطبعة الأميركانية – بيروت، 1942، ج7، ص47-48.

(2) المصدر نفسه، 48/7.

(3) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 291/13-292.

علاقة المماليك مع الحبشة:

تمــثّلت العلاقــة بين المماليك والحبشة بحاجة الأحباش إلى مطران من الكنيسة المرقســية في الإسكندرية، فقد جرت العادة "بأن تستورد الحبشة مطارنتها من مصر، فــإذا خلا منصب مطران الحبشة أرسل ملكها رسالتين، إحداهما لحاكم مصر والأخرى لبطــرك الإسكندرية طالباً تعيين من يشغل كرسي المطرانية في الحبشة"[1]. وقد شعر سلاطين المماليك بهذه الميزة، حيث مكّنتهم حاجة الأحباش للمطارنة من فرض إرادتهم على ملوك الأحباش.

وقــد اقتصــرت العلاقــة بين تلك الدولتين على أُمور الكنيسة، ولم تتعدّها إلى علاقات سياسيّة وحربيّة، فقد ورد السلطان الظاهر كتابٌ من ملك الحبشة يريد الغرض ذاته، وهو طلب مطران يشغل منصب الكنيسة في بلاده، وقد جاءت الرسالة عن طريق ملك اليمن، وقد حملت الرسالة ألواناً من التوسّل والضراعة والاعتذار عن بعث الرسل إلــى دولــة المماليــك، والناظــر في تلك الرسالة يدرك مدى حاجة الحبشة إلى دولة المماليــك، فجاء في تلك الرسالة "فنحن ما جاءنا مطران مولانا السّلطان ونحن عبيده، فيرســم مولانا السلطان للبطريرك أن يجهّز لنا مطراناً رجلاً جيداً عالماً، لا يجني ذهباً وفضّة"[2].

فيظهــر في هذه الفقرة من الرسالة عدّة أمور، حيث التضرّع والتوسّل والانقياد إلــى الطاعــة حتى درجة العبودية، يتلو ذلك البحث عن مطران زاهد في الدنيا، وهذه إشــارة خطيرة، فيها طعن لمن سبقه من المطارنة، حيث لا يفهم إلاّ معنى واحدٌ مفاده تكالــب مطارنــة مصــر على المال عند وصولهم إلى الحبشة، وتحمل كذلك اعتذاراً

(1) عاشور: الحكم المماليكي، ص254.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 120/8.

للسلطان عن تأخّر رسل ملك الحبشة وسفارته. فقد حالت أمور وعوائق أخّرت البعوث والسفارات[1].

وتكشف الرسالة كذلك عن حال المسلمين في الحبشة، حيث يعيشون مع النصارى مشكّلين جيشاً واحداً، إلاّ أنّه يفهم منها مدى اهتمام المماليك بأمورهم والحفاظ على أرواحهم، وممتلكاتهم ومعتقداتهم، فجاء في الرسالة ما يدلُّ على ذلك من خلال إخبار ملك الحبشة بحفظهم ورعايتهم[2].

ولا تخلو الرسالة من نبرة تهديد خفيّة متمثّلة في ذكره عدد جيشه، واصفاً له بالكثرة، ومردفاً ذلك بالوخم الذي يقتل كل من قَدِمَ إلى الحبشة، وقد أدرك السلطان الظّاهر تلك النبرة، فأرسل كتاباً مقتضباً من إنشاء القاضي محي الدّين بن عبد الظاهر يردّ فيه جوابه متجاهلاً طلب إرسال المطران، ومكتفياً بقوله: "وأمّا ذكره من كثرة عساكره، وأن من جملتها مائة ألف فارس مسلمين، فالله تعالى يكثر في عساكر الإسلام، وأما وخم بلاده فالآجال مقدّرة من الله تعالى، ولا يموت أحد إلاّ بأجله ومن فرغ أجله مات"[3].

ولا تخفى على القارئ لغة الظاهر القاسية تجاه صاحب الحبشة، حيث رفض إرسال المطران.

وقد انحصرت العلاقة بين الحبشة والبيت القلاووني كذلك في إطار العلاقة الكنسية، فقد أرسل ملك الحبشة كتاباً إلى الملك المنصور يستعطفه فيه ويستميله بإرسال مطران إليهم، ويطلب منه السماح لرهبانه بالدخول إلى بيت المقدس، مبدياً رغبته في الصلح والموادعة، متأمّلاً في علاقة أفضل معه بعد أن كانت العلاقة تشوبها الريبة في

(1) المصدر السابق، 120/8.

(2) المصدر نفسه، 120/8.

(3) عبد الظاهر، محي الدين (692هـ/1292م): تشريف الأيّام والصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، ط1، 1381هـ/1961م، الناشر الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ص268.

زمـن الملـك الظاهـر بيبرس، وقد أردف تلك الرسالة بالهدايا الكثيرة، فجاء في تلك الرسـالة: "وإنّني أحفظ المسلمين في جميع مملكتي، ومولانا يحفظ النصارى في بلاده، حتـى نصير مشورة واحدة، ويداً واحدة، وتتواصل الرسل بين الجهتين... وأشتهي أن تُحضر المطران المطلوب صحبة رسول السلطان، وصحبة رسولي، وأنا أنتظر جواب السلطان بما يصلح المسلمين والنصارى حتى تتصلح بلاد الحبشة"(1).

ومـن خلال تلك الرسالة نجد خطاب ملك الحبشة يظهر الطمع في إقامة علاقة أكثـر صـفاءً مع المماليك، والدافع لمثل هذا الخطاب السلس حاجتهم للكنيسة المرقسية والحجّ إلى بيت المقدس، حيث لا طريق لهم إلاّ من خلال دولة المماليك.

وقـد كشفت هذه الرسالة عن مدى تعلّق نصارى الحبشة بنصارى مصر، حيث أبدوا ضيقهم وضجرهم من أساقفة السريان الذين أجبروا على جلبهم من بلاد الشّام بعد أن مـنع الملك الظاهر إرسال المطارنة من مصر إليهم، فلذا نجد ملك الحبشة يجدّ في طلبه مطارنة من مصر، وظهر ذلك الأمر جليّاً من خلال رسالته التي بعث بها إلى أحد بطاركة الإسكندرية، فجاء فيها: "اسمع كلامي، واقضِ حاجتي، وابعث لي مطراناً أسقفاً جـيّداً صـالحاً يعلّمني كل شيء جيد، يكون مثل ما ضرب داود عليه السلام المثل في الـزبور من شأننا، وقال: خلوا رجالاً جياداً من قبط مصر يحضرون إلى بلاد الحبشة يعلّمونكم العبادة والزّهد، وقال في وصيته لا تخلِّ يا بني خروفك يأكله الذئب، وهؤلاء السريان المطارنة الذين عندنا من غير مصر بغضناهم وما حببناهم، ولأجل محبّتنا في بطركية مصر ما خليناهم عندما أساقفة وطردناهم"(2).

ومـن الجدير ذكره، أنّ العلاقة مع الحبشة كانت علاقة إجبارية طرفها الأضعف ملـوك الحبشة نظراً لحاجتهم إلى مطارنة من الكنيسة المرقسية في الإسكندرية، وكذلك تأمين طريق الحجّ الآمن إلى بيت المقدس.

---

(1) المصدر السابق، ص171.

(2) المصدر نفسه، ص173.

وقد شكّلت علاقة الحبشة بالنصارى في مصر والشّام هاجساً مقلقاً لسلاطين المماليك، حيث خشي السلاطين من تحالف الحبشة مع نصارى الصليبيين في القلاع المنتشرة في سواحل بلاد الشام، ولذا حرص السلاطين على قطع تلك الوسيلة، وأخذ أسباب بتر تلك العلاقة، فشُدِّدت الرقابة على تلك الرسائل، ومنعت المراسلات مع البطاركة مباشرة بل يجب أن تمرّ الرسالة أولاً على السلطان ثمّ يرسم بالإيجاب أو الرفض لذلك البطريك[1].

العلاقة مع الدولة البيزنطية:

استغلّت الدولة المملوكيّة الصراع القائم بين الدولة البيزنطية والحملات الصليبية لتَحسّن علاقاتها مع تلك الدولة. فقد احتدم ذلك الخلاف وأبدت بعض القوى الصليبية استياءها إزاء شعور العداء السائد ضدّ اللاتين، ويضاف إلى ذلك ما شاعَ وتأصّل في نفوسهم من أنّ البيزنطيين مسئولون عن الإخفاق الذي لازم الحملات الصليبية[2].

وقد توثّقت العلاقة بين الملك الظاهر والأشكري حاكم بيزنطة مبكّرة، حيث ضمن الملك الظاهر جَعْلَ دولة بيزنطة إلى جانبه، وظهر ذلك جليّاً من خلال قَسَم الأشكري للملك الظاهر، حيث جاء فيه: "إنّه متى احتاجت سلطنة الملك الظاهر إلى مساعدة ساعدت بكل ما تقدر سلطنتي عليه"[3]، وبناءً على ذلك سيّر السلطان هديّة إلى الأشكري من جملتها الزراف وجماعة من التتار الأسارى بخيولهم التتريّة وعدّتهم[4]، ولا شكّ أنّ هذه الهدية الطريفة تحمل معاني كبيرة، فهي تشير بكل وضوحٍ إلى قوة دولة المماليك، وسعة نفوذها، حيث الهدايا أسارى.

---

(1) انظر عاشور: العصر المماليكي، ص258.

(2) انظر هسي. ج.م: العالم البيزنطي، ترجمة وتقديم وتعليق د. رأفت عبد الحميد، دار المعارف، ط3، 1984، ص208.

(3) عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص88.

(4) انظر المصدر نفسه، ص88.

وقد توطّدت تلك العلاقة بسبب حاجة البيزنطيين إلى بطاركة من المذهب الملكاني، فكانت الحاجة ماسّة إلى الحصول على أولئك البطاريك من سلطنة المماليك "فقد سيّر الأشكري إلى السلطان يلتمس منه بطركاً للنصارى الملكيين"[1]، وقد أكرم السلطان ذلك الرسول ومن معه من الأساقفة[2].

وقد تجاوزت العلاقة ذلك إلى أن بنى المسلمون في القسطنطينية مسجداً، وكان بناء هذا المسجد ثمرة الصلح الذي عقد بين تلك الدولة والسلطان الظاهر. وقد تقرّر في ذلك الصلح أن يُبْنى مسجدٌ قدر جلد بعير، وتقرّر العهود على ذلك، فلمّا استقرّ الحال عمد المسلمون إلى جلد بعير فقدّوه سيوراً ومدّوها، فأنكر الروم ذلك فقال المسلمون: إنّ هذا جلد بعير ما زدنا عليه شيئاً، وعليه كان الاتفاق[3].

كما أنّه برز عاملٌ مهمٌ استدعى إقامة علاقة صداقة مع الدولة البيزنطية تمثّل في الصداقة القائمة بين المماليك والقفجاق، وهذه الصداقة دعت إلى تأمين سُبُل السفارات والرُسل بين المملكتين، "ونظراً لأنّه تعذّر على دولة المماليك الاتّصال بمغول القفجاق في جنوب روسيا برّاً؛ لسيطرة مغول فارس على الطريق البريّ الذي يربط بينهما، وفي نفس الوقت لم تكن الاتصالات البحرية بين مصر وجنوب روسيا ممكنة سوى عن طريق مضيقيّ البوسفور والدردنيل، وهما تحت سيطرة الأمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجوس (660هـ/1261م 681هـ/1282م)، لذلك أصبح المماليك في أمسّ الحاجة إلى الحصول على تصريح خاص بالعبور"[4].

وقد كانت تلك الدولة محطة استراحة للرُسل الوافدين على الدولة المملوكية من الجهة الشرقية، وخاصة رسل الملك بركة خان حاكم القفجاق، وقد تخلّلت تلك العلاقة

---

(1) المصدر السابق، ص129.

(2) انظر المصدر نفسه، ص129.

(3) انظر المصدر نفسه، ص129-130.

(4) عبد الجواد، ليلى: علاقة الدولة البيزنطية بسلطنة المماليك البحرية (659-784هـ/1261-1382م)، مجلة كلية الآداب، العدد 46، 47 لسنة 1986، القاهرة، 1988، ص60.

الــوديّة بعض الشوائب والمكدرات، حيث اعترض الأشكري رسل السلطان إلى الملك بــركة، وقــد أغضب ذلك التصرّف السلطان الظاهر، وأخرج اليمين التي أقسم عليها الأشــكري، وأشــهد عليها مجموعة من البطاركة والأساقفة، وكتب في إثر تلك الحادثة كتاباً إلى الأشكري، وأغلظ فيه القول حيث جاء فيه... إن كان سبب إمساك رسلي فساد حالــك مــع الملــك بــركة، وكــون عساكره أفسدت في بلادك فأنا أصلح الحال بينك وبيــنه..."[1]، وقــد اعتذر الأشكري عن تلك الحادثة، وأقسم للسلطان بالطّاعة، وأنّه لم يؤخّر أولئك الرسل إلاّ لموت بركة خان، وجلوس ولد أخيه بعده[2].

وقــد اســتمرت تلــك المودّات في زمن السلطان المنصور، وتبودلت السفارات بينهما[3]، وكان سلاطين المماليك لا يثقون بحكّام البيزنطيين، بل كانوا يحلفونهم الأيمان المغلّظــة لكــي يأمنوا غدرهم، فقد كتبت عدّة نسخ أيمان حلف بها الأشكري في زمان الملــك الظاهــر والســلطان المنصور قلاوون وابنه النّاصر، وقد تضمّنت تلك الأيمان معاهدات وهدناً، فقد كفلت الأيمان التي حلف بها الأشكري للسلاطين المماليك استمرار علاقات المحبّة والمودّة، كما مهّدت الطريق أمام المماليك للوقوف ضدّ الغزو الصليبي، وتحييد قوة بيزنطة جانباً، كما وسّعت أُفق التجارة المملوكية، وأمّنت العمق الاستراتيجي لدولــة المماليك، حــيث تعدّ مملكة بيزنطة الطريق الآمن لسفارات الدولة المملوكية لأصدقائها في الممالك الشرقية.

العلاقة مع القوى الأوروبية:

لا شــكّ أنّ خطــر الصــليبيين أدمــى المماليك، وجعلهم ينظرون إلى الممالك الأوروبــية المــتاخمة لحدودهم نظرة عداء وحذر؛ ممّا حدا بهم إلى التيقّظ والاحتياط، والتنبُه إلى مثل ذلك الخطر، ولكن المصالح الاقتصادية جعلتهم أكثر اعتدالاً، حيث لا بدّ

(1) المصدر السابق، ص203.

(2) المصدر نفسه، ص234.

(3) انظر عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص73.

من إقامة بعض الروابط مع تلك الممالك لتأمين مسالك تجارتهم، إذ تهيمن دولة المماليك على الطريق الهام للتجارة، فتشكّلت العلاقة بينهما وأخذت طابع التناقض حيث الغارات والهدن؛ ولذا اتّسمت الرسائل السياسية بطابع الإصلاح والهدن، وقد تمثّلت هذه الممالك فـــي مملكـــة جنوة وصقلية والبندقية والبلغار والسرب وردوس والممالك الإسبانية، ولم تحـــدث بـــين هـــذه الممالك والدولة المملوكية صدامات مباشرة، بل كانت هناك بعض الإغـــارات علـــى مراكب الصّيد في البحر المتوسط، ومثل ذلك ما حدث لمراكب صيد المماليـــيك من غارة أحد قراصنة جنوة ومصادرتها، فاستدرك حكام جنوة ذلك الخطر، وألحّـــوا في طلب الهدنة من السلطان المنصور قلاوون[1]، وسُطِّرت تلك الهدنة مملية شـــروط الســـلطان التي كفلت حرية انتقال التجّار إلى تلك المملكة الجنوية آمنين على أنفسهم وأهليهم وأموالهم بنصّ الهدنة[2].

وقد كتبت هدنة[3] كذلك بطلب من الريدراكون البرشلوني وأخيه صاحب صقلية، وقـــد ماثلـــت ســـابقتها في إملاء الشروط من جانب الملك المنصور، وتقودنا مثل هذه المهادنـــات[4] إلى حاجة تلك الممالك لإقامة علاقات مع الدولة المملوكية نظراً لموقعها المتوسّط بين الشرق والغرب، وإحكام سيطرتها على الطريق التّجاريّ الهام بين الشرق الأسيوي والغرب الأوروبي.

وقـــد تكوّنت الحاجة كذلك إلى تأمين طريق الحاجّ إلى بيت المقدس، ولذا أخلص إلى القول بأنّ العلاقة بين القوى الأوروبية ودولة المماليك كان يحكمها عاملان مهمّان يتمثّلان في تأمين طريق التجارة، وطريق الحاجّ إلى بيت المقدس، وقد تقدم في دراسة مـــبحث الأمان نصّ الأمان الذي منحه السلطان الناصر محمد إلى ملك السرب فراكس وتمكينه من زيارة بيت المقدس، ولا شكّ أنّ المماليك يجنُون من هؤلاء الحجيج مصالح

(1) انظر حماد: الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي، ص480.

(2) انظر عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص165-169.

(3) انظر المصدر نفسه، ص156.

(4) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 63/14.

سياسـيّة ومالـية، حـيث تفـرض عليهم "ضريبة يؤدّيها الحجاج عند دخولهم الموانئ الإسلامية المخصّصة للحجاج كيافا وصور وعكّا وصيدا والإسكندرية وغيرها"[1].

ويحـرص السلاطين المماليك على أن تتضمّن مثل هذه المهادنات الصلح الثابت والمـودّة الخالصـة واعتبار ما جرى ووقع من الأذى والضرر والخسارة في الأرواح والأموال والممتلكات والاعتداءات من الطرفين في عداد النسيان[2].

---

(1) الدروبـي، سمير محمود: حركة الترجمة والتعريب في ديوان الإنشاء المملوكي، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، سنة 26، عدد 62، 1422هـ/2002م، ص31-32.

(2) انظـر الحجـي، حـياة ناصـر: العلاقـات بين سلطنة المماليك والممالك الإسبانية في القرنين الثامن والتاسع الهجري، الرابع والخامس عشر الميلادي، دراسة وثائقية، ط1، الكويت، 1980، ص266.

الفصل الثّاني

الرسائل الإخوانيّة

أولاً: المظاهر الاجتماعيّة

تمثّل الحياة الاجتماعيّة مسرحاً رحباً وفضاءً شاسعاً للمناسبات اليوميّة والشهريّة والسنويّة والموسميّة، وهذه المناسبات تتطلّب تفاعلاً معها، والإنسان كما هو في أي مكانٍ وزمانٍ وثيق الصلّة بالأحداث التي تحيط به، ولذا فإنّه مرهون بهذه الأحداث سلباً أو إيجاباً، وعلى هذا فإنّ الأفراد الأكثر معايشة لتلك المناسبات من يعبّرون عنها، ويتفاعلون معها، ونتيجة ذلك التعايش نشأت روابط وعلاقات بين الأفراد وتلك المناسبات، وتمثّلت تلك الروابط في الإنتاج الأدبيّ.

ومن هنا يمكن القول إنّ مظاهر الإنتاج الأدبيّ قد تعدّدت، وخاصّة النثر منها؛ لتعدّد المناسبات والدواعي التي دعت إليه، ولمّا كانت أكثر طبقات المجتمع تفاعلاً مع تلك المناسبات فئة الأدباء وخاصة الكتّاب، زاد ذلك في ثراء الإنتاج وتنوّعه.

وقد أسهمت مجموعة من العوامل في تنوُّع ذلك الإنتاج وكثرته، فقد أسهمت الحياة الوظيفيّة في توطيد أواصر المحبّة والصداقة بين الكتّاب؛ ممّا حدا بهم إلى تصيُّد المناسبات لكتابة الرسائل المناسبة وبعثها إلى بعضهم، وقد يكون الهدف الأهم من كتابتها الإفصاح عن جودة القريحة وسلامتها، وقد كان للثراء الفكريّ دورٌ مهمٌ في إنشاء تلك الرسائل، فالموضوعات التي تكتب فيها تلك الرسائل قد لا تستوجب هذا الأمر من التطويل والتزويق والتنميق.

ومهما يكن فإنّ الحياة الاجتماعيّة في العصر المملوكيّ الأول شهدت أطيافاً وألواناً من العلاقات الإنسانيّة الممزوجة بالمسرّات والآلام، وقد عبّر الكتّاب عن تلك

المتناقضات بأقلامهم من خلال رسائل التهنئة والتعزية، والمدح والذمّ، والإهداء والشكر، والشفاعات والعنايات والصدقات.

رسائل التهنئة:

مضى الحديث عن التهاني والبشارات في مبحث سابق، وقد تناول البحث في تلك القضيّة الجانب العسكريّ والانتصارات وما يخصُّ الخلفاء والسلاطين من التهنئات، ونأتي هنا لنعيد الحديث عن ذلك الموضوع، ولكن من الجانب الذي يخصُّ الطبقة الاجتماعيّة العامّة، ونخصُّ منها فئة الكتّاب والشعراء وأرباب الوظائف بشتّى أصنافها.

ورسائل التهنئة من الرسائل الإخوانيّة التي تعمّق الصّلات بين أفراد المجتمع لما فيها من بثٍّ لمشاعر الفرح والسُّرور، ومشاركة المهنأ بالأفراح والمسرّات "وهي من ضُروب الكتابة الجليلة النفيسة؛ لما في التهنئة البليغة من الإفصاح بقدر النعمة، والإبانة عن موقع الموهبة، وتضاعف السُّرور بالعطية"[1].

وهي من الرسائل التي يكثر تداولها بين الأصدقاء والأحباب، وهذا راجعٌ إلى كثرة الدواعي التي تتطلّبها، فالحياة الاجتماعيّة ملأى بالمناسبات اليوميّة والموسميّة ممّا يستدعي كتابتها، فهناك أغراض ومعانٍ متشعّبة لا تقف عند حد[2]، فمنها التهاني بالمناصب الجديدة، والأعياد، والرجوع من الأسفار، والنهوض من المرض، وولادة الأبناء، إلى غير ذلك من مناسبات.

ويحرص الكتّاب في أثناء إنشاء تهنئاتهم على أن يظهروا قدراً من السُّرور والفرح والبهجة، ومشاركة المهنّأ أفراحه، وتمنّي دوام النعمة.

وقد تعدّدت الأحوال التي تدبّج من أجلها رسائل التهنئة، فمن ذلك تولية المناصب سيما وإنّ تلك الرسائل هي من النظير إلى النظير.

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 5/9.

(2) انظر المصدر نفسه، 7/9.

فمــن رســائل التهنئة في هذا الموضوع ما بعث بها صلاح الدّين الصفديّ إلى إبراهيم بن محمود الحلبيّ بعد عودته إلى كتابة السرّ الشريف بحلب سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة، فقد أبدى فيها مشاعر مرهفة، وشعوراً مثيراً للعواطف، وإحساسات مشحونة بعبارات غمرها الفرح والسُّرور فجاء منها "يقبّل الأرض، ويهني نفسه والأنام والأيّام، ومــن خــط الطروس، ووسع برودها بالأقلام، ومن كتب الإنشاء فآخى من كلامه بين الجواهر في النظام، ومن نظم قريضه فأخمل في الخمائل ساجعات الحمام"[1].

فالعــبارات تنبــئ عــن فحواها، فالسُّرور ينبعث من خلال سجعاتها، والمهنّئ يجعـــل نفسه مكان المهنّأ، فالتهنئة ما إن لامست سمعه حتى قابلها بالفرح والابتهاج، وقد شاركه في التهنئة الأنام والأيام، والشعراء والناثرون، والصفديّ بذلك يلحّ في جعل التهنئة عامّة لا تخصّ المهنأ وحده بل تعدّت شخصه إلى المجتمع كلّه، وهذا دليل على مكانته المرموقة وفرحة النّاس بعودته إلى ذلك المنصب، ويعلّل الكاتب ذلك بقوله: "لأنّ مولانا ـ بسط الله ظلّه– بركة هذا الوجود، ومن هباته النسيمة ينشق النّاس عرف الهبات والجود"[2]، ويحرص الكاتب على مدح المهنأ ووصفه بصفات تكاد تكون عزيزة نادرة حتــى يبــرّر شيوع تلك التهنئة بين النّاس، ويعلّل سرَّ ذيوعها، فالمهنّأ حقيق بأن يفرح القاصي والداني لفرحته؛ لفرط جوده، وطيب ذكره بين النّاس.

ويخــتم التهنئة بالإخبار عن نفسه إثر تلك الحادثة، حيث غمره الفرح والسُّرور "وينهــي مــا حصل له من الابتهاج والسُّرور، والهناء الذي التحف منه بالتحف، وحباه الحــبور، فالله تعالى يديم أيام مولانا التي هي أمان من الحوادث والغير، وجمال الكتب والسير بمنه وكرمه"[3].

---

(1) الصفدي: ألحان السواجع بين البادي والمراجع، نسخة مخطوط، مكتبة جامعة مؤتة، رقم التزويد 107421، ج1، ص6.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص6.

(3) المصدر نفسه، 1/6-7.

فالكاتب يظهر مشاعره وعواطفه وأحاسيسه من خلال تلك التهنئة، ولا يفوته في ذلك المقام مشاركة المهنّأ أفراحه ومسرّاته، فالأفراح والتهاني والمسرّات غمرت الأنام إلــى جانــب المهنّأ، ولكن النصيب الأكبر من الابتهاج ناله الكاتب، وهذا ما دفعه إلى كــتابة تلك التهنئة، فهي نابعة من عواطف ومشاعر ملأها الفرح والسُّرور؛ ولذا جاءت عــباراتها مؤدّية الغرض الذي كتبت من أجله، فهي أشبه بلوحة فنيّة. ولا ينسى كاتب التهنــئة التذكيــر بشكر تلك النعمة والدعوة بدوامها دوام الأيّام، والدّعاء للمهنّأ بالأمن والسّلامة على مرّ الدهور.

ومــن تهنــئة بعث بها الصفديّ كذلك إلى أحمد بن علي السبكي يهنئه بإفتاء دار العــدل الشــريف، جعل الصفديّ من تلك التهنئة نصيباً وافراً لشخصه حيث قال: "يقبّل الأرض ويهنــئ نفسه أولاً بهذه الوظيفة السنيّة والأيّام ثانياً"[1]، فالكاتب يلحّ دائماً على مشاركة المهنّأ في أفراحه ومسرّاته، بل يشرك الأنام جميعاً في تلك المسرّات والأفراح، وهــذا الأمر لافت للنّظر، فقد يقود ذلك إلى القول بأهميّة المنصب الجديد، فلأهميّة هذا المنصــب شملت التهنئة كاتب الرسالة والنّاس، ولم تعد الفرحة والتّهنئة مقصورة على المهنّأ، وهذا يزيد من مسرّاته وأفراحه.

وكعــادة كــتّاب التهنئات يجعل الصفديّ تلك التهنئة تحدث له الابتهاج وانشراح الصدر فيقول:

"ومن العجيب أنّني هنّأتـــــــه وأنا المُهَنّأ فيه بالنعمـــــاء

وينهــي مــا حصل له من السُّرور الذي نفّس عن كرب الشّوق والفرح الذي أبهجه"[2]. وجعل الصفديّ من دواعي تلك التهنئة رؤية ذلك المهنّأ حيث ضمن له وجوده في ذلك المنصب رؤيته في كل وقت.

---

(1) المصدر السابق، 30/1.

(2) المصدر نفسه، 30/1.

ورسائل التهنئة في هذا الباب كثيرة، فمن تلك الرسائل ما بعث بها الشهاب محمود الحلبيّ إلى عبد الله بن تاج الرئاسة عند تولّيه الوزارة، فقد عبَّر فيها الحلبيّ عن مدى سروره بتلك الحادثة، معدّداً مظاهر تلك الفرحة قائلاً: "ويتمنّى لو قام لديها بغرض التهنئة منشداً أو مثّل بها بين الأولياء منبّهاً لهم على تكرار السجود لله تعالى ومرشداً، وينهي ورود البُشرى التي كانت الآمال تترقّب ورودها، والتهاني التي كانت الأماني تنجز من الدهر وعودها، والنِعَم التي كانت الأولياء تخشى أن تجود بأنفسها قبل أن ترى وجودها"[1].

فالمتأمّل لتلك الفقرة من الرسالة يستشعر مدى الجوّ الغامر بالفرح والابتهاج، ويدرك مدى لهفة المهنّئ ورغبته لو كان معايناً للحدث، مباشراً له، وممّا زاد تألُّق تلك الرقعة بُعد الكاتب عن المهنأ، فجعل من تلك العبارات رسولاً عن شخصه، فلذا أودعها ما يمكن أن ينوب عنه، ويشفي غليله في سفارته تلك.

والحلبيّ يضع نفسه موضعاً يكاد يمتزج بشخص المهنّأ، حيث ما فتيء يترقّب ذلك الحدث ويتمنّاه للمهنّأ لا لنفسه، ويمدّ يديه مقدِّراً النّعمة، شاكراً الله سبحانه، ويؤكّد ذلك قوله: "والمملوك فقد اجتنى ثمر دعائه الصالح، وأخذ من هذه التهنئة حظ المقيم الملازم للأبواب العالية، مع أنّه النائي النازح"[2].

وينهي تلك الرقعة بالدعاء للمهنّأ بالاستمرار في تلك المسرّات والترقّي في سلك هذه المبرّات.

والحديث يطول في التهنئات بهذه المناصب حيث الأعناق تشرئب إلى اعتلائها فإذا ما ارتقى أحدٌ إلى عليائها بادر الآخر إلى التهنئة مشاركاً له في أفراحه، ومبدياً له مسرّاته وابتهاجه، وهذا ديدنهم دائماً.

---

(1) الصفدي: أعيان العصر، 2/699-670.
(2) المصدر نفسه، 2/670.

ومــن الصور الأخرى لرسائل التهنئة، التهنئة بالرُّجوع من الحجّ، حيث تُعدُّ تلك العبادة غاية في المشقّة والتعب، ناهيك عن بُعد الشقة، وطول السفر، ومخاطر الطريق، فهــم يجدون في تلك المناسبة فرصة مؤاتية للتعبير عمّا في نفوسهم من فرحة وسرور بــرجوع أصدقائهم من تلك الرحلة سالمين، فمن تلك الرسائل ما بعث بها ابن الورديّ إلـــى أحـــد أصدقائه يهنئه بعد عودته من الحجّ، وقد تركّزت تلك المقاطع المجتزأة من الرســـالة علـــى المـــباركة بإتمام شعائر الحجّ، فجاء فيها "فقد طافت كعبة الجود بكعبة الوجود، وسعى ذو الصّفا والمروّة بين الصّفا والمروة، وكان وادي محسّر مفتوح السين لرؤياه، فتأرّج بالذكيين من قلبه وريّاه، وأصبح أعداؤه محصّرين، وأمسى إلى العلى من المحلقين، وحسّاده من المقصّرين"[1].

وقد مزج ابن الوردي عبارات التهنئة بالمدح، فالمهنأ فاز بالحجّ المبرور وخذل حسّـــاده، وقـــد استبشـــرت وابـــتهجت شعائر الحجّ لابتهاجه، وشاركته الفرحة ونشوة العبـــادة.

ومـــن التهنـــئات كـــذلك التهنئة بعد الرُّجوع من السفر، حيث يلاقي المسافر من وعـــثاء السفر الجمّ الغفير، فيجد الكتّاب بغيتهم في التعبير عن مشاعرهم إثر عودة ذلك المسافر، وقد تكون تلك الرسائل مفتاحاً لإعادة الصّداقة بعد انقطاعها طول مدّة السّفر، فيـــتحدّث الكاتب عن متاعب السفر ومشاقّه، وينفذ من ذلك إلى تصوير الجوّ الانفعالي الـــذي أحدثـــه رجـــوع ذلك الصّديق من الأسفار، وما اكتنفه من آلام وهموم طيلة أيّام غيبـــته، مصوّراً أيّام الوحشة والفُراق التي طالت لياليها، فمن ذلك ما بعث به ابن نباتة إلـــى القاضـــي علاء الدّين بن فضل الله كاتب السرّ الشريف بعد عودته من الكرك إلى الـــدّيار المصـــريّة[2]، فمـــن تلك الرسالة قوله: "وينهي ما وصل إليه وإلى الأولياء من

(1) ابـــن الورديّ، عمر بن المظفّر (749هـــ/1348م): الديوان، تحقيق أحمد فوزي الهيب، دار القلم للنشر والتوزيع – الكويت، ط 1، 1407هـــ/1986م، ص62.

(2) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 36/9.

السـرُور، ومـا رفع بينهم وبين الابتهاج من الشُرور، وما طولع في أخبار المسرَّة من السُـطور، بوصول مولانا ومن معه إلى مساكن العزّ ساكنين، ودخولهم كدخول يوسف علـيه السلام ومن معه إلى مصر آمنين"[1]. فالجوّ الانفعالي المشحون بعبارات الفرح والسُـرور تـستموّج بـه ثنايا الرسالة، فقد قرّت العُيون برجوعه بعد أن فارقها الكَرَى، وانشرحت الصُدور لأوبته، واستبشر السرّ الشريف بمقدمه.

ولـم يجد الكاتب بدّاً من رفع أكفّ الضراعة والشُكر والثناء لله سبحانه "وقد أخذ المملوك حظّه من هذه البشرى، ووالى السجود لله شكراً"[2].

ومـن هـذا القبـيل ما بعث به الشهاب الحلبيّ إلى من قدم من سفر، مهنّئاً إيّاه بالـرجوع إلـى أهلـه وذويـه معافىً سالماً، ومخبراً عن نفسه بما اكتنفها من سرور وانشراح صدر، وإزالة للهموم قائلاً: "المملوك ينهي بعد تقبيل الأرض، والقيام بما يجب مـن سـننه والفرض، علمه بحلول ركابه العالي بمغناه، واستقرار خاطره الشريف في محلّـه ومـثواه، وجمع الشّمل بالأهل بعد طول الغيبة، وبعد القفول والأوبة، فتضاعف لذلك فرحهُ وسروره، وزال عن قلبه قليل الهمّ وكثيره"[3].

ولا مفرّ في تلك الرسائل من ختمها بالدُعاء والتوسُل والتضرُع إلى الله سبحانه، بحفـظ تلك النعمة، ودوامها أيّاً كان نوعها، ولذلك ختم الحلبيّ رسالته بقوله: "فالله يمنح المولـى أطيب المنازل، وأسر الرواحل، ويجعل تجارة مجده رابحة، وأوامر دوام عزّه لائحة"[4].

ومـن المظاهـر الاجتماعـيّة التـي يجد الكتّاب فيها فرصة لإبداء مشاعرهم، ومشـاركة أصـدقائهم أفراحهم فيها المناسبات الأُسريّة كالزّواج وولادة الأبناء، وهذه

---

(1) المصدر السابق، 36/9.

(2) المصدر نفسه، 37/9.

(3) المصدر نفسه، 38/9.

(4) المصدر نفسه، 38/9.

المناســبات، لا شــكّ أنّها من المظاهر التي تبعث السُرور والابتهاج إلى نفوس النّاس، فيغتــنم الكتّاب تلك المناسبات لصقل الصداقات ودوامها فيما بينهم، فمن ذلك ما سطّره الحلبــيّ مهنّــئاً أحــدهم بــواقعة زواج، ومركّزاً حديثه على عبارات الفرح والسُرور والابــتهاج، وما يثيره ذلك الزواج من أعمال الخير والبركات على ذلك المهنّأ، فيقول فــيها: "صــدرت هذه الخدمة معربة عن ثناء تأرّج عَرْفه، وولاء أعجز الألسنة سرحه ووصفه، وتهنئة بهذه الوصلة المباركة جعلها الله للاتصال بالسّعادة سبباً، ومحصّلة من الخيرات مراماً وافراً وأرباً، وعرّفه بركة هذا العرس الذي أصبح الخير بفنائه معرّساً، ونور الشّمس من ضياء بهجته مقتبساً"[1].

ويحرص الكاتب في تسطير تلك التهنئة على بثّ روح البُشرى والسّعادة في ذوي العــرس وأصــدقائهم، ممّا يدفعهم إلى مشاركته أفراحه تلك، معبّرين عن ذلك بشكرهم المتّصــل، ودعــائهم العريض في السرّ والجهر، والخفاء والعلَن، والكاتب كذلك يستبق الأمــور داعــياً للمهنّأ بالسعادة الأبديّة التي اتّخذت من السعد نسباً وصهراً "ونشكره أن جعــل بينه وبين السعد نسباً وصهراً، منح الله المولى الرفاء والبنين، والعمر الذي يفني الأيّــام والســنين ورزقــه إسعافاً دائماً وإسعاداً، وأراه أولاد أولاده آباءً بل أجداداً"[2]. والكاتــب بــذلك ينوّه بأهميّة ذلك الحدث في حياة المهنّأ، حيث الزواج وإنجاب الأبناء مــن أســباب سعادة المرء وشقائه، فهو يدعو الله سبحانه أن تكون تلك الواقعة جالبة للسعادة الأبدية التي يجني ثمارها على مرّ الأيّام والأعوام.

وينضوي تحت إطار سعادة الأُسر إنجاب الأبناء، فالأبناء سببٌ من أسباب سعادة الأُسرة والتئام شملها، والكتّاب عندما ينشئون تلك الرسائل يلحّون فيها على دوام الذكر والصــيت؛ لأنّ الفتى يحفظ ذكر أبيه، فهو قرّة عين، ومحطّ أمل، فمن رسالة بعث بها الحلبــيّ إلى أحد أصدقائه، وقد ولد له ابن ذكر "المملوك يخدم المولى ويهنيه، ويشكره

(1) المصدر السابق، 55/9.
(2) المصدر نفسه، 55/9.

ويطلعه على ما حصل له من الابتهاج، للسبب الذي ينهيه ويذكره"[1]، فالقضية هنا اللافتة للنظر التي لا أكون مجانباً للصواب فيها إذا ما قلت بأنّ هدف بعث تلك الرقاع ليس تهنئة المهنأ بقدر ما هي كشف عن نوايا المهنئ، فالكاتب يصرح بأن هدف تلك الرسالة الأول إعلانه عن مدى الابتهاج الذي غمره إثر تلك البشارة، فالتهنئة تنبع من أعماق باعثها، ملبّية لشعوره وعواطفه وإن كانت تلك العواطف مصطنعة، فهو يريد أن يقول إنّ تلك الرسالة هي الأثر الذي أحدثته فيه تلك البشارة.

وبعد أن يطمئن الكاتب من أنّ رسالته قد عبّرت عن مدى سعادته وابتهاجه، وأوصلت تلك العواطف المشحونة إلى المهنأ، يعاود الحديث عن تلك المناسبة بما يناسبها من عبارات وألفاظ، فالمولود لا شكّ أنّه سائر على نهجِ أبيه، وشبل من ذاك الأسد، وقرّة عين لوالده، ولعامة المسلمين "وهو الولد العزيز الموفّق النجيب... أبقاه الله تعالى ليحيا مشكوراً، محموداً، منصوراً بسيف مجده، وسنان سعده مسعوداً... وأرانا منه ما أرانا من السعادة في أبيه"[2].

ولا ينسى الكاتب في الختام أن يدعو لذلك الولد بأن يوفّقه الله لكل خير ورفعة، ويشكر الله على تلك المنّة، ويجعل من ذلك الولد قرّة عين لأبيه، ومصدراً للسعادة والسُّرور، وأن يمدّ في عمره حتى يرى أبناءه وأحفاده.

والحقيقة أنّ التهنئات كثيرة في هذا الجانب، ولا سبيل لحصرها، والمظاهر الاجتماعيّة حبلى وكل يوم تلد، ورسائل التهنئة في مجملها لا تخرج عن أُمور واضحة جليّة، تتمثّل في بيان أثر تلك البشارة في مرسل التهنئة، حيث إنّ تلك البشارة أحدثت له من السُّرور وانشراح الصدر ما حفزه على كتابة تلك الرسالة، ولو لم يتمكّن من كتابتها لأحدثت له المتاعب، وعنّت نفسه، ولزم شدُّ الرحال وتهنئة المهنأ بالحضور لا الغياب. والأمر الآخر الذي تتضمّنه رسالة التهنئة مشاركة المهنأ أفراحه

---

(1) المصدر السابق، 59/9.

(2) المصدر نفسه، 59/9.

ومسـرّاته، وتعمـيم تلك البشارة والتهنئة بين الأوساط الاجتماعيّة المختلفة، وفي هذه الرسائل الحاصل على النصيب الأكبر من التهنئة الباعث لها، فهو المهنّأ أولاً، وفي هذا مجاملة لطيفة للمهنّأ، وجلب للمودّة ودوام الصّداقة.

وهـناك أمـر غاية في الأهمية، وهو قرن تلك التهنئة بالمناسبة، وبيان أهميتها، وطول انتظارها، والدّعاء والتضرُّع بدوامها، وشكر الله على منحها وضمان بقائها.

ومهمـا يكـن مـن أمر، فإنّ تلك الرقاع تشبه لوحة فنيّة مزوّقة بألوان ووشي، فالسُّـرور والسعادة والمسرّات تشيع من أطرافها، فالرسائل مصبوغة بصبغة الابتهاج، وملـوّنة بأطياف سرور باعثها، ومعطّرة بأريج عبق أنفاس مسطّرها، فهي أشبه بقطعة من نفسه نابت عنه حال غيابه عن مباشرة المهنّأ حضوريّاً.

رسائل التعزية:

تكاد رسائل التعزية تضاهي رسائل التهنئة في شيوعها بين النّاس، وهذه الرسائل يبعـثها الكتّاب إلى ذوي المتوفّين لمشاركتهم الأحزان؛ لِمَا في ذلك من تخفيف عليهم، وكثيراً ما يبعث الكاتب تلك التعزية معزّياً نفسه أولاً بفقد ذلك الصّديق، ومخفّفاً من تلك الـرزية عـن ذويه، وقد تعمّد الكتّاب في مثل هذا اللون من الرسائل إشاعة جوّ الحزن والكآبة والبكاء، ولكنهم لا يغفلون باب الأمل بصور مختلفة تتوزّع في ما آل الفقيد إليه، حـيث الجنان والرّاحة والأبديّة، وكذلك ما خلّف من أبناء وإخوة نُبَلاء يُعْتَمد عليهم في الشّدائد، وما إلى ذلك من تعزيات.

وتنحصـر رسـائل التعزية في الغالب في أُمور ثلاثة، تتمثّل في الندب والرّثاء والتعزية، فالكاتب يبدأ عادة تلك الرسالة بالجزع والهلع، وتصوير شدّة النازلة، ثمّ يعكف على وصف أثر تلك النازلة في نفسه، واصفاً إيّاها بالذُّهول والبُكاء، ولكنّه ما يلبث أن يوطّن نفسه بالتأسّي من خلال وصف ذلك المتوفّى، ومن بلوغه جنّة الرضوان، والدُّعاء لـه بالسقيا، وبعد ذلك يواصل الدعاء لذويه بأن لا يروا مكروهاً بعده، ولا يفجعوا بأحد

غيره من بعده، ممهّداً بعد ذلك لذكر الخلف الذين تركهم بعده، متمنّياً لهم العيش الهانئ وبلوغ المرام.

وجاء في مواد البيان* أنّ "المكاتبة في التعزية بالأحداث العارضة في هذه الدُّنيا واســعة المجــال؛ لِمَــا تتضمّنه من الإرشاد إلى الصَّبر والتسليم إلى الله جلَّت قدرته، وتســليــة المعزى عمّا يُسلبه بمشاركة السابقين فيه، ووعده بحسن العوض في الجزاء عنه إلى غير ذلك ممّا ينتظم في هذا المعنى"[1]. فأغلب الرسائل لا تتعدّى هذه الدوائر، فهــي ترشد إلى الصَّبر والتسليم بقضاء الله وقدره، حيث لا مفرَّ من ذلك، وبعث الأمل إلى نفس المعزّى من جديد وتسليته وسلوّه عمّا أصابه، وفتح عينيه على أمل جديد يكون عوضاً عمّن فقده.

ومــن تلك الرسائل ما بعث بها الصفديّ إلى ابن القيسرانيّ معزّياً إياه بولده، فقد بدأها بوصف كيفيّة بلوغه ذلك الخبر الذي أفسد عليه صفو عيشه، وأنكأ جرحه فيقول: "وحُمّــل المملــوك من همّ مولانا ما يعجز عن شرحه، ويتعذّر الزّمان طب جرحه"[2]، وهــو بــذلك يشارك المعزّى أحزانه وفاجعته ليخفّف عنه وطأة تلك الشدّة، ثمّ بعد ذلك يصورّ الجزع الذي ألمّ بوالد ذلك المتوفّى، متمنّياً أن لا يرزأ بغيره قائلاً: "فثبت الله قلب مــولانا بصــبره الجمــيل، ولا جعــل للــرزايا عليه بعدها منعرج طريق، ولا هداية سبيــل"[3].

---

* ذكــر فؤاد سزكين أنّ النسخة الوحيدة من مواد البيان الموجودة في مكتبة فاتح رقم 4128 ينتقص من أبوابها العشرة المذكورة فــي المقدمــة الــباب التاسع والعاشر وشيء من الباب الثامن، وثبت بمقارنة الكتاب بصبح الأعشى أنّ نسخة القلقشندي كانت أكمل، وربّما كاملة. مقدّمة الناشر، ص6-7.

وجــاء في مقدمة الكتاب ((فأمّا آداب الصناعة والسياسة التي يفتقر إليها كاتب الترسيل فقد استوفينا القول عليها في البابين التاســع والعاشــر من هذا الكتاب)). الكاتب، علي بن خلف، عاش في منتصف القرن الخامس الهجري: مواد البيان، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، إصدار فؤاد سزكين، ص47.

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 80/9.

(2) الصفديّ: ألحان السواجع، 130/1.

(3) المصدر السابق، 130/1.

ويأخـــذ الكاتب في تخفيف روع المعزّى وتسليته، وفتح كوة الأمل أمامه، حيث سيعوّض الدُرر بعد تلك النازلة "فما يظلم أفق المعالي إذا هو كوكبه، وفيه منكم شموس وأقمـــار، ولا يـــوحش الســـاري مع وجود وجوهكم المشرقة إذا غاب كوكب سحـــره، فكـــواكب الســـحر قصيرة الأعمار، ولا يتعطّل روض المجد إذا ذوت منه زهرة، وفيه منكم غصون لها بالمحامد أزهار وأثمار"(1)، فالكاتب اتّبع أُسلوب المدح في تخفيف تلك النائبة، حيث فَقْدُ ذلك الولد ما كان له أن يذهب نضارة ذلك البيت، ولا ينهي آماله، فما هـــو إلاّ زهرة ذبلت وسط أزهار وأغصان كثيرة، ولما سلمت الأغصان ولم تذوِ؛ فإنّ الأزهار سرعان ما تتجدّد وتعود إلى سابق عهدها.

ويـــنوّع الكاتـــب فـــي أساليبه لتهدئة خواطر معزيه متّبعاً سبيل القضاء والقدر، فالموت لا يسلم أحد من ملاقاته، فعلى المعزى التسليم بهذه الحقيقة؛ لِمَا فيها من العزاء والسّلو "على أن هذه كأس لا بدّ من شربها، وإنما تعجّل الساقي على بعض دون بعض، وهذه النُفوس جواهر شريفة، وإنّما أصدافها التي تودع في بطون الأرض"(2).

ويحـــرص الكاتب على أن يربط تلك الحادثة بما أعدّه الله للمؤمنين؛ من الجزاء الأوفى يوم القيامة، ولمّا كان ذلك المتوفّى طفلاً آل ذلك الجزاء إلى ذويه قائلاً: "ويجعله لكل منهما فرطاً وذخراً يوم بعثه ومعاده، ويربط بالصّبر الجميل على مولانا الذي عدم ثمـــرة فـــؤاده، ولا يذيقه بعدها حرقة ينشر لها الطرس ذوات سطوره، ويلبس القلم لها حداد مداده"(3).

وللصـــفديّ كذلك تعزية عزّى بها صديقاً له بوفاة والده، وقد ترسَّخت تلك السُنن المتّـــبعة فـــي كتابة التعزية؛ من الشُعور بالفزع، والتفجّع والحزن الشديد على فقد ذلك المتوفّى، سيما وإنّه كان صديقاً للكاتب، حيث يصور الكاتب الألم الذي ألمّ به، والفاجعة

---

(1) المصدر السابق، 130/1.
(2) المصدر نفسه، 130/1.
(3) المصدر نفسه، 130/1.

التي نالت منه: "يقبل الأرض وينهي ما عنده من الألم لهذه النازلة، والقلق لهذه الرزية التـــي جعلــت الدُّمـــوع هامية هاملة، والجزع لهذه الحادثة التي تركت الجوانح حامية، فليــت القوى لو كانت حاملة"[1]، فيجعل الكاتب من ذلك المشهد المبكي وسيلة للتخفيف عن المعزّى، فقد شاركه الكاتب أحزانه، لا بل زاد عنه في الحزن والجزع، فعندما يرى المعــزّى أنّه ليس وحده من يقع تحت وطأة تلك النازلة، يجد في ذلك سلوةً له وعزاءً، فمشاركة غيره في أحزانه تخفّف عنه ثقل تلك الرزية.

ولا يجــد الكاتــب بــدّاً من التسليم بقضاء الله وقدره، حيث الموت سنّة الله في خلقـــه، وهذه وسيلة من وسائل التخفيف عن ذوي المتوفّى، ولا يلبث في أن يعدّد مناقبه الحمــيدة التي يجد بها سلوة من أحزانه، وجزعه. ففي تعداد تلك المناقب الحميدة تسلية وتســرية للحـــزن والألـــم "فإنّا لله وإنّا إليه راجعون قول من فقد جماله، وعدم صبره واحـــتماله وفجعه الدّهر بواحده الذي ما رأت عينه مثاله، رحم الله ذلك الوجه الجميل، وقدّس تلك السريرة التي كان الصّفاء لها ألزم زمره"[2].

ولا يفــوت الكاتب في مثل هذا المقام من التخفيف عن ذويه ببلوغه دار الخلود؛ لأنّ ذلك يسبب السكون لنفوس ذويه، ويسهم في عزائهم قائلاً: "وما بقي غير الأخذ في ما وقع بالسنة والصبر على فقد من آثار النّار في الفؤاد وسكن الجنّة"[3].

وقد اتّبع الكتّاب في تعزية ذوي المتوفين مواطن الاعتبار، بوصف الدُّنيا بالغدر والــتقلّب، وعــدم الثبات على الصّفاء، وإنّها متاع زائل، وعَرَضٌ حقير "والدّنيا طريق والآخرة دار ودهليزها القبر"[4].

---

(1) المصدر السابق، 104/1.

(2) المصدر نفسه، 104/1.

(3) المصدر نفسه، 104/1.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 82/9.

ومهما يكن من أمر، فإنّ أقوى الأسباب التي يتمسّك بها المعزّي، ويحرص على بثّها في تعزيته، هي التمسّك بعُرى الصّبر، حيث "كانت العرب في الجاهلية - وهم لا يــرجون ثواباً، ولا يخشون عقاباً- يتحاضّون على الصّبر، ويعرفون فضله، ويعيِّرون بالجــزع أهلــه، إيثاراً للحزم، وتزيُّناً بالحلم، وطلباً للمروءة، وفراراً من الاستكانة إلى حُســن العــزاء، حتى إن كان الرجل منهم ليفقد حميمه فلا يُعرف ذلك فيه"[1]. وكتّاب العصــر المملوكيّ يتمسّكون بهذه الخصلة في رسائلهم أيّما تمسّك، ولا غرو في ذلك؛ فــإنّ تلك الموضوعات تعالج قضايا إنسانيّة غير مرتبطة بعصر دون غيره، فمسألة فَقْد الأحــباب مــؤلمة أحسّ بمرارتها الأوائل والأواخر، ولذا حافظ الكتّاب على بيان أهميّة هذه الخصلة، وبيّنوا جدواها في التسرية عن المحزون، فجاء في رسالة تعزية بعث بها ابــن نباتة إلى من فقد والده: "فما بقي إلاّ التمسّك بأسباب الصّبر، والتفويض إلى من له الأمر"[2]، ومن التعزية ذاتها في المعنى نفسه ولكن على سبيل الدعاء والتضرّع: "والله تعالى يدارك بالصّبر الجميل قلبه"[3].

وقــد قــرن الكــتّاب بين تلك الفضيلة والحصول على الأجر والثّواب، وفي هذا المعنى يقول الحلبيّ من تعزية بولد: "وينبغي له استعمال صبره، والاستبشار بمضاعفة أجره... أعظم الله أجر مولانا، ومنحه صبراً جميلاً، وأجراً جزيلاً"[4].

وتتضمّن كذلك رسالة التعزية وسيلة أُخرى من وسائل التخفيف، وهي وجود مَنْ فيه العوض، وسدّ ثغرة من فُقد، فمن التعزية ذاتها قال الحلبيّ مخفّفاً من وقع المصيبة، مستبشــراً بوجود من يصبح قُرّة عين لوالده: "فما كان إلاّ أحد العمرين فُقد فخلفه عمر، وثاني العمرين أفل فقام مقامه هلال قدم من سفر"[5]، وفي المعنى ذاته يقول الصفديّ في

---

(1) المبــرِّد، أبو العبّاس محمد بن يزيد (286هـ/899م): كتاب التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا، تحقيق إبراهيم محمد حسن الجمل، نهضة مصر، (د.ت)، ص42.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 82/9.

(3) المصدر نفسه، 82/9.

(4) المصدر نفسه، 83/9.

(5) المصدر نفسه، 84/9.

تعــزية بعــث بها إلى القاضي علاء الدّين شقيق المقرّ الشّهابيّ ابن فضل الله العمريّ يعزّيه بوفاته "وما يقول الملوك في البيت الكريم إلاّ إن كان قد غاب بدره، وأفل شهابه أو غاص قطره، وتقشّع سحابه، فإنّ نيّره الأعظم باقٍ في أوجه، وبحره الزاخر متلاطم في موجه"[1].

فالنّفس البشريّة تطمح دائماً إلى المزيد والعوض، ولا يروق لها النقص؛ ولذا فإنّ في التذكير بحسن العوض عزاءً وتسلية عمّن فقدته، وقد واظب الكتّاب على تلك المسألة راجين من ذلك سلوة الحزين، وتسرية للهموم.

وهناك ملمح لافت للنّظر في تلك الرسائل، حيث تجمع بين طيّاتها - في أغلبها - المدح إلى جانب التعزية، وكأنّهم يقصدون بذلك المدح التسرية عن المعزّى، والتخفيف عــنه مــن ثِقَــل تلك النائبة. فالإنسان بطبعه يطمح إلى المدح، ويرغب فيه، ويجد في نفســـه لـــه مكانة، وقد يكون ذلك المدح تزلّفاً من جانب المعزّي رجاء الحصول على مآرب خاصة، ويبدو أنّ التأويل الأول أرجح وأقرب مأخذاً. ففي تعزية الحلبيّ السالف ذكــرها قوله مادحاً المعزّى: "فإنّه إذا سلم كان السلامة والأمان، ويجعله من كل فائت عوضاً كما أصاره جوهراً، وجعل غيره من الأنام عرضاً"[2]، ففي هذا الإطراء والمدح تخفــيف وتســلية، فالنّاس مسلوبو الأمن حال غيابه، فهو جوهرهم وحامي ذمارهــم، وبسلامته يعمّهم الأمن والطمأنينة، وهنا تهون تلك الرزية، إذ لا رزية بعد فقده، وكل ما دونه هيّن.

ورســائل التعــزية - فــي مجملها- لا تخرج عن دوائر ثلاث، تنحصر خلالها موجات عاطفية يسطّرها الكاتب، فأولى هذه الدوائر تكمن في تصوير حالته حال سماعه الخبــر، حــيث أحــدث له ذلك النبأ حالة من الفزع والذّهول والجزع لم يستطع معها تمالــك نفسه، حيث انهلّت دموعه وانحلّت عرى صبره، وفقد صوابه، فهذا الشقّ يخصّ

(1) الصفدي: أعيان العصر، 432/1.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 85/9.

وصـــف الكاتب لبيان مشاركته المعزّى أحزانه، وتتضمّن الدائرة الثانية تصوير الفاجعة التـــي حلّت بذوي المتوفى متناولاً فيها إرشادهم إلى فضيلة الصّبر والتسليم بقضاء الله وقـــدره، مخفّفـــاً عنهم بوسائل متعدّدة، مثل حتميّة الموت، ووجود العوض فيمن بعده، وبلوغه جنان ربّه، ومدح ذويه بما يليق بهم، والتأسي بمصائب الآخرين، والدائرة الثالثة تتمثّل بختم الكاتب تلك التعزية بالدعاء للمعزّى بطول العمر، والتأييد والنصرة والتثبيت.

وعـــادة تقابـــل هـــذه التعـــزيات بأجوبة من ذوي الفقيد، يُظهر من خلالها الأثر الإيجابي الذي أحدثته في نفسه تلك الرسالة، شاكراً للمعزّي تلك العواطف والأحاسيس، وجاء في مواد البيان أن: "أجوبة التعازي يجب أن تُبنى على وقوف المعزّى على كتاب المعزّي، وأنّ إرشاده نقع غُلّته، ووعظه نفع علّته، وتبصيره سكّت أوابده، وتذكيره أخمد نـــاره، وتنبـــيهه أيقظ منه بحسن العزاء غافلاً، وهدى إلى الصبر ذاهلاً، وحسّن عنده الـــرزية بعـــد جهامـــتها، ودمّـــث نفســـه للمصيبة بعـــد فدامتهـــا، فسلّـــم لله متأدّبـــاً بادبـــه"(1).

فتتضـــمّن رســـائل الأجوبة عن التعازي قضية مهمّة تنحصر في الأثر الإيجابي الـــذي أحدثته رسالة التعزية، فقد أفاده ذلك الوعظ، ونفّس كربه، وهدّأ روعه، فجاء من رسالة ردّاً على رسالة الصفديّ الذي بعثها إلى صديقٍ له يعزّيه بوفاة والده: "يقبّل كذا، وينهـــي ورود المـــثال الشريف، يتضمّن تعزية حُسّن لفظها، وأثّر في القلوب وعظها، وتعيّن تسطيرها في صحائف الأذكار وحفظها، فوقف المملوك على محاسنها وأحاسنها، وشـــملته مـــن مكامنها بميامنها، وتسلّى بما حوته من مفصّل الرّثاء ومجموعه، وأسال مـــن أجفانه دماً بدل دموعه"(2).

وعلـــى هـــذا المنوال تسير الأمور، رسالة في التعزية تعقبها رسالة في الجواب عنها، وكلا النوعين لا يخرجا عمّا رسم له من تقاليد.

(1) المصدر السابق، 98/9.

(2) الصفديّ: ألحان السواجع، 104/1.

رسائل الإهداء:

رســائل الإهــداء من الوسائل التي تكفل دوام الودّ بين المتهادين، وتزرع بذور المحبّة فيما بينهم، وجاء في الحديث الشريف "تهادوا تحابّوا"[1]، وقد وجد الكتّاب في هذا الــنوع من المكاتبات ما يزيل الجفوة من النّفوس، ويحلّ مكانها الأُنس والمحبّة؛ لِمَا في تلــك الرســائل من الملاطفة، وتوطيد أركان العلاقة ودوامها، وقد جاء في مواد البيان منــبّهاً على أهميتها وما يجب أن تكون عليه من صياغة وديباجة قوله: "رقاع التهادي يجــب أن تودع من الألفاظ المستحسنة ما يمهّد لقبول الملاطفة والمبرّة التي تتميّز في المودّة، قال: وينبغي أن يُطرف الكاتب إذا كان مهدياً أو مستهدياً"[2].

ومــن الجدير ذكره أنّ الرسائل الناتجة عن تلك الهدايا - سواء القادمة مع الهدية أو المــبعوثة شكراً عليها - تعدّ أنفس من الهدية وأدوم حالاً، فالهدايا وأصحابها ذهبوا، وبقيت تلك الدرر الموشّاة حاملة ذكرهم وملاطفاتهم، وغالباً لم يعثر على مناسبة ترتبط بهــا الهدية، وإن كان هناك مناسبات؛ فإنّ يدّ الدهر قد عبثت بها، ومهما يكن فإنّ تلك الرســائل تــنمُّ عن ذوق مرهف، ويجد الكتّاب فيها وسائل للتعبير عن أنفسهم وتصوير مــدى صداقاتهم، وعمق علاقاتهم الأخويّة، فيجعلون من تلك الهدية مناسبة وسبباً لبثّ مشاعرهم وعواطفهم تجاه أصدقائهم، ومن تلك الرسائل ما يكون بين الزعماء، فيسطّر الكــتّاب تلــك الرســائل مستعينين بقدرتهم الفائقة على حُسن التعبير، من وصف تلك الهديــــة ومناســبتها للمهدى إليه، ومكانتها النفيسة، ومن هذا القبيل ما جاء في رسالة كتب بها الشيخ ابن نباتة إثر هدية بعث بها صاحب ماردين إلى السلطان الملك الصالح عمــاد الــدّين إسماعيل بن الناصر، وهي قرين خيل، وقد أسهب ابن نباتة في وصف المــودّة الخالصة بين المتهادين، وعمق تلك العلاقة والتأكيد على صفائها ونمائها قائلاً: "وينهــي بعد ولاء وثناء للإخلاص شارحين، وفي الضمائر والآفاق سانحين، واشتياق

(1) السيوطيّ: الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت، (د.ت)، 518/1.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 100/9.

وعهـد كانـا أحـقّ بالانتماء لاسمه ونعته، وكان أبواهما صالحين"[1]. وبعد سرد هذه العواطـف، وبـيان مدى تلاحمها يعدل الكاتب إلى وصف تلك الهدية مختاراً أفضل ما يناسبها من الأوصاف فـ "ما منها إلاّ من تقصر الرياح أن تسلك فجّه، والبروق أن تتبع نهجـه، ومن تودّ الثريّا أن تكون لجامه، والهلال أن يكون سرجه ومن يتمطر كالغمام، ويـركض كالسيل، ومن كملت حلاه، ولبس حُلّة الفخار، فمشى علـى الحالتيـن فـي الحلتـين مسـبل الـذيل، ومـن عُقد بناصيته كل خير، وعقد له لواء الفخار على كل الخيل"[2].

وقـد تنوّعت الهدايا وتنوّعت لذلك الكتب التي تبعث معها، ولكن الكتّاب يؤكّدون أهمية هذه الهدايا في دوام الودّ والصّفاء. فالهديّة تأخذ مجراها من نفس المهدى إليه فهي تليق به، ولذا تأتي أوصافها في الرسالة أقرب إلى صفات الكمال من أبناء جنسها، فإن كانت خيلاً فإنها لا خيل تباريها رشاقة وسرعة ونشاطاً، وإن كانت جوارح فإنها "القائمة على كواسر الطير مقام الملوك الأكاسر إلاّ في حكمها وعدلها، لا جرم أنهـا إذا دخلت آفـاق طير أفسدتها وجعلت أعزة أهلها أذلّة، وإذا انقضّت على سرب وحشٍ جذبتها من دم الأوردة بأرسـان حيث كستها من قوادم الأجنحة أجلّه، لا يُسأل كاسرها في الطيور بـأي ذنب قتلت، ولا يحملها جانب الطير والوحش إذا عاندته، فيا عجباً لها على أيدي البشر كيف حُملت"[3].

وإن كانـت لحم صيد طاب مذاقه، ولذّ طعمه "وإن كان قديماً في المعنى واللحم القديـد وإن كـان أطرى من الرّوض النضير حسناً والسمين المحبوب، وإن كان كحال عداه الذين تقدّد جسومهم في الحياة قبل الممات حزناً"[4].

---

(1) المصدر السابق، 104/9.
(2) المصدر نفسه، 105/9.
(3) المصدر نفسه، 109/9.
(4) المصدر نفسه، 115/9.

وقد تكون هذه الهدايا فواكه أو ما في معناها، وعندئذٍ يجري عليها ما يجري على ما سبقها من وصف ومديح، فمن جواب بوصول مشمس لؤلؤي لابن نباتة: "ووصل المشمس الذي شفى لؤلؤيه نظر النّاظرين، ونوعه الآخر الدغميش الذي هو الشهد بحسنه، ولا يدغمش باسمه على الحاضرين، فتناول المملوك عوارف بره المعروف المبتكرواستضاء نجومه المتردّدة... وقال شكر الله هذه المنن الحلوة والثمرات المتّصلة الخطرات، وهذه المجاني التي طابت أُصولها وفروعها، (فلا أبعدهن الله من شجرات)"*(1).

والهدايا في هذا البّاب كثيرة ولا سبيل إلى حصرها، ولكن العرف في تدبيج كتبها قد استقام سبيله، وذُلّل صعبه، حيث درج الكتّاب على طريقة تكاد تكون واحدة، واضحة الرُسوم، وقد قرّبتها تلك الرسوم من رسائل الديوان ذات الحدود الثابتة، ولم يبقَ إلاّ تفنن الكاتب واستطراداته وتميّز بصماته.

ومن الجدير ذكره، أنّ رسائل الإهداء بين الزعماء نحت منحى خفيّاً قد يطول تأويله، والوقوف على تفسيره، فأكثر ما تكون هذه الهدايا من الخيل أو الجوارح، وكلاهما له مغزاه، فالخيل رمز القوّة والسطوة، والعدّة والذخيرة، وإهداؤها يعني إقتناء المزيد منها، فهي هدية أشبه بالتكشير عن الأنياب، فضلاً عن كونها تليق بمن أهداها وبمن أُهديت إليه، وإهداء الجوارح يشي بالغرض ذاته كون الجوارح ملوك الطير، فلا يقدر على إهدائها إلاّ من كان في مكانتها من حيث العزّة والأنفة والشُموخ.

ومن الهدايا ما يكون بين الأصدقاء، وعندئذٍ تظهر الرسالة مدى عمق الصّلة والمودّة بينهم، وأثر تلك الهدية في تنقية الأجواء وصفاء النّفوس، فتكثر فيها عبارات المجاملات والاشتياق، ومن ذلك ما بعث به بدر الدين الغزيّ إثر هدية بعث بها إليه

---

* "إذا لم يكنْ فيكُنْ ظلٌ ولا جَنًى   فأبعدكُنْ اللهُ من شجراتِ".
انظر الصفديّ: أعيان العصر، ج3،133. ولم ينسبه لأحد.

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 9/116-117.

الصفديّ - وهي سكر وقطر - فجاء فيها "يقبل الأرض، وينهي وصول صدقته الجارية، وهديته التي جاءت بين الحسن والإحسان متهادية، وهنديته التي قام نهدها مقام ثغر الغانية، وأشرقت الأرض بنور وجهها من كل ناحية، نهد أبرزه الصدر، وشهد ما تجرّعت دون اجتناء حلاوته من إبر النحل مرارة الصبر، وهرم أكسب رونق الشّباب وجه الدّهر، ووجه طبع على دائرته ليلة تمامه البدر"[1].

فقد سجّلت في هذه الرسالة عواطف لا تشاكل ما سبقها من عواطف في الرسائل السابقة، والسبب علّه يكمن في أنّ هذه الرسالة صادرة عن صديق، ودافعها الصداقة والمحبّة الخالصة، كون المتهادين من الرتبة ذاتها، واللافت للنظر نضارة تلك الرسالة مع أنّ الهدية غاية في البساطة والتواضع، وهذا يدلُّ على استغلال تلك الهدايا في الكشف عن عواطفهم ومدى صدق شعورهم تجاه أصدقائهم.

ومن هذا اللون كذلك ما بعث به الصفديّ إلى أحد أصدقائه وقد أهدى إليه ثوب صوف أزرق مربّعاً في غاية الحُسن "يقبل الأرض وينهي ورود المرسوم الكريم - أعلاه الله تعالى- فوقف المملوك له قائماً، وقبّل شفة عنوانه اللعساء لاثماً... ووصل ما تصدّق به مولانا ملك الأمراء أعزّ الله أنصاره من الصّوف الأزرق المربّع، يا له من مربّع يودّ المملوك لو وصفه بألف مخمّس، وذي لون أزرق يحسن أن يكون سماء تتبرّج فيها ﴿الجواري الكنّس﴾[2] ما أحسن لونه الأزرق لأنّ البدر أهداه وما أحكم نسجه فإنّ صانعه أتقن ما ألحمه فيه وسداه"[3].

وقد أسهب الصفديّ في وصف ذلك الثوب، مبدياً شكره وثناءه، ومنوّهاً إلى عمق الصداقة والأثر الجميل الذي أحدثته هذه الهدية، فقد لاقت قبولاً - يصعب وصفه - من جانب الصفديّ، ولا أظنّ الثوب في ذاته يفعل بأعصاب الصفديّ وعواطفه هذه

---

(1) الصفدي: أعيان العصر، 219/2.

(2) سورة التكوير، آية 16.

(3) الصفدي: أعيان العصر، 425/5-426.

الألاعـيب، وإنما الأثر الإيجابي الذي تركه مهدي الثوب هو الأساس وهو الباعث على هـذه المـبالغات، فمـثل هذه الهدايا تجلب المودّة، وتديم أواصر المحبّة، وتصفّي كدر العلاقـات، وتنقّـيها من الشوائب، فلا عجب أن تفعل بألباب المتاهدين هذا الفعل؛ لأنّ فعلها يكمن في شخص مهديها لا في الهدية عينها.

ويظهـر من خلال دراسة رسائل الإهداء حميميّة العلاقة بين المتهادين إذا كانوا أصـدقاء لا تربطهم علاقة سياسيّة أو غيرها، كرسائل الصفديّ مع أصدقائه ونظرائه، بينما نجد التصنّع في الرسائل التي تكتب عن السلاطين والأمراء كرسائل ابن نباتة عن الأمراء المتهادين، حيث ترمز تلك الهدايا إلى أُمور سياسيّة، والمهدى إليه ليس بحاجة إلـى تلـك الهديـة مـن الناحية الفعليّة، وإنما تتّخذ الهدية معنى دبلوماسياً؛ ولذا تكون العواطـف فاتـرة تخلـو من الحميمة على عكس الهدايا التي تكون غاية في التواضع والبساطة مع حاجة المهدى إليه إلى تلك الهدية، ولذا تجد في نفسه قبولاً، وتعطي بذلك الأثر الإيجابي، وتشحذ همّته في التعبير عن مدى حاجته إليها، وتصوّر كرم باعثها.

رسائل الشُكر:

تتّصــل رسائل الشكر برسائل الإهداء، حيث تكون في أغلب الأحيان موجّهة في الإجابــة عن الرسائل التي بعث بها قرين هدية، وقد تتجاوز ذلك إلى الاعتراف بفضل بعــض النّاس، وجاء في الحديث النبوي "من لم يشكر النّاس لم يشكر الله"[1]، وجاء في مــواد البيان "رقاع الشُكر يجب أن تكون مودعة من الاعتراف بأقدار المواهب، وكفاية الاســتقلال بحقوق النِّعم والاضطّلاع بحمل الأيادي والنهوض بأعباء الصنائع ما يشحذ الهمــم فــي الــزيادة منها، ويوثق المصطنع بإفاضة الصّنع، ويعرب عن كريم سجية المحسن إليه"[2].

ولا شــكّ أنّ المعــارف والعــوارف كثيرة بين النّاس، وموجبات الشّكر كثيرة، والكــتّاب يتصــيّدون العــبارات والألفاظ المعبّرة عن مدى امتنانهم وشكرهم، وتعميق أواصــر الصّداقة بينهم، وقد بعث الصفديّ إلى صديق له رسالة فيها شكر على هدية، وقــد تقدّم ذكر هذه الرسالة في مبحث الإهداء، وجاء فيها ألوان من الشّكر والاعتراف بالفضــل والإحسان، ومدى ملامسة تلك الهدية لسويداء قلبه: "والله يوزع المملوك شكر هــذه الصدقات التي عمّ سحابها وأغرق وروى جودها عن نافع بن الأزرق، فقد نوهت بقدره ونوّعت له أسباب جبره ويديم الله أيّام مولانا ملك الأمراء لمماليك أبوابه وغلمانه، ويغفر بإحسانها لهم ذنوب زمانهم، فإنّهم من ظلّهِ الوارف في أمانه"[3].

وقــد تقدّم في رسائل الإهداء بيان مقدار تلك الهدايا والأثر الذي تحدثه في نفس الكاتــب، ومن هذه الرسائل كذلك رسالة شكر بعث بها القاضي جمال الدّين أبو اسحق إبراهيم بن محمود إلى الصفديّ يشكره على رسالة تهنئة سابقة، فتحدّث ذلك الكاتب عن الأثــر الذي تركته تلك الهدية في نفسه، ومدى الفرح الذي غمر كيانه، حيث نالت تلك

(1) الكاندهلوي، محمد يوسف: حياة الصحابة، ط1، 1416هـ/1995م، دار قتيبة – بيروت، ج406/3.
(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 183/9.
(3) الصفديّ: أعيان العصر، 426/5-427.

التهنــئة مكانــة لائقة بقلبه، فلم يجد بدّاً من تسطير أخرى اعترافاً بالجميل وشكراً على العارفــة التــي أســديت إلــيه، فجاء في تلك الرسالة: "وينهي ورود المشرف العالي المشتمــل من جواهر البديع على ما يخجل زهر اللآلئ فقبلّه المملوك حين وافاه وأجلّ محلّــه حيث يلقاه، وكلّف بمضمونه، فكلّما انتهى إلى منتهاه أعاد لثمه وابتداه... وتحقق المملــوك صدقة مولانا التي ألفها قديماً وآنفاً، ومحبّته التي لم يزل المملوك على مثلها مقيماً وبمثلها عارفاً"[1]. وقد أغدق الكاتب في وصف تلك الرسالة حيث ملكت عليه كل حواسّــه حتى عدّ تلك الرسالة صدقة بُعث بها إليه، فلولا الحاجة الماسّة إليها لما سمّاها صــدقة، فقد وجدت في نفسه مسلكاً سهلاً، وتمكّنت في قلبه وحلّت محلاً يليق بها وبمن بعــثها، واعتــرافاً مــنه بهذا الجميل كان لزوماً عليه أن يسرع في شكرها، فجاء في الرســالة ذاتهــا: "وقد تقلّد المملوك لمولانا هذا الإحسان، وهو يعتذر من التقصير عن القــيام بشكر هذه العوارف الحسان، فلو كان بين يدي مولانا لا نفتح له من المعاني كل باب واقتبس من موائده وفرائده ما ينظمه في سلك هذا الجواب، وإنما بعده عن فضائل مولانا أوجبت له الاعتراف بتقصيره، والتعويض بقليل اللفظ عن كثيره"[2].

والعــبارات التي قد سطّرت في هذه الرقعة المبنيّة على الشّكر لافتة للنّظر، فقد عدّ الكاتب تقصير بلاغته عن ذرى بلاغة الصفديّ شكراً له واعترافاً بعوارفه وفضله، وقــد أكثر الكاتب من عبارات المجاملة والثناء والشّكر، وجعل ذلك عوضاً عمّا أحدثته رســالة الصــفديّ فــي نفسه من الأثر الإيجابي، فهذه مكافئة كان جزءاً منها شعوره بالتقصــير عن شكر مهنئه، وقد عدّ تلك الرسالة جزاءً بسيطاً لقاء ما قلّده الصفديّ من المعارف الحسان، وهذه مجاملة ظاهرة، ولطافة بيّنة، وتواضع كبير قد يوصل إلى حدّ الرّقّ.

(1) الصفدي: ألحان السواجع، 7/1.

(2) المصدر نفسه، 7/1.

وكــتب كذلك زين الدين بن الورديّ إلى أحد أصدقائه رسالة وقد أهداه صقرين، فكــتب يشــكره واصــفاً هذين الصقرين: "وينهي وصول الصقرين، فسرّ العبد بهذين الحــرين، اللذين تحنّ الجوارح إليهما من وجهين، ويعزّ على ابن المعتز أن يذكر لهما في تشبيهاته شبهين، فوقع الصقران من المملوك بموقع يفوق النسر"[1]، ففي هذا المقطع من الرسالة يبيّن الكاتب مدى الأثر الذي لحقه بسبب هذه الهدية، فوقعت منه موقعاً لائقاً بالقلب، فغمره السّرور والفرح والابتهاج بهذه الهدية، وشرع في وصف ذلك الصقرين قــائلاً: "وتأمّــل نحــوهما فإذا هما منصوبان لبناء ما ارتفع وانخفض من الصّيد على الكســر، مقلهمــا حمــر كسيوفه، وأجنحتهما مسبلة كغمائم بره على رعاياه وضيوفه، ومخالبهما كالمناجل لحصاد أعمار أعدائه وأعمار الطير، ومناقيرها كالأهله المبشّرة له ولأوليائه بكل خير"[2].

والمــتأمّل لهــذا الجــزء من الرسالة يجد الكاتب يمزج بين مثاليّة الهدية ومدح المهــدي، فآخى بين صفات المثال لهذين الصقرين وكرم وشجاعة ذلك الصّديق، وهذا اللــون من المدح لا تكاد تخلو منه رسالة إخوانيّة، حيث تبنى تلك الرسائل على عنصر ثابت يتمثّل في عنصر المدح. فالباعث لهذين الصقرين شجاع في مواطن الإقدام، كريم فــي مواضــع السّخاء، ورع في مواقع الرأفة والرحمة، جبّارٌ على أعدائه، تبشّر طلعة وجهــه بكل سعد وخير، وهذه مجاملة يعدّها الكاتب كما سلف جزءاً من شكره، ومكافأة له جرّاء تلك الهدية.

ومــن رســائل الشّــكر ما بعث بها شهاب الدين بن النقيب أحمد بن بلبان إلى الصفديّ يشكره فيها على رسالة في الشوق وتقصّي أخباره، فجاء في هذه الرسالة "فأمّا مــا تصدّق به من وصف أشواقه ومكارمه إلى غير ذلك فقد شكر المملوك لمولانا هذه العوارف، وذم أياماً ضاع المملوك فيها زهر الأداب من غرس ظلّه الوارف، وندم حيث

---

(1) ابن الورديّ: الديوان، ص118.

(2) المصدر نفسه، ص118.

لا ينفعه الندم على ما فرط في جانب تلك المعارف"[1]، فابن النقيب أسهب في شكر الصفديّ، وبيان عوارفه التي طوّقت عنقه؛ فلذا عدَّ الأيّام التي لم يكن اجتمع بها معه ضائعة من عمره بلا طائل، وخسر فيها التمتع بفوائده وفرائده، وندم على التفريط بهذه السّاعات، وهذا ما سبق الحديث عنه من تواضع ورقّ وشعور بالتقصير واعتبار ذلك جزءاً من الشّكر والاعتراف بالجميل، وجالباً للصداقة ومنقياً الأجواء من كل شحناء، ومدحاً يسهم في ردّ الجميل والعوارف الحسان.

والنّاظر في تلك الرسائل يجدها تفيض بالمبالغات والمجاملات التي تتجاوز عباراتها قيمة موضوعاتها، حتى أصبحت هذه الخصلة سمة يوسم بهذا هذا اللون من الرسائل بل تتعدّى ذلك إلى الرسائل الإخوانيّة عامّة، وقد يكون الغرض منها الإفصاح عمّا في نفس الكاتب من الكشف عن بيانه وامتطائه لصهوة الكتابة، وربّما فرض تلك الخصلة الظروف الاجتماعيّة والسياسيّة حيث لا يولّى منصباً كتابياً أو ديوانياً إلاّ من امتحن في سلامة قريحته، فتكون هذه السياسة دافعاً لهم على كثرة المبالغات والمجاملات.

ومهما تعدّدت رسائل الشكر وتباينت مناسباتها - حيث لا بُدّ لرسالة الشكر من مناسبة إلاّ أنّ الكتّاب يغرقون في أمواج من عبارات الشكر والثناء كما سلف، فهي تتناول محاور معينة اتّخذتها إطاراً ملازماً على اختلاف مناسباتها وموضوعاتها، فتبدأ عادة بالحديث عن أثر تلك النعمة التي أُسديت إليه، ومبلغ تلك الصداقة وتمكّنها من فؤاده، ثمّ يتبع ذلك بوصف تلك الهدية بالأوصاف التي تليق بها وبمن أرسلها، وإن كانت غير هدية أفصح عن عميق مشاعره تجاه باعثها ووصفها بالوصف اللائق بها، والأمر الآخر يتمثّل في مدح مرسلها والاعتراف بفضله الذي طوّق الأعناق وجعله أسيراً لعوارف باعثها، ومعتذراً عن تقصيره البيّن في حقّ ممدوحه، ويختم بالدعاء على ما يستحقّه من شكر وثناء.

---

(1) الصفديّ: ألحان السواجع، 10/1.

عوائد إحسانه، ولمح أشرف المعاني بإنسانه، وربح إذا بدا بفصل خطابه، وفضل بنانه، أبــى الله إلاّ أن يكون له الفضل في ابتدائه، والفوز بسبق تحيّته وإنشائه، فقبله المملوك تقبــيلاً، وفضّـــه فإذا البيان جاء معه كلّه قبيلاً، ورأى أدباً غضّاً، ونظماً ونثراً فاقا من سلف عصره وتقضّى"[1].

والنّاظـــر في رقعة ابن البارنباري يدرك المنحى الذي هدف إليه، فهو يريد مدح صديقه والإشادة به، فلم يجد بدّاً من التنويه بفضل فصل خطابه، وحُسن بيانه، وفصاحة ألفاظـــه، فهو صاحب الأدب الغضّ النديّ المتنوّع، فقد فاق السّلف في نظمه ونثره فلم يدانـــيه معاصروه في هذه الفضيلة، وهذه مجاملات يسعى الكتّاب من ورائها إلى بلوغ الشهرة وذيوع الصّيت.

وقد أكثر الصفديّ من مدح الأديب ابن سيِّد النّاس اليعمريّ (734هـ/1333م)، وبالـــغ في ثنائه والإشادة به، فقد جاء من رسالة قوله "فأعود إلى وصفه نثراً، وأستعير مــن كلماته في تقريضه درّاً، فأقول: إنّه اشتمل على المحاسن وغدا إنموذج الجنّة التي خمرها مغتال، وماؤها غير آسن، تقطر البلاغة من كلمه، وتشفّ الفصاحة من وراء ما سـطّر بقلمه، وتغني رياضه الناضرة عن أراك الحمى وعن سلمه، ويهزّ الواقف على معانيه بالطّرب من قرنه إلى قدمه، يتحيّر النّاظر فيه لتردّده بين روض وأُفق، ويتخيّر الماهر من لفظه تاجاً لفرقٍ أو قلادة لعنق"[2].

وقد أظهر الصفديّ ألواناً من المدح في هذه الرقعة، فقد مدح شخصه مثنياً بأدبه، وقد اعتمد في مدحه ضروباً من فنون البلاغة والبيان، وقد يكون من اللافت للنّظر كثرة حديـــثه عـــن البلاغة والبيان والفصاحة، وربّما تعلّل هذه الظاهرة برغبتهم في الشهرة وخاصـــة في الأوساط الأدبيّة. فالبضاعة التي يروّجون لها ويرجون رواجها تتمثّل في فنّ الأدب: نظماً ونثراً؛ ولذا تدبّج معظم رسائلهم بالأشعار إلى جانب النثر.

(1) المصدر السابق، 174/5.

(2) المصدر نفسه، 226/5.

وقد قابل ابن سيد النّاس اليعمريّ هذه الرسالة بالسُّرور والنشوة، فكشفت عن جانب من بلاغته، ولاقت هوىً في نفسه، فأفصح عن رغبته في إثبات ذلك المدح من خلال مدح الصفديّ، معبِّراً عن تلك الخصال بتسطير رسالة في الموضوع ذّاته، مبدياً فيها صنوفاً من ألوان المدح، ومظهراً تفوّق ممدوحه عليه قائلاً: "وهل استولى على أمد تلك الجواد غير ذلك الجواد، وأن يكاثر البحار الزواخر من ورده الثماد، وأن يطاول الأنجم الزواهر من قرارته الوهاد، فما تفوّه السليم الصّدق إلاّ بالتسليم لذلك السبق والتعظيم لذلك الحقّ، اعترافاً بما قد حواه رافع ذلك المنار، وجامع تلك المبار"[1].

والنّاظر في مثل هذه الرسائل يجدُ إظهار التقصير والعجز أمام بلاغة الممدوح، فابن سيّد النّاس يجعل من الصفديّ بحراً زاخراً، مصوّراً نفسه أمامه ماءً ثُماداً، وهذه غاية في التواضع بل مبالغة كبيرة في التواضع، وممّا يثير الدهشة أنّ هذا المدح الرائق يصدر عن شيخ الصفديّ ومجيزه[2].

وجاء له من رسالة أُخرى في الغرض ذاته مادحاً الصفدي، ومركِّزاً مدحه على عنصر البيان والفصاحة والبلاغة قوله: "وردت المشرفة السامية بحلاها، الزاهية بعلاها، المشتملة على الأبيات الأبيّات، الصادرة عن السجيّات السخيّات، التي فاقت الكنديين، وطوت ذكر الطائيين... تقف الفصاحة عندها، وتقفو البلاغة حدّها فالله* ذلك الفضل الوافي! بل السّحر الحلال الشافي"[3].

وقد طالت المساجلات بينهما في هذا الغرض، وقد كشف كلّ منهما عن قدرته في تسطير عبارات المدح التي تنمّ عن ذوق مرهف وامتلاك زمام البلاغة، ونختم تلك

---

(1) المصدر السابق، 230/5.

(2) انظر المصدر نفسه، 210/5.

* الصواب فلله وأثبت ما في الأصل.

(3) المصدر نفسه، 236/5.

المساجلات بقول الصفديّ: "وقد قيل: بُدئ الشعر بأمير وختم بأمير يريدون امرأ القيس وأبا فراس، وكذا أقول بُدئ بالبستي وختم بمولانا"(1).

ومن الجدير ذكره أنّ الكتّاب المماليك قد تحوّلوا بغرض المدح من فنّ الشعر إلى فـنّ النثر، وأصبحت الرسائل الفنيّة قطعاً موشاة بألوان المدح، وقد ربطوا بين غرض المـدح والمبنـى الذي يشكّل جسداً لتلك الرُوح، فجاءت رسائل المدح تغصُّ بضروبٍ مـن أساليب البلاغة والبيان؛ لتناسب المدح المنصبّ على عنصر الفصاحة وما شاكله لدى الممدوح.

وقد تبادل الكتّاب هذا الغرض بقصد كسب المودّة ودوام الصّداقة؛ لِمَا في النّفس مـن ولعٍ بالمدح والثّناء، ويقود هذا المدح إلى مآربَ يطمح الكتّاب إلى تحصيلها، مثل: الشهرة وذيوع الصّيت؛ لتسهم هذه السمعة في تولّيهم المناصب الكتابيّة والديوانيّة.

رسائل الهجاء:

رسـائل الهجاء والذّم من الرسائل التي تكشف عن مدى طبيعة علاقات المجتمع واحتكاك أطيافه، حيث تفضي تلك الرسائل إلى الكشف عن مدى اندغام وجهات النّظر واخـتلافها، وتظهـر كـذلك الوجه الآخر لصورة المجتمع، فاختلاط الطبقات وتداخل علاقات النّاس وتعارض ميولهم ورغباتهم تولّد بعض الأمراض الاجتماعيّة، وخاصّة ما يُثيـر الهجـاء والذّم، وهذا الهجاء دليلٌ على صحّة علاقات المجتمع حيث لا يمكن أن يتصـوّر مجتمع تسوده علاقات المودّة والصّفاء دون شوائب تكدّر صفوه، فوجود مثل هذا اللون من الرسائل -أعني الهجاء- يدلّ على واقعيّة الأدب وصدقه الفنيّ.

وقـد تـوزّعت رسـائل الهجاء بين ذمّ أخلاق النّاس والبلاد، فمن الرسائل التي تـناولت هجـاء الأشخاص، وبيان فساد أخلاقهم، وحطّت منزلتهم تلك الرسالة المسمّاة "الحـرقة للخـرقة" لابـن الورديّ يهجو فيها القاضي الرياحي فجاء من تلك الرسالة:

---

(1) المصدر السابق، 241/5.

"اعلمـوا يـا ولاة الأمر، ويا ذوي الكرم الغمر - أبقاكم الله بمصر للأمّة، ووفقكم لدفع الأصـر وبراءة الذمّة- إنّ حلب قد نزعت للزبدة ووقعت من ولاية التّاجر الرياحيّ في خسر وشدّة، بجرأته التي طمّت وطمت، وعاميته التي غمّت وغمت، وفتنته التي بلغت الفـراقد وأسـهرت ألـف راقـد، ووقاحته التي أدهشت الألباب، وأخافت النطف في الأصلاب"[1].

ومـن الواضـح أنّ تلك الرسالة تتناول موضوع الشكوى من ذلك القاضي الذي تولّـى قضـاء حلب، ولكن الرسالة أخذت تفصح عن مساوئه وعيوبه، فقد عدل كاتب الرسـالة عـن موضـوع الشكوى إلى النيل من شخصه؛ ولذا عدّت هذه الرسالة من موضـوعات الهجاء والذمّ، فقد بيّن فساد سياسته في القضاء قائلاً: "فكم لطخ من زاهد، وكم أسقط من شاهد، وكم أرعب بريّاً، وكم قرّب جريّاً، وكم سعى في تكفير سليم، وكم عاقب بعذاب أليم"[2].

وقد أسهب ابن الورديّ في تعداد عيوبه ومثالبه التي لا تكاد أن تتصوّر في قاضٍ بـل مسـلم، فقد "كابر وتأوّل، واعتمد على الفجور وعوّل، وزاد في المدافعة، وخوف بالشرّ والمرافقة، وأطلق لسانه في الأعيان ولم يقيّد، وقلّب رأساً لم يكن رأس سيّد"[3].

ولقد أكثر ابن الورديّ في سرد مثالبه التي فاقت العقول وتجاوزت الحدود، حتى جعلـت أبـناء مذهبه يضجّون منه، ويخافون سوء عاقبته على مذهبهم فقال: "ولمّا بلغ المالكـيّة بدمشـق هـذه الواقعة المستعظمة أصغروا قدره عنها، وقالوا "كبرت كلمة" واسـتحلّوا سبّه وشتمه، واستقلّوا عقله وعلمه، وكتبوا إليه يا مغلوب لقد بغّضت مذهب مالك إلى القلوب"[4].

---

(1) ابن الورديّ: الديوان، ص155.

(2) المصدر نفسه، ص155.

(3) المصدر نفسه، ص157.

(4) المصدر نفسه، ص157.

وقد نعته الكاتب بعدّة نعوت حطّت من قدره قاضياً، حيث وصفه بالجور والجهل وغشّ الرعيّة، وأكل أموال المسلمين إلى غير ذلك من أُمور تشين سمعته وتصمه بالعار، وبعد ذلك انتقل الكاتب من هجائه الذي يخصّ أمر قضائه إلى ذمّه الشخصي الذي يفضي بالتّالي إلى تآزر هذه المساوئ وتعزيزها، فقد بدأ بهجاء أخلاقه وفجوره وظلمه واستحلاله لأموال النّاس قائلاً: "لا يحمد أحمد ولا الشافعي ولا يرفع منار الرافعيّ، قراد لا يلفظ إلاّ دم الأوراك، وجراد لا يسقط إلاّ على أموال الأتراك، إذا وقع عنده عالم فقد وقع بين مخالب الأُسود وأنياب الأفاعي السُّود"[1].

وبالغ الكاتب في ذمّه، وبيان فساد عقيدته، وخيانته لأمانته فهو "عارٌ على الدّين عدّة للمعتدين، سيئ الصنائع ذخيرة سوء في الودائع"[2]، وقد وصمه بالجهل وقلّة العلم "فغاية علمه إطالة السكوت"[3]، فسكوته ناجم عن جهله لا عن رزانته ووقاره، فما يحبسه عن الكلام إلاّ جهله عن الإفصاح "فسكتاته غير متناهية... يجهل حتى أسماء الكتب))[4]، فجهله كما صوّره الكاتب عام وشامل في كل المعارف وقاده ذلك الجهل إلى إساءة معاملة النّاس وخاصة العلماء، ولذا نال من أهل الدّين "يقصد بذلك أهل الدّين والقرّاء المجوّدين، نسي جلوسه في السوق..."[5].

ومن اللافت للنّظر نعته بالرشوة "ويدّعي العفّة من البراطيل، فليته تناول الحطام وتعفّف عن أعراض الأنام"[6]، وعاد ابن الورديّ إلى إظهار عيوبه الخَلْقية التي آزرت مثالبه الخُلُقية، فهو ألثغ "راؤه غين، ومنطقه شين، إذا سبّح الربَّ ما تدري أسبّح أم سبّ؟"[7].

---

(1) المصدر السابق، ص162.

(2) المصدر نفسه، ص163.

(3) المصدر نفسه، ص163.

(4) المصدر نفسه، ص163.

(5) المصدر نفسه، ص170.

(6) المصدر نفسه، ص171.

(7) المصدر نفسه، ص171.

والرســـالة تلـــك طويلة تجمع الكثير من عبارات الشتم والذمّ لذلك القاضي الذي يحمـــل حقداً ولؤماً وجرأة على حقوق النّاس كما يدّعي الكاتب، ممّا جعل ابن الورديّ يصـــمه بالوقاحة وقلّة الحياء على الرغم من اعتذاره عن تلك الشتائم في بداية الرسالة حـــيث صـــرّح قـــائلاً: "وهذه رسالة أخلصت فيها النيّة، وقصدت بها النصيحة للرعاة والرعيّة، أودعتها من جوهر فكري كل ثمين، وناديت بها على هزيل ظلم أبناء جنسي مناداة اللحم السّمين، لكن جنّبتها فحش القول إذ لست من أهله، وخلّدتها في ديوان الدهر شاهدة على المسيء بفعله، ورجوت بها الثواب، وتحرّيت فيها الصدق والصّواب"[1].

ولا أرى الكاتب قد تجنّب فحش القول كما ادّعى، حيث جاء في الرسالة من هذا القبـــيل الجـــمّ الغفير "مغربي الأخلاق، مذموم على الإطلاق"[2] إلى آخر ما تعني كلمة مغربـــي من معانٍ وتعميم يشين ابن الورديّ قبل أهل المغرب، وكذلك "قراد لا يلفظ إلاّ دمّ الأوراك"[3]، وكذلك "جاهل بجميع العلوم"[4]، "يعامل النّاس بأخلاق المغاربة"[5]، "إنّ هذا القرد الظّالم حوله من المغاربة غير سالم"[6]، وقد أكثر ابن الورديّ من الهجوم على أهل المغرب، وهذا يقود إلى القول بتجذّر العصبية بين أهل المشرق والمغرب في ذلك الوقت.

ومهمـــا يكـــن، فـــإنّ ابـــن الورديّ قد صبّ جامّ غضبه، وحدّة لسانه على ذلك القاضـــي، فكـــان هجومه عليه كاسراً، ومنطقه شائناً، وقد تعدّى ذلك القاضي إلى أهل المغرب عامة.

ومن رسائل الهجاء كذلك ما كان في ذمّ البلاد، ويمثّل هذا النوع من الرسائل ما بعـــث به زكي الدّين الحسين إلى أخيه سنة (762هـــ/1360م) يتشوّق إلى دمشق ويذمّ

(1) المصدر السابق، ص155.
(2) المصدر نفسه، ص163.
(3) المصدر نفسه، ص162.
(4) المصدر نفسه، ص164.
(5) المصدر نفسه، ص165.
(6) المصدر نفسه، ص173.

مصر، وقد أكثر كاتب الرسالة من ذمِّ تلك البلاد، وجرَّدها من كل حسنة، مصوِّراً شدّة غربته، وطول عذابه، مقابلاً بتلك الصورة صورة نعيم دمشق وأُنسها قائلاً: "فيكف يبقى لمــن حلَّ في جنّة النعيم ورياضها، ويرتع في ميادين المسرّات وغياضها تلفّت إلى من سـمّته يــد الأقــدار إلى أرضٍ ليست بذات قرار، وبدّلوا بجنّتهم ذات البان المتفاوح، والورق المتصادح، والنشر المتقارح، والماء الطلق المسلسل، والنسيم الصحيح العليــل ﴿جَنَّتَيْن ذَوَاتِي أُكُل خمط وأثلٍ وشيء مِن سِدْرٍ قَلِيل﴾*"(1).

وأخذ الكاتب يقابل بين صورة دمشق الجميلة في ذهنه بصورة مصر التي تسبّبت فــي معاناته. فصورة دمشق كما تقدّم ذات بان متفاوح وورق متصادح ونشر متقادح، وماءٍ عذب مسلسل ونسيم عليل، بينما تبرز صورة مصر "بشموسها وحميمها، وغمومها وحَــزَنها وســهولها ووعــورها، وحــرورها وزفيرها، وسعيرها وكيمانها** ونيرانها وســودانها وفلاحــيها وملاّحــيها، ومشــاربها ومساربها ومسالكها ومهالكها، وحدّائها وعصفورها... وتعكّر مائها وتكدّر هوائها..."(2).

وقــد أحصـــى ذلك الكاتب مثالب كثيرة، ووصم بها ذلك البلد، فقد أظهر مصر بأقبح صورة، فلا يصلح فيها شيءٌ للحياة الهنيئة، حتّى أنّه جعل سكناها مشاكلاً لسكنى الــنّار عندما قال: "ولو تراهم في أرجائها كالأباعر الهمّل، وهم يصطرخون فيها ﴿ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنّا نعمل﴾*"(3).

---

* سورة سبأ، آية 16.

(1) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط المقريزية والآثار، ج368/1.

** كوّم الشيء جمعه ورفعه000 وكوّمت كومة بالضم إذا جمعت قطعة من تراب ورفعت رأسها. والكومة تراب مجتمع طوله في السماء ذراعان وثلث، ويكون من الحجارة والرمل. انظر ابن منظور: لسان العرب، مادة كوم.

(2) المقريزي: المواعظ والاعتبار، 368/1.

* سورة فاطر، آية 37.

(3) المقريزي: المواعظ والاعتبار، 368/1.

وقـد حشد الكاتب في تلك الرسالة كثيراً من آي الذكر الحكيم التي تصف مشاهد العذاب والشؤم؛ ليجعل من تلك الصورة التي رسمها لمصر منظراً مروّعاً، وطارداً لمن يزورها أو يسكنها.

ومـن الطريف في هذا المقام ذكر تلك الرسالة التي أنشأها محيي الدين بن عبد الظاهـر فـي التعريض بالوطواط** على سبيل السخرية والهجاء، فأنشأ تقليداً لشخص يعـرف بـابن غراب يعرّض فيه بالوطواط، وممّا جاء في ذلك التقليد "وإنّا فكّرنا في بعـض ذوات الأجنحة خبيث حقير السّمات، أسود الوجه والقفا والصّفات، لا يألف إلاّ قـبور الأمـوات، ولا يسعى إلاّ في الظلم والظلمات، ذو أذن ناتئة، وما هذه الصّفة من صـفات الطيور، وإنّه يولد والطير لا يُعرف منها إلاّ أنها تحضن بيضها في أعشاشها والوكور، وإنّه لا يقع في الشباك ولا في الفخوخ... ولا يسمع منه هديل ولا هدير، ولا يصـير مسـرور حيث يصير... مشؤوم الطلعة، مذموم النجعة، مرجوم البقعة، سيئ الجوار، قبيح الآثار، مؤذن بخراب الديار..."[1].

وقـد أغرق محيي الدّين في نعته، وأوغل في وصفه، فألزمه كل صفات القبح، حيث رسم له صورة قاتمة مجبولة بالخداع والخبث وسوء النيّة؛ ممّا لا يحتمل أن تكون صـفة لـذلك الطائـر، ويمكن القول إنّ المنافسة بين هذين الكاتبين قادت إلى مثل هذه المنازلة، فالرسالة أكبر من أن يُقال مداعبة أو ملاطفة.

والتعـريض بالكاتب الوطواط واضح حيث يقول محيي الدّين في الرسالة ذاتها: "ويتجاوز فيه ذلك كل سمي بهذا الاسم المشؤوم إذ لكل امرئ من نعته نصيب"[2].

** جمـال الدين محمد بن إبراهيم الكتبي المعروف بالوطواط (718هـ/1318م)، كان من الأدباء، وبينه وبين القاضي محيي الدين ابن عبد الظاهر بعض الوقائع، فكان يكرهه ويغض منه. انظر المصدر نفسه، 4/201-204.

(1) الصفدي: أعيان العصر، 4/206.

(2) المصدر نفسه، 4/207.

ومهمـــا يكـــن، فإنّ تلك الرسالة تنمّ عن خيال خصب، وفكرٍ عميق وأدب رفيع، ففـــيها عبّـــر محيي الدّين عن سخطه على ذلك الكاتب دون أن يذكر اسمه مباشرة، بل اكتفـــى بالتورية عنه من خلال ذلك الطائر مستغلاً لقبه في ذلك، ولا يمكن أن نعدّ تلك الرســـالة مـــن موجبات المودّة والصداقة بين الكاتبين، بل تفضي إلى الكراهية السائدة بينهما، والحط من قدر الوطواط لمنافسته لمحي الدّين. والمنافسة بين الكتّاب من الأُمور المستحكمة بين العلماء في كل عصر.

وتمـــثّل رقع الهجاء بشكل عام لوناً من ألوان الأدب الواقعي، حيث لا يمكن أن تخلو العلاقات الإنسانية من شائنة تشينها، أو أمر مكدّر يكدرها، فالهجاء والذم يسيران جنباً إلى جنب ورسائل المدح والشكر والثناء.

ويتركّز الذمّ والهجاء في تلك الرسائل على صفات المهجو الخُلقيّة والخَلقيّة، وما يـــنجم عنهما من سوء أفعال وأعمال، ولكنّ الذمّ الموجع الذي يجعله الكاتب في الجانب الخُلقي من غدر وفجور وحقارة ودناءة... إلخ من هذه الخصال.

رسائل الشفاعات والعنايات:

اشـــتهرت رسائل الشفاعات والعنايات في الأوساط الأدبيّة في العصر المملوكي بســـبب العلاقـــات المـــتداخلة بـــين الكتّاب من جهة، وذوي الأمر والنهي في السلطة المملوكـــيّة مـــن جهة أُخرى، حيث استغلّت هذه العلاقة واستفاد الكتّاب من مكانتهم في طلب الشفاعة والعناية لأصدقائهم من تلك السلطات، فهذه الرسائل "إنّما تصدر عن ذوي الـــرُّتب والأخطـــار، والمنازل والأقدار الذين يتوسّل بجاههم إلى نيل المطلوب ودرك الرغائب"[1].

وتكـــون الشفاعات عادة في أُمور ثلاثة تنحصر في: المال، أو الجاه، أو العفو، وكل هذه تحتاج إلى سخاء ومروءة وحلم وتسامح؛ ولذا لا يبذل ماله إلاّ سخيّ، ولا يبذل جاهـــه إلاّ ذو مـــروءة، ولا يستنزل عن سخيمة إلاّ من كفّ حدَّ غضبه، وغضّ طرف حنقه[2].

وقـــد ســـلك الكتّاب في هذه الرسائل مسالكَ تكاد تتطابق في تلك الشفاعات، ففي شـــفاعة للشيخ الشهاب الحلبيّ في استخدام كاتب درج*، أكثر الحلبيّ في مدح مستشفعه حتـــى كـــادت أن تكون تلك الرسالة مخصّصة للمدح، فجاء فيها: "صدرت هذه الخدمة تســـتمطر ســـحاب كرمه، وهامي ديمه، وتسأل جميل شيمه، في معنى مملوك المولى وداعـــيه والشـــاكر لأياديه، والملازم على رواية أخبار فضائله وبثها، ونشر تفضّلاته وبثّها، فإنّه كريم النجار زائد الفخار، وله على مولانا حق خدمة"[3]، فقد بالغ الكاتب في الثـــناء علـــيه، ونشر خصاله الطيّبة فهو "من بيت كريم النجار، زائد الفخار، وله على

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 124/9.

(2) انظر المصدر نفسه، 124/9.

* كـــتّاب الـــدرج: هم الذين يكتبون ما يوقّع به كاتب السرّ أو كتّاب الدست أو إشارة النائب أو الوزير000 من المكاتبات والتقاليد والتواقـــيع والمراســـيم والمناشـــير000 وسُمُّوا بكتّاب الدّرج لكتابتهم في دروج الورق وهو الورق المستطيل المركّب من عدّة أوصال. انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 138/1.

(3) المصدر نفسه، 134/9.

مـــولانا حقّ خدمة، وهو يمتُّ بسابق معرفة، ومحبة الملوك له شديدة، والصحبة بينهما قديمة، وشقة المودّة جديدة"[1].

وقد جعل الكاتب تلك الخصال شفيعاً لذلك الطالب للوظيفة عند مولاه، فلهج لسانه بمدحه وشكره، ومداومة الثناء عليه وطول صحبته، ودوام صداقته مكّنته من طلب تلك الخدمة "ولولا ذلك ما ثقّل على خدمته، وتهجّم على المولى بمكاتبته، وقد توجّه إلى بابه العالي مهاجراً، وناداه لسان جوده فلبّاه، وأجابه مبادراً"[2].

والكاتـــب فـــي هذه الشفاعات يتعمّد صنع ألفاظ الملاطفة وذكر ما يوجب حفظ الـــوداد، وزرع الـــثّقة، واســـتماحة الحوائج، وبيان فضل مانح الشفاعة وكريم أخلاقه وســـماحته، ويثنـــي كذلك على طالب الشفاعة، حيث يستحقّ أن يبلغ تلك الخدمة التي يرمـــي إلـــيها، وبعد أن ينهي الكاتب من ذِكر خصال مانح الشفاعة وطالبها يفضي إلى تســـمية تلـــك الخدمـــة وتعيينها، ولكنه يتوخّى اختيار العبارات التي تنمُّ عن الاعتراف بالجميل، وحفظ الصداقات "وغرضه أن يكون كاتباً بين يديه، ومملوكاً تقع عين العناية عليه"[3].

ويســـهب الكاتـــب فـــي بيان خصال طالب الشفاعة، وبروزه في فنّ الكتابة وبزّ أقرانه، مطمئناً المشفِّع "وهو من الكرام الكاتبين والراغبين في الانتظام في سلك الخدمة والمؤثرين، وصفاته بالجميل موصوفة، وفصاحته معروفة، وقلمه ظفر المهمات، ويكفُّ كف الحدثان"[4].

ويعـــود الكاتـــب إلـــى الثناء على المشفِّع وشكره طالباً شفاعته، ومتوسّلاً إليه، راجـــيـــاً قـــبول تلـــك الشفاعة في تلبية حاجته، ففي قبول تلك الشفاعة حفظ لماء وجه

(1) المصدر السابق، 134/9.

(2) المصدر نفسه، 134/9.

(3) المصدر نفسه، 134/9.

(4) المصدر نفسه، 134/9-135.

الكاتب، وتحقيق بل تأكيد لكريم أخلاق المشفّع "فإذا أنعم المولى باستخدامه، وتحقيق مرامه، كان قد وضع الشيء في محله، وصنع المعروف مع أهله، وبيّض وجه المملوك وشفاعته وصدق الأمل في إحسانه ومروءته"[1].

ومن خلال دراسة رسائل الشفاعات يتعيّن من خلالها عدّة محاور أساسيّة تُبنى عليها تلك الرسائل، فالمحور الأول يتمثّل في ذكر خصال المشفّع الكريمة والسخيّة، فهو صاحب مروءة، وحلم وسخاء، ويتعيّن على الكاتب ذكر تلك الخصال في معرض حديثه، مستعيناً بالملاطفة والموادعة، مع إبداء شيءٍ من التوسُّل والتضرُّع، حيث لا بدّ من بيان قدر ذلك المسؤول، وحاجة النّاس إليه لاستماحته، وطلب شفاعته، فمن شفاعة للحلبيّ في استخدام جندي جاء قوله في مدح المشفّع "لا زال برّه مطلوباً، وجوده مخطوباً، وذكر إحسانه في الملأ الأعلى مكتوباً، ولا برحت رياض جوده أزهر وأنضر من روض الربا، ويده البيضاء ترقم له في سواد القلوب سطور حمد أحسن من نَوْر تفتحه الصَّبا"[2].

فالكاتب أثنى فبالغ في ثنائه، حيث أغدق كثيراً من صفات الكرم والجود والطيب والإحسان على مشفّعه، حتى نال مرتبة عالية، وبلغ مكانة مرموقة في قلبه وقلوب النّاس، وقد تكرّر هذا اللون من الثناء في رسالة شفاعة في ردِّ معزول إلى ولايته، حيث جاء فيها "وينهي ملازمته على شكر مواهبه، ونشر فضائله الجسيمة ومناقبه، وحمده كريم شيمه"[3]، فالمشفّع ذو فضائل جسيمة، ومناقب حميدة، ومواهب متعدّدة، وأخلاقه كريمة، ويتمثّل هذا المحور في كل رسالة شفاعة، حيث لا بدَّ من الإطراء، واللهج بالثناء والشكر، وبيان مناقب الكرم والجود، والسّخاء والعفو والحلم، ورجاحة العقل

---

(1) المصدر السابق، 135/9.

(2) المصدر نفسه، 135/9.

(3) المصدر نفسه، 136/9.

والإيثار، والتجاوز عن الهفوات، والصفح عن المذنب، ويدرج الكاتب هذه الخصال في جوٍّ من الملاطفة والاستماحة والتوسُّل الخفيّ الذي فيه شيء من إراقة ماء الوجه.

ويأتي بعد ذلك المحور الثاني والمتمثّل في الطرف الثاني وهو المشفَّع فيه، حيث يلهـج الكاتـب فـي ذكر خصاله من حفظه للودّ، وموجبات الحقوق، ومداومة شكره، والمحافظـة علـى حفـظ الجمـيل، فجاء من رسالة شفاعة في خلاص مسجون قول الكاتـب: "وقد اشتهر ما يعامل به من الإكرام، وأن قسمه من العناية أوفر الأقسام وكان يعدّ من جملة العبيد، فأصبح مضافاً إلى الإلزام، وهذا ما يوجب على المملوك أن يبتهل إلـى الله في تخليد دولته ويتضرّع"[1]، فالمشفَّع فيه لا يكلّ ولا يتوقّف عن ذكر محامد مشفّعه حتى ينال عفوه وشفاعته.

وهناك محور ثالث يتمثّل في ذكر نوع الشفاعة، ويأتي مشفوعاً بألفاظ وعبارات تـتموّج بألـوان من التوسّل والضراعة، وطلب الرحمة والرأفة جلباً للعفو والاستماحة والاسـترحام، حيث تُعدُّ هذه الرسائل مبنيّة على عنصر الاسترحام والاستعطاف، فمن رسـالة الشفاعة السابقة قول الحلبيّ: "فإنّه قد طالت مدّة حبسه"[2]، ومن رسالة أُخـرى في ردّ معزول "وقد تشفّع بالمملوك ومكاتبته في ملاحظة المولى له بعين عنايته، والتقدّم بـردّه إلـى جهـة ولايـته"[3]، وفـي خلاص حقٍّ "وقد تعلّق أمله في خـلاص حقّه بالمولـى"[4]، ومن شفاعة في طلب وظيفة لابن نباتة: "وأنّ بيده وظيفة شهادة بيت لحم بتواقيع شريفة نظرت في حاله، ونشرت حال عياله وأطفاله"[5].

ويتوخّـى الكتّاب عند ذكر تلك الحوائج اصطياد عبارات الترحّم والاستعطاف؛ لينالوا بذلك شفاعة المشفِّع، وتبييض وجوههم مع مشفّعيهم.

---

(1) المصدر السابق، 137/9

(2) المصدر نفسه، 137/9.

(3) المصدر نفسه، 136/9.

(4) المصدر نفسه، 138/9.

(5) المصدر نفسه، 138/9.

وهــناك محــور رابع يخصّ الكاتب وحده، حيث يضع نفسه في موضع يتنازل فيــه عن شيء من كرامته، يجعله ثمناً لخدمة المحتاج للعون؛ ولذا يحرص الكتّاب على قــبول تلك الشفاعات ليحتفظوا بماء وجوههم، فمن هذا القبيل قول الحلبي: "فلهذا توسّل بشــفع وتر الشفاعة، وتوصّل إلى إزالة ضرع حاله بكثرة الضراعة، فإذا أنعم المولى بقبول شفاعة المملوك فيه، وحقّق له من العناية ما يؤمله ويرتجيه"[1].

ومــن شــفاعة لابن نباتة جاء قوله في المعنى ذاته: "والمملوك يسأل من إحسان مولانا ملاحظة المذكورين بعين عنايته التي ما أغفت عن القاصدين ولا غفلت"[2].

ومهما يكن، فإنّ هذه المحاور جميعها تتآزر في بناء تلك الرقاع التي تمتاز عامة بالقصــر والإيجاز، فرسائل العنايات في مجملها تكون قصيرة إذا ما قورنت بالرسائل الإخوانيّة الأخرى؛ لِمَا في تطويلها من التزلّف في حقّ المشفّع، وإراقة ماء الوجه لكاتب الشــفاعة، وعندئذٍ يكون الكاتب ملزماً بقصر الرسالة، مكتفياً بالثّناء على المشفِّع، ذاكراً حاجة طالب الشفاعة، متوسّلاً أن تقبل تلك الشفاعة.

وتقــود هــذه الرســائل إلى القول بأنّ منزلة الكتّاب في العصر المملوكي بلغت مرتبــة عالية مكّنتهم من نيل شفاعة الرؤساء والأعيان، والدليل على ذلك ما كتبوا من رســائل تشــفع لــذوي الحاجــات، فلولا مكانتهم المرموقة لَمَا أعلنوا بتلك الشفاعات وتجــــرأوا علـــى كتابــتها، وتشي كذلك بالمنزلة التي حلّ بها الكتّاب من قلوب عامّة الــنّاس، حــيث وجــد فيهم أفراد المجتمع بغيتهم، ونالوا حبّهم وتقديرهم، وربما هدف الكتّاب من تلك العنايات إلى كسب مودّة النّاس وذيوع ذكرهم في تلك الأوساط.

وعلــى كــل حــال، فــإنّ رســائل الشفاعات تمثّل مظهراً من مظاهر التكافل الاجتماعــي، والتعاطف بين النّاس، خاصة بين طبقة العامة وطبقة الخاصة، حيث تبيّن تلــك الرســائل بعــض هموم ومشاكل المجتمع التي واجهته في تلك الحقبة، فهي تمثّل

(1) المصدر السابق، 136/9.
(2) المصدر نفسه، 142/9.

مــن الحرام - صلى الله عليه وسلّم وعلى آله الكرام وصحبه مصابيح الظلام وأزواجه اللائي لسن كأحد من نساء الأنام ما طلعت شمس وهطل غمام"(1).

فقــد ظهــر في خطبة تلك الرسالة جليّاً الحثّ على الزواج، وبيان فضائله، فقد أفصح الكاتب عن مبدأ من مبادئ الإسلام، حيث لا رهبانيّة فيه، وهذا حثّ على الزواج واضح، وفيه كذلك حفظ للأعراض وصون للعفّة، فقد شجّع الإسلام كذلك على الزواج تجنّــباً للحــرام والسفاح، وقد أبدى الكاتب كذلك المنافع التي يجنيها الشخص منه، فقد "حثّ عليه المنقول من الصحيح والصحيح من المنقول ما كان لبقاء الذكر سبباً، ولتكثير الأمّــة مطلباً، وهو سنّة النكاح التي عظّم الله بها المنّة، لمّا عظّم بها النعمة فقــال جلّ مــن قائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُم أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكَمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَــةً﴾*"(2). فالــدّين يحثّ على الزواج ويرغّب فيه؛ ولذا استغلّ الكاتب هذه المزيّة ليحشــد الأدلّة على مباركة ذلك الزواج، علّه يكون سبباً في بقاء ذكر المرء، وقد ألمح الكاتب إلى حديث النبي ﷺ "تزوّجوا الودود الولود فإنّي مكاثر بكم الأمم" **؛ ليدلّل على أهميّة النكاح في حياة الأمّة.

وقــد جاء من خطبة نكاح لبعض بني النصيبي من إنشاء ابن الورديّ في المعنى ذاتــه الذي حثّ فيه على الزواج، مستدلاً على فضيلته بالسنّة الشريفة، متّخذاً الأهداف النبيلة كتكثير الأمّة، وحفظ الذكر الطيّب، فجاء منها قوله في هذا الصّدد: "فإنّ أولى ما بــادر إلــيه أولــو الأحلام وتنافس فيه كرام الأبناء وأبناء الكرام، ما كان لتكثير الأمّة متضــمّناً، ولفضــيلة العاجل والآجل نافعاً نفعاً بيّناً، وهي سنّة النكاح التي عظمت بها المنّة، وأثنى عليها لسان الكتاب، وأشارت إليها يدّ السنّة"(3).

---

(1) ابن الورديّ: الديوان، ص96.

* سورة الرُوم، آية 21.

(2) ابن الورديّ: الديوان، ص107،

** السيوطي: الجامع الصغير، 505/1. جاءت مكاثر: مكاسر.

(3) ابن الوردي: الديوان، ص107.

واللافت هنا للنظر تركيز الكاتب على حشد أدلّة الزواج من الكتاب والسنّة، وهذا أمر ملحوظ، ويجعل المرء يفكّر في دواعي حشد مثل هذه الأدلّة، فهل هذه الأدلة منكرة حتى تحشد هنا؟ وهل هناك عزوف عن الزواج ممّا دعا الكاتب إلى التذكير بهذه الأدلّة؟ ولم تكن ظاهرة حشد الأدلة عند ابن الورديّ وحده بل نجد الأمر ذاته عند الصفديّ، ففي خطـبة نكاح أنشأها جاء فيها قوله منبّهاً على أهمية الأخذ بتلك الأدلّة: "فإنّ النكاح من مـزايا هذه الأمّة، ومحاسنها التي تجلو بأنوارها الحنادس المدلهمة، والسنّة بذلك طافحة 000 فمن ذلك ما هو في بيانه ووضوحه كالعلم، وهو قوله عليه السلام: "تزوّجوا الولود الودود فإنّي مكاثر بكم الأمم"*"[1].

وفـي الغرض ذاته أكّد ابن فضل الله العمريّ الفكرة ذاتها، حيث جاء من خطبة صـداق قـولـه: "والسـنّة النبويّة على من سنّها أفضل الصلاة والسلام فيما يأتلف به البُعدَاء، وتكثر لمباهاته الأمم، وتعدّ به أيادٍ جمّة ولا تحصر، ويخلد به في العاقبة شرف الذكر، ويتعجّل به شرف النعمة، وهو النكاح الذي تشتدّ به الأواصر"[2].

وجـاء في الغرض ذاته أيضاً خطبة نكاح لم يسمِّ منشئها قول الكاتب: "وبعد فإنّ أولى السّنن بالاتباع سنّة النكاح... وهي الوسيلة التي تكثّر سواد هذه الأمّة"[3].

والحقيقة أنّ هذه الميزة قد رافقت خطب صداق نكاح الرؤساء والأعيان ولم تلحظ فـي خطـب صـداق الخلفاء والسلاطين، حيث اكتفت الأخيرة بالتبجيل والمدح وذكر خصال الخاطب الكريمة وسجاياه الفضيلة، وقد تمّ رصد ملحوظة لافتة للنظر في خطب صـداقهم، حيث يتركّز الاهتمام على الخاطب، وتكثر الإشادة به، ويصوّر كأنّه قد أنعم علـى من طلب زواجها، فهو الطرف المانح للفضل، وصاحب المعروف، بينما الطرف الآخـر فيصـوّر على أنّه أقل مرتبة، وناله نصيب وافر من الحظوة، فجاء من خطبة

* السيوطي: الجامع الصغير، 505/1. ونصّ الحديث: ((تزوّجوا الودود الولود، فإنّي مكاثر بكم)).
(1) الصفدي: أعيان العصر، 261/5..
(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 314/14.
(3) المصدر نفسه، 316/14.

صـــداق الملـــك بركة السالف ذكره قول محي الدّين: "فلو كان اتّصال كل شيء بحسب المتّصل به في تفضيله لما استصلح البدر شيئاً من المنازل لنزوله، ولا الغيث شيئاً من الـــرياض لهطوله، والذكر الحكيم لساناً من الألسنة لترتيله، ولا الجوهر الثمين شيئاً من التيجان لحلوله؛ لكن يتشرّف بيت يحل به القمر ونبت يزوره المطر"(1).

وفـــي المعنـــى نفسه قول جلال الدّين القزويني (ت739هـــ/1338م) من خطبة صداق لأحد أبناء الملك النّاصر: "فإنّ من عادة الغمام أن يتفقّد الأرض بمطره، والبحر أن يسقي الزروع بما فاض من نهره، والمصابيح أن تمدّ بأنوارها ما يتوقّد، والسماء أن لا يخلو أُفقها من اتّصال فرقد بفرقد"(2).

فهـــذه فكرة حرص الكتّاب على إبرازها، فعلى كل كاتب أن ينوّه بذكر الخاطب وفضله الذي أنعم به على من اختارها له زوجة أولاً، ومن اختاره له صهراً ثانياً، وقد شـــغلت هـــذه القضـــية الكتّاب حتى باتت هذه الرسائل أشبه برسائل الديوان التي تتّخذ رسوماً ثابتة لا تتغيّر.

ومـــن الجديـــر ذكره أنّ خطب الصداق تبنى على محاور أساسيّة وتشهد مرونة واضـــحة فـــي صداق الأعيان والرؤساء، وتتمثّل هذه المحاور في الحثّ على الزواج والترغيب فيه، وذكر أدلّة ذلك النكاح من الكتاب والسنّة، ولو أنّ هذا المحور أظهر في رسائل صداق الأعيان والرؤساء أكثر من صدقات السلاطين كما أشرنا سابقاً.

وثانـــي هـــذه المحاور يتمثّل في مدح الخاطب وتعداد مناقبه الكريمة، وخصاله الحمـــيدة، وسجاياه النبيلة، والتنويه برفعة أصله ونسبه ومكانته؛ وممّا جاء في ذلك قول أحد الكتّاب من خطبة صداق: "ماجدٌ عَمرَ البلاد الساحلية بدوام ديمه، وجواد ما جاوره البحر إلاّ ليقتبس من كرمه، ورئيس امتطى ذروة العلياء بحسن السلوك، وأريحيّ لو لم

(1) المصدر السابق، 301/14.
(2) المصدر نفسه، 304/14.

يكــن صدراً لما أودع سرّ الملوك"[1]، وهذا المحور لا يخلو منه صداق لعينٍ أو رئيس، فقــد أصبح لازمة في خطب الصداق، يعكف الكتّاب على ذكر أفضل الخصال وأكملها، وقــد افــتقدته خطـــب صداق السلاطين لعدم الحاجة إليه، حيث لا داعي إلى مثل ذلك الأمر، فالسلطان استوى في عقول النّاس رفعة نسبه وكريم خصاله، فلا مبرّر لورودها، بينما ترد في صداق الأعيان لقصور منزلتهم عن منزلة السلاطين.

وهناك محور ثالث يتمثّل في مدح المخطوبة، ويتركّز على أمرين: الأول ينصبّ على عفّتها، وصون عرضها، والآخر يهتمّ بعلو نسبها وحسبها، فيجعل الكتّاب منها فتاة ذات خــدر مصونة عفيفة من أرومة متجذّرة الأُصول، وكان ذلك داعياً لخطبتها، فجاء من صداق الملك السعيد بركة قول الحلبيّ في وصف بنت سيف الدّين قلاوون: "فخطب إلــيه أســعد البرية، وأمنع من تحميها السّيوف المشرفيّة، وأعزّ من تسبل عليها ستور الصـــون الخفيّة، وتضرب دونها خدور الحلال الرضية، وتتجمّل بنعوتها العقود، وكيف لا؟ وهـــي الـــدّرة الألفـــيّة"[2]، ومـــن صداق أنشأه الصفديّ جاء قوله: "وخطب الجهة المصونة، المحجّبة النقيّة التقيّة، العفيفة الخاتون، غصن الإسلام، شرف الخواتين، جمال ذوات الستور، قرّة عين الملوك والسلاطين"[3].

ومـــن الـــنافلة قوله في هذا المقام تباين صدقات السلاطين عن صدقات الأعيان والرؤســـاء، حيث يحرص الكتّاب في أولاهما على العكوف على بيان فضل الخاطب، وعلوّ درجته، مشيدين بتواضعه، بينما يهتمّون في ثانيهما ببيان أهمية الزواج في صون العفّة، ومكاثرة الأمم، وتجنّب السفاح، والاقتداء بالسنّة الشريفة.

والنّاظر في رسائل هذا الفصل يجدها تحمل طابعاً اجتماعياً إخوانياً، حيث يربط بينها سلكٌ من المصالح الاجتماعية، فالتهنئة والتعزية قد لا تحتاج إلى عواطف صادقة،

(1) المصدر السابق، 317/14.
(2) المصدر نفسه، 302/14.
(3) المصدر نفسه، 319/14.

بل تكتفي باصطناع العواطف والأحاسيس من أجل استقامة العلاقات الاجتماعية، فالذين يؤمّــون مناسبات الأفراح والأتراح ليس بالضرورة أن يكونوا سعداء أو باكين، بل قد يكونوا مجاملين لذوي الأفراح والأتراح.

وكــذلك بالنســبة لرســائل الإهــداء والشكر، فقد تكون المصلحة جالبة لهذين النوعــيــن مــن الرسائل، حيث تستدعي العلاقات الاجتماعيّة خلق مثل هذه الرسائل، وعــندئذٍ لا تكــون هناك حاجة إلى بناء علاقات حميمة صادقة، بل تحكم هذه العلاقات مصالح تفرضها طبيعة الروابط الاجتماعيّة.

وإذا ما تذكّرنا رسائل المدح والذمّ، فإنّها تأتي في مجملها نتيجة لعلاقات إيجابيّة أو ســلبيّة، فقد تمدح المرء أو تذمّه دون الإحساس بالعواطف أو المشاعر الإيجابيّة أو السلبيّة تجاهه، ولذا لا تكون مثل هذه الرسائل ناشئة عن علاقات شخصيّة في الغالب.

وأخيــراً فإنّ رسائل الشفاعات والعنايات وكتب الصداق أبعد شيئاً عن العلاقات الشخصيّة، فالشفاعات والعنايات أقرب ما تكون من كتب المظالم، بينما خطب الصداق أقــرب إلــى المراسيم مع التأكيد على أنها تعالج قضايا اجتماعيّة إخوانيّة لا تمتّ إلى الرسائل الديوانيّة بصلة وهذا لا ينفي التشابه إنْ وُجِد.

ثانياً: العلاقات الشخصيّة

تمثّل العلاقات الشخصيّة بين الكتّاب والأعيان في العصر المملوكي صفحة رائقة ورائعة كما صوّرتها الرسائل الفنيّة، وقد أسهمت طبيعة المناصب الديوانيّة والكتابيّة القائمة على التنقّل والحركة في نشوء علاقات صداقة حميمة بين الأفراد، فشكّلت تلك العلاقات صورة من صور الوفاء والإيثار والخلّة الصادقة، فنشأت عن ذلك رسائل الشّوق والحنين التي كانت نتيجة لانتقال الكتّاب من مصر إلى آخر، وشوقهم إلى رؤية بعضهم، ومنادمة خلاّنهم عن قُرب، وكان نتيجة لهذا البُعد انقطاع تلك المراسلات في بعض الأحيان، فيسجّلون رسائل العتاب لتسهم في تنقية كل ما يشوب تلك العلاقات، من خلال المعاتبة والتذكير بأيام الوفاء والصّداقة، وعندما ترد تلك الرسائل لا يجدّ الكاتب بُدّاً من الردّ إمّا بالعتب أو الاعتذار.

وينشأ كذلك عن الاغتراب والبُعد ومشاكل الحياة مآسي يواجهها الكتّاب فلا يجدون متنفّساً إلاّ في كتابة رسائل الشكوى التي يبثّونها أصدقاءهم علّهم يشاركونهم هذه المشاق، وتمثّل تلك الرسائل علاقات شخصيّة نابعة من الفؤاد، فهي أشبه بالشّعر الوجداني الذي يذهب من القلب إلى القلب.

رسائل الشّوق والحنين:

تُعدُّ رسائل الشّوق والحنين من أكثر الرسائل الإخوانيّة تعبيراً عن النّفس ولواعجها، وما تنطوي عليه من إظهار لحسن العشرة وفرط الصبابة، وتذكر الأيام الخوالي، والحنين إلى جوّ الأُلفة، واجتماع الأحباب، وتناغم العواطف والأحاسيس، كل هذه الأمور تجعل من رسالة الشّوق أتوناً يتقلّب عليه الأصدقاء، ويكتوون بناره، مقاسين مرارة البُعد والجوى.

وقد اشتهرت هذه الرسائل في العصر المملوكيّ لكثرة تنقّل الكتّاب بين الأمصار فـــي مصـــر والشّـــام، فإذا ما تمّ نقل أحدهم إلى مصر من الأمصار أرسل أنّاته نذيراً بفـــرط شوقه وتردّي حاله، متشوّقاً إلى رؤية خلّانه، حيث لا يعيد صفو حياته إلاّ النظر إليهم والتواصل معهم في صلاتهم وموّداتهم.

وغالـــباً ما تعبِّر هذه الرسائل عن مدى الشّوق الذي ألهب عواطفه، وكدّر صفو أيّامه، وأشغله عن ذاته ولذّاته، وقد طبعت معظم الرسائل الشخصيّة بتلك الصّفة المعبِّرة عن الشوق والحنين والشكوى من البُعد والنأي، وهذا دليل على عمق صلاتهم، وصفاء مودّاتهم فمجرّد أن يشعر الفرد منهم بالابتعاد عن مجالس أُنسهم، ويحسّ بوحشة الوحدة، يسطِّر رسائل الشّوق والحنين، وإظهار الجزع واللوعة والحسرات والآلام التي عصفت به بعد مفارقتهم.

ومـــن هـــذه الرسائل ما سطّرها الأديب ابن نباتة على لسان صديق يتشوّق إلى صديقه، مضمّناً إيّاها أطيافاً من الشّوق والحنين وخطب المودّات، ومظهراً مدى الوحشة التـــي حاصـــرته بعد فراقه، معبّراً عن تلك العواطف والأحاسيس بقصور السطور عن إبـــلاغ فحـــواها، فجاء منها "وينهي أنّه سطّرها عن شوق يعزّ عليه أن ينوب فيه سعي القلـــم عـــن سعي القدم، وارتياح إلى القرب الذي بأُنسه يؤنسه أنواراً على أعلى علم، وتطلّع لمعاودة الأخبار أوفى من تطلّع العامري إلى معاودة أيّام ذي سلم"[(1)].

فالشّوق الذي بين جوانحه ألهب نار عواطفه، ولا سبيل لإطفاء هذه النّار بالكتابة دون النّظـــر، فيـــرى أنّ الأجـــدر والأجدى مباشرة النّظر لا الخبر، وقد بلغ به الشّوق والولـــع إلـــى صـــديقه درجـــة الهيام، فأشبه قيساً من فرط صبابته إلى ليلى، ولم تعد المكاتـــبات والمراجعات بلسماً كافياً يسكّن روعه ويداوي جروحه، بل لا بدّ من النّظر إلـــى صـــديقه عـــن قرب ومشافهته، فلا علاج يذهب سقمه، ولا سالٍ يسلو خاطره إلاّ

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 144/9.

منادمة ذلك الصديق، فهذه الرسائل لا تشفي له غليلاً، ولا تصحّ له عليلاً "وهيهات أين نظـرات الحـروف المـرقومة من نظرات العيون الرامقة، وأين منال السلو من شجو يقـول "أعيذها نظرات منك صادقة"*، ما يحسب المملوك من النّظر إلاّ ما يملأ العين مـن ذلـك الوجه الكريم، ولا يلبس من خلع الأيّام إلاّ ما تخيط الأهداب على شبا ذلك الرقيم"[1]، فلا سبيل لسلوّ إلاّ بالقرب منه والجلوس معه، والنّظر إليه، والتمتّع بمنادمته، ولمّا حالت الظروف دون ذلك، وأصبح ضرباً من المستحيل تحقيق تلك الأماني، اكتفى بالتمنّي وبعث زفراته وأنّاته مثقلاً بها الرقاع قائلاً: "وعلى ذلك فقد جهّزها المملوك على يـد فـلان، وحمّلته من رسائل الشّوق ما يرجو أن ينهض فيه بأعباء الرسالة، ويسأل الإصـغاء والملاحظة فيما توجّه فيه، وإن أدّت الأمالي إلى ملاله، والله تعالى المسؤول أن يبلغ في امتدادها مولانا الأمنية، ويمتّع الدول منه بهذه البقيّة النقيّة"[2].

ومن هذا القبيل كذلك ما سطّره ابن نباتة عن نائب الشّام إلى القاضي علاء الدّين بن فضل الله يفصح فيها ذلك النائب عن عميق مودّته للقاضي علاء الدّين، مكتفياً بالخبر عن النظر، وحمّل تلك الرسالة أشواقه وحنينه المتّصل، شاكياً من لوعة الفُراق، متأسّفاً علـى أيّـام الأُنس والوصل فجاء منها "وجهزها على يد فلان بعد أن حمّله من رسائل الشّـوق مـا إن حملنا من إحسانه لينض عقود الأنجم لو تعدّدت، ومفاتيح أبوابه لتنوء بالعصـبة أولي القوّة لو تجسّدت، وهو بين يديه يقدّم نجواها، ويستشهد بالخاطر الكريم قـبل حضـور دعواها، والمسؤول إصغاء السمع الكريم إليه والملاحظة فيما توجّه فيه متّكِلاً على الله وعليه"[3].

---

* هـذا صـدر بيت للمتنبي وعجزه "أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورمٌ". المتنبي، أحمد بن الحسين (354هـ/ 965م): الديوان، شرح العكبري، ضبطه وصحّحه ووضع فهارسه مصطفى السقّا وآخرون، دار المعرفة – بيروت، د.ت، ج3، ص366.

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 9/144-145.

(2) المصدر نفسه، 9/145.

(3) المصدر نفسه، 9/145-146.

إنّ مـــا يثير الدهشة هُنا ويبعث على التساؤل هو مقدار الشّوق الذي تحمله هذه الرســـائل علـــى الـــرغم من أن كاتبها ليس صاحب التجربة وإنما يعبّر عن عواطف وأحاســيس غيـــره، وعلـــيه فإنّها لا تحمل عواطف ومشاعر حقيقية، ولا شكّ أنّ هذه العواطـــف والأحاســيس عارية مستردّة، وإلاّ كيف يمكن أن يعبّر كاتب عمّا في نفس آخـــر؟ وهـــل الأحاسيس والمشاعر رسائل ديوانيّة تُعْهد إلى مَنْ يقوم بتسطيرها، فهذا اللّـــون من الرّقاع يعتمد على تفنّن الأديب وسعة خياله، فينشئها بناءً على ما مرَّ به من أحـــداث مـــراعياً أحـــوال المخاطبين من الرّتب والمراكز، وكلّ هذه العوامل تضعف وتوهـــي شوكة ذلك الشّوق، وتطفئ شعلته، ولكن المرء يستشعر حرارة الشّوق ومرارة الأســـى عـــندما يقع ناظره على رسالة قام بتدبيجها من آلمه جزع الفراق، وكواه أتون الـــبُعد، وأدمت قلبه لواعج الفرقة، وأثقلته طوارق الهموم، وأرّقت جفنه هواجس الأيّام، فمـــن هـــذا اللـــون مـــن الرسائل ما بعث به نجم الدّين أبو محمد القرطبيّ إلى صديقه الصـــفدي يصـــف له فيها وحشة الفراق، وشدّة الشّوق، وألم الجوى قائلاً: "وينهي بعد وصف شوقه الذي تطاول عليه ليله فادلهمّا، ولمع في دجنته بارق اللواعج فأضرم بين الجـــوانح نيـــران الخليل لمّا، وأجرى من جفنه القريح طوفان نوح، فلأجل ذلك هجره الوسن، ومن بعد الهجران به ما ألمّا، وكابد فؤاده همّا، ووالذي يعلم خائنة الأعين بالسلو ما همّا وعاهده على الأخذ بسنّة الصبر الجميل فلم يفِ بعهد"[1].

فـــلا شـــكّ أنّ مثل هذه الرسالة تعبّر تعبيراً صادقاً عن مشاعر منشئها، فالمعاناة التـــي وصـــفها كفيلة بإظهار شوقه وحنينه، فقد طالت لياليه وأظلمت، وأشعلت نيران صدره والتهبت، وقرّحت جفونه وهجر الكرى، ولازمه الهمّ والأسى، وعلى الرغم من هـــذه الحالة المفزعة المؤلمة يؤكّد لصديقه أنّه لم يحاول السلوّ أو التحوّل عنه، ولم يجد سبيلاً للخلاص من هذه الظروف إلاّ بالاعتكاف إلى موائد الصبر الجميل الذي خانه ولم يجد له طاقة وعزماً على احتماله.

(1) الصفديّ: أعيان العصر، 240/2.

ومن هذه الرسائل ذات الصبغة الواضحة في مجال إظهار الشوق والحنين، المظهرة قدراً من معاناة الفراق والبين ما بعث بها ابن سيّد النّاس يتشوّق إلى رؤية الصفديّ قائلاً: "فمد المملوك إليه راحته واستمدّ منه راحته، وأدار منه راحه، وألفى لديه انشراحه، ونال له على الدهر اقتراحه، بعد ما وجد من فراق من به وجد، وقد أضرم بقلبه من نار الخليل لفقد الخليل ما وقد، فراح كليم اشتياق في أليم احتراق، ينادي بلسان الأشواق:

قد لَسَعتْ حيَّةُ النَّوى كَبِدي   ولا طَبيبَ لها ولا رَاقِ"[1].

وقد أنكت تلك الرسالة جراح الصفديّ، وأرّقت جفنه، وأحيت ضريم النّار في صدره، وأعادت بعث لواعج الأسى بين جوانحه، فعبّر عن تلك الأحوال بأخرى ضمّنها بما تقطّع من نفسه حسرات قائلاً: "ويصف أشواقه التي لا يعلم قرارها إلاّ الذي أوجبها وقرّرها، ولا يدري قدرها إلاّ الذي حكم بها وقدّرها، ولا يعرف ألمها إلاّ القلب الذي لمّها، ولا يجبر ضيمها إلاّ الفؤاد الذي ضمّها، فهي الأشواق التي استعارت الجحيم استعارها، ونفت عن الجفون قرّتها وعن الجوانح قرارها، وأعدمت النّفس في الصباح صلاحها وفي المساء مسارّها"[2].

فالعواطف التي يبديها الصفديّ في هذه الرسالة تفصح عن فرط في الشّوق، ومرارة الفراق، وقسوة البُعد، ووحشة الوحدة، وتنبئ عن حزن دائم، وغيظ ملازم، وكمد لا يعرف له بداية ولا نهاية، فنيران قلبه متأججة، وتقريح جفونه لا سبيل لإخفائه، وفقد مع هذه الأسقام نضارة الحياة، فأرسل آهاته متحسّراً على سالف دهره، مستسقياً لمجالس أنسه التي أصبحت مقفرة موحشة "فآهاً على الديار المصريّة وأوقاتها، وسقياً

---

(1) المصدر السابق، 222/5.

(2) المصدر نفسه، 225/5.

لمعاهـد أُنسـها لنفسها، ولذّاتها لذاتها، ورعياً لتلك المنازل التي لا تخرج الأقمار عن هالاتها"[1].

فالصفديّ يتشوّق للدّيار المصريّة التي رعى في ربوعها نضارة أيّامه، ووجد في أبـنائها صـفاء صداقه، وأحسّ في مجالسها ومنازلها بالأمن والطمأنينة والأُنس، وتلذّذ بالعيش في مغانيها، وعزّ عليه فراقها، وبقي ينتظر اليوم الذي يعود فيه إليها، ولا أجد تعلـيلاً لتلك الغربة التي يتحدّث عنها وهو في الرحبة يتفيأ ظلال الشّام، ويتنسّم هواءها العلـيل إلاّ بالتفسير النفسي حيث لازمته الغربة النفسيّة وأصابته حمّى الصداقة، فليس الحنـين إلـى أرض مصـر كـراهيّة فـي أرض الشّام وإنّما بيت القصيد يكمن في الصـداقـات، فالاغتـراب الـذي يحسّه آتٍ من فقد الخلاّن والأصدقاء، وقد يكون في وصـف هذه الغربة مبالغة يجامل فيها صديقه، وعلى كل حال، فإنّه ينتظر من يخرجه مـن تلـك الغربة ويعيده إلى مجالس أُنسه وأُلاّفه حيث يقول: "وما أقول بل أنتظر إلاّ نظرة شهابيّة ولا أترقّب إلاّ همّة عدويّة عمريّة تنقذني من نار هذه الغربة وتعيدني إلى خير عالم وألطف تربة، وتتعطّف على من غدرت به أيّامه ولياليه"[2].

وقـد كثـرت بين الصفديّ وشيخه ابن سيّد النّاس هذه المراسلات والمراجعات، وكلّها تنضوي تحت لواء الشّوق والحنين والإشادة، وقد نُظمت هذه المراسلات في سلك مـن العواطـف الملتهـبة، والأحاسيس المتوقّدة، والمشاعر المشتعلة، فالنّاظر في تلك المراسـلات يجـدها تطفـح بالشّـوق ولواعج الأسى، ومرارة البُعد والفراق، وقسوة الظـروف، وتحـوّل الأيّام والليالي، وجبروت العمل الوظيفي، حيث تعدّ هذه النوازل ضـريبة تلك الوظائف، فَفَقْدُ الأحبّة والنأي عنهم من مستلزمات هذا العمل، ومهما يكن فـإنّ الإيجابيّة ظاهرة حيث عصرت عقولهم، وأدمت قلوبهم، وقرحت جفونهم، وأوقدت

(1) المصدر السابق، 225/5.
(2) المصدر نفسه، 225/5.

نيـران صـــدورهم، فتحوّلت مشاعرهم وأحاسيسهم وعواطفهم إلى مداد ينوب عنهم في الشّوق إلى أصدقائهم.

وكـــتب الصــــفديّ كـــذلك رسالة شوق إلى تاج الدّين بن البارنباري يظهر فيها شوقــه الجارف، وحنينه الدائم المتواصل مع قلّة احتماله ونفاد صبره قائلاً: "وينهي بعد رفــع الــدعاء، وحمـــل لواء الولاء، وإشادة بناء الثناء، أنّ المملوك سطّرها وشوقه قد ضاقت به الرحبة، وأغار على مثاقيل الصبر فما ترك عند حبّة القلب حبّة وذكّره الأيّام السالفة حتى عاد نسيبه بها أعظم نسبة"[1].

فتصـــوّر هـــذه الرســـالة مدى عمق صداقات الصفديّ، وصفاء مودّته، وصدق أحاسيســـه، ونُـــبل مشاعره، فالصداقة عنوان حياته ولهذا تعهد تلك الرسائل بالاهتمام، وســـكب دمـــوعه ودمـــاءه مـــداداً يسوّد به سطور أوراقه لتكتحل بها عيون أصدقائه ورفاقـــه. وممّا يزيد هذه الرسالة لوعة وحزناً وكآبة تذكّر الأيّام السالفة وما جرى فيها مـــن الذكريات الطيّبة، والمجالس الحسنة، فبعد تحوّل الحال والانتقال من حالٍ إلى حال حاصرته العبرات، فلجأ إلى حصن الصّبر فما أعانه، وعندئذٍ لم يستطع المكابرة وإخفاء ضعفه بل أخذ في وصف ما عصف به علّ ذلك يكون سبباً في تخفيف معاناته، ويطفئ لهيب سعيره.

ولـــه كذلك رسالة في الشّوق إلى شيخه أثير الدّين أبي حيّان الأندلسيّ (ت745 هـ/1344م)، وصف فيها مدى أشواقه التي يكنّها له، متمنّياً لقاءه، مؤكّداً ولاءه ودوام الصّــفاء له مهما تفرّقت الأجساد وتناءت الأجسام، فجاء فيها "يقبل الأرض، وينهي ما هـــو علـــيه من الأشواق التي برّحت بألمها وأجرت الدُّموع دماً، وهذا الطرس الأحمر يشهد بدمها، وأربت بسحّها على السحائب، وأين دوام هذه من ديمها؟ وفرّقت الأوصال على السقم لوجود عدمها... ويذكر ولاءه الذي تسجع به في الروض الحمائم"[2].

---

(1) المصدر السابق، 173/5.

(2) المصدر نفسه، 338/5.

ومـــن رقـــاع الشّـــوق كذلك ما بعث عبد الوهاب بن علي السبكي (ت771هـ/ 1369م) مشـــتاقاً إلى شيخه الصفديّ، معبّراً عن همومه وحزمه لفراق صديقه، وتبدّل أيّامـــهِ لليالي بل أعوام، فالقلق حال بينه وبين النّوم، والأفكار والهواجس ينهشنه من كل صـــوب، فجاء فيها قوله معبّراً عن تلك الحالة: "وينهي بعد دعاء ما أحرصه على كونه فيه يخلص، وثناء ما أخلصه من محبّ صادق عليه يحرص، أنّه منذ سافر مولانا وإلى هـــذه الأيّام التي هي عنده أعوام ما طاب له في هذه البلدة مقام، وقد كتب هذه المطالعة تنهـــي بعض الأشواق، وتبدي ما حصل لرافعها بسبب الفراق، فأصدرها تعلم استمراره على العبودية... فإنّه لم يزل في قلق يمنعه النّوم، أو فكرٍ يتجدّد له في كل يوم"(1).

فالكاتـــب هنا يستعرض الأسقام والآلام التي أحاطت به جرّاء بُعد صديقه ونأيه، وعلى الرغم من طول هذه الغيبة، فهو ينتظر منه الأوبة؛ علّه يكتحل منه بنظرة، ويؤكّد فـــيها دوام العبوديّة وسرمديتها، وهذا دليل عمق الصّداقة والحرص على حفظها نقيّة لا تكدّرها الشوائب.

والرسائل في هذا الموضوع كثيرة ومتنوّعة، وكل رسالة في هذا الغرض تفصح عـــن سلســـلة مـــن الرسائل، فالبادئ بهذه الأشواق يثير أشواق الآخر؛ فيصاب بحمّى المـــراجعات والمراســـلات، فتســـتمر هـــذه الرسائل تحمل أطيافاً من الولاء الصادق، والمشاعر النبيلة، والمودّات الخالصة، والصّلات الحميمة، حاملة ضروباً من العواطف الملتهبة، والأحاسيس المتوقّدة.

فرســـائل الشّـــوق على كثرتها تحمل فكرة واحدة تفرغها في قوالب متعدّدة من الحنـــين والآلام والآهات والزفرات، فكل رسالة شوق يرد فيها وصفٌ معبرٌ عن نفسيّة باعثها، مظهرٌ جوّاً يكتنفه الحزن والكآبة والجزع، ومذكرٌ بأيّام الصّفاء ومجالس الأُنس، وهذا يزيد الجوّ النفسيّ حسرة وندامة، ويبقى الكاتب على أمل العودة وملاقاة الأحباب، واستئناف مجالس الأُنس التي قد طويت.

---

(1) الصفديّ: ألحان السواجع، 161/1.

رسائل العتاب:

قليل ما تخلو الصّداقات الخالصة من شوائب تكدّر صفوها كقطيعة، أو سباب، أو تجاهـل أو غيـر ذلك ممّا يحصل بين الأصدقاء. فالدهر كفيل بأن يخلق من مثل هذه الأحوال التي تستدعي كتابة رسائل العتاب من أجل تدارك تلك الهفوات التي تضرّ بتلك الصّـداقات، وتمـثّل هذه الرسائل لوناً من ألوان الودّ وموجبات الحفاظ عليه، فالعتاب يشـكل مطهّراً ومعقّماً للصّداقات يصونها ويحفظها من التباغض والتقاطع، فهو يشكل صـفحة نقيّة من صفحات الصّداقة الخالصة، يتبادل الأصدقاء من خلاله كشف هفوات بعضـهم مـن أجـل سدّ تلك الثغرات، وضمان تلك المودّات، والمحافظة على سلامة الخـلات وصفائها. فالعتاب محورٌ أساسيّ ترتكز عليه أواصر الصداقات لينقّيها من كل شـائبة تشـوبها، وتتباين صور العتاب بين اللّين والرقّة، والقسوة والشدّة[1] تبعاً لحالة الأديـب ومـدى أثر ذلك الحادث في نفسه، فمن تلك الرسائل المفصحة عن شدّة العتب مـا بعث بها أبو بكر بن محمد بهاء الدّين بن غانم إلى الصفديّ، وقد تأخّرت مكاتبات الصفديّ عنه، فبعث برسالة عتب غريبة الأطوار جديدة الفكرة، معبّرة عن جوّ القطعية، فكانت كل الرسالة ثلاثة أوصال ورق أبيض وفي ذيلها مكتوب ولم يك فيها غير ذلك:

سُبْحَانَ مَنْ غَيَّرَ أَخْلاَقَ مَـــنْ أَحْسَنَ فِي حُسْنِ الوَفَا مَذْهَبَــا

كَــانَ خَلِيْــلاً فَغَــدَا بَعْــدَ ذَا لَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا طَقَصبــا*[2]

فكانـت تلـك الرسـالة مثيراً حقيقيّاً للصفديّ، تحمل من المعاني ما تعجزُ عنه كثيـرات السُـطور، فعبّر عن تلك الرسالة مسجّلاً عتبه قائلاً: "ولكن توهّم المملوك أن تكون صحف الودّ أمست مثله عفاء، وظنّ بأبيات العهود السالفة أن تكون كهذه المراسلة من الرقوم خلاء:

---

(1) انظر القيسي، فايز: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير للنشر والتوزيع، ط1، ص284.

• طقصبا اسم مغنّ كان ابن غانم يسمع له في ليالي السّمر، انظر الصفديّ: أعيان العصر، 6/2.

(2) المصدر نفسه، 7/2.

لو أنّها يَوم المعاد صحيفتــي   ما سرّ قلبي كونها بيضـــاء

فلقــد ســودت حال المملوك ببياضها، وعُدم من عدم الفوائد البهائيّة ما كان يغازله من حمـيمات الجفون ومراضها، وما أحقّ تلك الأوصال الوافدة بلا إفادة، الجائدة بزيارتها التـــي خلت من الجود بالسّلام، وإن لم تخل زورتها من الإجادة أن ينشدها المملوك قول البحتريّ أبي عبادة*:

أخجلتني بندى يديك فســوّدت   ما بيننا تلك اليدُ البيضــاءُ

وقطعتني بالوصل حتى إنّنــي   متخوّف أن لا يكونَ لقــاءُ"[1].

وهــذه الفقــرة بل الرسالة عامّة تنطق بألوان من العتب الذي يفصح عن متانة العلاقــة بــين الصديقين، ويجلو عنها شوائب الكدر، وأوباش القطعية، فكانت الرسالة الأولــى الخالــية من الكتابة عتاباً قاسياً عبّرت عن القطيعة الحاصلة بينهما، واستفزّت مشــاعر الصفديّ ليسجّل عتبه على صديقه الذي لم يضمنها خبراً واحداً، وعلى الرغم من عدم وجود أي كلام يدلّ على معاتبته منشورٍ في طيّاتها، إلاّ أنّها عبّرت بل أفصحت عــن نفس مرسلها على صمتها الطويل، وقد فهم الصفديّ مضمونها، وتعجّب من جرأة باعــثها على هذه الشاكلة قائلاً: "يا عجباً كيف اتّخذ مولانا هذا الصامت رسولاً بعد هذه الفتــرة؟، وكــيف ركن إليه في إبلاغ ما في ضميره ولم يحمّله من الكلام ذرّة؟ وكيف أهدى عروس تحيّته ولم يقلّدها من كلامه بشذرة؟ ما نطق هذا الوارد إلاّ بالعتاب مع ما ندّر وندّب، ولا أبدى غير ما قرّر عن الإهمال وقرّب"[2].

---

* البحتريّ، أبو عبادة الوليد بن عبيد (ت284هـ/897م): الديوان، تحقيق حسين كامل الصيرفيّ، دار المعارف، ط3، 1/ 21-22 . ورواية الديوان:

أحشمتني بندى يديك فسوّدت   ما بيننا تلك اليد البيضاءُ

وقطعتني بالجود حتى إنّنــي   متخوّفٌ ألاّ يكونَ لقــاءُ

(1) الصفديّ: أعيان العصر، 2/8-9.

(2) المصدر السابق، 2/9.

وتستحقّ رسالة ابن غانم وقفة معها، حيث لم يعهد أن بعثت رسائل خالية من الكتابة أو حملت معاني كما حملت تلك الرسالة، فمثل هذه لا بُدّ أنّها شكّلت قراءة جديدة، وقررّت أموراً مستحدثة؛ لغرابة فكرتها، ولا شكّ أنّها تحمل من المعاني ما تعجز عنه غيرها من الرسائل، وقد عبّرت عن ضمير مرسلها، ففيها إنذارٌ ووعيد لقطع بل بتر تلك الصّداقة الحميمة، فالصّمت أحياناً أبلغ من النطق.

وقد بعث ابن غانم برسالة عتب ممزوجة بالاعتذار في أثر رسالته الصّامتة، يؤكّد فيها عتبه، وتخوّفه من انقطاع تلك العلاقة لطول صرمها وبُعد الشقّة قائلاً فيها: "لكنّ مولانا غاب عن مملوكه غيبة ما كانت في الحساب، وهجره وهو من خاطره بالمحل الذي يظنّه، إذا ناداه بالأشواق أجاب، واتّخذ بدعة الإعراض عن القائم بفرض الولاء سنة، واشتغل عمّن له عين رضى عن نسيان ما مضى من كليلة ودمنة، فخشي المملوك من تطاول المدّة، وخامر قلبه تقلّبات الأيّام، فخاف أن تبقى أسباب المقاطعة ممتدّة"[1].

والنّاظر في هذه الرسالة يجد ابن غانم فيها يتحدّث عمّا أراد أن يقوله في الرسالة الصّامتة، فالهدف من بعثها طول الغيبة الذي جعله يحسُّ بخطرها، فقد طالت تلك الغيبة، وآذنت بالصرم والقطيعة، وأعرض الخليل عن صديقه، وحالت بينهما الحوائل، وأصبحت المودّة بينهما ضرباً من البدعة، وسرى بينهما طيف النسيان، وهذه الحالة من الاغتراب والتجاهل والنسيان أقلقتِ سكونه، وأقضّت مضجعه، وأشعلت نيران الوساوس في صدره، وخامره الخوف من تبدُّل الأحوال، وتقلُّب الزّمان، وخشي أن تستمر تلك المقاطعة، فكتب تلك الرسالة المستحقّة أن تسمّى الموضّحة، وإن كانت الأولى أبلغ منها.

---

(1) المصدر السابق، 10/2.

وللشّهاب الحلبيّ رسالة عتب على صديق له لم يسمّ، سجّل فيها عتبه متّخذاً سبيل التذكيـــر بالوفاء والمودّة القديمة، سالكاً أُسلوب الملاطفة والاستعطاف في جوٍّ من الكآبة والإنكســـار قائلاً: "فإن كان قد عزم مولاه عن طرده، وعوّضه عن منحة القرب المحنة ببعده، فإنّه يأبى ذلك جوده ولطفه، ومعرفه يشكر ويزيد لا يمكن صرفه"[1].

فالواضـــح مـــن الرسالة أنّ العتاب صادرٌ من أدنى إلى أعلى، حيث مزج ذلك العـــتاب بالترجّـــي والاستعطاف والملاينة، حتى أصبح هذا العتاب أقرب إلى الاعتذار والاعتـــراف بالـــذّنب، وقـــد أكّـــد الحلبيّ في هذا العتاب قضية الملاطفة والاستعطاف والإنكسار أمام المعاتب.

وللحلبيّ رسالة أُخرى في العتاب، ولكنّها هذه المرّة تناقض سابقتها، حيث يبدي فـــيها ألـــواناً من القسوة المغلّفة باللّين، فالعتاب في تلك الرسالة أظهر منه في الرسالة السابقة، والقول فيها أكثر حدّة وأشدّ ألماً، ولغة الحنق والغيض بارزة ظاهرة، فمن تلك الرســـالة قوله: "وقد صار يشاهد من المولى ملالاً وصدوداً وإعراضاً يغيظ به صديقاً، ويســـرّ بـــه حسوداً، واطّراحاً أوهمه أنّه ألف وصل درجت أو لفظة هجر لفظت، ولا يعـــرف لـــه ذنباً يوجب إبعاده ولا جرماً يستوجب به أن ينقض حبل وصله، ويرفض وداده، ولا يعلـــم سبباً يوجب سبّه، ولا شيئاً يحدث عتبه، مع أنّ المملوك أحقّ أن يبدأ بالإعـــراض، ويـــرفل في إغفال مودّته في الثّوب الفضفاض، فإنّ المولى آلمه بالقول مراراً"[2].

لا شـــكّ أنّ فـــي هذه الفقرة عتاباً مؤلماً وموجعاً، فغرضه ليس تأخر رسالة أو مكاتـــبة بـــل يرجّح أن يكون سباباً أو شتماً، وعلى هذا كانت لهجة العتاب آخذة بالحزم والشدّة على الرغم من أنّ العتاب صادرٌ من أدنى إلى أعلى.

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 196/9.

(2) المصدر نفسه، 198/9.

وكما يبدو من ديباجة هاتين الرسالتين أنهما مصنوعتان لغرض العتاب من باب امتحان القريحة، فالعتاب فيهما مختفي خلف ركام من التزويغ اللفظيّ والبديعي، فالعتاب فيهما يفترُ عن عاطفة باردة على النقيض من العتاب الوارد في مراسلات الصفديّ وابن غانم السالفة الذكر، حيث تعبّر تلك الرسائل عن المعاناة الحقيقية التي أحسّ بها الصديقان، وتحمل تلك الرسائل في طيّاتها التوجُس والقلق من صرم تلك المودّات، فالعتاب فيها تخاله ينبع من دفقات قلب الكاتب لا من سطور رسالته ومدادها.

ومن تلك الرسالة التي تعبّر عن مدى صدق العلاقات، ودوام تلك المودّات والخوف من بترها - على قصر تلك الرسالة - ما بعث بها شّمس الدّين بن قاضي شهبة إلى خليله الصفديّ يعاتبه فيها لانقطاع مراسلاته قائلاً: "يقبل الأرض، وينهي ما لم يخف من العلوم الكريمة من مضاعفة شوقه، ومضاعفة أسفه الذي أحاط به من تحته وفوقه، وما يجده من التألُم لانقطاع مراسيم مولانا التي تفلُ حدّ الغربة بغربها، وتحجب عن الأنفس المكروبة المحزونة كرّ كربها"[1].

فالرّسالة طافحة بالأسف والعتاب، فالعتاب ظاهر جليٌ، والصّداقة الصّادقة أوجبت هذا العتب، فالحزن والألم أحاط به بسبب انقطاع مراسلات صديقه، فالعواطف ملتهبة، والحاجة ماسّة لقراءة رسائله، حيث الغربة والاغتراب تشكّل جوّاً من الكآبة والحزن، ولا خروج من ذلك الجوّ إلاّ بمراسلات صديقه له، ولمّا انقطعت تلك المراسلات أحسّ بالغبن فلم يتوانَ عن عتاب صديقه وتأنيبه.

وبالجملة، فإنّ رسائل العتاب تعبّر عن جوٌ انفعالي إنساني، حيث يبقى الودّ ما بقي العتام، وتحمل رقاع العتاب فكرة واحدة، تتمثّل في التذكير بأواصر المحبّة والمودّة التي أصبحت في خطر بسبب البُعد والجفاء والتناسي، فالكاتب إذا ما أحسّ بلوعة الهجر ووحشة الغربة، ووحدة الاغتراب يفزع إلى معاتبة صديقه، وتركه له دون مشاركته تلك

---

(1) الصفديّ: أعيان العصر، 46/5.

الأحـــوال، فالظاهر من تلك الرسائل أنّ العتاب يصدر في مجمله عن البُعد والاغتراب، فـــتكون تلـــك الوحشة داعياً لموجبات كتابة تلك الرسائل، ليستأنس الكاتب بما يكتبه له أصدقاؤه حال غربته.

رسائل الاعتذار:

تمـــثّل رسائل الاعتذار الوجه الآخر لرسائل العتاب، ونتيجة منطقية له، فإذا ما بعـــث أحدهم رسالة عتاب إلى صديقه لقاء مقاطعة حصلت أو مشاحنة حدثت، يسارع الآخـــر في اعتذاره لإدامة الصّداقة، والحفاظ على جوّ الأخوة الصادقة، فيجعل من ذلك الاعتذار مسلكاً جديداً يدخل منه إلى قلبه.

فرســـائل الاعتذار تحمل من الوفاء والاعتراف به وإيثار الأصدقاء الجمّ الغفير، وهـــي علاج يبرئ سقم الصّداقة الذي خلّفته القطيعة، فيقوم الكاتب باختلاق الأعذار في تبريـــر فتـــرة تجاهلـــه وتناسيه لصديقه، علّه يقنع بتلك الحجج، ويصفح عنه، ويطوي صفحة قد كدّرتها دلاء الصرم والقطعية.

وتـــتّخذ رسائل الاعتذار مناحي متعدّدة تتمثّل في الاعتراف بالذنب والتوسُّل من أجـــل إدامة المودّة، وخلق الأعذار، ولين الخطاب المتّخذ لوناً من ألوان العتاب، فيحمّل الكاتـــب العتب صديقه أيضاً، فمن الرسائل المعتمدة أُسلوب التوسُّل والضراعة من أجل تسوية العلاقة ما كتب بها الصفديّ إلى صديقه الحسين بن محمد العوكلاني، حيث أبدى الصفديّ ضروباً من الشّوق والحنين، وجدَّ في خلق الأعذار من أجل قبولها، فجاء منها: "إنّه قد شغله ألم الإعراض عن ألم الشّوق، وضاقت الرحبة بفضائها على أنّه لا رحبـــة لابن طوق، وتحرّز بالمكاتبة إلى مولانا، فجاء بطوفان هجره من فوق، ويطلب الإعذار في ترك الجواب، فلم يكن لها في النّفس ذوب قبول ولا ذوق"[1].

---

(1) الصفدي: ألحان السواجع، 116/1.

فالصَّفديّ في هذه الرسالة يبدي شوقه الجارف إلى صديقه، وفي ذلك وسيلة لجلب مودّته، وتناسيه تلك القطيعة، فوصف الضّيق الذي مرّ به، والأحوال القاسية التي عصفت به جرّاء مفارقة صديقه، كل هذا يخفّف من تقصيره عن مكاتبته، ويسترسل في اعتذاره بهذا الأُسلوب الاستعطافي قائلاً: "على أنّ المملوك فارق مولانا ما صفّ له جفاء ولا جفّ له صفاء، ولا توسّم من عواطفه ردى رد، ولا سمع من عوارفه صدى صدّ"(1).

فالإسهاب في الاعتذار من وصف الآلام، وحرق الفراق، ومرارة البُعد تشفع له عند صديقه في قبول اعتذاره، ولم يكتفِ الصفديّ بشرح هذه الأوضاع التي آلمته، وأنكأت جرحه، بل يجد تلك العلاقة التي اصطلح على تسميتها عبودية قائلاً "وقد جهّز المملوك هذه العبودية، وهي لعواطفه متطلبة متطلّعة، متصرّفة الأحشاء متضرّعة، متجرّدة من الذنوب، وإن كانت لغصصها متجرّعة"(2).

فالصفديّ يجعل من اعتذاره هذا قرباناً عن تلك القطيعة، وقد جدّ في سُبل قبوله، فالعواطف والأحاسيس متشوّقة إلى صفحه وغفر ذنبه وتناسي جرمه، فقد عبّر عن تلك الرقعة بالنّفس المضطربة، الهلعة المتوجّسة أمام خالقها ترجو عفوه أو تطمع في رحمته، فهو معترف بذنبه، متضرّع ومتوسّل يرجو قبول عذره.

ومن هذا اللون من الرسائل كذلك ما بعث به ابن قاضي شهبة يعتذر للصفديّ عن عتب قد كان بعثه وفيه شيء من الغلظة والوحشة، فدبّج تلك الرسالة يلتمس فيها العذر والصفح من الصفديّ، متّبعاً الأُسلوب ذاته في كسب الودّ والصّفاء، وتدارك الأحوال قبل فوات الأوان، فجاء في تلك الرسالة: "يقبل الأرض، وينهي ورود الجواب

(1) المصدر السابق، 116/1.

(2) المصدر نفسه، 116/1.

الكريم عمّا كان تهجّم المملوك من العبودية والأبيات التي بان بتلك المراجعة قصورها، وتضعضع بتلاوة سور تلك العوذ الصلاحية سورها وصورها"[1].

فبدأ ابن قاضي شهبة رسالته بالاعتذار عن تلك الجفوة، وغلظة المعاشرة، وسوء المعاتبة، معترفاً بذنبه البيّن، مقرّاً بعبوديته الوفيّة، مسلّماً بفضل صديقه وسبقه إلى كل فضيلة، ولم يقف عند ذلك الحدّ من الاعتذار والاعتراف بالتقصير، بل تعدّى ذلك إلى التصريح بسوء العشرة، وقصوره في جانب أدب الخطاب والمعاتبة قائلاً: "يا ألف مولاي قد تجاسر العبد، ولكن والله مقتبساً من أنوار فضائلك، وتهجّم ولكن ملتبساً من مبارّ شمائلك"[2].

ومن خلال هذه الرسالة يلمس المرء الرقّة في الاعتذار، وعذوبة الإنكسار، ويحسّ بأثر الغصّة التي سبّبها الفراق والوحشة، وفرط الشّوق والحنين، فكل هذه العواطف والمشاعر تجعل الكاتب رهن عبودية حقيقيّة، ومودّة متّصلة الأطناب، وألفة لم تعرف يوماً الصرم والهجر، وقد جعل تجاسره على صديقه وغلظته في عتابه وتأنيبه له صادراً عن مدى حبّه وعميق صداقته.

ويختم ابن قاضي شهبة اعتذاره بالموادعة والتوسّل والسؤال قائلاً: "وسؤال المملوك من الصدقات إدامة الجبر الكريم، فإنّ المملوك إذا رأى كتاب سيدي شاهد معانيه من مثاله، وتذكّر مواصلة الخيرات الحسان بين يديه بالنشر الفائح من طي أوصاله"[3].

فهو يطمح في جبر ذلك الكسر الذي أحدثته مخاطبته لصديقه، ولا يرى جبراً إلاّ في متابعة تلك المراجعات بينهما، فتمثّل هذه المراجعات غذاءً لا يصفو عيشه إلاّ به، ولا تقرعينه دون أن تقع عليه.

---

(1) الصفدي: أعيان العصر، 48/5.
(2) المصدر نفسه، 48/5.
(3) المصدر نفسه، 49/5.

ومـــن هذا القبيل رسالة اعتذار وجهها الصفديّ إلى صديقه جمال الدّين بن غانم يعـــتذر فـــيها عن تقصير لم يفصح عنه الصفديّ، وقد حملت رسالة الاعتذار ألواناً من المجاملات والتبريرات المفضية لإدامة الخلة بينهما، فبدأ تلك الرسالة كعادته في كسب ودّ خلـــيله، وإطفـــاء نار العتب والهجران بالحديث عن الشّوق والحنين، فجاء في هذا المعنـــى مـــن تلـــك الرســـالة: "يقبل الأرض ويصف شوقه الذي شقّ الجوانح، وجرّح الجوارح، وملأ الفؤاد فوادح، ويذكر حنينه الذي شغله عن ذاته، وأذهله حتّى عن تمنّي اللقاء ولذّاته، ونغّص صفو عيشه بالبُعد، وهذه أحسن حالاته"(1).

فالصـــفديّ مـــن خلال هذه المقدّمة يصف الجوّ الكئيب الذي ألمّ به إبّان مقاطعة صـــديقه فجفوة ذلك الصّديق أشعرته بالوحدة والوحشة وألهبت شوقه، وأحرقت فؤاده، حتـــى فـــارق ملذّاته، ولم يعد يروق له صفو الحياة وهناؤها، فطوّقته الهموم، وأذابت قلبـــه الحسرات، وسلبته الهواجس جميع الملذّات، وأذهلته هذه الحالة العصبيّة عن تذكّر مراسلات أحبابه، فجعل الصفديّ من تلك الأهوال التي أختلقها عذراً ومبرّراً عن انقطاع مـــراجعاته لصـــديقه، وفـــي مثل هذا اللّون من الاعتذار انكسار واعتراف بالتقصير، وشـــعور بالـــذّنب، ولكـــن الأحـــوال التي وصفها وأشغلته عن تذكّر أصدقائه لفداحتها وقسوتها يمكن أن تُسهم في قبول عذره وإقالة عثرته، والأُسلوب الآخر الذي يجنح إليه الصفديّ ويرى فيه قبول الاعتذار يكمن في ترحيبه الحار بالعتاب، وذكر فضيلة السبق، فقـــد صـــوّر ذلـــك العـــتاب بالسُّـــيوف التي تقطع دابر البغضاء، مشعلة ناراً مواقدها ضـــلوعـــه، فقـــال مصـــوّراً ذلك: "وينهي ورود المثال العالي، فتلقّى منه أكرم وارد، وحـــوى مـــن ألفاظه الغرّ مصائد الشوارد، وشافهه منها ألسن عتب لها في القلب وقع السُّـــيوف وإن كانـــت فصـــاحتها مثل المبارد، وأضرمت في الحشا نيراناً لها الزفرات دخان، والضّلوع المنحنية مواقد"(2).

---

(1) المصدر السابق، 2/704-705.

(2) المصدر نفسه، 2/705.

وفي مثل هذا الجوّ الانفعالي المفعم بالعاطفيّة والأحاسيس والمشاعر يقرُّ الصفديّ بتقصيره، ولم يجد بدّاً من الاعتراف بتخليق أعذاره وضعفها في وجه هذا العتاب الشّديد الــذي يقف حائلاً أمام تدفق أعذاره، وهنا لا يجد الصفديّ إلاّ الكشف عن حقيقة عذره الواهــي أمــام صلابة ذلك العتاب، فيجد في الاعتراف وسيلة، وفي التضرُّع سبباً من أســباب قبول الاعتذار وغفران الهفوة، فقال: "فقابلها بأعذاره الملفّقة، فقالت حرارة تلك السُّــور: دعــنا من عذرك البارد، ونظر من الحروف المنظّمة إلى نونات كأنّها براثن الأُسود، وإلى ميمات كأنّها عيون الأساود"[1].

وقــد قاده اعترافه بتلفيق أعذاره وضعف حجّته إلى مدح صديقه والإشادة بعتابه الــذي أســهم في رأب الصّدع وتفادي القطيعة، وقبول التأديب بنفس راضية مستسلمة متضــرّعة. ففي هذا التأديب درس للصفديّ يضمن عدم تكرار تلك القطيعة فقال: "هذا هــو العــتب المحمود العواقب، وهذا التأديب الذي يعقب الرضى ولا يعاقب، وقد عاد المملوك إلى صوب الصّواب، وتضرّع من تلك السُّطور على عتبات العتاب"[2].

وتــدلّ رقّــة ذلــك الاعــتذار علــى حرص الصّفديّ على قطع شأفة البغضاء والتناكــــر، وجحود المودّة والصداقة، والعودة إلى أجواء الخلّة الصّادقة، القائمة على الوفاء والإيثار، وقد فرضت عليه هذه العبوديّة طلب المغفرة من صديقه "فليغفر مولانا هذه الهفوة، وليقله عثرة هذه الخطوة التي لم يلقَ فيها حظوة، والله يمتّع العيون والنُّفوس بجماله وجلاله"[3].

ولا شكّ في أنّ قبول هذا العذر والصفح عن هفوة صاحبه كفيلة بعدم تكراره مرّة أخرى، فالصفديّ حريص على عدم المعاودة لمثله أبداً.

---

(1) المصدر السابق، 705/2.

(2) المصدر نفسه، 705/2.

(3) المصدر نفسه، 705/2-706.

لتقصيره من معاقبة فأعفاه منها، وجبر ما قابله وأذن له في المكاتبة على أنّ المملــوك -شهد الله - ما يترك مكاتباته نسياناً لبرّه، وإنّما ذلك إزاحة لتكلّفه، وإراحة سرّه"[1].

فتــرك ابن الورديّ مكاتبات صديقه متعمّداً لكنه غير قاصد الإيذاء أو الهجر بل لأنّ الظروف التي يمرّ بها تسوء الصّديق، وقد أفصح عن تلك الأحوال التي حبسته عن المكاتبة قائلاً: "وقد جهّز المملوك ورقات تتضمّن النبا عن الوبا وما هي من جيد قوله، وكيف يجيد مَنِ الطّاعون يتخطّف النّاس من حوله"[2].

ومــن هــذا اللون من الاعتذار ما كتب به الصّفدي إلى شرف الدّين بن ريّان، معتذراً عن تأخّر مراسلاته إليه ومراجعاته، فقد حالت دون ذلك فتنة حصلت أشغلته عن متابعة أخبار خلاّنه، فجاء في ذلك الاعتذار قوله: "وحاول المملوك الجواب فجاءت هذه العوائق التي ما احتسبت، والحوادث التي لم تكن كيوم القيامة"[3].

والحقــيقة أنّ رسائل الاعتذار محكٌّ أصيل للوقوف على صدق علاقاتهم، وبقاء مــودّاتهم، وفــيها ضــمان لاستمرار صلاتهم، فهم من خلالها يعبّرون عن مشاعرهم النبيلــة وعوطفهم الجياشّة، وقديم ودّهم الذي تداركوه قبل ضياعه، وتذكّر أيّام الصّفاء التي تفيئوها، فيحنّون من خلال تلك الرقاع إلى إعادة تلك المودّات.

رسائل الشكوى:

إنّ مــن وســائل التخفــيف بين الأصدقاء بثّ أحزانهم وهمومهم وآلامهم التي تــواجههم فـــي حال سقمهم وصعوبة ظروفهم وأحوالهم، فإذا ما اعترض ذلك الأديب عــارض نال منه، وأسدى إليه الهموم وضاق صدره عن احتمال ذلك الأذى، لا يتوانى عــن بــثّ حزنه إلى صديقه علّه يشاركه عواطفه وأحاسيسه، وهذا اللون من الرسائل يظهــر فيه المرسل حاجته للمساعدة الأخويّة، ومشاركة صديقه له، ومؤازرته في تلك

---

(1) ابن الورديّ: الديوان، ص114.

(2) المصدر نفسه، ص118.

(3) الصفديّ: اعيان العصر، 86/4.

الأحـــوال، وقد شاعت مثل هذه الرسائل في موضوعات الأسقام والفتن التي تعرّض لها الأدبـــاء، وعندئذٍ لا يجدون مناصاً من الشكوى إلى أصدقائهم، والبوح لهم بهذه الملمّات التــي تعصف بهم، فيصفون أحوالهم ومدى ضعفهم، وحاجتهم إلى المواساة والمساعدة، ومن ذلك شكوى بعث بها أحمد بن علي تقي الدّين السبكيّ إلى الصفديّ، يصف فيها ما يلقاه من مرض الطاعون الذي فتك بالآلاف في مصر، فجاء في تلك الرسالة: "غير أنّه صـــادف مـــن المملـــوك قلباً يتقلّب على الجوى، ويتطلّب سبيلاً إلى الفرار من النوى، ويتصـــلّب علـــى الحـــبّ كلمـــا انشـــوى، ويتغلّب عليه داني الهوى، فآنس من جانبه المؤانســـة، ولابس منه ما جانب به وساوسه"[1].

ففي الفقرة السابقة تظهر لوعة السبكيّ جليّة، فقلبه قد آلمه الجوى، وهو يصارع رغـــبة صــــارمة تحتّم عليه الفرار من البعد والفراق ولم يجد بدّاً من الاستعانة بصديقه للخـــلاص مـــن تلك الحالة الملازمة له، فوجد في تلك الصّداقة المؤانسة والتخلّص من وساوس الهموم والشكوى.

وجاء من الرسالة ذاتها ما يعبّر عن مدى الأحزان والآلام التي انتابته جرّاء ذلك المـــرض الذي نزل بساحة قومه، وحصدهم حصد الثمار، وأغار عليهم غارة الأعداء؛ ممّـــا جعلـــه يخـــرج عن طور الصّبر والاحتمال والفزع إلى الشكوى، وطلب مشاركة الآخرين له بالعزاء والتسرّي فقال: "وشغله ما شغل جميع الخلائق، وهو أمر هذا الوبا، ومـــا بلغكـــم عـــنه مـــن النـــبأ، فإنّه قد عمَّ البلاد والعبـــاد، وغـــمَّ النّفـــوس وأذاب الأكبـــاد"[2].

والنّاظـــر فـــي تلـــك الفقـــرة مـــن الرسالة يجدها تفيض بألفاظ الشكوى والألم والجـــزع، وعدم الاحتمال ونفاد الصّبر، والخوف من العاقبة، فالغرض ليس وصف شدّة الكارثة بقدر ما هو شكوى من تلك الأحوال، فهي أحزان ومعاناة يبثّها صديقه علّه

---

(1) الصفديّ: ألحان السواجع، 31/1.

(2) المصدر نفسه 31/1.

يســـرّي عن نفسه بإبلاغها، وقد أكثر السبكيّ من وصف مشاهد الموت الجماعيّة، وقلّة احتمال النّاس الصّبر، وانتظارهم المصير المحتّم، فزاد لذلك تضرّعهم وشكرهم.

ومـــن رسائل الشكوى الأكثر وضوحاً ما بعث بها أحمد بن علي علاء الدّين بن غـــانم إلى صديقه الصفديّ، يصف في تلك الرسالة ما يلاقيه من أهوال السّقم الذي حلّ بجســـمه، وكيف قلّ احتماله لتلك البلوى، وألجأته تلك المحنة إلى الشكوى والتعبير عن آلامه وأحزانه إلى صديقه، فجاء من تلك الشكوى التي تجمع بين المنظوم والمنثور قول الكاتـــب: "يقبل الأرض وينهي أنّه لا يسأل مولانا كيف انقضت ليلته من الألم -دفع الله عن مولانا ما يحاذره- والمرجو حصول اللّطف من الله تعالى"(1).

فالكاتـــب يبثّ صديقه المعاناة التي واجهها من ذلك المرض، ويصف له ما لاقاه في تلك الليلة من الألم الذي حرمه السكون والكرى، ولما كان ذلك سقماً ومرضاً وليس لصديقه حيلة في التخفيف عنه عدل إلى التضرّع إلى الله أن يلطف به، ويجنّب صديقه تلك الأوجاع.

ومـــثل هذه الرسائل تصوّر مدى العلاقة الحميمة التي كانت تربط الأدباء، حتى بلغـــت بهم تلك الأواصر إلى الإفضاء إلى بعضهم في كل ما يعزّيهم من أوجاع وهموم وآلام، فـــلا يجدون في أنفسهم أي تردّدٍ من الشكوى وبثّ أحزانهم إلى بعض، وهذا ما يدلّ على شفافيّة علاقاتهم ونقائها.

ومـــن الغـــرض ذاتـــه كتب الصفديّ إلى أبي بكر بن محمد بن غانم، شاكياً من مرض ألمّ به، وقرّح جفونه، وأذهب سكونه، وأوهى جسمه قائلاً: "يقبل الأرض صرف الله الصروف عن حماها، وحفظ ساحها من الغِيَر وحماها، وجعل حرمها لأوليائها عوذة من الأسواء، وإذا قبلته شفاه مرضاها شفاها شفاها، وينهي لا بل يسلو حاله التي ليس له

(1) المصدر السابق، 20/1.

منها بدل، وآلامه التي كلمت أعضاه ولم يكن جلده قطع ذلك الجدل، وحُمّاه التي تلدغه منها عقرب... فليت جسمه مع ذاك حمل"[1].

فالصفديّ يشكو من مرض الحمّى الذي كان من أفتك الأمراض في الزمن المتقدّم، واصفاً أعراضه التي أفقدته احتمال الصبر، وأنسته لذّة العيش، فقاسى من الآلام ما يقاسيه لديغ العقرب من سمومها. وقد أخذ في وصف ذلك المرض مظهراً الشكوى وعدم الاحتمال، واصفاً ألوان العذاب الذي أحلّ بجسمه من رأسه إلى أخمصه قائلاً: "ويعجز المملوك عن وصف ما حصل لرأسه من الصداع ولجسمه من الصّدوع، ولآماله المعلّقة من القطع، ولخطه من القطوع"[2].

فقد ألجأته تلك الحمّى إلى الشكوى، وقطعت أماليه وأمانيه، وقرّبت أجله، فقد عجز عن احتمال صداعها الذي صدع رأسه، وصدّع جسمه، فالمرض لم يترك من جسده شيئاً لم يمسّه، فوجد في بيت المتنبي في وصف الحمّى بغيته، فضمّنه تلك الرسالة:

بَذَلْتُ لَهَا المَطَارِفَ والحَشَايَا فَعافَتْهَا وَبَاتَتْ فِي عِظَامِي[3]

واتّسمت رسائل الشكوى من هذا اللون بالقصر البيّن مع كثرة ألفاظ الألم والشّكوى والحزن الملازم لتلك الرقاع، وبيان الضعف الذي لازم كتّاب تلك الرسائل، وعدم احتمالهم للصّبر.

وهناك رسالة شكوى بعثها الصفديّ إلى شرف الدّين حسين بن ريّان، إثر فتنة ألمّت به، حيث تعرّضت مدينة دمشق إلى محنة وأبناء الصفديّ فيها وهو في مدينة "لُدّ" فكتب تلك الرسالة يشكو فيها من تلك الحال التي أصابت دمشق، ومتخوّفاً على أبنائه، وقد وجّه الصفديّ تلك الشكوى إلى صديقه واصفها بألوان من الألم والخوف والفزع

---

(1) المصدر السابق، 83/1.

(2) المصدر نفسه، 84/1.

(3) المتنبي: الديوان، 146/4.

والـتوجُّس قـائلاً: "يا مولانا هذه مصائب عمّت وصمّت، وصرحت بالشرّ وما عمّت، وقيدت إليها الأهوال وزمّت، ودعت الجفلى إلى مآدبها، وأصمّ المسامع نعي نوادبها، فلا حـول ولا قـوة إلاّ بالله العليّ العظيم، قول من ضاقت به حيلته واتّسعت عليه بالهموم ليلته... ونسأل الله تعالى حُسن الخاتمة، وفجر هذه الليل العاتمة"[1].

وقـد أبـدى الصفديّ ألواناً من الهموم والأحزان، وكثرت وساوسه، وفصّل في حديـثه عن المصائب التي عمّت، والأهوال التي بلغت من النّاس كل مبلغ، ونالت من نفوسـهم ما لم يحتملوا الصّبر عليه، حتى كثرت الناعيات والنادبات، وهذا الأمر ألجأه إلـى الشـكوى، فصـرّح معلـناً عن ذهاب صبره ونفاده، وعدم احتماله، وقلة حيلته، فهاجمـته الهمـوم وأغارت على مثاقيل صبره، وأخذ الصفديّ يصوّر الحال التي كان علـيها من الفزع والخوف والتوجُّس والقلق قائلاً: "فقد بلغت القلوب الحناجر، وحزّت الغلاصم بالخناجر، وكسرت براني الصبر، وحسد من امتطى ظهر الأرض من استكن في جوانح القبر"[2]، فلشدّة تلك النازلة التي واجهته وعصفت به وأفقدت النّاس الصّبر، تمنّـى الأحـياء معها الموت؛ لتهدأ أنفسهم من تلك الضائقة، وفي تصوير هذه المشاهد تفريج لهمّه وغمّه، فمثل هذه الرسائل تسهم في تخفيف معاناته، وكعادة رسائل الشكوى حـيث لا بـدّ فيها من الالتجاء إلى الخالق -جلّت قدرته- في كشف الضرّ والانتصار للمظلـوم، فجاء في هذا المعنى قوله: "وهذه رزية شموس التثبّت بها كاسفة، وليس لها من دون الله كاشفة، اللهم اكشف هذه البلية عن البرية، ولقّ النفوس الظالمة ووقٍّ البرية وأجرنا على عادة أجرنا، وعجّل فكّ أسرنا بأسرنا إنّك بالإجابة جدير وعلى كشف هذه اللأواء قدير"[3].

---

(1) الصفدي: أعيان العصر، 86/4.
(2) المصدر نفسه، 86/4.
(3) المصدر نفسه، 86/4.

ففي هذا تضرُّع وخشوع لله سبحانه بأن يكشف عنهم الضرّ والنوازل التي أثقلت كواهلهم، وجعلتهم يضجّون بالدعاء إلى الخالق في رفعها عنهم، وإزالة اليأس عنهم، فلا ملجأ منه إلاّ إليه.

والنّاظـــر في رقاع الشكوى السابقة يجدها في مجملها تتمحور حول عدّة قضايا أبـــرزها قضيّة تصوير الجزع والآلام والأوجاع والهموم التي أشغلت الأديب وقطعت آمالـــه، وآيســـته مـــن احـــتمال الصبر والاحتساب حتى يفرّ إلى بثّ تلك النوازل إلى خلاّنــــه، طالـــباً مواســـاتهم وســـلوتهم له، مظهراً ضعفه وقلّة حيلته في مواجهة تلك الأحوال والأسقام.

والكاتـــب كذلك في مثل هذه الرقاع يكشف عن لون من ألوان التضرّع والابتهال إلى المولى سبحانه أن يكشف عنه تلك الشدّة وأن يجنّب خلاّنه هذه المصائب والويلات.

ويُلحـــظ على تلك الرسائل قصرها، فكأنّها أنّاتٌ يرسلها الكاتب إلى صديقه، فلا مجـــال في مثل تلك الحال أن يطوّل ويؤنّق فيها، فالحالة النفسيّة لمدبّجها لا تعينه على تطـــويلها والإطـــراء فـــيها، بل القلق والألم والجزع لا يمهله حتّى يتمكّن من تفصيل أجـــزائها وتحلـــيل كليّاتها، وكأنّما هي ومضات يُفسح للنّفس فيها أن تعبّر عن معاناتها ومقاساتها للآلام.

ثالثاً: العلاقات التعليميّة

اهتمّ المماليك بالحياة العلميّة، وتبوأ العلماء مكانة علية في الأوساط الاجتماعيّة، وأسندت المناصب الديوانيّة إليهم، فزاد اهتمام العلماء بالدرس والتحصيل والتأليف، فالتفّ حولهم نفرٌ من الطلبة ينهلون من علومهم، ويغرفون من بلاغة بحورهم، وقد اشتهر في ذلك العصر البحث عن التعليم والتمسك بأسبابه، فكثر الشيوخ والمدرّسون.

وقد اتّخذ التعليم في تلك الحقبة الصّفة الشخصيّة أكثر من الصّفة الإلزاميّة المنظّمة على الرغم من وجود المدارس التي ينفق عليها من قِبَل الدولة والأوقاف، فقد كثرت الإجازات العلميّة بأنواعها المختلفة ورسائل التقريض وحلّ الألغاز والأحاجي.

وقد أصبحت هذه الإجازات من أولويات عمل الأدباء والعلماء، وقد ارتبطت تلك الإجازات والتقاريض وحلّ الألغاز بالعلاقات الاجتماعيّة، فإذا ما أراد طالب أن ينهل من علوم أولئك الشُيوخ ما كان عليه إلاّ أن يوطّد العلاقة معهم، ويلزمهم في حلّهم وترحالهم، فيتعلّم سلوكهم قبل علومهم.

وقصّة الشُيوخ مع طلبتهم تمثّل صفحة صداقة وخلّة وفيّة، فتبنى تلك العلاقة على نوع من الصّلات والمودّات والاعتراف بالفضل، والذي يبرهن ذلك ما مرّ في الفصل السابق من الرسائل الإخوانيّة التي كان يتبادلها الطلة مع شيوخهم.

والذي يحتّم إدراج هذا الفصل في باب الرسائل الإخوانيّة ما كانت عليه علاقات الطلبة مع شيوخهم، حيث كانت تعتمد سبيل العلاقات الاجتماعيّة والشخصيّة، وهذا ما يقود إلى جعلها في هذا الباب. فرسائل الإجازات يمنحها الشُيوخ طلبتهم بشكل شخصيّ، والاستدعاءات بالإجازات يكتبها الطلبة إلى شيوخهم كذلك بالأمر ذاته، فكلا الإجازات والاستجازات تتّخذ الطابع الإخواني لا الإداري أو الديواني، والأمر نفسه يحصل في

حالــة تدبيج رسائل حلّ الألغاز والأحاجي الخاصة بالنُكت النحويّة والبلاغيّة وغيرها، وهــذا ما يحصل كذلك في حالة تقريض المصنّفات والقصائد، حيث تتّبع سبل العلاقات الشخصيّة لا الرسمية.

الإجازات:

هــي رســائل يكتــبها الشُــيوخ إلى طلبتهم يكون موضوعها مرتبط بالمستوى التحصيلي الذي بلغ شأوه ذلك الطالب، حيث تنظّم درجات المتعلّمين، وتبيّن المكانة التي يــرتقون إليها، فهي على هذا النحو متنوّعة تبعاً لتنوّع الغرض الذي تتضمّنه، فتتوزّع هــذه الإجــازات علــى: الإجــازة بالفتيا والتدريس، وهي أعلى هذه الإجازات، تليها الإجــازة بالعراضة، ثمّ الإجازة بالمرويّات، ولكل واحد منها حدٌّ يميّزها عن غيرها.

أ- الإجازة بالفتيا والتدريس:

يُعدُّ هذا اللون من الإجازات قمّة الهرم من حيث الدرجات العلميّة، فتمنح للطالب عــندما يشعر شيخه أنّه يمكن الركون إليه في الجلوس للتدريس والفتيا، فبعد أن يطمئن الشــيخ إلى قدرة طالبه على تحمّل عبء هذه الدرجة ويركن إليه في القيام بتلك المهمّة والتصــدّي للــتدريس والفتــيا، يدبّج إليه رسالة يجسّد من خلالها إجازته بممارسة تلك المهنة، محذره من المزالق التي قد تصادفه في مسيرته.

وتتضمّن تلك الرسائل ألواناً من المجاملات وعبارات التقريض والثّناء ممّا يقرّبها إلــى رســائل المديح والشُكر، ويحرص الكتّاب في مثل هذه الرسائل أن يضمّنوها اسم المجــاز وتاريخ الإجازة ونوعها، وقد "جرت العادة أنّه إذا تأهّل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس أن يأذن له شيخه في أن يفتي ويدرّس ويكتب له بذلك"[1]. ولم يحصل الطالب على هذه الإجازة إلاّ بعد أن يتأكّد شيخه من أنّه لديه القدرة على الفتيا والتدريس في علم مــن العلــوم، فمن هذه الإجازات ما حصل عليه القلقشندي في الفتيا والتدريس لمذهب

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 322/14.

الإمـــام الشّـــافعي من شيخه ابن الملقّن سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، وقد تضمّنت هذه الإجـــازة إذناً له بالتدريس والفتيا للمذهب الشّافعي، وقد نهج ابن الملقّن في تلك الإجازة طريقة وسطى بين الرسائل الديوانيّة والإخوانيّة، فقد بدأها بالتحميدات الطويلة الملائمة للموضـــوع، حـــيث تضمّنت تلك التحميدات بيان فضل العلم والاشتغال به والاعتراف بفضـــل تلـــك المهـــنة، وتأكـــيد علوّ منزلة العلم الشرعيّ حيث قال: "فقد وضح لذوي الأبصـــار والبصـــائر، واتّضح عند ذوي الأسرار والسرائر، واستقرّ عند ذوي القلوب السليمة والعقول الراجحة المستقيمة أنّ منزلة علم الشريعة عند الله تعالى أعلى المنازل، وفضـــله أفضل المآثر، وآثر الفضائل، وخصوصاً معرفة تفاصيل أحكام أفعال المكلّفين بالشريعة المحمّديّة..."[1].

وقـــد أبحر الكاتب في ذكر فضائل ذلك العلم، وحثّ على الرغبة في التزوّد منه، وأطال في تعداد مناقبه، وجعل تلك الخطبة مدخلاً ملائماً لمدح طالبه الحائز على ثقته، الـــنائل لإجازته. فقد عظّم ذلك العلم وأعلى من شأنه وقدره؛ لبيّن فضل من يقوم على حفظه وخدمته والعمل به، وذكر طائفة من آي الذكر الحكيم والأحاديث النبويّة الشريفة، التي تنطق بفضل ذلك العلم، وتمجّد من يقوم عليه.

وبعـــد تلك المقدّمة الطويلة خلص ابن الملقّن إلى الثّناء والمدح لطالبه، حيث لمح مـــنه الفطنة والذكاء وتوقّد الفكر الذي مكّنه من ترقّي هذه الرتبة على حداثة سنّه قائلاً: "ولمّـــا كان فلان أدام الله تعالى تسديده وتوفيقه، ويسّر إلى الخيرات طريقه، ممّن شبّ ونشـــأ فـــي طلب العلم والفضيلة، وتخلّق بالأخلاق المرضية الجميلة الجليلة، وصحب السّادة من المشايخ والفقهاء والقادة من الأكابر والفضلاء، واشتغل عليهم بالعلم الشريف اشـــتغالاً يُرضـــي"[2]، ومـــن خلال هذه الفقرة من الرسالة يخلص المرء إلى القول إنّ المعـــيار الأول فـــي منح مثل هذه الإجازات هو طول المكث مع الشّيوخ والفقهاء، ففي

---

(1) المصدر السابق، 323/14.

(2) المصدر نفسه، 324/14.

الجلوس معهم مؤشّر يقود مجيزه إلى الاستئناس برجاحة عقله بمخالطته هؤلاء العلماء والسّـادة، والمعـيار الآخـر يتمثّل في الخلق الذي يكتسبه نتيجة هذه الصحبة، وطول المعاشـرة، فقـد أثنـى ابن الملقّن على تلميذه من خلال هذه الميزة، حيث مدح أخلاقه وشيمه المتأتية من ملازمة هؤلاء العلماء والاشتغال بذلك العلم عليهم، فالاشتغال بالعلم الشـريف وحده لا يكفي بل لا بُدّ من تعلّم ذلك العلم على يدّ هؤلاء العلماء حتى يكتسب الفضيلة عنهم إضافة إلى العلم.

وبعـد أن يلمـس مـن طالبه تلك الميزة يلجأ إلى الاستخارة قبل أن يمنحه تلك الإجازة، وفي ذلك ملمح يشير إلى خطورة تلك الإجازة، ودرجة أهمّيتها، حيث لا تمنح إلاّ بعـد تأنٍّ وصبر واستخارة، فجاء قوله: "ولمّا كان فلان... استخار الله تعالى سيِّدنا وشـيخنا وبـركتنا العبد الفقير إلى الله تعالى..."[1]، وقد حشد كثيراً من الألقاب والكنى التـي تُظهر التفخيم والتعظيم إلى حدٍّ مبالغ فيه، وفي حشد هذه الألقاب وكثرة تعظيمها إشارة إلى أهمية هذه الإجازة، وعلوّ قدرها، فهي صادرة عن عالم جليل القدر، وبعد أن ينتهـي مـن سرد ألقابه يفضي إلى ألقاب طالبه التي لا تقلّ تعظيماً وإجلالاً عن ألقابه، وفـيها قدر كبير من المجالات، حيث يقال في ألقاب المجاز "الفقير إلى الله تعالى الشيخ الإمـام العـالم الأوحـد، الفاضل، المفيد، البارع، علم المفيدين، رحلة القاصدين فلان الدّين..."[2].

ويذكر القلقشندي أنّه أهمل ذكر ألقابه الواردة في هذه الإجازة، وعلّل ذلك بقوله: "إنّـه لا يلـيق بأحدٍ أن يذكر ألقاب نفسه في مصنّف له؛ لأنّه يصير كأنّه أثنى على نفسـه"[3]، ولا أكـون مجانـياً للصّواب إذا ما قلت بأنّ الألقاب التي أوردها في نهاية

(1) المصدر السابق، 324/4.

(2) المصدر نفسه، 327/14.

(3) المصدر نفسه، 327/14.

الإجـــازة المشار إليها آنفاً هي ما ورد في حقّه، ولكنّه أراد أن يظهر بمظهر المتواضع مع بيان ألقابه الواردة في حقّه.

ومهما يكن من أمر، فإنّ المجيز خلص بعد تلك السلسلة من الألقاب التي تقاسمها مـــع طالـــبه إلـــى الغرض الرئيس المتمثّل بالإذن بالفتيا والتدريس، وذكر تلك الإجازة صـــراحة لا تلميحاً كقوله: "وأذن وأجاز لفلان المسمّى فيه -أدام الله تعالى معاليه- أن يـــدرّس مـــذهب الإمـــام المجتهد المطلق العالم الربّاني أبي عبد الله محمد بن إدريس المطلبـــيّ الشافعيّ رضي الله عنه وأرضاه... وأن يقرأ ما شاء من الكتب المصنّفة فيه، وأن يفيد ذلك لطالبيه حيث حلّ وأقام، وكيف ما شاء متى شاء، وأين شاء، وأن يفتي من قصد استفتاءه خطّاً ولفظاً على مقتضى مذهبه الشريف المشار إليه لعلمه بديانته وأمانته ومعرفته ودرايته وأهليته لذلك وكفايته"[1].

ومـــن هـــذه الفقـــرة من الرسالة تُستشفُّ أمورٌ كثيرة تكون عمدة لتلك الإجازة، فالأمـــر الأول يتمـــثّل فـــي تحديد نوعها، فهي إجازة وإذن بتدريس وفتيا لمذهب واحد محـــدّد، ولـــيس علـــى عمـــومها، فهي مقيّدة بمذهب وطريقة، وقد عيّن ذلك المذهب، والأمـــــر الثاني يتمثّل في تحديد غرض هذه الإجازة، حيث بيّنه في أمر التدريس لذلك المذهب، ونبّه على أهمية التزوّد وعدم الركون إلى الدعة والاعتماد على تلك الإجازة، بل على الطالب أن يواصل البحث والدراسة في ذلك المذهب ليصبح في ذلك العلم باقعة زمانه، والأمر الثالث يتضمّن الإذن بالفتيا وهذا يدلّ على أنّ إجازة التدريس وحدها لا تؤهّل إلى الفتيا دون الإذن الصريح بالفتيا، وهذا ما ورد صريحاً في نصّ تلك الإجازة، ويتمثّل الأمر الرابع في بيان أهمية الأخلاق والسمت الحَسَن في هذه المهنة، فالإجازة لم تُمـــنح له إلاّ بعد التأكّد من هذا المورد المتمثّل بعلمه وديانته ومعرفته ودرايته وأهليته وكفايته، ورجاحة عقله، ومخالطته لأهل العلم، ومجالسته للعلماء.

---

(1) المصدر السابق، 325/14.

وهناك أمر خامس غاية في الأهميّة يكمن في الحثّ على التزوُّدِ بالعلم، ومواصلة البحث والدراسة والتعمّق وسبر غور ذلك العلم، وعدم الخلود إلى الدعة والراحة، والركون إلى الاكتفاء بتلك الإجازة، وفي هذا الأمر حثٌّ لطلبة العلم في أي مكان وزمان على المثابرة والجلَد في طلب العلم دون ملل أو كلل؛ لأنّ الحصول على الإجازات لا تعني نهاية العلم.

وتختم الإجازة بالوصايا التي يرى فيها الشيخ ضرورة ملحّة قد يجنّب طالبه إذا أخذ بها عقبات كأداء، مستخلصاً تلك الوصايا من تجاربه خلال مسيرته في ذلك النهج، فجاء في تلك الرسالة "ولا يستنكف أن يقول فيما لا يعلم لا أعلم، فذاك قول سعد قائله، وقد جاء: جُنّة العالم لا أدري، فإذا أخطأها أصيبت مقاتله"[1].

ومن خلال تصفُّح هذه الرسالة وعرض بعض أجزائها يتبيّن أنها إجازة عامة، مكّنت صاحبها من ممارسة مهنة التدريس والفتيا في ذلك المذهب دون قيد أو شرط، وقد تخلّل أجزاء تلك الرسالة ألوانٌ من المبالغات والمجاملات وعبارات المدح والثّناء، ولكنها أبقت الشيخ في مكانة أعلى من مكانة طالبه، وظهر ذلك جليّاً من خلال الوصايا الدّالة على عميق تفكيره، وتبحُّره في ذلك العلم، وتقرن هذه الإجازات بالتّاريخ، وقد ذكره المجيز في آخر الرسالة.

وإذا ما حصل الطالب على هذه الإجازة، فإنّه يكون قد حاز إذناً صريحاً بإجازة مرويّات الشيخ المجيز، وهذا ما قرنه ابن الملقّن بإجازته العامة للقلقشندي، فتكون الإجازة بالمرويّات تحصيلاً حاصلاً في حال حصول الطالب على إذن شيخه بالتدريس والفتيا.

---

(1) المصدر السابق، 325/14.

ب- الإجازة بالعراضة:

هــذه الدرجة من الإجازات تكون في مرتبة أدنى من الإجازة بالفتيا والتدريس، ولكــنها كثيــرة إلى حدٍّ يخرجها عن نطاق الحصر، وعنها عبّر القلقشندي بقوله: "فقد جــرت العادة أنّ بعض الطلبة إذا حفظ كتاباً في الفقه أو أُصول الفقه أو النحو أو غير ذلــك من الفنون يعرضه على مشايخ العصر فيقطع الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب ويفــتح منه أبواباً ومواضع يستقرئه إيّاها من أي مكان اتّفق، فإن مضى فيها من غير توقّف ولا تلعثم استدل بحفظه تلك المواضع على حفظه جميع الكتاب"(1).

ويفصـــح هذا الحدّ الذي وضعه القلقشندي عن طبيعة تلك الإجازات حيث يجتهد الطالــب في حفظ ذلك الكتاب في أي علم اتّفق، ثمّ يأتي شيخه المتمرّس في ذلك العلم ليعــرض عليه حفظه لذلك الكتاب؛ فإن توصّل الشيخ إلى قناعة بحفظ ذلك الكتاب كتب له إجازة تشهد بروايته لذلك المصنَّف.

والحقــيقة أنّ هــذا النوع من الإجازات أكثر ذيوعاً في أوساط الطلبة، حيث تُعدُّ طــريقة حفــظ الكتب سبيلاً مفضياً إلى الحصول في النهاية على الإجازة العامة، ولا تتــباين رسالة الإجازة بعراضة الكتب عن الإجازة العامة إلاّ في بعض الخصوصيات، حــيث تــبدأ الرســالة بالتحميدات المناسبة للغرض والثناء على طلب العلم، والكدّ في تحصيله، وبيان فضل من حازه، فمن ذلك إجازة من ابن الورديّ لشهاب الدّين أحمد بن ريّــان بقراءة الخلاصة في النحو لابن مالك وشرحها، فجاء في ذكر فضل العلم قوله: "أمّــا بعد حمد الله الذي منح خلاصة النحو كل مقرَّب، أو فتح لمن برزت ضمائره في طلب العلم باب معرفة، وهو باب صحيح ومجرّب"(2).

---

(1) المصدر السابق، 327/14.

(2) ابن الورديّ: الديوان، ص57.

ولا يرد في عراضة الكتب ألقاب الشيخ بل يكتفي بضمير المتكلِّم متبعاً ذلك اسم الطالـــب، واصفاً ذكاءه واتّقاد فكره، وتمكُّنه من حفظ ذلك المصنَّف، وقدرته على نقله وتدريســـه، فجاء في تلك الرسالة: "فقد قرأ عليَّ القاضي شهاب الدّين أحمد بن ريّان - جعلــه الله – وقــد فعل– فقيه أهله، ولا صرفه عن علميته ووزن فعله – جميع كتاب الخلاصـــة الألفـيّة فـي علم العربية... وما اكتفى بذلك حتّى شرح عليَّ شرحها لابن المصـــنِّف مـن أوله إلى آخره، ووقف على معانيه ومغازيه، وباطنه وظاهر، وأدأب نفسه في شرح هذا الشرح الطويل، وعوّل على إدراك أسراره أي تعويل"[1].

ومـن إجـازة لشـهاب الدّين محمود الحلبيّ للصفديّ بحفظه المقامات الحريريّة قـــول الحلبـي: "قرأ عليَّ المولى الصدر فلان الدّين نفعه الله بالعلم ونفع به من أول كـتاب المقامـات إلى آخر الخامسة والعشرين قراءة تطرب السامع، وتأخذ من أهواء القلـوب بالمجامع، وسأل منها عن غوامض تدلّ على ذكاء خاطره المتّقد، وصفاء ذهنه العارف منه بما ينتقي وينتقد"[2].

وبالجملـة يمكن القول إنّ الإجازات بعراضة الكتب تتّبع هذا السبيل، حيث يقرّ الشـيخ بقـراءة ذلـك الطالـب، ويأخذ بالثّناء على تلك القراءة، حيث يصفها بأعجب الصّـفات، ويمـدح ذلـك الطالب ويبيّن مواطن الذّكاء عنده وحبّه للعلم من خلال نعته بالفطــنة وتوقّد الفكر، وتنبّه الذهن، والجلد والصبر على الحفظ والبحث والتحرّي، ولا تخلو هذه النعوت من مجاملات يطمح من ورائها الشيوخ إلى ذيوع صيتهم بين الطلبة، حيث في هذا الإطراء ما يقود الطلبة إلى العودة إليهم واختيارهم دون سواهم.

وقــد تفسّــر هــذه المجاملات بطبيعة ذلك العصر القائم على التهويل الإعلامي والزخــرفة القولية، فقد اعتاد هؤلاء الشيوخ -وأغلبهم من الكتّاب– على تلك العبارات، وأصبحت من لوازم أسلوبهم.

---

(1) المصدر السابق، ص58.

(2) الصفدي: أعيان العصر، 376/5.

ومهما يكن من سبيل هذه المجاملات والتهويلات، فإنّ الشيخ ينفذ من خلالها إلى الإقـرار بـتمكّن الطالـب من حفظ ذلك المصنّف واستيعابه استيعاباً يمكّنه من روايته وإقـرائه، فجـاء فـي إجازة ابن الورديّ السابقة قوله: "فصار أهلاً لإقراء هذا الكتاب وأصله، وأعرب عن ذهن وقّاد يشهد بفطنة فطرته وفضله"(1).

وفـي المعنـى ذاته قال الحلبي: "قراءة دلّت على تمكّنه من علم البيان، واقتداره على إبراز عقائل المعاني المستكنة في خدور الخواطر مجلوّة الأعيان"(2).

ولهـذا تمكّن تلك الإجازات الطالب من رواية هذا الكتاب وإقرائه، حين تعدّ مثل هـذه الإجازات سلّماً في طريق الحصول على الإجازة العامة في ذلك العلم، ويحرص الشـيوخ الـذين يقومون بمنح هذه الإجازات على ذكرهم لشيوخهم الذين أجازوهم هذه الكـتب، وفـي هـذا تأثّر واضح بعلم الرواية في الحديث النبوي الشريف، وفيه كذلك حـرص بـيّن علـى الحفـاظ على طريقة الرواية، فجاء في إجازة ابن الورديّ قوله: "وأخبـرته أن شـيخنا قاضـي القضاة شرف الدّين البارزي الحمويّ حبْر الأمّة وعالم عالمهـا، أجازنـي عـن ناظمها، وأخبرني -على صدق لهجته وعلوّ مقداره- أنّ هذه الخلاصـة صـنّفت له وفي داره"(3)، وفي المعنى ذاته يقول الحلبي: "ورويتها له عن الشيخ الإمام مجد الدّين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن الظهير الإربلي"(4).

والقـارئ لمـثل هذا النوع من الإجازات يلحظ قصرها مقارنة بالإجازة العامّة، واقتصـارها علـى الإخبار بحفظ ذلك الطالب للكتاب المعروض، منوّهاً بخصاله التي لمحها من خلال عرضه عليه ذلك الكتاب: من نباهة، وذكاء ودربة، واتّقاد ذهن، وجَلَد وصبر، وفطنة وسلامة فطرة.

---

(1) ابن الورديّ: الديوان، ص58.
(2) الصفديّ: أعيان العصر، 377/5.
(3) ابن الورديّ: الديوان، 58-59.
(4) الصفديّ: أعيان العصر، 376/5-377.

ويأتـــي بعـد ذكر تلك الخصال إلى الإقرار بتمكّن ذلك الطالب من حفظ الكتاب والوقـوف على جزئياته وكليّاته، مشيداً بفهمه له، وسبر غور أعماقه، مستدلاً من ذلك علـى قدرته على أن يرويه عنه، وحينئذٍ يسمّي له شيخه الذي قد أجازه ذلك المصنّف حتى تبقى سلسلة السند متّصلة، تأثراً برواية الحديث الشريف، وحفاظاً على العلوم من ضياعها.

وقد كثرت هذه الإجازات إلى حدٍّ يصعب حصره، فقد يجد القارئ في قسم النثر فـي ديـوان ابن الورديّ عدداً من هذه الإجازات[1]، وهذا يدلّ على كثرة الطلبة الذين يطمحـون إلى نيل تلك الدرجات، ويقود كذلك إلى المكانة التي بلغ شأوها ابن الورديّ وأمثاله في ذلك الزّمان.

ج- الإجازة بالمرويّات:

تُعـدُّ الإجازة بالمرويّات من الإجازات المتقدّمة، حيث ينالها الطالب بعد عرض مجموعة من كتب الأُصول، فعندما يحسّ ذلك الطالب بأنّه قد قطع شوطاً في ذلك العلم يكـتب اسـتدعاءً لأحد شيوخه يطلب فيه منه الإذن برواية جميع ما ألّف أو روى من العلوم، وعلى قدر ثقة ذلك الشيخ بمستدعيه يمنحه تلك الإجازة، مصرّحاً بجميع ما ألّف وروى فـي ذلك العلم. فتكون تلك الرسالة إذناً له برواية تلك الآثار، ويعتمد الكتّاب في تلـك الرسـالة رسوماً متّبعه، حيث تقرب خطبتها من خطبة رسالة الإجازة بالتدريس والفتـيا، فالمبنى العام لهاتين الإجازتين يكاد أن يتطابق لولا غرض كلّ واحدة منهما، فتبدأ تلك الرسائل بالتحميدات الطويلة التي تمجّد هذا العلم وتحثّ على تتّبع آثاره، وتبيّن فضائله، وهذا النوع من الإجازات يفوق غيره في ناحية المجاملات، وعبارات التهويل والمـدح والثـناء، ومـن تلك الرسائل ما أجاز به الحلبيّ الإمام عزّ الدّين بن العجمي بمـرويّاته قـائلاً: "فإنّي لما خلت في غمار طلبة الأدب رغبة في اقتباسه، وطمعاً في

(1) ابن الورديّ: الديوان، 59، 60، 66، 75، 76، 138، 139، 145، 146، 148، 179، 187.

تحصـــيل بعضـــه، بإدامة التماسه، وحصّلت كثيراً من كتبه رواية ودراية، وعرفت ما أجتنب من نقائض المعاني والألفاظ التي لا تؤمن نكايتها في الأذهان السليمة بالسراية، لم أزل أستضيء بنور أئمته، وأهتدي بمنار من بلغ الغاية فيه علماء أمّته"(1).

ففـــي هـــذا الـــنّوع من الإجازات يثني الشيوخ على طلبتهم بل مستدعييهم هذه الإجـــازات ثناءً كبيراً، ويمدحونهم بِمدحٍ تصل إلى حدّ المبالغات، فيظهر الشيخ بمظهر الطالـــب، ويتضـــاءل قدره أمام مستدعيه، ولا بدّ من مغزى وراء تلك المجاملات، فقد تُســوّغ بعظم قدر أولئك طالبي الإجازات، فربما يكونون شيوخاً حائزين على إجازات عامّـــة، ودفعهـــم حـــبّ البحث والعلم والتحصيل إلى ضمّ تلك المرويّات إلى حصيلتهم العلمـــيّة، سيما وإنّ بعض المرويّات لم تكن من تأليف الشيخ بل يمكن أن يكون رواها عن غيره متتابعة السّند، فيحصل بذلك طالب الإجازة على سند جديد يقوّي معارفه.

ومهمـــا يكن، فإنّ مانح تلك الإجازة يقوّي بتلك المِدّح طالب الإجازة ليكون محطّ ثقة، وذا أهليّة تليق بما أجازه واستودعه، ولا يمنحه تلك الإجازة إلاّ بعد أن يطمئن إلى تنوّع معارفه، وسعه مداركه. ففي هذا المعنى يقول الحلبيّ في حقّ مستدعيه: "وفاوضت مـــنه إمامـــاً تقطر الفصاحة من أعطاف قلمه، وتخطر البلاغة في أفواف كلمه، وتنزل المعاني المتمنّعة من معاقل القرائح على حكمه، وتقف جياد البدائة حسرى دون التوسّط في حلبة علمه"(2).

ولقد أسهب وأخال الحلبيّ في ذكر خصال ذلك الطالب التي أظهرته بمظهر الجدّ في التحصيل والتوقّد في الذهن والصبر والجلد في نيل المعالي، فدفعه ذلك التجويد إلى إجازته بجميع مرويّاته مجيباً عن الشرط الذي تقدّم في أول الرسالة المتمثّل بقوله: "فإنّي لمّا خلت"(3)، قائلاً: "فامتثلت أمره -أعزه الله تعالى ونفع به- وأجزته رواية مـــا يجوز

(1) الصفدي: أعيان العصر، 183/3.
(2) المصدر نفسه، 183/3-184.
(3) المصدر نفسه، 183/3.

لـــي روايته من مسموعاتي ومقروءاتي واختياراتي ومناولاتي، وما لي من نظم مختلف الأوضـــاع، مستحقّ لولا ما يصوغ فيه من المدائح النبويّة أن يصاغ ولا يذاع، وإنشاء نوّعته كثرة المباشرة، وكثّرته المحافظة على الوظيفة والمثابرة، ونفّحته فوائد المطارحة والمذاكـــرة، إلى ما يندرج في سلك ذلك من تأليف حمل عليه التنقيب عن أسرار هاتين الصناعتين، واختيار، واختصار، وانتقاء، وانتقاد، وانتخاب تكلّمت على ما فيه من معنى مستملح، وأدب مستفاد"[1].

فقـــد ســـرد الحلبيّ جميع مرويّاته ومؤلّفاته في الصناعتين النثر والنظم، وأجاز مســـتدعيه روايـــتها إجازة مطلقة غير مقيّدة، فعلى ذلك المستدعي أن يتتبّع تلك الآثار ويصلح ما اعتراها من النقص، وفي ذلك إشارة إلى تواضع الحلبيّ، حيث لا يبرّئ نفسه مـــن الـــزلل والعثـــرات، فـــيفوّض له الأمر في البحث والتصويب والاستقصاء، وسدّ الثغرات، وإقالة العثرات، وظهر ذلك جليّاً من قوله: "ورغبت إليه في أن يصلح من ذلك مـــا أغفله القلم، وزلّ فيه الفكر الذي عثرته أبلغ من عثرة القدم، إذ هو المليّ بالإحسان في ذلك، الجدير بتوطئة ما تعذّر سلوكه على السالك"[2].

وتندرج هذه العبارات في ثنايا التواضع، ورفع قدر طالب الإجازة فالشيخ يظهر تواضـــعه مـــن جهة، ومن جهة أخرى يخرج نفسه من الحرج حيث إنّ في إجازة هذه المـــرويّات كشـــفاً لهـــا وحينئذٍ تخرج عن نطاقه وتوضع تحت المجهر، فإذا ما ظهر أعـــوجاجها نالـــه الحرج، فيكون بهذه العبارات قد أخرج نفسه من الملام، ووكّل بتلك الهفوات ذلك المستدعي.

ويلـــزم هـــذا الـــنّوع من الإجازات ذكر طائفة من المعلومات حول حياة الشيخ المجيـــز، تـــتمحور حول مولده، ونشأته العلميّة، وذكر أهم شيوخه الذين تتلمذ عليهم، ويختم ذلك بالتاريخ، والأمثلة كثيرة على هذا اللون من الإجازات، والمطابقة في بنائها

(1) المصدر السابق، 185/3.

(2) المصدر نفسه، 185/3-186.

تـبلغ درجة كبيرة، فمن ذلك إجازة الصفديّ إلى خطيب بيت الآلهة الشيخ شهاب الدّين أحمـد الحنبلـي، وقـد بـدأها الكاتب بالخطبة الطويلة التي غدت رسماً ملازماً لتلك الإجـازات، مثنّياً بالثناء والمدح على طالب تلك الإجازة قائلاً: "ولمّا كان الشيخ الإمام شـهاب الـدّين... ممّن نظم، فودّت الدرر في أفلاكه لو اتسقت، وكتب فرقّم الطروس ووشّـاها... وحـلّ المتـرجم فسـحر عقـل كل لبيب، وخلب لبّه... وخطب فصدع القلـوب"[1].

وكمـا أُسلف فقد بالغ الصفديّ في ثنائه، وأغدق في مدحه كما فعل شيخه الحلبيّ فـي الرسالة السابقة، وهذا ديدنهم في هذا الأمر، وظهر بمظهر التواضع الذي يبلغ حدّ الـرقّ والعـبودية، فجـاء منها في هذا السبيل قوله: "فأراد أن يشرّف قدري، ويعرّف نكري، فطلب الإجازة منّي وأنا أحقّ بالأخذ عنه، واستدعى ذلك منّي، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه"[2].

وهـذه المجاملات يؤيّدها ما ذُهب إليه في أنّ تلك الإجازات تمنح في أغلبها بعد الحصول على الإجازة العامة.

وكعـادة كـتّاب هذه الرسائل، فإنّهم يقرنون بها بعض التقاليد والرُسوم الخاصّة كالرُسوم الخاصّة بالمعلومات التي تدور حول مولده ونشأته العلميّة وشيوخه، فجاء في تلك الرسالة "وذكرت هنا شيئاً من مرويّاتي وأشياخي، وذكرت مصنّفاتي"[3].

وفـي هـذا المجـال قول ابن الورديّ مجيزاً الصفديّ، ومعتذراً عن تقصيره، ومتواضـعاً أمامه قائلاً: "ها قد أجزتك متطفّلاً عليك، وأذنت لك متوسّلاً إليك أن تروي

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 333/14.

(2) المصدر نفسه، 333/14.

(3) المصدر نفسه، 334/14.

عنّـــي ما يجوز لي روايته وإسماعه ليتّصل بك فما اتّصل بك أمن انقطاعه من منقول ومعقول، وفروع وأُصول، ونثر ونظم، وأدب وعلم وشرح وتأليف وبسط وتصنيف"[1].

وقــد بسط ابن الورديّ القول في ذكر ألوان مرويّاته ومصنّفاته، وفي هذا إشارة إلـــى مــدح الشــيخ نفســـه من خلال عرضه لمصنّفاته الكثيرة ومرويّاته العديدة، ففي سردهـــا تنويهٌ بقدره ولو من طرف خفيّ، فعرض تلك المصنّفات وتعديدها يمثّل دعاية إعلاميّة يذيع من خلالها ذكره.

وهـــناك أمــر لافت للنظر لا يجب إغفاله يتمثّل في دور الرواية، حيث تُعدُّ هذه الطـــريقة أنفس وسائل نقل العلم وحفظه، وشيوع ذكر صاحبه، فإذا ما أُجيز طالب علم بـــرواية هـــذه الآثار فإنّ في ذلك ضماناً لبقائها حيّة بين النّاس، ولذا ندرك أهمية قول ابــــن الـــورديّ "وليتّصـــل بـــك، فما اتّصل بك أمن انقطاعه"[2]، ولذا يلزم عند تلك الإجـــازات الإشهاد على ذلك، فما جاء في هذه القضية ما حكاه ابن الورديّ من شهادة علـــى إجازة قوله: "فقد أشهدني الإمام الهمام، العلاّمة، مفيد الطالبين، الشيخ تاج الدين محمـــد الواضع خطه أعلاه -أدام الله علاه- على نفسه من قراءة ابنه فلان عليه القرآن العظيم جمعاً سلم من التكسير، ومن قراءة الشاطبية... فشهدت عليه طال لقاؤه، وطاب لقاؤه، بما نسب إليه"[3].

وقـــد أوردت تلـــك الشـــهادة لبيان أهميّة علم الرواية لديهم، ففيه حفظ لمؤلّفاتهم ومـــرويّاتهم، وضمانٌ لها من الانقطاع، وقد تَقْرُب هذه الشهادة ممّا يسمّى اليوم بحقوق المؤلّـــف، فقد جاء في بيان أهميّة ذلك العلم قول الصفديّ "فإنّ علم الرواية من محاسن

---

(1) ابن الورديّ: الديوان، ص102.

(2) المصدر نفسه، ص102.

(3) المصدر نفسه، ص137-138.

الإسلام، وخصائص الفضلاء الذين تخفف لهم ذوائب الطروس... ولم تزل رغبة السلف تتوفّر عليه وتشير أنامل إرشادهم للإلهام بالحثّ إليه"[1].

والقارئ للإجازات بالمرويّات يدرك بأنّها لا تقلّ أهميّة عن الإجازات بالتدريس والفتـيا، لا بل يظهر فيها الشيخ المجيز تلميذاً أمام استدعاء طالبه الإجازة، وهذا يقود إلـى القـول إنّ هـذه الإجازات قد تمنح لبعض الشيوخ بعد حصولهم على الإجازات بالـتدريس والفتيا، وممّا يؤيّد هذا الرأي إجازة ابن الملقّن السابقة للقلقشندي حين أجازه بالـتدريس والفتيا في المذهب الشافعيّ، ثمّ قرن تلك الإجازة بإجازته رواية كل مؤلّفاته ومسموعاته قائلاً: "وأجزت له مع ذلك أن يروي عنّي ما لي من التآليف، ومنها جامـع الجوامع... وأجزت له مع ذلك ما جاء لي وعنّي روايته بشرطه عند أهله..."[2].

وقـد أخّـر القلقشـندي هـذا النوع من الإجازات عن الإجازة بعراضة الكتب لغـرض ربّمـا يُفسّر بكونها تمنح للمجازين بالإجازات العامة، فهي أشبه بالأبحاث العلمية التي يعكف على تأليفها من اضطلع في ذلك العلم، بينما الإجازة بعراضة الكتب لا تـتعدّى حفـظ ذلك الكتاب، وعلى هذا يكون صاحب إجازة العراضة لا يتعدّى كونه طالباً مقبلاً على العلم، لم يمهّد له الطريق بعد للحصول على إجازة التدريس حتى يكون محـطّ ثقـة لحمـل أمانـة حفـظ المرويّات ونقلها، وبذلك يشكّل حلقة في السّند لتلك المرويّات.

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 332/14.

(2) المصدر نفسه، 326/14.

الاستجازة:

تُعدُّ رسائل الاستجازات استدعاءات يدبجها الأدباء إلى شيوخهم طالبين من خلالها إجازتهم بمرويّاتهم ومصنّفاتهم وما إلى ذلك من علوم، مضمّنين تلك الاستدعاءات ألواناً من ضروب الإطراء والمدح والثّناء، ويقتصر هذا اللون من الرسائل على طلب الإجازة بالمرويّات - وهذا يعزّز الرأي القائل بأهمية تلك الإجازات وتجاوزها أحياناً لرسائل التدريس والفتيا- حيث يكتب الأديب الذي تمرّس في فنون العلم، وبلغ منزلة عالية من ذلك العلم رسالة إلى أحد الشيوخ يطلب فيها رواية مؤلّفاته ومسموعاته وما إلى ذلك من فنون، ومن هذا القبيل ما كتبه استدعاءً الصفديّ يطلب من خلاله إجازة مرويّات شيخه أثير الدّين أبي حيّان، حيث أسهب في مدحه وإطرائه فقال: "المسؤول من إحسان سيّدنا الإمام، العالم، العلاّمة، لسان العرب، ترجمان الأدب، جامع الفضائل، عمدة وسائل السائل، حجّة المقلّدين، زين المقلّدين، قطب المولّين، أفضل الآخرين، وارث علوم الأوّلين، صاحب اليد الطولى في كل مكان ضيّق، والتصانيف التي تأخذ بجامع القلب"[1].

فالنّاظر في هذه الألقاب يدرك بأنّ ورودها في هذا الاستدعاء ذو مغزى يرمي إليه طالب الإجازة، حيث يطمح من خلال تلك الألقاب إلى بيان قدر ذلك الشيخ، وعلوّ مكانته، ولا تخلو هذه الألقاب من التهويلات والمبالغات، فتتنوّع هذه الألقاب وتتعدّد في بداية كل استدعاء، ويحرص كتّاب تلك الرسائل على الإتيان بها ليستميلوا بها أولئك الشيوخ، فأصبحت هذه الألقاب لازمة يبدأ بها كل طلب إجازة، فمن ذلك ما بعث به الصفديّ إلى شيخه ابن سيّد النّاس قائلاً: "المسؤول من إحسان سيّدنا الشيخ، الإمام، العلاّمة، المتقن، الحافظ، رحلة المحدّثين، قبلة المتأدّبين، جامع أشتات الفضائل، حاوي محاسن الأوائل والأواخر... بديع زمانه، نادرة أوانه..."[2].

(1) الصفديّ: أعيان العصر، 5/340-341.

(2) المصدر نفسه، 5/208-209.

وهكــذا فــإنّ هــذه الاســتدعاءات حملت على عاتقها تبجيل الشُيوخ، وإغداق زخـــرف القــول عليهم، وتعديد مناقبهم الحميدة ومآثرهم السخيّة، حتّى وقف مشاهير العلماء من القدماء حسرى أمام عتبات بلاغتهم وفطنتهم. فقد جاء في استدعاء الصفديّ لشيخه أثير الدّين أبي حيّان مادحاً إيّاه قوله: "سبّاق غايات قصّر عن شأوها سحبان وائل فــارع هضبات البلاغة في اجتلابها وهي في مرقى مرقدها، سالب تيجان الفصاحة في اقتضاء اقتضابها من فرق فرقدها..."[1].

فجعل الصفديّ شيخه في مرتبة أعلى من المضروب مثلاً في الفصاحة والبلاغة، بــل شــيخه أســبق إلى فتق أكمام تلك الفصاحة، وقد مكّنته فطنته ودربته من امتلاك ناصــيتها، وفي هذا المعنى يقول في حقّ شيخه ابن سيّد النّاس "الذي إذا ترسّل نقصت عــنده ألفاظ الفاضل، وعجز عن مفاوضته ومعارضته كل مناظر ومناضل... أو استمدّ قلماً كفّ بصره عنه ابن مقلة، ووقف ابن البوّاب بخدمته يطلب من فضله فضلة"[2].

وهذا ديدن من يكتب تلك الاستدعاءات، فيظهر فيها جلّ بلاغته وبيانه، ويحرص دائمــاً على الأسلوب البديعي، إضافة للتبجيل والثّناء، ويرمي من وراء ذلك إلى أمرين اثنين إذا لم يكونا أكثر من ذلك.

فالأمــر الأول الــذي يهدف إليه طالبو الإجازات من تلك المجاملات كسب ودّ هــؤلاء الشّــيوخ واســتمالتهم، بيــنما يكمــن الأمــر الثانــي فــي إظهــار بلاغتهم وفصاحتهم،وكشــفهم عــن امتلاكهم لناصية اللغة وعلومها؛ ليفضي ذلك إلى زرع الثّقة بهم، والاعتماد عليهم في تحمّل أمر الرواية التي يطمحون إلى الحصول عليها، فإذا ما كانت عبارات المستدعي تخلب الأذهان، وتستنطق الأفهام، وتروق الأُذن لسماعها أدرك الشيخ أنّ طالب الإجازة أهلاً لها، وحريّ بها، ويُعتمد عليه في حملها، وأداء حقّها.

(1) المصدر السابق، 341/5.

(2) المصدر نفسه، 209/5.

ومــن هنا اهتمّ كاتبو الاستجازات بهاتين الناحيتين اهتماماً كبيراً، وأولوها قدراً كبيراً من العناية، حيث يترتّب على هاتين الناحيتين نجاح أو إخفاق صاحب الاستدعاء.

فالخصلة الأولى تنمّ عن لباقة طالب الاستجازة، وحُسن استهلاله، وإنزال النّاس مــنازلهم والاعتراف بفضلهم، فيجعلهم في مرتبة لا يقوى أحدٌ على بلوغها، بل ينكص عــنها مشــاهير العلمــاء والفصحاء، وفي ذلك إطراء واضح، ومبالغة ظاهرة، ولكنّ شــيوخهم لا ينكرونها عليهم، ولعلّ ذلك تقليد أدبيّ انتظم به عقد القوم، وتعارفوا على أصــوله، وعــدُّوه من باب تبجيل العلماء واحترامهم والاعتراف بفضلهم، والتنبيه على أقدارهم.

وتكشف الخصلة الثانية عن بلاغة وفصاحة المستدعي، وإظهار مقدرته الأدبيّة، وامــتلاكه لأدواتهــا، فالمستدعي يسعى إلى إظهار قدرٍ من براعته في ذلك الفنّ ليلفت انتــباه شيخه إلى تلك المهارة، وامتلاكه لصهوة البلاغة، وعندئذٍ لا يتردّد في الاعتماد عليه في استيداعه تلك الأمانة المتمثّلة في المرويّات؛ لأنّه إذا نال ثقة الشيخ أصبح حلقة أساسية في طرف تلك السلسلة من السند الذي يوليه القدماء عناية فائقة نظراً لأهميته في حفظ الآثار في تلك الأزمان.

وبالجملة فإنّ رسالة الاستدعاء تتكوّن من جزئين رئيسين، يتمثّل الجزء الأول في تبجــيل الشيخ وذكر ألقابه كما تقدّم، ثمّ يأتي الجزء الثاني الذي يظهر فيه الطلب جليّاً، ففــي هــذا الجــزء يبدأ المستدعي بالطلب الرسمي من شيخه إجازته جميع ما له من مؤلّفات ومرويّات على شتّى أنواعها، فجاء في استدعاء الصفديّ لشيخه أثير الدّين أبي حــيّان قــولــه: "إجازة كاتب هذه الأحرف ما رواه - فسح الله في مدّته - من المسانيد والمصــنّفات، والسُّنن والمجاميع الحديثية، والتصانيف الأدبيّة نظماً ونثراً إلى غير ذلك

من أصناف العلوم على اختلاف أوضاعها، وتباين أجناسها وأنواعها... بقراءة أو سماع أو مناولة أو إجازة خاصة أو عامة..."[1].

فالمستدعي يحرص في استجازته على أن يؤدّى إليه كل ما لدى شيخه من علوم، ساردًا أصنافها تارة ومجملاً أخرى، وقد جاء في استدعاء الصفديّ لشيخه ابن القوبع مجملاً مرويّاته ومؤلّفاته قائلاً: "إجازة كاتب هذه الأحرف ما له من معقول ومنظوم أو منثور، وضع أو تأليف جمع أو تصنيف"[2].

ويشفّ من هذه الاستدعاءات أمورٌ عديدة تندرج أولاً في الكشف عن نظام التعليم في زمانهم، حيث يعتمد الفرد على نفسه في تثقيفه، فالطالب يراسل شيخه ويستميحه ويستميله من أجل الحصول على هذه المرويّات، ونوال ثقته، وتتمُّ ثانياً عن مقدار اهتمامهم بسبل العلم، وتظهر كذلك موسوعيتهم في شتّى العلوم، وهذه المرويّات على تنوّعها يمكن أن تفسّر لنا سرّ انتشار الموسوعات في زمانهم.

وتكشف ثالثاً عن طرق الرواية لديهم وأنواع تلقّي العلم، وكل هذه الأمور تفيد الدارس في تتبّع طرق التعليم في الأزمنة السابقة.

ومهما يكن، فإنّ رسائل الإجازة والاستجازة تمثّل إنموذجاً خاصاً في سلّم الدرجات العلميّة، حيث نظمت تلك الرسائل درجات المتعلّمين كما هي الشهادات العلميّة في زماننا اليوم.

التقاريض:

تُعدُّ رسائل التقاريض لوناً من ألوان رسائل المديح، إلاّ أنّها تختصّ بلون خاص من المدح يتمثّل في تقريض المصنّفات والأشعار، وتقريض هذه المصنّفات أو القصائد يُعدُّ مدحاً لأصحابها، وقد أدرج هذا اللون من الرسائل في العلاقات التعليميّة لعلاقته

---

(1) المصدر السابق، 341/5.

(2) المصدر نفسه، 156/5.

المباشــرة بالنــتاجات العلمــيّة والأدبية. فقد ذاعت هذه الرسائل في العصر المملوكي، فــنادراً ما يخلو ديوان أو مصنّف في فنّ من الفنون من هذه التقاريض، حيث تُعدُّ هذه الرســائل وســائل تعزيــز لمصـــنّفي هــذه المؤلفات والقصائد، وفيها كذلك كثير من المجاملات، وقد راجت هذه الرسائل في تلك الحقبة واتّسع نطاقها، ويرجع محمود رزق ســليم رواجهــا إلى "عوامل الصّداقة بين الأدباء، ورغبتهم في اللعب البديعي، وتمرين القريحة، وحبّ المعارضة ونحو ذلك"[1].

وأدّت هذه الصّداقات إلى تبادل تلك الرسائل حتى أصبحت بينهم كحكم الواجب، فإذا ما قرّض أحدهم مصنَّف الآخر، وجب عليه تقريض مصنّف صديقه.

وقــد يعــزى رواج هذه الرسائل إلى الرغبة في رواج تلك المصنّفات بين طلبة العلــم، حيث يُعدُّ ذلك التقريض دعاية إعلاميّة من ذلك الشيخ، وتزكية لذلك المصنَّف، تماماً كما يفعله بعض الأدباء والعلماء اليوم من تقديمٍ لبعض المؤلّفات.

ومهمــا يكن، فإنّ هذه التقاريض لا تُعْدَم فائدتُها، فهي تفصح عن بلاغة الأدباء والعلمــاء، وتكشــف عــن ثرائهم الفكريّ، وسعة اطّلاعهم، وتشهد لهم باستيعاب تلك المؤلّفات، وتساعد على تبادل تلك المصنَّفات بين الأدباء.

والكتّاب في مثل هذه التقاريض يتّبعون سبيل التمجيد والتهويل، وبيان أهمية ذلك المصنَّف، ودوره في تيسير الأفهام، و"قد جرت العادة أنّه إذا صنّف في فنّ من الفنــون أو نظم شاعر قصيدة، فأجاد فيها أو نحو ذلك، أن يكتب له أهل تلك الصناعة على كتابه أو قصيدته بالتقريض والمدح، ويأتي كل منهم بما في وسعه من البلاغة في ذلك"[2].

وللدلالة على أهميّة هذه التقاريض التأكيد على خصوصيتها، حيث لا يكتب ذلك التقــريض إلاّ مــن تخصّص في موضوع ذلك الفنّ، فكتابة تلك الرسائل تعني الإجازة

(1) سليم، محمود: عصر سلاطين المماليك، 288/5.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 335/14.

بنشره وتزكيته، والوقوف على أهميته، فأهل الصناعة أدرى بما في ذلك المصنَّف، فإذا مــا دبّجــوا له تقاريض، فهذا يعني رضاهم عمّا يحويه من مضمون أو شكل، والأمر الآخر الذي يكمن في قول القلقشندي السابق الالتزام بالبلاغة فهي تدلّ على مقدار كاتب التقــريض لا على قيمة المنصَّف، فكل كاتب تقريض يأتي بما في وسعه من البلاغة لا بما يستحقّه المصنَّف، ولذا فإنّ في التقريض أمرين مهمّين أحدهما الثّناء على المصنَّف، وبــيان فائدتــه ومدح مؤلِّفه، وثانيهما بيان قدرة كاتب التقريض على الإيغال في علوم البلاغة والبيان، ومدى حصيلته الأدبيّة، ففي الأمر الأول مدح وثناء للغير، وفي الثاني مدح وافتخار بالذّات.

وكمــا أســلف فقد انتشرت هذه الرسائل بشكل كبير بين أولئك الأدباء، فمن هذه الــتقاريض مــا كتبه برهان الدّين القيراطي* (ت781هـ/1379م) على سيرة صنّفها القاضــي تقــيّ الدّين بن ناظر الجيش ليلبغا الخاصكي، حيث اعتمد فيها أُسلوب الثّناء المبالغ فيه الذي اعتاده أبناء عصره، فجاء منه "وقف المملوك على هذه الدرّة الفائقة، بل الــدرّة الناطقة، فتعجب من فصاحتها، وفتن بملاحتها، وتماديت بين يديها، وأنفقت منها عليها"(1).

فقــد بدأ القيراطي هذه الرسالة بالتمجيد والثّناء، مصوّراً نفسه أمام فصاحة تلك الســيرة ضــئيلاً، ولذا لم يستطع أن يصفها ويمنحها حقّها من المدح إلاّ بالاستعارة من فصاحتها وعلوّ بلاغتها، فاستعار من بيانها ليبيّن مدى جمالها، واستمرّ في الكشف عن مواطن الجمال قائلاً: "أطرب لفظها المسجّع، ونشر بردها فانطوى لبهجته ثوب السّماء المجــزّع، وأمر بفضلها فاضل بيسان، وأسكرت حمياها فأين خمر ميسان، وشكا صدر

* بــرهان الدّين إبراهيم بن شرف الدّين الشاعر المشهور تفقّه واشتغل وتعانى النظم ففاق فيه وله ديوان جمعه لنفسه يشتمل على نثر ونظم. انظر ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج5، ص269-270.

(1) القيراطــي، بــرهان الدّين (ت781هـ/1379م): مطلع النيرين، نسخة مخطوط، مكتبة جامعة مؤتة، رقم التزويــد 102304، ص161.

الحاسد منها حرّ تمّوز حين لقط بسمعه منها ذر نيسان، فرأى درّة بل درر، وألفاظ هي في جبهات دهم الليالي غرر..."[1].

وأخذ الكاتب في الكشف عن مكامن الجمال والعظمة في تلك السيرة، فقد أطربت الأسماع بجرس سجعها، وجمال بلاغتها، وفصاحة ألفاظها، فلم يسعْ القاضي الفاضل إلاّ الاعتـراف بفضـلها وعلـوّ شأنها، وقد فعلت بالعقول ما عجزت عنه أعرق الخمور، وأشـعلت الـنّار فـي صدر كل حاسد لمصنِّفها، وأظهر القيراطي ألواناً وضروباً من التـزويق اللفظـي والبديعي في تلك الرسالة، وأتى على تفصيل أجزائها حتى بدا هذا التقريض وكأنّه عرض لتلك السيرة، فجاء في هذا المعنى قوله: لقد تأمّلها المملوك باباً بابـاً، ووصـف العـبد عنبـراً نقلها الذي فاق ريحان العذار، فقال صواباً، ودخل إلى قصـورها من باب بعد باب، وخرج من قشور عندما عاين اللفظ لبّ اللباب، ورأى من سـحر ملكي المنظوم والمنثور ما سحرت الألباب، والتقى من لفظها الحلوّ ما هو أحلى من لقاء الأحباب"[2].

وقـد فصّل القيراطي القول في الثّناء على تلك السيرة وأثنى على مؤلّفها، وبيّن قدر من أُلِّفت له، فتحوّل من تقريضها إلى مدحه وتبجيله، وهذا يقود إلى القول بأنّ أحد الدوافع إلى تقريضها مكانة من دبّجت له تلك السيرة، فجاء في هذا المنحى قوله: "فأكرم بهـا مـن سيرة إلاّ أنّها عمريّة، وصحاح مناقب إلاّ بهذه الدرّة جوهريّة، وافت بنشرها مناقب أمير المسلمين الذي لا حتف في أحكامه ولا حيف، ونشرت محاسن سيف الدّولة المحمديّة، فأعظم به من سيف على عاتق المملوك نجاده، وفي يد جبّار السموات قائمه، سيّد ساد وشاد، ولم يشمل جفنه على مصالح المسلمين وساد"[3].

(1) المصدر السابق، ص161.

(2) المصدر نفسه، ص162.

(3) المصدر نفسه، ص162.

فعـــاد القيراطـــي يثني ويمدح أمير المؤمنين الذي صنّفت السيرة له، فأسهب في مدحه حتّى تحولّت الرسالة من تقريض لمصنّف إلى مدح أمير، ولم ينسَ القيراطي مدح مصـــنّفها، فرجع يذكر فعله المحمود ومعانيه الفريدة التي سلبت معاني غيره النّضارة، فقــد "علـم الأدبـــاء أنّ ما خصّوا به من المعاني الجليلة والدقيقة عوام، وأنّ عامة هذه المعانـــي خواص، وتحرّر الحريري عند سلوك أنّ هذه الدرة المنثورة في الحقيقة درّة الغـــواص، ووصف القاضي العبد نفسه النفيسه حين شاهدها بالحرمات، وقالت الأدباء قاطبة من أين لعبد الرحيم* محاسن عبد الرحمن؟"[1].

والقـــارئ لهـــذه الرسالة يجد فيها كثيراً من المجاملات والمبالغات التي قد تفقد مـــثـــل هذه الرسائل بعض مصداقيتها العلميّة، فالأحكام فيها عامّة، فقد جعل القيراطي معانـــي تلـــك السيرة تخجل كل ما أتى الأدباء به من معانٍ، فمعانيها أفحمت معاني من سبقوه، لا بل تخطّى ترسل الفاضل، وتجاوزه علماً أنّ الفاضل مثلهم الأعلى في الترسّل والبديع، وربما تعلّل هذه المبالغات بطبيعة العصر القائمة على التهويل الإعلامي، ولذا فـــإنّ مثل هذه المبالغات تقبل منهم، ولا يؤاخذون عليها، كيف لا والذين يأتون بها جلّ أدبائهم وعلمائهم، فلو كانت تلك التهويلات ممقوتة لديهم لَمّا أتوا بها أصلاً.

وقـــد اعـــتمد القيراطي الأسلوب المسجّع القائم على فنون البديع لإظهار قدرته وبراعته، وامتلاكه لأدوات البلاغة آنذاك.

ولصلاح الدّين الصفديّ تقريض على تخميس البردة لعلاء الدّين الغزيّ، وقد نهج فيه نهج القيراطي السالف ذكره، حيث بدأ بوصفه والإشادة به حتى جعله باهراً للعقول معيـــناً لأهـــل تلك الصناعة قائلاً: "وقفت على هذا التخميس الذي طرّز طرسه، وسقى الفضـــل غرســـه، وحلا للعين عرسه، ونوّع في البديع جنسه، ونوّل أهل الأدب أنسه،

* المقصود به عبد الرحيم البيساني القاضي الفاضل.

(1) القيراطي: مطلع النيرين، ص162.

وساق إلى طيبة بأحمال المدائح عَنْسَه"[1]. فالمديح واضح والإشادة ظاهرة، فهذا التخميس يُعدُّ إضافة حقيقيّة للأدب كما بدا من قول الصفديّ في حقّه، فقد تنوّعت أساليب بلاغته وأنبأ عن فتق أبكار الفصاحة، فأصبح مؤلِّف ذلك التخميس وحيد دهره، حيث تضاءلت أقدار الأدباء أمام قدره، واعترفوا بفضله لا بل أقرُّوا بسبقه، واعتمد الصفديّ الأسلوب البديعي القائم على التورية والتلاعب بالألفاظ لتناسب ما يطمح إليه من بديع، ففي هذا يقول: "ويرى الخيّاط أنّ البردة كانت قبل هذا التفصيل سدى، ويعترف الرّفاء أنّ إبرة قلمه قد لبستْ من المداد الصدا"[2].

فلا يخفى على النّاظر ما بين الخيّاط والبردة من علاقة، وكذلك بين الرّفاء والإبرة، فكل هذه الألفاظ أتى بها الصفديّ ليوائم بين مديحه وبديعه.

ومن خلال قراءة هذين التقريضين يتّضح للقارئ دقّة استخدام العبارات، حيث خصَّ القيراطي أعلام الترسّل بالوقوف حسرى أمام ترسّل ممدوحه، بينما خصَّ الصفديّ أعلام الشعر بهذه المزية، وهذا ما أراده القلقشندي من قوله السالف "أهل الصناعة"[3].

والتقاريض تقوم في مجملها على فكرة واحدة تتمثّل في الإشادة بالمصنّفات والقصائد، ولكنَّ هذه الفكرة تتطوّر وتتنوّع حسب ثقافة منشئ التقريض، وقدر بلاغته، فهي تؤكّد أهمية ذلك المصنَّف، وتقرّر سبقه وتفرّده، وعلوّ منزلة منشئه، وتفوّقه على أعلام ذلك الفنّ.

ويطلب الأدباء أحياناً من بعضهم كتابة تقاريض لمصنّفاتهم من أجل رواجها وشيوعها بين القرّاء، وحينئذٍ تقرب هذه التقاريض من الإجازات، ومن الأمثلة على ذلك

---

(1) الصفديّ: أعيان العصر، 376/3.

(2) المصدر نفسه، 377/3.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 335/14.

مـــا ذكـــره الصفديّ في شأن تقريض تشطير لاميّة العجم لابن فرحون، حيث جاء فيه: "فأعدتها بعدما كتبت عليها تقريضاً وهو حسبما قصده مني والتمسه"[1].

فقـــي هذه العبارة ما يؤكّد رغبة القوم في نوال تلك التقاريض من أشهر الشّيوخ؛ لـتكون إجـــازة وشهادة منهم، وتزكية لذلك المصنّف، فعندما يكتب الشيخ تقريضاً لذلك المصـــنّف فهذا يعني شهادة صريحة منه، وتزكية لهذا العمل، وهذا يسهم إلى حدٍّ كبير فـــي رواجه وسعة شهرته بين الأدباء، ويزيد إقبال القرّاء عليه، وهذا ما يطمح إليه كل أديب وعالم.

ومـــن الطـــريف ذكـــره في هذا المقام، أنّ بعض هذه الرسائل تتّخذ جانب الذّم والهجـــاء بدل المدح والثّناء، حيث يقوم الأديب بوصف تلك المصنّفات بأشنع الألفاظ، وينعـــته بخلـــوه مـــن فنون البلاغة والفصاحة، وحسن السبك، ومن أمثلة ذلك قول ابن فـــرحون علـــى المقامـــات الجزرية "يقول الفقير إلى الله تعالى... لمّا نظرت مقامات الجـــزرية، رأيـــت ألفاظها حوشيّة، وحُلّل أسجاعها غير مطرّزة ولا موشّية، ولم يسق روضها ماء البلاغة المستعذب، فما أنبتت أرضها زهر اللفظ المهذّب"[2].

فالقـــارئ لهذه الرسالة التي كتبها ابن فرحون على مقامات الجزري يشعر بمدى الهجوم الذي قام به عليها حيث وصفها بأقبح ما توصف به المصنّفات الأدبية، فالألفاظ حوشـــيّة، والأســـجاع غير متناسقة، ولا ماء في سبكها، وبلاغتها مقفرة، فقد سلبها كل جميل فيها، وطعن في كل موقع يمكن أن تمدح منه، فكانت التقاريض تركّز في مدحها علـــى فصاحة الألفاظ وبلاغة العبارات، وتشيد بالفنون البديعيّة. بينما نجد هنا يحصل الضدّ تماماً، فالألفاظ حوشيّة وأسجاعها غير متوافقة لا تشكّل جرساً موسيقياً، والبلاغة فيها تكاد تُعدم.

---

(1) الصفدي: أعيان العصر، 510/3.

(2) المصدر نفسه، 511/3.

ومن هذا القبيل كذلك ما كتبه القيراطي على اختراع الخراع للصفديّ، حيث جاء فـي تلـك الرسـالة ذمٌّ واضحٌ، وهجاءٌ قاسٍ، فقد عرّاها من الأُسلوب الرائق والمعاني العذبـة عندما قرأها عليه فخر الدّين بن مكانس قائلاً: "قرأ عليَّ هذه المقامة الصلاحيّة التـي انفردت بهذا الأسلوب، وجلبت في ملبوس غير مسلوب، وتنكّرت فيها المعارف، وطـاف عليها طائف، وتقلّبت في وجوه الطرس عيون معانيها، وتغيّرت معالم مبانيها، وصـارت أعاليها أسافل، ومعالمها مجاهل، وركبها السائر إلى أرض البلاغة في هيئة العاقـل، وقـد أفـرغها الصلاّح في قالب الفساد، وفرغها من أرواح المعاني، فإذا هي أجساد"(1).

والنّاظـر فـي هذه الفقرة يتجلّى له مدى الذمّ الذي ألحقه القيراطي بتلك المقامة، حـيث جمـع فـي ذلـك الهجاء الناحيتين الشكليّة والمضمونيّة، فالأُسلوب لم يرق له، والمعاني تنكّرت، والألفاظ أصبحت أجساداً بلا أرواح.

وعلـى كل حال، فإنّ هذه الرسائل تفصح لنا عن مدى الروح النقديّة لدى أدباء ونقّـاد ذلـك الـزمن، فالتقاريض في مجملها تبيّن لنا المعايير التي ينظر إليها النقّاد، ويـراعونها عند تقريضهم أو هجومهم على لتلك المصنّفات، ولو أنّ ملامح النقد تكون أبيّن في حالة الأهاجي وأظهر.

الألغاز:

يمكـن أن تُعـدُّ رسائل الألغاز من الترف الفكري، حيث تبادلها الكتّاب والأدباء لأغراض متعدّدة، تشمل الترفيه عن النّفس والتسلية، وامتحان القريحة، واختبار الذّات، وسـرعة الـبديهة، والقدرة على التعامل مع المجهول، فالكتّاب يطمحون من وراء تلك الألغاز إلى امتحان سلامة قرائحهم، واختبار أفكار نظرائهم.

---

(1) القيراطي: مطلع النيرين، 181.

ورســائل الألغاز تعتمد أُسلوب التعمية والإبهام، حيث يقصد الأديب إلى المعاني الباطنة في ذلك اللغز، ويترك الظاهر، ويتعمّد أن يكون ذلك الباطن مشاركاً لأمر ظاهر في شيء آخر حتى يذهب ذهن المتلقّي للغز إلى غيره.

وفــي سبيل هذه التعمية يتتبّع الكتّاب أساليب وأدوات كثيرة في اللغة تشمل علوم الــبلاغة مــن بــيانٍ ومعــانٍ وبديع، وعلوم النحو والصّرف والإملاء، فتكثر في هذه الألغــاز علوم اللغة من تشبيهات وكنايات واستعارات وخبر وإنشاء، وألوان من علوم الــبديع وضــروبٍ من المشتركات اللفظيّة، وازداد الاهتمام بالنقط والإعجام، والحذف والزيادة، والتحريف والتصحيف.

فعند قراءة أي رسالة لغز يرى المرء نفسه أمام كمٍّ هائلٍ من علوم العربيّة، وهذا ما دعا إلى ضمّ هذا اللون من الرسائل إلى رسائل العلاقات التعليميّة؛ لِمَا فيها من علوم ومعارف لا يحيط بها إلاّ من تمرّس في ميدانها، فالظاهر أن تلك الألغاز هدفها التسلية وقطــع الوقت، ولكن الباطن يقول بضدّ ذلك، لا بل يؤكّد أنها مسائل متطوّرة في علوم متشعبة، وهذا ما يقود إلى مخالفة الرأي القائل بأنّها لون من ألوان التلهية شغف النّاس بها بعامّة والمتأدبون بخاصّة"[1].

ومهمــا يكن، فإنّ الألغاز تسهم بشكل كبير في نشر المسائل العلميّة بين الأدباء خاصــة والنّاس بعامة، فلا يخلو لغز من نكتة بلاغيّة أو نحويّة أو غير ذلك، يكون لها مــردود طــيّب للأفهام. فاللغز يكشف عن صلات دقيقة بين مفردات اللغة إضافة إلى الطرافة الأدبية التي يشيعها[2].

ولرســائل الألغــاز فائدة أخرى، حيث توطّد أركان الصداقة بين الأدباء، وتديم أواصــر العلاقة بينهم، وتستفزّ قرائحهم، وتكشف عن مدى ثقافتهم، ودقّة ملحوظاتهم،

(1) انظر أمين: المجتمع المصريّ في أدب العصر المملوكيّ الأول 648هـ/784هـ، ص329.

(2) انظر سليم: عصر سلاطين المماليك، 305/5.

وسـرعة بديهـتهم، وبهـذا تكون رسائل الألغاز ذات مغازٍ متنوعة تنحصر في أمرين مهمّين: أولهما تأكيد الصّداقة بين الأدباء، وثانيهما في نشر الثقافة العلميّة فيما بينهم.

ومـن الجديـر ذكره أنّ الألغاز اتّخذت من النظم والنثر سبيلاً لها، ولكنّ السبيل الـذي يعنيـنا هنا، هو سبيل النثر، وهذا السبيل تكون فيه القضايا العلميّة أظهر وأبين، حيث الكلام المنثور يمكّن الأديب من وصف لغزه بعيداً عن ضيق الوزن والقافية، ومن تلـك الرسائل التي جاءت في هذا الغرض - وهي كثيرة - ما بعث بها القاضي ناصر الـدّين بـن الصاحب شرف الدّين إلى الصفديّ، يسأله حلَّ لغزٍ جمع في تعمية عباراته ألواناً من المعارف والعلوم، فجاء فيه "ما اسم شيء سداسي الحروف، ظرف العشرات والألـوف، لا تـنفكّ علّتاه الصوريّة والغائيّة عن عاطف ومعطوف، يمنع من القنص، ويتّخذ كاتخاذ القفص، لا يوصف جلده ببهق ولا برص، أعجميّ المسمّى، حرم دان لمن تأمله..."[1].

ففـي هذه الفقرة القصيرة من هذه الرسالة حشد الكاتب معميات كثيرة تضافرت فـي إبهـام اللغز، فمن هذه الأدوات عبارة ظرف للعشرات والألوف. ففي لفظة ظرف إبهـام حـيث تذهب بالتفكير إلى عالم النحو، ولكنّها مرتبطة بالعشرات والألوف وهي تشـير إلى عالم الأرقام، ولكن المعنى الباطن للعشرات والألوف الوحدات العسكرية في قطاعات الجيوش المملوكيّة، ومن التعميات كذلك ذكر العلل والعاطف والمعطوف وكلّها مـن مصـطلحات النحويـين. فبعد أن يشغل الذهن بهذه المصطلحات يعود إلى تعمية أخـرى، حـيث يربك الفكر بنقله إلى جوّ الصّيد والقنص، وما أن يقفز الذهن إلى ذلك العالم الطردي يكرّ به إلى عالم الأمراض، وهكذا يقفز بذهن المتلقّي من عالم إلى آخر، ومن غرض إلى غرض مغاير، حيث تتضافر هذه العوالم في إبهامه، وصعوبة معرفته.

(1) الصفدي: أعيان العصر، 5/316-317.

فقد أدخل كاتب هذا اللغز في تعميته وإبهامه معارف لغوية وعسكرية وطردية ومرضية وعروضية، ونحوية وصرفية، معتمداً أسلوب التشبيه والتورية والإبهام والغموض.

والأعجب من ذلك أنّ هذه الألغاز على صعوبة حلّها يتوصّل الأدباء إلى معرفة أسرارها، وكشف كنه تعميتها، وإزالة أبكار غموضها، ثمّ لا يقدمونها إلى أصحابها بذكر اسمها أو صفتها، ولكنهم يلزمون أنفسهم بصياغة نسيج لغز آخر يحتاج إلى إعمال فكر في حل مجهوله، وحينئذ تكون هذه الرسائل ليس الهدف منها معرفة حلّ اللغز بقدر ما هي إظهار لبراعتهم وقدرتهم في سبك وإحكام صياغة تعميات قد تفوق التعميات التي وردت في رسالة اللغز المراد حلّه.

فاللغز السابق الذي كان في لفظة حرمدان، وتعني الدّرع صاغ الصفديّ جواباً له لا يقلّ تعمية عن اللغز ذاته، مظهراً براعة وقدرة فائقة، وقد اعتمد أسلوب الرد بالمثل، حيث جعل في موازات كل تعمية تعميةً أخرى، مرتّباً ذلك ترتيباً دقيقاً فجاء منه: "فرأيتك ألغزت في ظرف حوى حسن الشكل، والظّرف، وفيه الألف والنون والتركيب لا يمنع من الصّرف... لأنّه حرم قريب لا يوجد به حائف، حرز لما يودع فيه، وهذا الوصف له من أجلّ الوظائف، ذو جلدٍ على الغربة..."[1].

ومن الملاحظ أنّ الصفديّ قد أغرب في حلّه لذلك اللغز، واستخدم أساليب كثيرة ومتنوّعة في تعميته؛ ولهذا فإنّ من يقرأ تلك الرسالة يجد نفسه في متاهات واسعة ومتداخلة من علوم وثقافة، وقد أكثر الصفديّ من أسلوب البديع، وخاصة التورية، حيث وردت أكثر من مرّة في تلك الرسالة، فمن ذلك للتدليل فقط قوله: "ذو جلدٍ على الغربة"[2]. فكلمة غربة معنيان معنى قريب، ويعني الاغتراب، ومعنى بعيد ويفيد حدّ

(1) المصدر السابق، 317/5.

(2) المصدر نفسه، 317/5.

السّـيف، وهــو المــراد هــنا، ومن ذلك قوله كذلك: "وإذا قلبته وجدت آدم، ولا يفوّه بكلمة"[1].

وبالجملــة، فلا تخلو جملة من جمل تلك الرسالة من إبهام أو غموض أو تعمية، ولا شــكّ أنّ الهدف من ذلك إظهار قدرته وتفوّقه على نظيره. ومن لغز آخر بعث به زيــن الــدّين خضــر إلى الصفديّ في قطن، حيث التزم الأساليب السابقة في التعمية، كالحــذف والــزيادة والإعراب والتورية والتشبيه فجاء منه: "إن حذفت أوله، وصحّفت ثانــيه، فهــو ظنٌّ حقيقته الآمال، أو صحّفت جملته كان وصف مؤمن يجري على هذا المــنوال، أو حــذفت أوسطه مع التحريف كان عبداً لا يعتق، أو حذفت آخره مع بقاء التحريف كان حيواناً يسرق ولا يُسرق، ويأنس وينفر..."[2].

فالواضح من خلال قراءة تلك الرسالة غزارة المعلومات والمعارف مع تنوّعها، حــيث اعــتمد على تلك المعارف في تعمية ذلك اللغز، فقد أكثر من مشتتات الذهن من خــلال ربط المتناقضات والمتباعدات في سبيكة واحدة، ومن هنا فإنّ الذهن والتفكير لا يثــبت علــى حالــة واحــدة بــل يجب القفز من موضوع إلى آخر، والعلاقة بين هذه الموضــوعات معدومــة كما تقدّم، فمن عالم اللغة إلى عالم الحيوان وهكذا. ففي اللغز الســابق كــان الكاتــب يسرد ألواناً من التعميات اللغوية الخاصة بالمبنى الصرفيّ من الحــذف والتصــحيف والتحــريف وغير ذلك من مشتقات، ثمّ قفز إلى موضوع آخر يتمــثّــل بعــالم الحيوان، حيث الحديث عن القط وصفاته، ثمّ التحوّل إلى دور العبادة وهكذا يتنقّل بين المعارف بشتّى أنواعها.

وكمــا سلف يجيب عنه الصفديّ برسالة أُخرى تزيد تعمية وإبهاماً وغموضاً في الغــرض ذاتــه، وهو التحدّي من جهة، وحبّ إظهار النّفس بالمظهر اللائق بها حيث

(1) المصدر السابق، 317/5.

(2) المصدر نفسه، 317/2.

معرفة تلك الألغاز والوقوف على معمياتها تعدّ منقبة كبيرة، وصفاء ذهن، ونفاذ بصيرة، وحدّة قريحة.

والألغاز كثيرة في هذا المجال، وقد اتّخذت هذه الرسائل مناحي الحياة مجالاً لها، حيث شملت عالم الإنسان والحيوان والنبات والجماد.

والجدير ذكره هنا والتنويه به هو الحديث عن غزارة المعلومات والمعارف التي يتّصف بها هؤلاء الأدباء، فهذه الألغاز تحوي في طيّاتها المعارف الإنسانية والحيوانية والنباتية والجماد إلى غير ذلك من معارف وعوارف، فهي تكشف لنا بصورة جليّة عن الثـراء الفكري الذي تميّز به عصرهم، وتفسّر لنا جانباً من المؤلّفات الموسوعية التي وسم بها ذلك العصر.

ومهمـا يكـن، فليس من الممكن والمعقول جعل هذه الرسائل توازي ما نشاهده اليوم على صفحات بعض وسائل الإعلام من ألغاز تكاد تعدم فائدتها من النواحي اللغوية والعلمـية والثقافية وتقصر هدفها على التسلية أو النيل من جهة رسمية معنية بالطريقة الرمزيّة.

وبالجملـة، فإنّ رسائل الألغاز تشعّبت أغراضها وتنوّعت بقصد أو دون قصد، فهي وسائل لنشر العلم والثقافة، وهي كذلك تُسهم في صقل الصّداقة بين الأدباء، إضافة إلى كونها وسيلة من وسائل تنمية الذكاء، وتوقد البصائر وامتحان القريحة إلى غير ذلك من فوائد.

وهـناك أمـرٌ لافت للنّظر في هذه الألغاز، حيث تُعدّ من أكثر الرسائل تصويراً لـبعض مظاهـر الحـياة المدنيّة في زمنهم، فمن ذلك وصف القطن في اللغز السابق ومجـالات اسـتخدامه، وكـذلك وصف الدروع في اللغز السابق عليه، والتعرّف إلى

مجـــالات استخدامه، والوقوف على قطاعاتهم العسكرية، وفي لغزّ آخر في كلمة "أمس" جاء قول عزّ الدّين الموصلي: "إن نزعت قلبه بعد قلبه فهو لعبة النرد موجود"[1].

ففي هذه العبارة كشف عن إحدى وسائل التسلية عندهم، وهي لعبة النرد، وهناك لغزّ آخر لزين الدّين المغربيّ جاء فيه وصف القطائف[2]، حيث يتجلّى لنا من خلاله أنّ عـــادة تـــناول هذا الصّنف من الطعام في رمضان لم يكن مقصوراً على زماننا بل هو أسبق في الوجود.

---

(1) الســيوطي: الأشباه والنظائر في النحو، تحقيق عبد العال سالم مكرّم، ط1، 1406هــ/1985م)، مؤسسة الرسالة – بيروت، 4/ 250.

(2) انظر الصفديّ: أعيان العصر، 2/385-386.

الفصل الثّالث

الرسائل الأدبيّة

أولاً: رسائل الوصف

تمــثّل الرسائل الأدبيّة لوناً من ألوان النثر الإبداعي وتشكّل مصدراً من مصادر الثراء الفنيّ، فمثل هذه الرسائل تعتمد اعتماداً مطلقاً على قوّة الخيال وتصرّف الذهن في التعبير، فالكاتب في مثلها يطلق العنان لفكره وقلمه، فيترك لذهنه حريّة التنقل والوصف دون قــيود تفرضها النظرة الديوانيّة أو الإخوانيّة، فهي كما يصفها الحلبيّ من الرسائل التي يحسن بسط الكلام فيها ويكون الكاتب فيها مطلق العنان، مخلّيًا بينه وبين فصاحته، موكــولاً إلــى اطّلاعه وبلاغته، ما تضمّنت الأوصاف من الخيل والجوارح والسلاح وآلات الحرب، وأنواع الرياضات من الصّيد ورمي البندق ولعب الكرة[1].

فالرســائل الأدبــيّة أكثر ما تتمحور بنيتها عليه عنصر الوصف، فهذا الغرض يشــكل المــادة الأساسيّة لتلك الرسائل، وهذا الأمر يخضع لمدى تصرّف ذهن وفطنة كاتبه، حيث يتشكّل الوصف حسب ما يرغب في تصويره ذلك الكاتب.

ولهــذا أصــبحت الرسائل الوصفيّة من أكثر الرسائل الأدبيّة شيوعاً، حيث اهتمّ الكــتّاب بهــذا اللــون مــن الرســائل، وقد استوعبت رسائل الوصف مظاهر الطبيعة الصّامتــة والصائتة. فصوّر الكتّاب مظاهر الشّتاء وفيضان الأودية والقصور والقلاع، ووفــاء النــيل وغيرها من الموضوعات الصّامتة، وكذلك أبدعوا في تصوير الطبيعة الصــائتة؛ كوصــفهم للقــادة والجيوش، وصفات الخيل وحركاتها، ولم يغفلوا وصف الكوارث الطبيعيّة، كالزلازل والأوبئة التي عصفت بالمجتمع المملوكيّ، وكوته بنارها، ولم يقف الوصف عند المظاهر السلبيّة المتمثّلة في الأوبئة والزلازل، بل صوّر الكتّاب

(1) الحلبي: حُسن التوسّل، ص343.

مظاهـر الحضـارة المخـتلفة، كأدوات السلاح والأطعمة والأشربة ومظاهر حضاريّة أخرى كانت قد عرفت في زمانهم، ممّا جعل من هذه الرسائل وثائق مهمّة في التعرُّف على حياة المجتمع في تلك الفترة.

رسائل وصف القادة والجيوش:

اتّصف عصر المماليك بالكرّ والفرّ ومجابهة أعداء الأمّة، وقد ظهرت نتيجة لذلك صورة القائد البطل وجيشه المنصور، ولذا احتلّ الجانب العسكريّ مكانة عليّة مرموقة نظـراً لحاجـتهم الماسّة لأولئك القادة الأفذاذ. فقد اتّخذ عصرهم طابع القوّة العسكريّة، والإغـارة علـى الأعـداء وصـدّ هجماتهم، ولهذا أولى المماليك الجيش عناية فائقة، وانعكسـت هذه العناية على إنتاج الأدباء والكتّاب، حيث كان الكتّاب يصفون الأحداث العسكريّة عن كثب ودراية، فصوّر الكتّاب حركات الجيوش والقادة وخذلان الأعداء في المعـارك، وقـد مكّنتهم الانتصارات على العدوّ وفتح الحصون والقلاع والبلاد وكتب البشـارات مـن وصـف حـركات العساكر والجنود والقادة في حصار تلك الممالك، واسـتماتتهم فـي سبيل صدّ الأعداء وانتزاع الممتلكات من أيديهم، حيث صوّر الكتّاب حركة القادة السلاطين حال خروجهم إلى المعارك بين يديّ قادتهم وعساكرهم، وهم لا همّ لهم إلاّ تحقيق النّصر وخذل العدو، وصوّروا كذلك قطاعات الجنود وخيولهم وقوّتهم العسـكريّة الضـاربة، كما صوّروا القلاع والحصون التي يريدون حصارها، كما أنّهم صوّروا العدو المتأهّب للانقضاض عليهم، كما صوّروا خور قواه وخذلانه.

وقـد أنشأ محي الدّين بن عبد الظاهر في وصف غزوة قام بها السلطان الظاهر لفـتح قيسـاريّة رسـالة تناول فيها وصف تحرّكات السلطان بين قادة جيشه وقطاعاته العسـكريّة، وتنقّله بين الوهاد والجبال أياماً وليالي حتى أدرك العدو، وأغرى به وألحق به شرّ هزيمة، وممّا يزيد الوصف دقّة وموضوعيّة مشاهدة الكاتب الأحداث عياناً، حيث

جـــاء في الرسالة قوله: "ولمّا كان المملوك قد انتظم في سلك الخدم والعبيد"[1]، وقد بدأ الكاتـــب الرســـالة بوصـــفه لحـــركة السلطان وجيوشه التي تسابق السّحاب، وتجاري الـــريــــاح، حـــيث لا يلـــوون على شيء، ولا همَّ لهم إلاّ الظّفر على عدوّهم "وسرنا لا يستقرّ بنا في شيء منها قرار، ولا يقتدح من غير سنابك الخيل نار، ولا نمرّ على مدينة إلاّ مرور الرّياح على الخمائل في الأصائل والإبكار، ولا نقيم إلاّ بمقدار ما يتزيّد الزّائر من الأهبة أو يتزوّد الطائر من النغبة، نسبق وفد الريح من حيث ننتحي، وتكاد مواطئ خيلنا بما تسحبه أذيال الصوافن تمتحي، تحمل همّنا الخيل العتاق، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول بنا اللحاق"[2].

وقـــد أظهـــر الكاتـــب في وصفه دقّة كبيرة حيث رسم صورة لحركات السلطان وجـــنوده وهـــم متأهّبون لقتال عدوهم، حيث جدّوا في الإسراع وملاقاته، متّخذين كل وســـائل النّصـــر والعزّة، فقد أمر السلطان جميع عساكره بادّراع لامات حربهم وحمل آلات طعنهم وضربهم[3].

وكـــل هذه المشاهد نقلها الكاتب في ثوب معلم، وإطار من التصوير، حيث تابع وصـــف تحـــركات ذلـــك القائد وعسكره، وتنقّله السريع بين المدن والقلاع متّخذاً أهبة الاســـتعداد للانقضاض على الأعداء، وقد وصف الأماكن التي مرَّ بها الجيش من جبال وأوديـــة وســـهول وهضـــاب، وقد انتهى به الوصف إلى تصوير جيش المسلمين قبل المعـــركة وجـــيش التتار، فقال: "وبات التتار على أجمل ترتيب لأنفسهم وأجمل منظر، وبات المسلمون على أتمّ تيقُّظ وأعظم حذر)"[4].

فالمسلمون متيقّظون والتتار متهاونون مغترّون بقوّتهم، وقد نفذ الكاتب إلى رسم صورة للقائد المسلم، وقد شرع في تثبيت الجيش وترتيبه وتهيئته للقتال ومطالعة العدو،

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 140/14.

(2) المصدر نفسه، 140/14.

(3) انظر المصدر نفسه، 141/14.

(4) المصدر نفسه، 144/14.

وأخــذ يوصي جنده بالصّبر والمصابرة والاجتماع عند المصادمة، وقد ظهر من عزمه ونفاذ بصيرته ما أعجز أعداءه عن مجاراته، وقد صوّر الكاتب السلطان القائد وجنوده يحفّــونه مــن كــل جانب وسط الرايات والسناجق في صورة مرعبة مفزعة للأعداء، فجــاء في تلك الصورة "ولمّا شاهدوا سناجق مولانا السلطان المنصورة ومن حولها من المماليـك الظاهريّة وعليهم الخود الصفر المقترحة، وكأنّها شعاع نيران مقتدحة، رجعوا إلــى مــا كانــوا عقـدوا مــن العزائم فحلّوا، وسُقِط في أيديهـم، ورأوا أنّهـم قــد ضلّــوا"[1].

وأخــذ الكاتب يصوّر هذا المشهد المثير للمشاعر والعواطف، فشرع يبيّن ملامح الصــورة الحقيقيّة للمعركة حيث "انصبّت الخيل إليهم من أعلى الجبل انصباب السيل، وبطلت الحيلة منهم ونُفي الحيل، فشمّروا عن السّواعد ووقفوا وقفة رجلٍ واحد"[2].

ومــا فتــئ الكاتــب يصف جوّ المعركة من الكرّ والفرّ والقتل والأسر وإزهاق الــنّفوس وتمــزيق الأشــلاء حتّى قتل من العدو من قتل وأسر من أسر وفرّ من فرّ، واســتمرّ الكاتب في تصوير عزمات السّلطان وشجاعته وهو ينقضُّ على أعدائه ويثب علــيهم "فثاب مولانا إليهم ووثب عليهم، فضحّى كل منهم بكل أشمط، وأفرى الأجساد فأفرط"[3].

وقــد رسم الكاتب صورة حيّة للسلطان المسلم، وهو يطارد أعداءه ويسرف في قــتلهم وتمــزيق أجسادهم، وقد التفت الكاتب كذلك إلى وصف عزمات القادة المعاونين للســلطان فجــاء في وصف أحدهم وهو الصّاحب زين الدّين "فكان أول مسابق وأسرع

(1) المصدر السابق، 145/14.

(2) المصدر نفسه، 145/14.

(3) المصدر نفسه، 146/14.

راشــق، وأقرب مطاعن، وأعظم معاون، ذكر من شاهده أنّه أحسن في معركته وأجمل في كرّته، وأجاد في طعنته، زأر زئير اللّيث... ووقف دريئة للرّماح"[1].

وقـد صـــوّر الكاتب الجانب الآخر وهم الأعداء المخذولون، حيث صوّر فُلولهم والمســـلمون يتّبعونها قتلاً وأسراً "وأصبح الأعداء لا تُرى إلاّ أشلاؤهم، ولا تُبصر إلاّ أعــياؤهم كأنّمــا جــزر أجســادهم جزائر يتخلّلها من الدّماء السّيل، وكأنّما رؤوسهم المجمــوعة لــدى الدهليــز المنصور أكرٌ تلعب بها صوالجة من الأيدي والأرجل من الخيل... وأقبل بعض الأحياء من الأسارى على الأموات يتعارفون، ولأخبار شجاعتهم يتواصــفون فكــم مــن قائل هذا فلان وهذا فلان وهذا كان وهذا كان يحدّث نفســه بأنّه يهزم الألوف... وكثرت الأسارى من المغل"[2].

وبعــد إنجــلاء المعركة، وتحقيق النّصر المبين، وهزيمة الأعداء، جدَّ السُّلطان وجــنوده في العودة منصورين، وقد استقبلهم النّاس بالفرح والسُّرور والغبطة والتّهاني "وأقــبل الــنّاس علــى مولانا السُّلطان يهنئونه وعلى كفّه الشّريف يقبّلونه، وبعد ذلك حضــرت القضــاة والفقهــاء والعلمــاء والصــوفيّة وذوو المــراتب من أصحــاب العمائــم..."[3].

وممّــا لا شــكّ فــيه أنّ هــذه الرسالة استوعبت وصف القادة والجُند في حالة النّصـــر، كما صوّرت الجيوش المنهزمة مع قادتها، وتمثّل هذه الرسالة طرفاً من أدب الحــرب والقتال، حيث تصوّر تصويراً حقيقيّاً حركات القادة والجيوش وملاقاة الأعداء وإيقــاع الهــزيمة بهم، فقد صوّرت المعركة وتناثر الأشلاء وتطاير الرؤوس، وتقادح الســنابك، كما رسمت لوحات لجماعات الأسرى وفُلول المنهزمين، وأجساد القتلى، ولم

---

(1) المصدر السابق، 147/14.

(2) المصدر نفسه، 148/14-149.

(3) المصدر نفسه، 155/14.

تغفـل صورة القائد المسلم الشُجاع الذي يثب على الأعداء، ويقف في مقدّمة الصُفوف يوصي جُنده بالإقدام والتثبيت والتضحيات وصدّ هجمات الأعداء والصّبر والمصابرة.

ومـن الجديـر ذكره، أنّ القادة يمثّلون عنصراً مهمّاً، وعصباً حيويّاً في تحفيز الجُـند، وتحقـيق النّصر، ولذا فإنّ الكتّاب جعلوا لهم وصفاً خاصّاً يميّزهم عن غيرهم مـن الجـند، فهم دائمو اليقظة، شديدو الأسر، مرهوبو الجانب، سديدو الرأي، خفيفو الحركة، فجاء في وصف قائد سريّة كاشفة للشّهاب محمود الحلبيّ قوله يصف حركات ذلك القائد وشدّة أسره ويقظته "وهو لا زال أخفّ من مقاصده من وطأة ضيف، وأخفى مـن مطالـبه من زورة طيف، وأسرع في تنقّله من سحابة صيف، وأروع للعدى في تطلّعه من سلّة سيف"[1].

فقـد ركّـز الحلبـيّ وصفه لذلك القائد على أُمور مستحبّة في القادة من سرعة الحـركة والتخفّـي والتمويه، والتنقّل السريع وعدم المكوث في مكان واحد يسهّل على العـدو كشـفه، وإضافة إلى ذلك جرأته على الأعداء وإرهابهم، وشجاعته في مواطن الإقـدام، وأسـهب فـي وصف ذلك القائد، حيث نعته بنعوت كلّها تجمع بين الشجاعة وسرعة الحركة والتنقّل.

وقد وصف محي الدّين بن عبد الظّاهر القائد السلطان المنصور قلاوون بعد فتح طـرابلس، وقد اشترك في المعركة بنفسه، وتقدّم جنده، وخاض الصُفوف، وأغار على الأعـداء بشـجاعة وثبات جنان يحيطون به جند ضرّستهم الحرب العوان ليس لهم همٌّ سـوى مطاردة العدو وخذله، سريعو الحركة إلى العدو، فجاء في وصف القائد وجنده قـول الكاتب: "قدّر الله تعالى أن صرف مولانا السلطان إليها العنان، وسبق جيشه إليها كل خبر وليس الخبر كالعيان، وجاءها بنفسه النفيسه والسعادة قد حرسته عيونها، وتلك المخـاوف كلها أمان... وفي خدمته جنوده لا تستبعد مفازة، وكم راحت وغدت وفـي

(1) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص331.

نفسها للأعداء حزازة، فامتطوا بخيولهم من جبال لبنان تيجاناً لها صاغتها الثُلوج... وانحطست تلك الجيوش من تلك الجنادل انحطاط الأجادل، واندفعوا في تلك الأوعار اندفاع الأوعال..."[1].

وقد وصف القاضي علاء الدّين بن غانم قائداً عسكرياً من رسالة له باليقظة والحزم والمهابة والعدل وشدّة السطوة على الأعداء فقال: "وجعله لحقيقة العلياء نفساً وعيناً، ولا أعدم منه الملك ناظراً ولا عيناً، ولا زال على الأعداء يرسل من مهابته رقيبين أذناً وعيناً... وأطلع طلعة لوائه في الخافقين حتّى تخال الشّمس عيناً وسير ركائب ذكره في الآفاق تشتكي أيناً ولا عيناً ... وأهلك كل عدو له وحاسد"[2].

وقد أنشأ الحلبيّ بعض الرسائل في وصف القادة والجيوش إبّان هزيمتهم امتحاناً للقريحة وذلك ظاهر في قوله: "ومن ذلك ممّا أنشأته إلى من هزم وجيشه يتضمّن إقامة عذره، ووصف اجتهاده، ويحثّ على محاودة عدوّه، والطلب بثأره رياضة للخاطر"[3]. فمن تلك الرسالة قال الحلبي: "والّدهر ذو دول والزّمان متلون إن دجت عليكم منه بالقهر ليلة واحدة فقد أشرفت لكم منه بالنّصر ليالٍ أُول، فالمولى لا يلتفت إلى ما فات، ويقبل بفكره على تدبير ما هو آت..."[4].

وقد وصف الحلبيّ كذلك من هُزم جيشه ذامّاً له ومقرّعاً فقال: "وأنّه حين وقعت العين على العين، وأيقن عدوه لمّا رأى من عَدده وعُدده بمعاجلة الحين، أعجل نصول العدى عن وصولها، تناديه ألسنة أسنّته الكرّة الكرّة فلا يلتفت إلى ندائها، وتشكو إليه سيوفه الظمأ... فمنع عدوّه مقاتل رجاله وأباحهم كرائم مال جنده وماله، وخلى لهم خزائن سلاحه التي أعدّها لقتالهم، فأضحت معدّة لقتاله"[5].

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 368/7.
(2) الصفديّ: أعيان العصر، 498/3-499.
(3) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص385.
(4) المصدر نفسه، ص386.
(5) المصدر نفسه، ص388.

وقــد بدت صورة القائد والجيش بصورة مهزوزة مضطّربة تنافي صورة البطل وجيشه إبّان النّصر، وعليه فإنّ القادة والجنود حظيا بمكانة مرموقة في الدولة المملوكيّة لِمَــا لهمــا مـــن الأهمية في توطيد أركان الدولة وحمايتها من إغارة الأعداء، خاصة والأعــداء يحــيطون بدولتهم من كل جانب، ويتربّصون بهم الدوائر، وقد لقيت صورة القادة والجنود من الكتّاب هوىً ورغبة في تصويرها وبيان مظاهر الإعجاب بها.

رسائل وصف القلاع والحصون:

لقــد أعمل الكتّاب في العصر المملوكيّ أفكارهم في رسم صور لكل مظهر من مظاهر الحياة، ومن بين هذه المظاهر رسموا الصور للقلاع والحصون التي تمثّل رمزاً سياســياً ومظهراً من مظاهر العزّة والتمكين، وقد كثر رسم هذه الصّور نظراً لمكانتها العســكرية، حــيث تمــثّل القلاع والحصون الملاذ الآمن للعسكريين والقادة، كما يمثّل صمودها في وجه الأعداء وشموخ بنيانها مظهراً من مظاهر العزّة والمنعة.

وقد اعتمد الكتّاب في وصف تلك القلاع على بيان مظاهر الوعورة وعلوّ المكان، وصــعوبة الوصول. فقد صوّر علاء الدّين بن غانم قلعة بقوله: "ذات أودية ومحاجر لا تــراها العُيون لبُعد مرماها إلاّ شزراً، ولا ينظر ساكنها العدد الكثير إلاّ نزراً، ولا يظنّ ناظــرها إلاّ أنّهــا طالعة بين النجوم بما لها من الأبراج، ولها من الفُرات خندق يحفّها كالبحر إلاّ أنّ ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾*، ولها وادٍ لا يقي لفحة الرمضاء، ولا حَــرَّ الهواجر، وقد توعّرت مسالكه فلا يُداس فيه على المحاجر، وتفاوت ما بين مرآه العلي وقراره العميق، ويقتحم راكبه الهول في هبوطه"(1).

والمــتأمّل لهــذه الفقــرة التي أملاها الكاتب يجدُ نفسه أمام لوحة فنيّة واضحة الخطــوط والمعــالم، متداخلة الألوان شاهدة على فنّ العمارة في ذلك الزمن، وقد أكّد

---

* سورة الفرقان، آية 53.

(1) الصفدي: أعيان العصر، 498/3.

الكاتب عناصر أساسيّة في اختيار موقع تلك القلعة، حيث تحيط بها الأودية والوهاد، فهي عصيّة على الأعداء، يحلُّ ساكنها في مأمنٍ من الخوف، إذ لا يستطيع العدوّ مداهمتها، عالية شاهقة تُباري النُّجوم والكواكب، تستند إلى نهر الفُرات فيمدّها بالحياة، وهي إلى جانب ذلك في منطقة شديدة الوعورة، ولا يستطيع العدوّ السلوك إلى مسالكها، وكلّ من يتّجه نحوها يركب في هول المخاطر والشدائد. ويحسّ القارئ من خلال قراءة هذه الرسالة مدى اهتمام المسلمين بعمارة تلك القلاع واختيار الأماكن الوعرة، ولكنّهم يختارون سُبل الحياة كذلك، ولذا فإنّها ملازمة لنهر جارٍ يزوّدها بالمياه، فكما احتاط البناءون في اختيار المواقع الوعرة حرصوا على توفير سبل الحياة، وإلاّ أصبحت الإقامة فيها ضرباً من الخيال.

ومن هذا القبيل ما جاء من رسالة لابن فضل الله العمريّ في وصف قلعة، تحدّث فيها عن مكانها ووعورتها، وعلوّ أبراجها ومنافستها للنُّجوم، فقال: "وهي أي قلعة تُقص دونها قوادم النّسر، وتعرف بضمها إلى النُّجوم أنّ جميع القلاع غيرها مبنيّة على الكسر، قد زلّت الرياح عن طرقها، ونزلت الكواكب دون أُفقها، ومتت إليها البروق بأسباب لم تقطع، وفصّل عليها ثوب السّحاب، لكنه مذ وقع دونها ما توقع، قد استعلت على قنة جبل ازداد بها رفعة منار، وأصبح بها وهو صخر علماً على رأسه نار"(1).

ولا شكّ في أنّ العمريّ أرخى لذهنه وقلمه العنان في وصف تلك القلعة، وجعل بينه وبين الفصاحة والبلاغة سبباً، مبتدئاً بالحديث عن مدى ارتفاعها، وسموّ علوّها، حتى قصّر النسر عن بلوغ قمّتها، وقد زاحمت الكواكب بشرفاتها، وقد أصبحت عصيّة على الرياح، دائمة الشُّموخ، متّشحة بثوب السّحاب لارتفاعها، وقد رسم لها صورة وهي تجثم على قمّة جبل عالٍ، فأصبحت فوق قنته كالمنارة التي نصبت.

---

(1) العمريّ: التعريف، ص359.

وقـــد استرســـل العمريّ في وصفها حتى تراءت للقارئ، وكأنّها بين يديه ماثلة، فكانـــت كلماته أشبه بالنحت أو التصوير؛ ممّا جعله يبرزها في صورة حيّة ماثلة يغلّفها إطـــار مـــن العناصـــر الطبيعيّة، ويشكّل تلوين خطوطها ضُروبٌ من الحقائق الماديّة الملموســـة، حيث الوعورة والرّياح والسّحاب والبُروق والطيور الجارحة والكواكب إلى غير ذلك من عناصر تضافرت في رسم تلك اللوحة.

ولـــــه أيضاً رسالة في وصف حصن منيع أكثر من نعته بالمنعة والشُموخ، فقد اتّخـــذ بـــناءوه كل موجبات حمايته، وضمان صموده في وجه الغارات، فجاء في ذلك الوصـــف قوله: "ودونه جبال رفيعة، وأودية منيعة، وقد بني على قنة يقع دونها النّسر الطائـــر، ويقـــنع بـــدون طيفها الخيال الزائر، قد آلت السُّحب لا تفرجت عنه فروجها، والشـــهب لا ميّزت منه بروجها، قد أذكى البرق فيه شعله، وغلقت عليه السماء أبوابها المقفلـــة، وأنكـــرت الشّـــمس فيه الأيّام، وخفيت دونه الأهلة، فما رويت إلاّ في التّمام، وتمـــنطقت أســـواره بالمنجانـــيق التي حالت العهود وحلّت العقود، وهدر في كل ناحية فنـــيقها، ونزل في كل جهة فريقها، ووراء أسواره من المقاتلة أسوار، ومن أهل النوب من جرت معهم أطوار، وما عملت في صخوره المعاول، ولا دبّت نقوبها في المفاصل، ولا نفدت منه المادة ولا انقطع عنه الواصل"[1].

وقـــد آثـــرت في وصف تلك القلاع والحصون نقل الرسالة المختصّة بالوصف كاملـــة – وهـــي قصـــيرة فـــي العادة – وذلك لأنّ فيها بياناً واضحاً لتخيّل صور هذه الحصـــون والقلاع، وقد حرص العمريّ على رسم صورة ذلك الحصن بما يقرّبها من صـــورة القلعة السابقة، فقد وقع ذلك الحصن بين أودية عميقة، وجبال شاهقة الارتفاع، وقـــد علت شرفاته حتّى قصر النسر عن التحليق فوقها، ونافست الكواكب في سموّها، واتّخـــذها البرق نوراً، وتعمّم بالسحائب، وأقعى على قنة جبل عالٍ، وجثم بين أسواره الشـــديدة المنـــيعة. وقد أنبأ العمريّ عن كيفيّة عمارته حيث لم يعمل بالمعاول بل نحت

(1) المصدر السابق، ص259-260.

نحـتاً في تلك الصخور، وكل هذه الأوصاف تزيده منعة وصموداً، والعمريّ يريد من ذلـك الوصـول إلـى المدح والإشادة بمن بنى الحصن ومن يتّخذه مسكناً حيث العزّة والشُموخ.

وقـد جـاء فـي خطبة منشور للصفديّ وصف لقلقة صفد، حيث جاء قوله: "قد طاولـت النُجوم شرفاته، وعلت على الغيوم غرفاته، وتلهبت ذبالة الشمس في سراجه، ونفـض الأصيل زعفرانه على بياض أبراجه، كم لاثت الغمائم على هامته عمائم، وكم لبست أنامل بروجه من الأهلة خواتم"[1].

فقد حرص الصفديّ – كما هو الشأن في ذلك – على إبراز محاسن ذلك الحصن، فرسم له صورة فريدة، ممّا دفعنا إلى القول بأنّه من ناطحات السّحاب التي تتبارى الأُمم وتتسابق في إنشائها.

وجـاء في وصف قلعة الرُوم عرضاً خلال رسالة بشارة بعد فتحها قول الكاتب: "ومـا زلنا نصل السرى بالسير ونرسل الأعنّة إلى نحوها، فتمدّ الجياد أعناقها إليها مدّاً يـنقطع بـين قوّتها وقوّته السّير، واستقبلنا من جبالها كل صعب المرتقى وعر المنتقى شـاهق لا يلتقـي به مسلك ولا يلتقى، فلمّا زالت العزائم الشريفة تسهّل حزونه... فما أشـرف علـيها مـنّا أشـرف سلطان جعل جبلها دكّاً، وحاصرناها حصاراً ألحقهـا بعكّـا..."[2].

وقـد أورد الكاتب أوصافاً لها من خلال حديثه عن حصارها، حيث وصف منعة القلعـة، فهـي محصّنة بالجبال التي أحاطت بها من كل جهة، ورسم لها صورة وهي محاطـة بالأسوار والأبراج العالية والحجارة الصلبة، والارتفاع الشّاهق، وما إلى ذلك من أسباب الصّمود، ومع ذلك آل أمرها للمسلمين.

---

(1) الصفديّ: أعيان العصر، 108/4.

(2) المقريزي: السلوك، 1006/1.

ونختم هذه اللوحات بأتمّها إتقاناً، فقد وصف الحلبيّ حصناً وأدقّ في وصفه فقال: "قــد تقــرّط بالنجوم وتقرطق بالغيوم وسما فرعه إلى السماء، ورسا أصله في التّخوم، تخــال الشــمس إذا علت أنّها تنتقل في أبراجه، ويظنّ من سها إلى السُّها أنّه ذبالة في ســراجه، لا يعلوه من مسمّى الطّير غير نسر الفلك* ومرزمه**، ولا يرمق متبرّجات بــروجه غيــر عين شمسه والمقل التي تطرف في أنجمه، وحوله من الجبال كل شامخ يتهــيّب عقــاب الجــوّ قطع عقابه، وتقف الرّياح حسرى إذا توقّلت في هضابه، تخاف العــيون إذا رمقته سلوك ما دونه من المحاجر، وتتخيّل الفكر صورة الترقي إليه ثمّ لا تــبلغها حتّــى تبلغ القلوب الحناجر، وحوله من الأودية خنادق لا تُعلم منها الشهور إلاّ بأنصـــافها، ولا تُعــرف فيها الأهلة إلاّ بأوصافها، وطالما شحّت الأحلام أن تُخيل فتحه لمــن ســلف في المنام، فكم ذي جيوش قد أمات بغصّته، وذي سطوات أعمل في أمره الفكر فلم يفز من نظره على البعد بفرصة"(1).

والحقــيقة أنّ الحلبيّ لم يترك فرصة للحديث عن ذلك البرج، فقد وصفه بكل ما يمكــن أن يوصــف بــه الحصن، فوصف الموقع والبناءِ والبيئة المتاخمة له، وحسرة الأعــداء أمــام أســواره. فالحلبــيّ استوعب جميع أوصاف القلاع والحصون التّي قد وصفــت في هذا الباب وأتى على أكملها صورة.

ومــن الجدير ذكره، أنّ الرسائل التّي تتحدّث عن وصف القلاع والحصون -في مجملهــا- تركّــز تركيــزاً كبيراً على اختيار الموقع، حيث يغلب عليه أن يكون شديد الوعــورة، حــيث الجــبال الشــاهقة، والأودية السحيقة، والبناء عالي الارتفاع يزاحم

---

* نســر الفلك أو النسران وهما كوكبان يقال لأحدهما النسر الطائر وللآخر النسر الواقع. التفتازاني، سعد الدين مسعود (ت791 هــ/1389م): النعم السوابغ في شرح الكلم النوابغ، حقّقه جاك الأسود، الدار العالمية للطباعة والنشر، ص130.

** المــرزم: نجــم في السماء. (لا خير في الزّمان، ما طلع المرزمان). المرزمان نجمان أحدهما في الشّعري والآخر في الذّراع. المصدر نفسه، ص102.

المــرزم: من طير الماء، طويل الرجلين والعنق، أعوج المنقار، في أطراف جناحيه سواد، أكثر أكله السّمك. الدميري، كمال الــدين محمــد بــن موسى (808هــ/1405م): حياة الحيوان الكبرى، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر، ط5، 1398هــ/1978م، 314/2.

(1) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص349.

الكواكب في علوّه، ويرتدي جلباباً من الغيوم، ويعتمد على البروق في الإنارة وتحيط به أسوار شديدة الصلابة.

ويخلص من هذه الأوصاف إلى بيان عزّة من يسكنه ويقيم فيه، وقصور الأعداء عـن بلوغ شأوه والوصول إليه، فالقلاع والحصون ترمز إلى قوة الدولة وعزّتها، وهي تمثّل الثُغور التي تصدّ الأعداء وتقف حائلاً منيعاً في وجه الغزاة والمعتدين.

رسائل وصف الخيل:

نالـت الخـيل عـناية فائقة في العصر المملوكيّ واحتلّت مكانة مرموقة، فهي الوسـيلـة الناجعة في الحرب والسِّلم، فبها يُغار على الأعداء، وعليها تحمل الرؤساء والأعـيان، وهـي مصدر الجمال ومتعة النُفوس، وأداة للصّيد، ومهما يكن فإنّ فضائل الخـيل لا يبلغ حدّها، ولذا أولاها الأعيان والرؤساء والكتّاب عناية خاصة، وقد خصّتها الكتّاب برسائل وصفيّة متفرّدة لا يشركها فيها شيء، فوقفوا على أصنافها، وأجادوا في وصـفها، فمن أهم الكتّاب الذين اهتمّوا بوصفها الشّهاب محمود الحلبيّ وابن فضل الله العمريّ. فقد أنشأ الحلبيّ رسالة في وصف الخيل يشهد بحقّها الصفديّ حيث قال: "ومن إنشـائه الـبديع، وحوكه الذي قصر عنه الحريري، وبَعُد عن البديع كتاب في وصف الخيل"[1].

وقـد ذكر القلقشندي أنواع وألوان الخيل، فذكر أنّ أصنافها ثلاثة: العراب، وهي أفضـلها وأعلاها قيمة، وأغلاها ثمناً، والعجميّات وهي البراذين، والمولّدة بين العراب والبراذين، وأمّا ألوانها فقد ذكر أنّها أربعة ألوان وما سواها مفرّع عنها: فأوّلها الأبيض، وثانيها السواد، وثالثها الحمرة، ورابعها الصّفرة[2].

---

(1) الصفديّ: أعيان العصر، 5م392.

(2) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 2/14-15.

وقد يحتاج إلى وصفها في أحوال مخصوصة ودواعٍ معروفة، فمن المواضع التي تستدعي وصف الخيل بعثها في الإنعام والهدايا، والجواب عن ذلك ووصفها في ترتيب الجـيوش والمــواكب، وذكرها في مجالات الحرب، وما يجري ذلك المجرى، وتشمل الأوصـــاف معرفة أصنافها وألوانها وشياتها*، وما يستحسن من صفاتها وغير ذلك من أُمور تخصّ الخيل[1].

وقد فصّل القول الحلبيّ في صفات تلك الخيول، حيث قسّمها حسب ألوانها، فبدأ بالأشـــهب، وذكر صفات لونه وحركته وسرعته ورشاقته، فقال فيه: "فمن أشهب غطاه الـــنهار بحلّـــته، وأوطـــأه الليل على أهلته، يتموّج أديمه ريّاً، ويتأرجح ريّاً، ويقول من اســتقبله فـــي حلى لجامه هذا الفجر قد طلع بالثريّا، إن التفّت المضائق أنساب إنسياب الأيـــم، وإن انفـــرجت المسالك مرّ مرور الغيم"[2]، وقد أسهب الحلبيّ في وصفه وأدقّ الوصـــف، حـــيث رسم لوحة فنيّة متجانسة الأبعاد والألوان، وقد وصفه وصف الخبير المعـــاين، ولا خـــلاف فـــي ذلك، فالخيل هي وسيلتهم في السّلم والحرب، وهي شغلهم الشاغل، ولذا أدقّوا في نعتها ومعرفة أُصولها، وقد وصف العمريّ كذلك الأشهب ونعته بالجمـــال والزّينة والسبق فقال في ذلك: "فمن أشهب جواد بما في يده، سابق يعدّ يومه الأبـــيض لغده، كأنّما قمصه النهار بردائه، أو سمع له البدر التمام بروائه، قد صيغ من لجين، وصين من نور البصر فيه بسواد العين"[3].

والمـــتأمّل لهـــذين الوصفين يجد الخطوط العريضة متقاربة، حيث اتّفق الكاتبان على جمال الهيئة وسرعة العدو، ومع أنّ الصورة قد اختلفت في بعض جزئياتها إلاّ أنّ الإطار ظلّ واحداً في اللوحتين.

---

* شـــيات مفردها شيَة وهي كل لون يخالف معظم لون الفرس، الإسكافي، أبو عبد الله محمد (ت421هـ/1030م): كتاب مبادئ اللغة، حقّقه يحيى عبابنة وعبد القادر الخليل، ط1، 1997، وزارة الثقافة – عمّان – الأردن، ص219.

(1) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 2/13-14.

(2) الحلبيّ: حُسن التوسّل: ص344.

(3) العمريّ: التعريف، ص327.

وقـد غلب على اللوحة عناصر الإضاءة والبياض حيث الحصان الأشهب يغلب علـيه اللون الأبيض، ولذا نجد اللوحة الفنيّة المرسومة له تتموّج بالألوان الزاهية، فمن الـنهار والـبدر والفجـر والثريا، وأشعة يومه الأبيض، واللجين، ونور البصر، وهذه العناصـر شـكّلت صورة مشرقة الألوان، وهذا لون ذلك الحصان، فالكاتبان اتفقا على الخطوط المميّزة لتلك الفصيلة من الخيل ولكن الصورة الجزئية المكوّنة للوحة متفاوتة عندهما.

وقـد استرسـل الحلبي في وصف اللون الآخر، وهو الأدهم حيث اللون الأسود غالب عليه، فكانت عناصر صورته مجلوبة من الظلام فقال في حقّه: "ومن أدهم حالك الأديـم حالـي الشكيم... قد ألبسه الليل برده، وأطلع من عينيه سعده يظن من نظر إلى سواد طرّته وبياض حجوله وغرّته أنّه توهّم النهار نهراً... يقبل كالليل"[1].

وكمـا تضـافرت عناصر الصورة في اللوحة الأولى حدث الأمر ذاته في لوحة الأدهم حيث تشابهت العناصر المكوّنة للصورة وغلب عليها اللون الأسود، حيث ظلمة الليل البهيم ساهمت في إخراج الصورة.

وقـد تكـرّرت الصـورة عند الكاتبين في وصفهما للكميت والأشقر والأخضر والأبلـق والأصـفر الحبشي، وقد أدقّا في رسم ملامح تلك الصور وإبراز هذه الألوان والحركات.

وقـد ركزا في رسمهما لهذه اللوحات على أمرين اثنين، يتجلى الأمر الأول في صـفة اللـون، حـيث حشدا في وصفهما كل عناصر الطبيعة التي تقرّب الصورة من الواقع، فاعتمدا على عناصر البيئة في إبراز تلك الصفات. ففي لوحة الأشقر مثلاً، نجد البرق والأصيل والرّاح، والهلال والقبس والشمس، وكل هذه العناصر تشعُ نوراً، وتشي بصفاء اللون، بينما نجد في لوحة الكميت سواد الليل وهكذا.

---

(1) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص344.

والأمــر الآخــر الذي حرص الكتّاب على وصفه في الخيل الرشاقة والسرعة، فــنجدهم يختارون لها عناصر أيضاً من البيئة، فهم يشبهونها بالبرق، وشعاع الشمس، والأيم ومرور الغيم، ويسابق ظلّه، ويزل الغلام الخف عن صهواته وهلمّ جرّا.

ومــن الجديــر ذكره، أنّ لكل لون من هذه الخيل صفات في الرشاقة والسرعة تختلف عن غيرها، وقد أجمل العمريّ القول في الخيل، واستخلص صفاتها المستحسنة فقال: "اعلم أنّ صفات الخيل المستحسنة كثيرة امتلأت بها الكتب، وكثرت بها المعرفة، حتــى بقيت لا تكاد تجهل، وجماعها في الفرس أن يكون في عظم خلقه كالبنيان، وفي سرعة انعطافه مثل العنان، وفي اشتداد جريه مثل الطيران، ويكون رقيق لحم الخدين، واســع الشــدقين، جاحظ العينين، حديد الحدقتين، مولل الأذنين، عريض الجنبين، ناتئ الصــدر، قصــير الوطــيف*، طويل النسا**، قصير المطا***، واسع الخطا، عريض الكفــل****، ســائل الذيل، قصير عجم الذنب، صلب الحافر مقبقبه كأنّه قعب الحالب، لــيّــن الجلــدة، ناعم البشرة، كأنّ دهناً سكب عليه، أزينها الأشهب، وأجراها الكميت، وأســبقها الشــقر، وأحــدّها نفوســاً الدهم، وما سلم فيها من الوضح كان أشدّ، والغرة والحجول من الوضح، وهي نوعان: عراب وهماليج وهي الأكاديش"(1).

وقــد اجتــزأت هذا النصّ على طوله؛ لأنّ فيه مجمل صفات الخيل المستحسنة، حــيث بين بعض صفاتها فمنها ما تميّز بالسرعة ومنها ما تميّز بالعدو والحركة، ومنها ما هو شديد الصبر، ومنها حادّ النفس عسر المزاج، ومنها ما تروق النفس لرؤيته، ففي كل صنف منها مجموعة من الصفات تميّزه عن غيره.

---

* الوطيف: الوطف كثرة شعر الحاجبين والعينين والأشعار مع استرخاء وطول؛ ابن منظور: لسان العرب، وطف.

** النسا: عرق من الورك إلى الكعب؛ لسان العرب، نسا.

*** المطا: حبل المتن من عصب أو عقب أو لحم والجمع أمطاء؛ لسان العرب، مطا.

**** الكَفَل: ردف العجُز؛ لسان العرب، كفل.

(1) العمريّ: التعريف، ص326-327.

فقــد رســم الكــتّاب لوحات لهذه الأصناف في رسائلهم تكاد تنطق بصفات تلك الخــيول، فعناصــر اللون والحركة والصوت نابضة حيّة، ولم يقف الكتّاب عند وصف مظاهــر الخــيل المادية الجسدية الملموسة من اللون والحركة، بل تعدّى الوصف إلى صــفات معــنوية نفسية. فقد وصفوا صبرها وحدّتها وشدّتها، حتى أشبهت في أخلاقها البشــر، وكل هذا الأمر ناتج عن طول تجربة وحسن عشرة، وطول مراس، فأصبحت الخــيل فــي حياتهم هاجساً حقيقياً، وصديقاً وفيّاً، فعاملوها كما يعامل البشر، من حيث العناية والرعاية والاهتمام.

وممّــا لا شــكّ فــيه أنّ الخيل مصدر من مصادر العزّة والمنعة، ومعين للخير والغلــبة، فهــي أداتهــم في الغارة على الأعداء والنيل منهم، وهي وسيلتهم في الصّيد والترويح عن النّفس، وجلب المسرّات، وهي واسطتهم في الحلّ والترحال، وهي مبعث جمــال وزينة وطمأنينة للنّفس وراحة، ولذا لا نشكّ في اعتناء القوم بها، واختيار أجمل الصفات لها، ورصد كل فريدة في وصفها، والحرص على انتقاء أعرقها وآصلها.

ولهــذا انــتخب الكــتاب أوصــافها، وأدقّوا فيها وأكثروا القول عنها، وأوجدوا الفــروق المميّزة لها عن بعضها، فأخرجوا لوحات فنيّة، وصوراً حيّة تعجز عن رصد تفاصيلها لوحات الفنانين والرسامين.

ومهمــا يكــن، فــإنّ رصد صفات الخيل في رسائل مستقلّة خاصة ليشكّل دلالة قاطعــة علــى مبلغ اهتمام القوم بها، وولعهم باقتنائها، وإدراكهم لما في الخيل من خيرٍ وعزّة ومنعة.

ولم يتوقّف وصف الخيل على تلك الرسائل، بل وصفت في كل موضع جاء فيه ذكرها، فوصفت في رسائل الإنعام بها والهدايا، كما وصفت في رسائل الصّيد والطرد، وقد وصفت في مواطن الحرب وصدّ الأعداء، وفي الكرّ والفرّ، ووصفت في المواكب وركــوب المــيدان والاحتفالات، وعلى هذا فإنّ الخيل تشكّل عنصراً مهمّاً من عناصر

الحياة اليوميّة في ذلك العصر، ولهذا احتلّت الخيل مكانة عزيزة في نفوس النّاس، ونتيجة لذلك تباروا في وصفها كما تباروا في اقتنائها.

رسائل وصف مظاهر الحضارة:

تعمّد الكتّاب في العصر المملوكي تصوير كل أمر في حياتهم تصويراً حيّاً، فلم يتركوا شيئاً ذا بال دون وصفه والوقوف على كنهه، فقد وصفوا الأدوات والأطعمة والأشربة والألبسة والبريد، وأدوات السّلاح وغيرها من مظاهر حضارية. وعند الحديث عن وصف تلك المظاهر يتّسع المقام ولا تحصى أطرافه، وحينئذ نجد أنفسنا مضطرّين إلى الوقوف على الأمور النادرة والجديدة والمبتكرة، ولذلك لا بدّ من دراسة رسالة رصف الفريد في وصف البريد، حيث تعدّ الرسالة الأولى في البريد في الأدب العربي، فقد جاءت الرسالة لتقف على تفاصيل تلك الخدمة في ذلك الزمان، وتعود أهميّة الرسالة كما يقول سمير الدروبي: "إلى طرافة موضوعها الذي لم يحم حوله سابق، وبما كشفت عنه من مدى عناية المسلمين بنظام البريد، وإدراكهم لأهمية الإسراع في وصول الأخبار إلى عاصمة الدولة، وما اشتملت عليه من موازنة بين البريد الجوي (الحمام الرسائلي)، والبريد البري (الخيول والإبل والسعاة)، وإشادة برجال البريد الذين يتحملون مشاق السفر ومصاعبه ومخاطره في مختلف الأحوال والظروف"[1].

وفي الحقيقة أنّ موضوع تلك الرسالة جديد لم يسبق إليه، وقد أشار سمير الدروبي إلى ذلك بقوله: "وبناءً على ما تقدّم، فإنّ كاتب هذه السطور لم يقف – بعد طول البحث والتفتيش – على مصنّف أو رسالة مفردة كتبت في موضوع البريد عند العرب سوى هذه الرسالة التي تُقدّم محقّقة لأول مرّة"[2].

---

(1) الشيباني، أحمد بن أبي الفتح (708هـ/1302م): رسالة رصف الفريد في وصف البريد، دراسة وتحقيق سمير الدروبي، ط1، 2002م، مؤسسة الرسالة، عمان، ص38.

(2) المصدر نفسه، ص38.

وكما أسلف محقّق هذه الرسالة فإنّها تولي الاهتمام بالبريد أيما اهتمام، حيث بيّنت مدى أهميته في جلب الأخبار والإسراع بها فجاء في ذلك قول الشيباني: "فإنّه لمّا كانت النُفوس مولعة بحبّ العاجل، متطلّعة إلى الاطلاع على المستقبل من الأمور والآجل، لم تزل أنفس الخلفاء والملوك وأنفس الأكابر والعظماء به كلفة صبة، وإلى استعلام أحوال ممالكها وعساكرها ورعاياها منصبة"[1].

والمتأمّل لهذه الفقرة من الرسالة يجد الحاجة الماسّة لإنشاء البريد والاهتمام بأمره، حيث تزيد الحاجة إليه في معرفة أُمور الممالك والعساكر والرعايا إبّان السّلم والحرب.

وقد أخذ الشيباني يصف رجال البريد وخيولهم، وقد أدقّ في وصفهم قائلاً: "من كل فتى قد هجر الكرى وأشبه البدر فلا يملّ من طول السرى، قد أعدّ للسفر في ليله ونهاره من الخيل كل أشقر صباح، وأشهب مساء، وأصفر أصيل وأدهم ليل"[2].

وقد أسهب الشيباني في وصف البريد، وأكثر من ذكر فوائده وصوره في عهد الأنبياء، حيث أورد قصّة سليمان –عليه السلام– مع بلقيس، وتعجيل موسى –عليه السلام– لميقات ربه، مردفاً ذلك بفضل السبق والرهان وفضيلة الرمل والإسراع في الحجّ والعمرة، فقد أولع في ذكر فضيلة الإسراع، فذكر فضل الكواكب والجواري، وفضيلة السير والانتقال على القعود، وحشد كثيراً من الأمثلة المعبّرة عن فضيلة السير والتنقّل في كل الأُمور في الطبيعة والنفس البشرية.

وقد عقد الشيباني وصفاً دقيقاً للبريد الجوي، حيث الحمام الرسائلي كما أشار إليه محقّق الرسالة، فقد وصف سرعته وحركته، وما يعترض له من أخطار أثناء الطيران، فقال في ذلك: "ولذلك درّجت الملوك الحمام، ورتّبت البريد... فبلغت هذه بسرعة إيصال

(1) المصدر السابق، ص49.

(2) المصدر نفسه، ص50.

الـبطائق ما لم يكن أحد من البشر بطائق، وارتفعت محلّقة في الهواء، وحلّقت مسخرة في جوّ السماء، وما خفقت بأجنحتها إلاّ وقد وافت بالبشرى مخلّقة وما أخفقت..."[1].

وقـد وجـد الشـيباني في وصف حمام البطائق هوىً في نفسه فأوغل في بيان فضـائله وسرعة نقله للرسائل، وقد فصّل القول في كيفية نقل تلك الرسائل من حمامة إلـى أخرى في الأبراج المخصّصة لها فقال: "إلاّ أنّ بطائقها ربما نقلت من جناح إلى جناح، وحصل بنقلها أعظم خطر وأوفر جُناح، وكشف خدرها وأذيع سرّها"[2].

وقـد كشـف عن بعض عيوب هذه الوسيلة، حيث كثيرٌ ما تتعرّض إلى الصّيد والطـيور والجوارح، فتضيع تلك الرسائل ويكشف سرّها "وتلك ربما جرحها الجوارح وعـرض لهـا بالبنادق من اعترض، وصدّها عن بلوغ المرام غموض الغمام، وعموم الظـلام، وقطـع طـريقها، وحتم تعويقها، وقضى وحكم عليها بالتأخير لأنّها فيهما لا تطير"[3].

وقـد عقد الشيباني هنا مقارنة بين هذه الوسيلة والبريد البرّي، المتّخذ الأشخاص المحمولـين علـى صـهوات الخيل وسيلة فقال في حقّهم: "ويغدو كالخيال يمشي إلى الوراء، ويعدو فلا يسأل عن السليك ولا عن الشنفرى"[4]، وجاء في وصفه كذلك "وكاد لشدّة إحضاره يسبق أذني جواده في مضماره، فتراه لسرعة سيره لا يرتدّ طرفه عن أمد حتـى يتعدّاه إلى غيره... فيبلّغ غاية الأقطار، ويخترق من الآفاق حجب الأستار، حتى يقال: إنّه ما سار، ولكنّه طار وفي الأرض طار"[5].

ومهمـا يكن، فإنّ الشيباني قد أتى على أوصاف دقيقة وجليلة للبريد ووسائله في زمانـه، وأنعـم النّظـر فـي دقائق أُموره، فوصف الحرص البالغ الذي أكّده الخلفاء

---

(1) المصدر السابق، ص60.
(2) المصدر نفسه، ص61.
(3) المصدر نفسه، ص62.
(4) المصدر نفسه، ص66.
(5) المصدر نفسه، ص68.

والســـلاطين فـــي الحفاظ على أسرار نوابهم ورعاياهم، وبيّن أهميّة البريد في الاطلاع علـــى أخبار الرعية والممالك، وأسهب في ذكر فضيلة الإسراع، فحشد الأدلّة من الحياة في شتّى أنواعها، فجعل مسرح تلك الأدلّة الرسائل السماوية، والظواهر الكونيّة من فلك ونواميس كونيّة وطبائع بشريّة وحيوانيّة، وغير ذلك من أمور.

وقـــد حـــرص علـــى وصـــف البريد الجوي المتمثّل في الحمام، وبيّن محاسنه ومساويه، وأردف ذلك ببيان أهمية البريد البري المتمثّل في الأفراد الذين تحملهم الخيول الأصيلة.

وبالجملـــة فإنّ هذه الرسالة تمثّل مظهراً حضارياً غاية في الجدة والابتكار، وقد أشار سابقاً إلى ذلك محقّق تلك الرسالة.

ومـــن مظاهر الحضارة في ذلك الزّمان عدّة الحرب، ومن أشهرها السيف الذي بـــه يبتر العدو. فقد وصف الحلبيّ سيفاً قائلاً: "وقلّدته مهابتنا سيفاً تلمح مخايل النّصر مـــن غمده، وتشرق جواهر الفتح في فرنده، وإذا سابق الأجل إلى قنص النفوس عرف الأجـــل قـــدره عند حدّه، ومتى حرّكه على ملك من ملوك العِدى وهت عزائمه، وعجز جـــناح جيشه أن تنهض به قوادمه، وعلم أنّه سيفنا الذي على عاتق الملك الأغرّ نجاده، وفي يد جبّار السماوات قائمه"[1]. كما وصف العمريّ أيضاً سيفاً قائلاً: "وسل سيفاً سال المنون في لعابه، وسار الموت في إهابه، وتناوم غراره ملء جفونه فما هجع"[2].

وقد وصف العمريّ كثيراً من أدوات الحضارة كالرمح والسكّين والقوس والسهام والبندق والجلاهق وغيرها من أدوات قتال وصيد[3].

(1) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص347.

(2) العمريّ: التعريف، ص296.

(3) انظر المصدر نفسه، ص296 – وما بعدها.

والحقيقة أنّ الوصف في الأدوات انحصر مجمله في صفات القطع والبتر وسبق الأجل إلى نفوس الأعداء، وهذا الوصف مبطّن بالمدح حيث لا يحمل هذه الأدوات إلاّ الشجعان من الرّجال، ولهذا أسهب العمريّ في وصفها، وركّز على فعلها في الأعداء.

وقد بالغ العمريّ في وصف سيف فقال: "لا يمنع دونه زرد موضون، ولا بيض مكنون، قد توقد شعلاً، وسفل الفرند في تياره وعلا، وكاد لولا السل يأكل غمده، ويقطع حتى بنده، قد تردّى حامله منه بابن صاعقة، وأرى الآجال من كل بارقة، قد قذف في اللج سعيره، وقبل في إبلاغ الآجال سفيره، وكأنّ على متنه سلخ أيم..."[1].

والقارئ لتلك الرسالة يجد العمريّ يتصيّد كل صفة فريدة ونادرة؛ ليصقل بها ذلك السيف، ويعود ذلك إلى الأهميّة التي توكل إليه حيث يمثّل العدّة والعتاد في وجه كل معتدٍ، فضلاً عن كونه سلاح المرء في سلمه وحربه.

وقد وصف شافع بن علي شمعة، وهي تمثّل مظهراً من مظاهر الحضارة حيث تمثّل في زمنهم مصدر الإنارة والضوء، فجاء في وصفها قوله: "شمعة ما استتم نبتها بروضة الأنس حتى نوّر، ولا في يد وجه المفاكهة حتى أثمر، أوما تبلجها إلى طرق الهداية وأشار، ودلّ على نهج التبصّر وكيف لا وهي علم في رأسه نار؟ كأنّما هي قلم امتدّ بما أليق من ذهب أو صعدة إلاّ أنّ أسنانها من لهب، وحسبها كرماً أنّها جادت بنفسها، وأعلنت بإمتاعها على همود حسّها..."[2].

والمتأمّل لهذه الرسالة يجدها تفيض بالوصف الدقيق والحسّ المرهف والمشاعر النبيلة، حيث وصف تلك الشمعة بالوفاء والبذل والتضحية، فقد ضحّت بنفسها من أجل إنارة الطريق وهداية الآخرين، وقد أكثر الكاتب من أوصافها، وتنمّ تلك النعوت الدقيقة عن تجربة حقيقيّة، فما الشمعة إلاّ رمز أراد الكاتب أن يحمّل الشمعة أوصافه، فكل

---

(1) المصدر السابق، ص295.

(2) الصفدي: أعيان العصر، 510/2.

الصّـفات التـي وردت في حقّ تلك الشمعة تصلح لأن تكون صفاتٍ وخصالاً لشخص ضحّى من أجل الآخرين وأزهق نفسه ليهنأ بالسعادة أتباعه.

ومهما يكن، فإنّ الكاتب أدقّ في وصفها وأجاد في رسم لوحتها وهي تذوي حيث جعل المتلقّي أمام شمعة حقيقية تذبل وتضمحل شيئاً فشيئاً، وسط ظلام دامس تنيره تلك الشمعة، وتجود بجسمها من أجل تبديده.

وقد جاء في وصف الألبسة بعض الرسائل الوصفيّة التي اتّخذت غرض الوصف عنواناً لها، فمن ذلك ما جاء في وصف ثوب أزرق مربّع أدقّ الصفديّ في وصفه، فقد وصف لونه وعرضه وطوله وخيوط نسيجه وكيفية تلاحم خيوطه فقال: "يا له من مربّع يود المملوك لو وصفه بألف مخمّس، وذي لون أزرق يحسن أن يكون سماء تتبرّج فيها ﴿الجَوَّارِ الكُنَّس﴾*، ما أحسن لونه الأزرق لأنّ البدر أهداه، وما أحكم نسجه فإنّ صانعه أتقـن مـا ألحمـه فـيه وسداه"(1)، فلا شكّ أنّ صناعة الثياب هي من أولويات مظاهر الحضـارة لديهم، وهذه الرسالة تكشف عن مدى اهتمامهم بنسج الثياب وتلوينها وتداخل أصباغها.

ومـن هـذا القبيل ما جاء في وصف نعل في حكاية إسكافي، حيث جاء في تلك الرسـالة قول الكاتب: "وأسألك أيها المولى أن تتحفني بساموزة أنعم من الموزة، أقوى مـن الصوّان وأطول عمراً من الزّمان، خالية البواشي، مطبقة الحواشي، لا يتغيّر عليّ وشـيها، ولا يروعني مشيها، لا تنقلب إن وطئت بها جروفاً، ولا تنفلت إن طحت بها مكاناً مخسوفاً، لا تلتوق من أجلي، ولا يؤلمها ثقلي، ولا تمترق من رجلي... أخفّ من ريـش الطيـر، شديدة البأس على السّير، طويلة الكعاب، عالية الأجناب... جلدها من خالص جلود المعز..."(2).

---

* سورة التكوير، آية 16.

(1) الصفدي: أعيان العصر، 426/5.

(2) المصدر نفسه، 516/2.

والنّاظـر فـي تلك الرسالة يقف على خصائص ذلك النعل الذي يعزّ وجوده في كثيرٍ من العصور، حيث أغدق الكاتب في وصفه وبالغ، ولكنّ الوصف يقود إلى معرفة صناعة تلك الأسموزة. فقد عرفت مواصفات صناعتها، ومن أي جلد كانت تصنع، ولا شـكّ أنّ فـي هذا الوصف مظهراً من مظاهر صناعة النعل في زمانهم، ولو أنّ ذلك الوصف جاء بألفاظ ومصطلحات غريبة.

وكما وصفت الملابس، وصفت الأطعمة والأشربة، فمن رسالة هدية جاء وصف قصـب السكّر والقلقاس* والمحمضات "فمن قلقاس يقصّر ابن قلاقس عن نعته... كـل رأس منه يعود في طبخه كالمخّ، وتمشي النفس إليه وهو في رقعة الخوان مشي الرُّخ، رؤوسـه كرؤوس العدا المحزوزة غلفتها الدّماء والهضاب، وأصابعه كأصابع العذارى إذا انغمست في الخضاب"[1].

وجـاء في وصف قصب السكّر من الرسالة ذاتها: "ومن قصب سكر كل عود له لدونة غضن البان، وصفرة استعارها من العاشق إذا صدّ عنه الحبيب أو بان، وحلاوة ذوق لولاها لما شبهه إلاّ بالمرّان، ومائية كريق الحبيب الذي ردّ الرّدى، وصدّ الصّدى عن القلب الحرّان..."[2].

وممّا جاء في وصف المحمضات "ومن أترج أصفر، وكبّاد أحمر، هذا لونه لون الوجل، وهذا له حمرة الخدّ الخجل..."[3].

* القلقـاس: نـبات ليس له زهر ولا ثمر، وله أصل مستدير، ينبت بالقرب من المياه الراكدة والمستنقعات، يقطّع ويطبخ مع اللحم وهـو بمصـر كثيـر. انظر الشيزري: الفلاحة، مخطوط، جامعة مؤتة، رقم التزويد 110088، ص45؛ انظر ابن العوام، أبا زكـريا الإشبيلي (580هـ/1180م): كتاب الفلاحة، 212/2؛ وجاء في معجم النبات والزراعة: هو أصل نبات يؤكل مطبوخاً ويتداوى به، انظر آل ياسين، الشيخ محمد حسن: معجم النبات والزراعة، ط2، 2000، دار ومكتبة الهلال – بيروت، 406/1

(1) الصفدي: أعيان العصر، 424/5.

(2) المصدر نفسه، 424/5.

(3) المصدر نفسه، 424/5.

ومهما يكن فإنّ رسائل الوصف طالت مظاهر الحضارة جميعها في ذلك العصر، خاصة وإنّ الوصف لا تخلو منه رسالة أبداً.

رسائل وفاء النّيل (النيليات):

هي رسائل تتناول وصف النّيل من حيث وفاؤه، وكسر خلجانه، وذكر الاحتفالات السنويّة التي تعقد لهذه المناسبة، والحديث عن السلطان وتهنئته بهذه المناسبة، وما يخصّ ذلك الجانب من الأفراح والشّكر والدُّعاء.

ورسالة وفاء النّيل تتحدّث عن الجوّ العام المفعم بالفرح والسُّرور الذي أحدثه وفاء النّيل، حيث تعمّ البشارة الخاصة والعامة، وقد ذكر القلقشندي أنّ هذه الرسائل قد خصّت بها مصر دون غيرها من البقاع، فقال: "وهذه المكاتبة من خصائص الديار المصرية لا يشاركها فيها غيرها من الممالك، ولم يزل القائمون بالأمر بالدّيار المصريّة من قديم وهلمّ جرّا يكتبون بالبشارة بذلك إلى ولاة الأعمال اهتماماً بشأن النّيل، وإظهاراً للسُّرور بوفائه"(1).

وقد أسهب القلقشندي في الحديث عن الآثار المترتّبة على وفائه من انتظام الحكم والمملكة، وازدهار العمارة، وقوام الممالك، وقد تابعه في هذا الأمر السيوطي، حيث بيّن مراسم ذلك الاحتفال مشيراً إلى خصوصيته في مصر قائلاً: "وجرت العادة كل سنة إذا وفى النيل أن يُرسل السلطان بشيراً بذلك إلى البلاد لتطمئن قلوب العباد، وهذه عادة قديمة، ولم يزل كتّاب الإنشاء ينشئون في ذلك الرسائل البليغة"(2).

ونظراً لأهميّة النّيل ومدى أثر وفائه، وما يترتّب عليه من خير ألّفه المصريّون حتى أصبح أمر وفائه يثير في نفوسهم البهجة والسُّرور، وانشراح الصُّدور، ولذا تُقام الاحتفالات في كل عام في ذلك البلد، وقد أشار إلى هذه الظاهرة سعيد عاشور، فقد

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 328/8.

(2) السيوطي: حُسن المحاضرة، 366/2.

ذكـــر أنّ هناك احتفالاً يُقام كل عام، ويحرص المصريّون على إحيائه بجميع طوائفهم مـنذ فجـر التاريخ حتى يومنا هذا، وهذا الاحتفال يتمثّل بوفاء النّيل، وذكر أنّ العادة اقتضـت فـي الدولـة المملوكـيّة أن يكسر الخليج ابن السلطان بعد اليوم التالي لوفاء النّيل[1].

وهذا التقليد يثير بعض التساؤلات حيث لا بُدَّ من تفسير سياسي لقيام ابن السلطان دون السـلطان أو نائب المنطقة مثلاً، ولعلّ في ذلك تهيئة له باستلام الأمور بعد أبيه، ولذا يحرص والده على أن يتعرّف الابن إلى النّاس ويخالطهم.

وقـد تنافس الكتّاب في إنشاء مثل هذه الرسائل، فقد اهتمّ نفرٌ منهم بوصف هذه الاحـتفالات، ومـدى سـرور الـنّاس ومبلغ شكرهم وثنائهم، وقد رسموا صوراً حيّة لمشـاهـد كسـر الخلـيج وفيضان الترع، وتجمّع النّاس حوله وما إلى ذلك من بهجة وسـرور، ولقـد نوّه محمود رزق سليم إلى أهميّة نهر النّيل ووفائه واهتمام الأدباء به حـيث قـال: "ولقد كان لأدباء مصر في هذا العصر وقبله كتّاباً وشعراء جولات موفّقة ومقالات صادقة في وصفه وذكر أنبائه وتصوير شعورهم نحوه"[2].

والحقـيقة أنّ جُـلَّ الأدباء وصفوا وفاء النّيل ولم يقتصر على أدباء مصر فقط، ومهمـا يكـن فقد كثر الأدباء الذين تناولوا تلك الظاهرة بالوصف والتحليل، وتتضمّن رسـالة وفاء النّيل مشهداً رئيساً تعضده عدّة مشاهد جانبيّة. فالمشهد الرئيس يتمثّل في وصف الماء وفيضانه، فجاء في رسالة أبي حفص الصفديّ عمر بن داود قوله: "وهـي نعمة تحدّث عن عجائب بحرها على الحقيقة ولا حرج، ويتساوى في الانتفاع بها كل نام فضـلاً عمّا دب ودرج، لقد أبرزت كنانة أرض الله في أثوابها القشب، وسـرى ذكرها إلـى الشـام المرتقب موسم الوسمي طليعة السحب، تضمّن ذلك المثال الشريف الوارد بخبر وفائه القائل من سمعه: هذا عذوبة ألفاظ ألبستها من حلاوة مائه، وإنّ المقياس أتى

---

(1) انظر عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص197، 199.

(2) سليم: عصر سلاطين مصر، 217/5.

بـــتمام قياسه الثابت على عادة عدّانه، ونادى وقد سقى الأرض غير مفسدها بالأمان من طـــوفانه، وإن أراقــم غدرانه انسابت في ذلك الإقليم فابتلت غدران أراقمه، ومحا سيله المتدفّق معالمه المجهولة"[1].

فقـــد رســـم الكاتب لوحة فنيّة واضحة المعالم، وشكّل ملامحها تشكيلاً دقيقاً، فقد ركّـــز علـــى رســـم العناصـــر الأساسية، من ذكر الغدران والسُيول والطوفان وطمس المعالــم البارزة بالسيول الجارفة، وما إلى ذلك من صور فرعيّة ترفد تلك اللوحة التي أحكم بناءها ذلك الكاتب.

وكمـــا تحـــدّث الكاتـــب عن هذا المشهد، فقد ذكر المقياس الذي يشير إلى الخير العميم على تلك الديار حتى تعدّى خيره إلى ممالك الشّام.

ومـــثل هـــذه الصورة ما ورد في رسالة لصلاح الدّين الصفديّ، حيث جاء فيها وصـــف دقيق لمشهد كسر الخليج، وعتوّ الماء، وشدّة جريانه واقتحامه للدور والمنازل، وتســـوية الوهاد بالأباطح فقال: "فكسر الخليج وقد كان يعلوه فرح موجه، ويهيل كثيب سدّه هول هيجه، ودخل يدوس زرابي الدور المبثوثة، ويجوس خلال الخبايا كأنّ له فيها خبايا موروثة، ومرق كالسّهم من قسي قناطره المنكوسه، وعلا زبد حركته..."[2].

وقـــد رصد الصفديّ صورة الماء وشدّة جريانه، ورسم له لوحة بل صورة حيّة نابضـــة بالحركة والحياة، والكتّاب في مثل هذه الرسائل يعتمدون الأُسلوب الأدبي القائم علـــى الخيال المطلق في التقاط كل نادرة وفريدة، وحشدها في إبراز ذلك المشهد القائم على الحركة واللون والصوت بل على كل مدركات الحسّ.

وقد ذكر الكتّاب فضل ذلك النهر في نشر الخير في بلاد مصر مشيرين إلى قلّة الأمطـــار، ولـــذا فقـــد استغنت به عن العواصف والرُّعود، فجاء في هذا المجال قول

---

(1) الصفدي: أعيان العصر، 3/621-622.

(2) المصدر نفسه، 3/620.

شـــــرف الـــدّين بـــن فضل الله: "وضاهت الأرض بها السماء وأغنت عن منّة الغمام، وعمّـــت مصر بالهناء حتى فاض إلى الشّام"[1]. وقد عبّر الصفديّ عن هذا الأمر بشكل أدقّ وأعمـــق حيث قال: "وأغنى قطرها عن القطر فلم تحتجّ إلى مد كافه وفائه، ونزهه عـــن منّة الغمام الذي إن جاد فلا بدّ له من شهقة رعده ودمعة بكائه، فهي البلاد التي لا يـــذمّ للأمطار في جوّها مطار، ولا يزمّ للقطار في بقعتها قطار، ولا ترمد الأنواء فيها عيون النوار، ولا تشيب بالثّلوج فيها مفارق الطرق ورؤوس الجبال"[2].

وقـــد تحدّث الكتّاب في تلك الرسائل عن الجوّ الغامر بالفرح والسُّرور والبهجة، مصوّرين النّاس وهم يجتمعون حول الخليج شاكرين "وازدحمت في عبارة شكره أفواج الأفواه، وأعلم الأقلام بعجزها عمّا يدخل من خراج البلاد"[3]، ومن رسالة أخرى ذكـــر كاتـــبها هـــذا الابـــتهاج والثّناء على الله المنعم "وقد علم حقّ نعم الله الشكر فيوفيها منه حقّها"[4].

ومن مستلزمات هذه الرسائل تعميم البشارات، وخصّ السلطان بها، والمباركة له بهـــذه الـــنعمة والمنّة التي تعود بالخير العميم على البلاد والعباد، فجاء من رسالة قول الكاتـــب "ومولانا يأخذ من هذه الأنباء بأحسنها وكلّها حسنة، ومن هذه البشائر المنتظر قدومها بأبينها يمناً وكلّها بينة متيمنة"[5].

فقـــد خـــصّ الكاتـــب بـــتلك البشارة السلطان، فهذه الأنباء تكشف عن السعادة والفـــــرح، وتثيـــر فـــي نفســـه مشاعر الابتهاج وانشراح الصدر، فهذه بشائر يطرب السلطان لسماعها لِمَا فيها من الخير والبركة، ومن هنا يمكن القول أن تسابق الكتّاب في إنشـــائها يعـــود إلى التنافس في السبق إلى مَنْ تلامس بشارته أذن ذلك السلطان ليفوز

---

(1) المصدر السابق، 197/3.
(2) المصدر نفسه، 624/3.
(3) المصدر نفسه، 625/3.
(4) المصدر نفسه، 622/3.
(5) المصدر نفسه، 622/3.

برضـــاه وصلاته، وعندئذٍ يكون هدف الرسالة ليس الوصف لذاته، وإنّما لكسب صلات السلطان، ونوال حظّه من تلك البشارة.

والحقـــيقة أنّ لوحة فيضان النيل وكسر الخليج وصفة طغيان الماء تُخيّل للمشاهد عـــياناً حينما يقرأ نصّ رسالة جمال الدّين بن نباتة في وصف وفاء النيل، فقد جاء منها قولـــه مصوّراً ذلك المشهد الذي يتراءى للمشاهدة: "فلم يترك وعداً بل وعيداً إلاّ وفّاه، ولا هـــدّاً بـــل جبلاً إلاّ أخفاه، أقبل كالأسد الهصور إذا احتدم واضطرم، وجاء من سنّ الجـــنادل فـــتحدّر، وعلا حتى بلغ أقصى الهرم، وعامل البلاد بالخيلاء وكيف لا؟ وهو ســـلطان جائـــر أُيّد بالنصر قائلاً: إن كنت بُليت بالاحتراق في أرضكم فأنا أفيض بأن أرمى من بروق تياري بشرر كالقصر"[1].

والمـــتأمّل لهذه الفقرة من الرسالة يجدها تفيض بالعبارات الشاعريّة، فقد ماجت بالصـــور الفنـــيّة فـــي إطـــار من الزخرفة القولية، وخلقت جوّاً من الحركة والألوان والأصوات، وقد تداخلت تلك الصور وشكّلت لوحة فنيّة يحتار أشهر الرسّامين في جلب جزئياتها، وإبراز معالم جمالها.

فقد اختار له صوراً من عالم الحيوان والجماد، وقد تضافرت تلك الصور مشكّلة صـــورة حـــيّة نابضة مفعمة بالحيويّة والحركة، وقد رسم ابن نباتة كذلك صورة جليّة واضحة المعالم للنّاس الذين يستبشرون خيراً لوفاء النّيل حيث قال: "وبات النّاس بوفائه مـــن حـــذار الغلاء تحت الستر والسلامة"[2]، وهذه إشارة إلى الجدوى الاقتصاديّة التي يجلبها وفاء النّيل إلى العباد والبلاد.

وقد صوّر ابن نباتة وفاء النّيل ضيفاً يحمل لأهل مصر الخير العميم "كم ورد إلى الـــبلاد ضـــيفاً ومعـــه القِرى... فهو ساهر في مصالح الخلقِ، وقد ملأ الأمن أجفانهم

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 274/14.

(2) المصدر نفسه، 275/14.

بالوســن، جامــع لأهــل مصر من سقياه ومرعاه ووجهه بين الماء والخضرة والوجه الحسن"[1].

ولم يتوانَ الكتّاب عن ذكر المقياس في رسائلهم، وإنعام النّظر في دقائق تفاصيله، فجاء في رسالة ابن نباتة في ذلك الغرض قوله: "وتمّت أصابع الزيادة ونمت، حتّى قال الــنّاس ما ذي أصابع أيادي... وقال المقياس تخطت منها الدَّرَجُ فنال الرّجاء، وظهرت الدقائق فهو جمّ المنافع، عذب المنابع، يُشار في الحقيقة والمجاز إليه بالأصابع"[2].

وقــد اعــتمد ابن نباتة في تصوير ذلك المشهد الأُسلوب البياني، حيث أكثر من التشبيهات والمجاز مستفيداً من بلاغته وفصل خطابه، وجاء في هذا الغرض كذلك قول الصفديّ: "حتى إذا أكمل الستة عشر ذراعاً"[3].

ومــن الجدير بالذكر أنّ هذه الرسائل في مجملها بشارات إلى السلطان في ذلك الزّمان، ولو أنها تعتمد الوصف اعتماداً كبيراً، ونظراً لسيادة عنصر الوصف فيها قيّدت في باب الأدبيّات.

الشتويّات:

حظيت الطبيعة في العصر المملوكي بالاهتمام الكبير في النواحي التعبيريّة. فقد أكثــر الكتّاب من وصف مظاهرها من أمطار وثلوج وأنهار وأطيار إلى غير ذلك من مشــاهد طبيعيّة، وقد أولع بعض الكتّاب في العصر المملوكيّ بوصف الأمطار والثّلوج وعواصــف الشّــتاء، ومــا ينــتج عنها من جوانب إيجابيّة أو سلبيّة، وقد سمّيت تلك المراسلات بالشتويّات، وأكثر ما وجدت بين العمريّ والصفديّ، حيث كثرت المراجعات بينهما في ذلك الموضوع.

---

(1) المصدر السابق، 275/14.

(2) المصدر نفسه، 275/14.

(3) الصفديّ: أعيان العصر، 624/3.

وقد تناول الكتّاب في تلك الرسائل مظاهر الشتاء من رعود، وبروق، وأمطار، وبرد، وثلج، وما ينتج عنها من السيول والانجرافات، وموجات الصّقيع، وأصوات المزاريب، ورافق ذلك الوصف تصوير لمشاهد حياة النّاس اليوميّة، من ملازمة البيوت، وإيقاد النيران، والخلود إلى الفراش، والاستئناس إلى الوحدة، ونبذ مخالطة الآخرين.

وقد أتى الكتّاب طائفة من المشاهد الأساسيّة في رسالة وصف مظاهر الشّتاء، فأوّل هذه المظاهر يتمثّل في وصف الظواهر الطبيعيّة التي تشعر القارئ بالجوّ الماطر، والبرودة الشديدة، فمن هذه المشاهد ما قاله العمري: "كيف أصبح مولاي في هذا الشّتاء الذي أقبل يرعب مقدمه، ويرهب تقدّمه، ويريب اللّبيب من برقه المومض تبّسمه؟ وكيف حاله مع رعوده الصّارخة ورياحه النافخة ووجوه أيّامه الكالحة، وشرر لياليه التي لا نبيت منها بليلة صالحة، وسحابه وأمواجه، وجليده والمشي فوق زجاجه"[1].

إنّ النّاظر في هذه الفقرة من الرسالة يجد الكاتب قد حشد فيها ظواهر تضافرت وشكّلت جوّاً ليوم ماطر، فقد وصف البرق والرُعود، وهما ظاهرتان ملازمتان لفصل الشّتاء، فرسم لهما صورة حيّة من الوميض والأصوات الصارخة، وأردف ذلك برسم صورة أخرى لأيّام الشّتاء ولياليه حيث الاكفهار والبرودة الشديدة، ولإتمام ذلك المشهد رسم سماء تلك الأيّام، فالغيوم ملبّدة تشبه الأمواج في تحرّكها، ولشدّة البرد تجمّدت المياه فأصبحت جليداً كالزّجاج.

والمتصفّح لهذه الفقرة يجد نفسه أمام صورة فوتوغرافية، لمشهد يوم ماطر، حيث العناصر الأساسيّة التي تشكّل ذلك الإطار من البرق والرعد والبرد والسّحاب والجليد، وكل هذه الصّور تشكّل مشهداً حيّاً في ذهن الكاتب استطاع نقله إلى الورق.

(1) الصفدي: أعيان العصر، 427/1.

والمشهد السّابق يذكّر بمشهد آخر من رسالة للصفديّ حيث جاء فيه: "فمالنا ولهذه السـحائب السحابة، والغمائم السكّابة، والرُّعود الصخّابة والبروق اللهّابة، والثلوج التي أصبحت بحصبائها حصابة، والبرد الذي أمست إبره لغصون الجلود قطّابة"[1].

فالقـارئ لهـذه الفقرة يجدها تطابق إلى حدٍّ بعيد المشهد السابق، حيث العناصر المشكّلة للمشهد الأول ذاته، فهناك صورة فوتوغرافية ليوم ماطر شكّلت مادتها السحائب المتراكمة والغمام والرُّعود والبروق والثلوج والبرق الشّديد، وكل هذه العناصر شكّلت عمـدة أساسيّة في تصوير ملامح اليوم الماطر، وأسهمت في تحديد أُطره، وجعلت من تلك الفقرة صورة نابضة حيّة.

وبالجملـة فـإنّ أول المشـاهد الذي يشكّل الرسالة الشتويّة هو بيان ملامح ذلك الـيـوم الماطر اعتماداً على الخيال المطلق في التقاط عناصره وتنسيقها وإبرازها في صـورة حيّة حيث الرعود والبروق، والسحاب والغمام، والبرد الشديد والجليد، ثمّ يأتي المشـهد الثاني، وهو مشهد ناتج عن المشهد السابق، وفيه يبرز دور الأثر الذي أحدثه الـيوم الماطـر، من السيول والإنجرافات وتهدّل أغصان الشجر، وأصوات المزاريب، وتهدّم المباني والكثبان، إلى غير ذلك من مظاهر طبيعيّة تنتج عن ذلك اليوم.

فقـد عبّر العمريّ عن ذلك المشهد بقوله من رسالة شتويّة: "ووقع كل جبل على جنـبه، وقد عصب رأسه ممّا تصدّع، وفاض كل واد امتلأ بطنه ممّا شرب، وانتفخت روايته ممّا تضلّع، وعمّت أهوال وأغمت أحوال، وكان للمدنية أي يوم ولليلتها في يومه أي نوم، ودخلتها الجواريف البقر لجرف الثلج، وما دخلت آلة الحرث دار قوم"[2].

فقد رسم العمريّ صورة حيّة لجبل وقد تراكم الثلج فوق قمّته؛ ممّا جعله يتصدّع ويتشـقّق، ورسم كذلك صورة نابضة للأودية التي فاضت مياهها من شدّة جريان الماء فـيها، وعدم استيعابها في تصريف تلك المياه، وقد تولّد عن تلك الأحوال آثار مدمّرة،

---

(1) المصدر السابق، 429/1.

(2) الصفديّ: ألحان السواجع، 54/1.

فأصبحت المدينة في حال صعبة، فقد جرّفت طرقها دون آلة حرث بل تكفّل الماء بعمل ذلك.

وقد أبرز الصفديّ ذلك المشهد بصورة أكثر فاعليّة في رسالة له، حيث أدقّ في تصويره فقال: "قد هال الجبال أمره، فشابت من الفَرق إلى القدم، وغمرت سيوله الأباطح والربا... وبصاق هذا الثلج في وجه الضّاحك منّا والعبوس، وسكر هذه الميازيب التي لا تبوك إلاّ على الرؤوس"(1).

وقد رسم ابن الورديّ مشهداً كذلك ليوم ماطر، حيث قال: "فالجدران لهيبته مطرقة، والعمران قد تداعت ولا يقيل البنّاء جموعها المتفرّقة، والطرق قد شرقت بالسيول، فلا تنطق آثارها المغرّبة ولا المشرّقة... والسيل قد بلغ الزُبا، وسوّى بين الوهاد المتطامنة والربا، وبكت السّقوف بعيون الدّلق))(2).

فقد وضعنا ابن الورديّ أمام صورة واضحة المعالم ليوم ماطر، فكلما أجلت نظرك في تلك اللوحة أدركت ملامح تلك المشاهد التي تجلّت بوضوح، وتنمّ عن خيال مطلق العنان بل تعبّر عن ذوق رسّام مرهف البنان، ممتلك لأدوات ومهارات ذلك الفنّ. فالجدران مستسلمة ومطرقة، والأبنية ومظاهر العمران متداعية ومتهدّمة، والسُّيول ضاقت عنها الطرق والسُّبل، وقد بلغت حدّاً يصعب استيعابه، فسوّت الوهاد بالربا هدماً وتدميراً، ونتيجة لذلك هوت السقوف والجدران، ولا شكّ أنّ هذه الصورة تثير في النَّفس الهلع والخوف، وتنذر بكارثة إنسانيّة، وتجعل المرء أمام مشكلة اقتصادية واجتماعية وصحية، وقد جرّنا ذلك المشهد إلى مشهد ثالث يتمثّل في تصوير أحوال النّاس والعمران إبّان تلك الأيام الماطرة، حيث يشكّل ذلك المشهد العنصر الإنسانيّ وما يلاقيه من أهوال وأحوال وكوارث.

---

(1) الصفدي: أعيان العصر، 2/221-222.

(2) المصدر نفسه، 2/220-221.

فقد جاء في ذلك المشهد قول الصفديّ "أمّا المساكن فأهلها مساكين، وأفواههم من الحزن مطبقة فما تفتحها السكاكين، وقد انتبذ كل منهم زاوية من داره، وتداخل بعض في بعض لتضمّه بقعة على مقداره، هرباً من توقيع أكفّ الوكف، وخوفاً من ركوع الجدار، وسجود السّقف"[1].

ففي هذا المشهد نلحظ صورة نابضة تُبدي لنا جانباً من حياة الأفراد في ذلك اليوم، فالنّاس مساكين لا يستطيعون فعل أي شيء في ظلّ تلك الظروف، فهم قد ألجموا من الحزن في مساكنهم، فلا حول ولا قوة لهم غير السكوت والصمت، وقد رسم لهم لوحة فنية تظهرهم، وقد اجتمعوا في زاوية في فناء المنزل هرباً من الدلف والوكف، وصورة تلك المنازل التي يكثر دلفها وركوع جدرانها وسجود سقوفها تثير في المتلقّي الشفقة والحزن معاً، والتوجّع لحالهم، وقد نجح الكاتب إلى حدّ ما في إثارة عواطف القارئ وجعله يعيش تلك الحالة التي مرّت بالنّاس في ذلك اليوم الماطر.

وقد رسم العمريّ مشهداً يشبه هذا المشهد من رسالة شتويّة فقال فيه: "أمّا نحن فبين أمواج من السُحب تزدحم، وفي رأس جبل لا يعصم فيه من الماء إلاّ من رحم، وكيف سيدنا مع مجامر كانون؟ وشرار برقها القادح؟ وهمّ ودقها القادح؟ وقوس قزحها المتلوّن؟ ردّ الله عليه صوائب سهامه"[2].

فالعمريّ في هذه اللوحة رسم شخصيّة وسط أمواج من السحب والغمام لا يقيه واقٍ، وزاد في بيان تلك المعاناة حيث جعل نفسه في رأس جبل شاهق ليكشف عن مبلغ معاناته، وشدّة مكابدة تلك الأهوال، وقد استحضر صورة طوفان نوح – عليه السلام – ليزيد تلك الصورة غمّاً وهمّاً، وقد عمّق في ألوان تلك اللوحة عندما قال: "فلقد جاء من البرد بما رضّ العظام وأنخرها، وقدّ فخّارات الأجسام وفخّرها، وجمّد في الفمّ

---

(1) المصدر السابق، 222/2.

(2) المصدر نفسه، 428/1.

الـــريّق وعقد اللسان، إلاّ أنّه لسان المنطيق، ويبّس الأصابع حتى كادت أغصانها توقد حطباً، وقيّد الأرجل فلا تمشي إلاّ تتوقع عطباً"[1].

وكــان أهــم العناصــر في الشتويّات بروزاً، وأكثر ما يثير قلق النّاس ويذكي همـــومهم البـــرد الشّـــديد، فقد جمّد الأرياق في الأفواه، ورضّ العظام ونخرها، وعقد ألســـنتهم عن الحديث، ويبّس الأطراف وحبسها عن الحركة، وقيّد حركات النّاس فلزم كــل شخص منزله، وهذه صورة طبيعيّة نابضة بالحياة تجعل المرء أمام مشاهد حقيقية ليوم شديد البرد والعواصف.

ولم يغفل الكاتب عن رسم صورة للنّاس وهم يقاومون هذا البرد، بلبس الملابس والإكـــثار منها، فجاء في تلك الرسالة "وأتى الزمهرير بجنود ما للقوي بها قبل، وحمّل الأجسام من ثقل الثياب ما لا يعصم منه من قال سآوي إلى جبل"[2].

وتماثـــل هـــذه الصورة ما قاله الصفدي في بيان تلك الأحوال الناتجة عن البرد الشـــديد، فأمست النّار أحسن أمنية ولزوم البيوت بات فرضاً حيث قال: "قد حسد على النّار من أمسى مذنباً وأمسى عاصياً، وتمنّى أن يرى من فواكه الجنّات عنّاباً من النّار وقراصيا"[3].

فـــلا شـــكّ أنّ الصورة جليّة تبيّن مدى التفاف النّاس حول المواقد واتخاذهم كل السُبل التي توفّر لهم الدفء والأمان.

وقـــد تآزرت هذه المشاهد الثلاثة الآنفة الذكر في رسم لوحة فنيّة نابضة بالحياة والحركة والصوت واللون؛ فقد أدركت الحواس جميعها هذه العناصر، فقد أدركت العين الصـــورة اللونـــيّة مـــن وميض البرق، وبيان الثلج، وتدفّق السيول، فيما أدركت الأُذن صـــوت الـــرعد والعواصـــف، وهديـــر السيول، وبكاء المزاريب، وأحسّ الجلد البرد

(1) المصدر السابق، 428/1.
(2) المصدر نفسه، 428/1.
(3) المصدر نفسه، 430/1-431.

الشـــديـــد، وهكـــذا تضافرت هذه العناصر فشكّلت كلاً متكاملاً ليوم ماطر وليلة شديدة البرودة.

وقـــد أفصـــح الكـــتّاب من خلال أخيلتهم المحلّقة، وقدرتهم التعبيريّة الهائلة عن مشـــاهد تلـــك الأيـــام والليالي، وقد مكّنتهم من تصوير تلك المشاهد المواهب الخلاّقة والطّاقة الإبداعيّة الفائقة.

ومهما يكن، فإنّ هذه اللوحات الفنيّة التي رسمها الكتّاب لتلك المشاهد تعبّر تعبيراً صـــادقاً عـــن مـــدى اندغامهم في الطبيعة، وتفاعلهم معها، كما تشي باهتمامهم الكبير بتصوير مظاهر الطبيعة والتعايش معها، كما تبيّن مدى المعاناة التي لقيها النّاس في تلك الأزمنة، من الأحوال والأهوال الطبيعية، والكوارث البيئية التي قد تعرّضوا لها.

وقد وجد الكتّاب في مثل هذه الرسائل موضوعاً يربطهم ويوطّد علاقاتهم، حيث تبادل هذه الرسائل يؤكّد روابط العلاقة بينهم والتواصل، وهو من جانب آخر يكشف عن مدى اهتمامهم بإبراز قدراتهم في التعبير ومحاولة التفوّق على بعضهم. ولم يكن هدف هذه الرسائل تصوير الأحوال الجويّة فقط، بل لاختبار مهاراتهم، وامتحان قرائحهم في محاولة منهم للتفوّق على بعضهم في تلك الرسائل.

ومن هنا فإنّ بعض هذه الرسائل اتّخذت طابع المدح والتقريض، فجاء من رسالة للصـــفديّ يجـــيب فيها العمريّ قوله: "فإن كانت هذه الأمطار تكاثر مولانا فيا طول ما تســـفح، وإن كانت العواصف تتشبّه ببأسه فيا طول ما تلفح، وإن كانت البروق تحاكي ذهـــنه المتســـرّع فيا طول ما تتألّق، وإن كانت قوس قزح تتلوّن خجلاً من طروسه فيا طول ما تتألّق، وإن كانت الرُّعود تحاكي جوانح أعدائه فيا طول ما تشهق وتفهق، وإن كانت السُّيول تجري وراء جوده فإنها تجري على طول المدى وما تلحق"[1].

---

(1) المصدر السابق، 431/1.

ولا شـك في أنّ مثل هذا المقطع من الرسالة يقود إلى القول بأنّ تلك الشتويات يـراد منها تعزيز العلاقات بين الكتّاب وتتبّع أخبارهم، ومعرفة أحوالهم، فتجري بينهم هـذه الرسـائل لتـنقل الأخـبار التي هم عليها، ومن هنا فإنّها تمكّن الكتّاب من إيجاد فـرص لمدح بعضهم والثناء عليهم.

وهـذه الرسـائل تدلّ دلالة كبيرة على تفنّن كتّاب الديوان في فنون القول، حيث الكـتابة الرسـميّة لـم تمنعهم من تخطي حواجز العمل الرسمي والاندغام في وجدان الطبـيعة، والتعبيـر عنها بما يرضي ذائقتهم من التشخيص والتجسيد وما إلى ذلك من أمور.

رسائل وصف الكوارث:

وكما وصف الكتّاب مظاهر الحضارة في أحوال الرخاء وأدقّوا في وصفها، فقد وصـفوا الكـوارث التـي ألمّـت بل عصفت بالمجتمع إبّان زمانهم، وقد تنوّعت تلك الكوارث، وكان أشهرها تلك الكوارث التي لا تخصّ مثل الأوبئة السارية التي لا تعرف غنـيّاً ولا فقيـراً، ولا عزيـزاً ولا ذلـيلاً، فقـد أقلقت تلك الأمراض النّاس وأقضت مضـاجعهم، وأشعرتهم بدنو الأجل ومفارقة الأحباب، فنغّصت عليهم الملذّات، وفزعوا إلى التوبة والاستغفار، ووقف الموت على أبوابهم في الصّباح والمساء، وتواترت قوافل الموتـى كمـا يخبـر ابـن الورديّ في رسالته الموسومة "بالنبا عن الوبا"؛ التي جعل موضـوعها فـي وصـف الطاعـون الذي استشرى بأهل الشّام، ودخل مدنها وقراها ومنازلها منزلاً منزلاً "يا له من زائر، من خمسة عشر دائر، ما صين عن الصين، ولا منع منه حصن حصين، سلّ هندياً في الهند، واستند على السند، وقبض بكفيه وشبّك على بـلاد أزبـك، وكـم قصـم من ظهر فيما وراء النهر، ثم ارتفع ونجم وهجم على بلاد العجم"[1].

---

(1) ابن الورديّ: الديوان، ص86-87.

وقــد تتبّع الكاتب تنقّل ذلك الطاعون حتى وصل حاضرة الشّام دمشق واستقرّ به المقام بها وبما حولها من المدن والقلاع والضياع، فذكر ابن الورديّ أسماء المدن التي أفزعها ذلك الزائر الثقيل.

وقــد أبدع الكاتب في وصف حالة النّاس من الذّعر والتوجُّس والقلق والخوف، فقال في ذلك: "ومن الأقدار أنّه يتتبّع أهل الدّار فمتى يبصق واحد منهم دماً، تحقّق كلهم عــدماً، ثمّ يسكن الباصق الأجداث بعد ليلتين أو ثلاث، اللهم إنّه فاعل بأمرك فارفع عنّا الفاعل وحاصل من عند من شئت فاصرف عنّا الحاصل فمن لدفع هذا الهول غيرك يا ذا الحول"[1].

وهــذا هو حال أهل تلك البلاد لا حول لهم ولا قوّة لدفعة إلاّ بالدعاء والتضرُّع والابــتهال إلــى مــولاهم القديــر، وقد وصف الكاتب حال النّاس والأطبّاء والأعيان وعكوفهم على دراسة العلاج والتطبيب للخلاص من هذا الدّاء "فلو رأيت الأعيان بحلب وهــم يطالعــون مــن كــتب الطبّ الغوامض، ويكثرون في علاجه من أكل النواشف والحــوامض، قد تنغّص عيشهم الهني بملاخة مسلم الطينة الطين الأرمني، وقد لاطف كــل مــنهم مزاجه وعدّل، وبخروا بيوتهم بالعنبر والكافور والسّعد والصندل، وتختموا بالــياقوت، وجعلوا البصل والخلّ والصحن من جملة الأدم والقوت، وأقلّوا من الأمراق والفاكهة وقرّبوا إليهم الأترنج وما شابهه"[2].

والنّاظــر في تلك الفقرة يستخلص وسائل العلاج والتطبيب والوقاية في زمانهم، حيث ترك بعضهم الأطعمة والأشربة المعتادة وعكفوا على أطعمة وأشربة أخرى، كما أظهــرت الرسالة بعض عاداتهم، وخزعبلات العامة كالتختم بالياقوت وغيره، وتبخير البيوت بأنواع البخور، وكل هذه وسائل ظنّ النّاس بها الخلاص من ذلك الدّاء الوبيل.

(1) المصدر السابق، ص90.

(2) المصدر نفسه، ص91.

وقد التفت الكاتب إلى وصف قوافل الموت قائلاً: "لو شاهدت كثرة النعوش، وجملة الموتى، وسمعت بكل قطر من حلب نعياً وصوتاً ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُم فِرَارًا﴾* وأبيت فيهم قراراً. فلقد كثرت فيها أرزاق الجنائزية، فلا رزقوا وعاشوا بهذا الموسم وعرقوا من الحمل فلا عاشوا ولا عرقوا، فهم يلهون ويلعبون ويتقاعدون على الزبون"[1].

فقد جعل الكاتب المتلقّي أمام لوحة فنيّة بل صورة حيّة نابضة بالحركة والألوان والأصوات، فالنّقوش متحرّكة، والناعيات باكيات في كل مكان... والجنائزيون يتسابقون إلى أرزاقهم، فالكاتب كشف لنا بعض مهن تلك الفترة، حيث يوجد الجنائزيون الذين يتولّون أمر دفن الأموات لقاء أجر يتقاضونه.

وصوّر الكاتب وحشيّة ذلك الوباء، حيث لا يدخل مكاناً إلاّ ويترك أهله أمواتاً "وكم دخل إلى مكان فحلف لا يخرج إلاّ بالسكان، ففتّش عليهم بسراج، وهذا الذي جلب لأهل حلب الانزعاج، استرسل ثعبانه وأنساب وسمّي طاعون الأنساب"[2].

واسترسل ابن الورديّ في وصف ذلك الطاعون والآثار التي تركها وردود الفعل التي واجهها، فالمسلمون فزعوا إلى التوبة والاستغفار، ولكنّ الذي أساءهم شماتة أعدائهم، فأهل سيس كما يقول الكاتب "مسرورون لبلانا بالطاعون حتى كأنّهم منه في أمان أو عليه أن لا يقرّبهم ضمان أو كأنّهم إذاً ظفروا"[3].

ولا يجعل الكاتب ذلك الطاعون شرّاً خالصاً للمسلمين بل ذكر بعض فوائده التي فمنها: "تقصير الآجال، وتحسين الأعمال، واليقظة من الغفلة، والتزوّد للرّحلة"[4].

* سورة الكهف، آية 18.

(1) ابن الوردي: الديوان، ص91.

(2) المصدر نفسه، ص90.

(3) المصدر نفسه، ص92.

(4) المصدر السابق، ص93.

وهـــذه الفوائد التي تحدّث عنها ابن الورديّ من علامات التّوبة والاستعداد ليوم الـــرحيل، وهـــي ثمرة من ثمار تلك الكارثة التي حلّت بهم، وهي أقرب للتعزية وتسلية النّفس منها للفائدة.

وقد توفي ابن الورديّ بهذا الطاعون الذي أطال في وصفه، حيث قال الصفديّ: "وكان الشيخ زين الدّين – رحمه الله تعالى – قد رأى عجائب الطاعون في حلب، فعمل فـيه رســالة أنشأها وأبدعها وسمّاها: "النّبا في الوبا"، ولكنه خُتِمَ به الوبا، وفُجع النّاس فيه"[1].

وقـــد أبدع ابن الورديّ في إنشائها كما وصفه الصفديّ حيث وضع المتلقّي أمام صـــورة حـــيّة لكارثـــة طبيعية حصدت النّاس حصداً وأفزعتهم، وأقضت مضاجعهم، وحرّكت قوافل الأموات، وأيقظت نوازع الإيمان، وقد صوّر كذلك فزع النّاس وخوفهم، كما كشف عن بعض أطعمتهم وعاداتهم وطرق علاجهم.

ومن الكوارث الطبيعيّة كذلك التي عصفت بالمجتمع المملوكي الزلازل والهزّات الأرضيّة، فقد أخبرنا ابن الورديّ عن زلزلة حدثت لبلاد الشّام سنة أربع وأربعين وسبع مائة.

فقد صوّر الدّمار الذي أحدثته تلك الزلزلة في الممتلكات والأرواح، وصوّر كذلك حالة الفزع والهلع التي أصابت النّاس، واختلف النّاس في تفسير تلك الظاهرة، فتعدّدت الآراء فـــي كشـــف سرّها "فالحكيم يقول هذا بخار ريح احتبس، والمنجّم يقول هو من حركة كوكب كالقبس، وأمّا الفقيه فينشد فيه:

إنّي بِفِعْلِ الله أوّلُ مُؤْمِـــــنٍ ... وبِمَا قَضَاهُ النّجْمُ أوّلُ كَافِـــــــر

كَذَبَ الحَكيمُ فَمَا لَهُ مِنْ قُــوةٍ ... وَذُوو النُّجومِ فَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِــر"[2].

---

(1) الصفديّ: أعيان العصر، 679/3.

(2) ابن الورديّ: الديوان، ص151.

ومهمـــا يكن من تأويلات أو تفسيرات، وجدل ونقاش، فإنّ المصيبة أدهى وأمرّ، فقــد عمَّ الدّمار مدينة حلب، وكثر الردم والقتل فيها "ولو رأيت حلب وقد أشرفت على ســوء المنقلب، ووضع لجامعها فروق في أماكن، وتعلّمت منارته باب الإمالة وتحريك الســاكن"[1]. فالكاتب يرصد الحديث بالحركة واللون والصوت، فقد وصف تلك المباني وهــي تتحــرك وتمــيل وتنهار كمن يرصد تلك التفاصيل بآلة تصوير، وقد اعتمد في تصوير ذلك المشهد على الاستعارات والتشبيه وألفاظ اللغة والتجويد.

وقــد صوّر الكاتب جموع النّاس، وهم يبكون ويصطرخون من هول المصيبة، وخرجت النّساء من خدورها من هول الموقف، وقد تعانقت الحيطان والجدران "غير أنّ الدُّمــوع جــرت علــى عقبة بني المنذر كماء السماء، وبرزت المضمرات من الخدور لحركات البناء، وتعانقت حيطانها تعانق وداع"[2].

وحــرص الكاتــب علــى نقل مشاهد الإنقاذ وتفقّد النائب لأهل البلد حيث "خرج النائب بحلب لهذه النائبة ماشياً متفرعاً من نتيجة هذه الكلية السالبة، وهو يأسى ويأسف وعلى رأسه المصحف"[3].

وعكــف الكاتــب علــى تصوير المباني والحصون والقلاع وقد سلبت منعتها، وتهدمت شرفاتها، وأصبحت المدن دمناً قد تطاول عهدها "ولو رأيت القلاع والحصون، وقــد أذلّت الزلازل منها كل مصون... ولو رأيت منبج منبت كل سرّي، ومهبّ النسيم الســحريّ، وهي لشدة الطمس كأن لم تغن بالأمس، قد كسف الردم فيها كل بدر شمس، فــوا أســفا على منبج من مدينة جليلة أصبحت دمنة، وكانت الألسن عن وصفها كليلة،

(1) المصدر السابق، ص151.

(2) المصدر نفسه، ص151-152.

(3) المصدر نفسه، ص152.

غشـيها قتـر وظلمة، وركبتها ريح سوداء مدلهمّة، ولقد حكي لي أن منارتها صارت تقذف نحو السّماء حجارتها"[1].

وفـي هـذا الوصـف صورة دقيقة لما حلّ في تلك المدينة من دمار وهدم حتى أصبحت تلك المدينة كالدمن القديمة، فوصف الزلزلة وريحها السوداء، وقوة هزّتها، كما وصف تبعثر الحجارة في الجوّ من الحصون والقلاع والمنارات.

وقد انحصر كل ما أورده الكاتب في نطاق الخسائر المادية، ولم يصف القتلى أو الجرحـى نتـيجة تلك الزلزلة، إلاّ أنّه وصف سلوك إثر تلك الحادثة فقال: "النّاس بعلة السـدر والـدوار... ولما سمع مهول ذلك الصوت ﴿خرجوا من دياهم وهم ألوف حذر المـوت﴾* فمـا حمـتهم هيـبة هيبت، ولا أقطار القاطر، ولا جنتهم قناطر الملوك إذا صرعتهم ملوك القناطر"[2].

والحقـيقة أنّ هذه الرسالة قد رصدت حدثاً بل كارثة طبيعية عصفت بأهل الشّام بكـل تفاصـيلها، فصـوّرت أحـوال المباني والحصون والقلاع والمنارات والأبراج والمساجد إثر تلك الزلزلة، حيث أصبحت حواجز المدن دمناً لا يُعرف لها معالم، وبثّت حجارة المنارات والقلاع وقذفت نحو السماء من شدّة تلك الهزّة.

كما صوّر الكاتب حالة الفزع والخوف والقلق والهلع التي سيطرت على النّاس، فأصـابهم الدوار والاضطراب، فجعل ذلك المشهد يشبه مشهد حشر النّاس يوم القيامة لشدّة أهوال تلك الزلزلة.

وتكشف هذه الرسالة عن بعض جوانب الحياة كما هي رسالة النبا السابقة، حيث تبـيّن بعـض العادات والتقاليد الشعبية، وتدلّل على مدى تفكيرهم وموقفهم من الحياة، وتفصح عن بعض وسائلهم المتّبعة في التعامل مع الكوارث التي تعصف بهم.

---

(1) المصدر السابق، ص152-153.

* سورة البقرة، آية 243.

(2) ابن الورديّ: الديوان، ص153.

ثانياً: رسائل الطرد وقِدَمات البندق

اهــتمّ العرب بالصّيد اهتماماً بالغاً وقد تنوّعت الأهداف التي دعت لاهتمامهم به، فكــان من هذه الأهداف تحصيل القوت، أو الدفاع عن النّفس، أو الرياضة والمتعة[1]، وقــد كلف العرب بالفروسيّة والفتوّة والصّيد والطّرد في السابقة على عصر المماليك، وقد بقي الاهتمام ذاته في ذلك العصر.

وقــد تعــدّدت المصادر التي تناول موضوعها الصّيد والطّرد في تاريخ الأدب العربــي، وذكرت تلك المصادر الفوائد الجمّة للصّيد، فذكر صاحب المصايد والمطارد حديثاً طويلاً عن اهتمام الخلفاء بالصّيد والطّرد وافتتانهم به[2].

وقــال صــاحب البيــزرة: "إنّ للصّيد فضائل جمّة وملاذ منعة، ومحاسن بيّنة، وخصائص في ظلف النّفس ونزاهتها، وجلالة المكاسب وطيبها كثيرة، به يستفاد النشاط والأريحــية، والمــنافع الظاهــرة والباطــنة..."[3]. وقد أسهب في ذكر فضائل الصّيد والطــرد، والحقــيقة أنّ للصّيد فضائل نصّ عليها القدماء وأولوها العناية وأكّدوها، فقد ذكــر كشــاجم كثيــراً مــن فضائل الصّيد فقال: "خليق بذوي العدل من الملوك الكرام والســماحة والإكرام، والهمم العظام، الحسني السياسات أن يكون التصّيد والتقنّص لهم من جميل العادات"[4].

---

(1) انظــر الصالحي، عبّاس مصطفى: الصيد والطرد في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري، ط1، 1402هـ/1981م، المؤسسة الجامعيّة – بيروت، ص29-45.

(2) انظــر كشــاجم، أبــو الفتح محمود بن الحسن (358هـ/968م): المصايد والمطارد، تحقيق محمد أسعد طلس، دار المعرفة – بغداد، د.ت، ص3-7.

(3) أبو عبد الله الحسن بن الحسين: البيزرة، تعليق محمد كرد علي، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ص18.

(4) كشــاجم: الصــقر والصــيد عــند العرب، دراسة وتحقيق محمد عيسى صالحية، ط1، 1985م، مكتبة شركــة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع – الكويت، ص35.

وقد أورد القدماء الشروط الواجب توافرها في الصّائد حال مزاولته لتلك الرياضة، فذكر محمد بن منكلي أنّ من آداب المتصيّد اتخاذ القوس الجيّد والسهام الجيدة، وتعليمه ما يترتّب عليه حال كسرها، وكيفية اختيار القوس الخفيف، وما إلى ذلك من أدوات الصّيد[1].

ولم يكن الصّيد عند العرب لجلب الرزق أو المتعة فحسب، بل يُعدُّ مظهراً من مظاهر الشّجاعة وعلماً من علوم الفروسيّة في الحرب والسلم[2]. وقد بقي الاهتمام بهذه الرياضة على أوجه حتى عصور متأخّرة، فقد أولع السلاطين المماليك بهذه الرياضة، وأصبح الصّيد فنّاً خالصاً يتّخذ لمتعة النُّفوس والأبدان، وأضحت هناك مواكب سلطانية خاصة بالصّيد، وأماكنه وأزمنته، وجدّ الكتّاب في وصف تلك الرحلات.

وقد اتّخذت رسائل وصف الرحلات الخاصة بالصّيد طابعاً خاصّاً، حيث عنيت بالمشاهد التفصيلية لتلك الرحلة في سبيل إبراز أهمية تلك الرياضة، فأوّل مشهدٍ من مشاهد هذه الرحلة يتمثّل في خروج ركب السلطان بين حاشيته إلى أماكن خارج القلعة من أجل تفقُّد مستلزمات الرحلة، ولا شكّ أنّ في هذه المواكب تقليداً ومحاكاة، وآداباً يجب على الحاشية الالتزام بها أثناء المسير مع السلطان أو المكوث.

والحقيقة أنّ صيد السلاطين لم يكن رغبة في الحصول على الطعام والقوت بقدر ما هو رياضة، ومتعة للأذهان والأفهام، وطلب للرّاحة والاستجمام، والخروج من جوّ القصور والحواضر. فعند خروجهم للصيّد يعيدون نشاطهم الذهني، ويسترجعون هممهم، يخرجون من أجواء الحكم والسلطنة، فتسمو نفوسهم، وتستريح أبدانهم بممارسة تلك الرياضة.

---

(1) انظر منكلي، محمد (784هـ/1382م): أنس الملا بوحش الفلا، دراسة وتحقيق محمد عيسى صالحية، ط1، (1413هـ/1993م، مؤسسة الرسالة – عمّان، ص70-71.

(2) انظر الباشا، عبد الرحمن رأفت: الصيد عند العرب، ط3، (1403هـ/1983م)، مؤسسة الرسالة – دار النفائس، بيروت، ص23.

وقد اتّخذ الكتّاب في العصر المملوكي من وصف هذه الرياضة وسيلة للتقرُب من السلاطين والحكّام، فقد وصفوا ركوب السلطان للصّيد، ورحلة الصيّد، والطرائد بجميع أصنافها، وعودة السلطان من تلك الرحلة هانئاً سعيداً، محمّلاً بالصُيود والطرائد ركبه.

فمــن تلــك الرســائل ما كتب بها تاج الدّين البارنباري في وصف رحلة صيد الســلطان النّاصر محمد بن السلطان المنصور قلاوون، فقد عرض الكاتب لمشاهد تلك الــرحلة، فبدأ بتبيين أهميّة هذه الرياضة، حيث جعلها تضاهي رياضة الحرب والدّفاع عن الأمّة، فإنّ النفوس ترتاح لها في حال السّلم والدّعة "وتنشرح الصُدور إلى معاطـــاة الصُــيود والمسرّات مجتمعة"(1)، فأكّد الكاتب أهمية هذه الرياضة عند السلطان في أيام السّــلم والــرّاحة، حــيث لا بدّ من ممارستها؛ لأنّ النفوس تجد فيها بغيتها لما فيها من امتطاء صهوات الجياد، وركوب المخاطر وترويض النفوس على المهالك والمشاق.

وقــد وصــف الكاتب رحلة السلطان حيث تضرب الخيام، وتعدّ الخيول وأدوات الصّــيد لهــذه الغاية، ويحدّد الفصل الذي يخرج فيه السلطان، ويكون ذلك في كل عام، فينصــب للســلطان الدهليز "وتضرب خيام الأُمراء حوله وطاقاً، وتحفُ به مثل النُجوم بالبدر إشراقاً"(2).

وبعــد إتمام مراسم نصب تلك الخيام وإقامة دهليز السلطان وتجهيز كل ما يلزم رحلــة الصّــيد من خيل وطيور جارحة وضوارٍ تبدأ الرحلة بأن ينقل هذا المخيّم إلى المــنطقة المضــروبة للصّيد وسط احتفال مهيب، ومشهد يشعّ بالحيويّة والفاعليّة، فقال الكاتــب مصــوّراً ذلك المشهد: "ويستقلّ الركاب الشريف – شرّفه الله – بعد ذلك يقصد عــبور النّــيل المبارك، فيظهر من القلعة المحروسة والسلامة تحجبه من المخافة ...

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 166/14.

(2) المصدر نفسه، 166/14.

ومماليكه الأُمراء قد حفّوا به أطلاباً ... وسار في زروع مخضّرة، وثغور مفترة، وقد طلعت للظفر شموسه وبدوره"[1].

وقد أسهب الكاتب في وصف ذلك المشهد حيث رسم صورة واضحة المعالم، فرصد حركة الاستعداد لإقامة ذلك المخيم بالقُرب من القلعة، وبعد الانتهاء من تلك التجهيزات والاستعدادات الضرورية لرحلة الصّيد، رسم صورة لمشهد الرّحيل حيث السلطان تحفّه أمراؤه وحاشيته وسط أبّهة السيادة ونشوة السلطنة، فالطبيعة والمناظر البيئية قد أسهمت في إضفاء جوٍّ من الرّاحة والاستئناس والشُعور بالنشوة والابتهاج، فقد بسط القول في وصف الطبيعة الصّامتة، حيث نهر النّيل الذي تمّ عبوره، ومن ثمَّ السهول الخضراء التي تبعث البهجة وانشراح الصّدر، كل ذلك رسمه الكاتب في لوحة فنيّة تتموّج بالألوان والحركة.

ولم يقف الكاتب في ذلك المشهد عند رسم صورة للمرتحلين بل التفت إلى رسم لوحة للطيور الجارحة التي كانت بحوزتهم، فقد أورد أنواعها، وحدّد صفاتها فقال: "وأعدّت للصّيد بزاته وصقوره من كل متوقّد اللحظ من الشهامة، محمول على الرّاحات من فرط الكرامة، يتوسّم فيه النجاح قبل خفق الجناح، ويخرج من جوّ السماء ولا حرج ولا جناح، وبازها الأشهب يجيء بالظفر ويذهب بصدر مفضض وناظر مذهّب، له منسر أقنى طالما أغنى، كأنّما هو شبا السنان وقد حباه الكماة طعناً"[2].

وقد استهوى ذلك المنظر الكاتب فألحَّ في تصويره، وذكر تفاصيله، فأكثر من وصف الطّيور المدرّبة للصّيد، فوصف الصّقر والباز وصفاً نمَّ عن شغفٍ بها وملازمة لها.

واتّبع ذلك الوصف برسم صورة حيّة لمنظر الصّيد في اليوم الأول، حيث تعدّ الطيور الجوارح لهذه الغاية، فعند ظهور أي سرب من الطّيور تطلق هذه الجوارح

(1) المصدر السابق، 167/14.

(2) المصدر نفسه، 167/14.

لتأســرها بمناسرها ومخالبها، وهكذا تعمل طيلة اليوم حتى يعمّ الظّلام، وعند ذلك يعود السلطان وأمراؤه إلى مخيمهم مرتاحي البال، مسروري الخاطر، وقد أورد الكاتب ذلك المشــهد حــيث وصف خروج السلطان إلى مسرح الصّيد حيث مكان الطيور في وقت مبكّر من النهار قبل وضوح الصّباح ليفاجئها، وهي في وكناتها، فقال في تصوير ذلك: "فيســرح والطيــر جاثمــة في وكورها، ويخرج في إغباش السحر وعليه سواد فيهابه الصــادح في الجوّ والباغم في الواد، ويأمر – خلّد الله سلطانه – أُمراءه فيضربون على الطيــر حلقة وهي لاهية في التقاط حبّها، غافلة عمّا يراد بها فيذعرونها بخفق الطُّبول وضربها"[1].

وتكشف هذه السُّطور عن كيفيّة صيد القدماء، فقد رسم الكاتب لوحة لمشهد إرباك الطــيور، حيث غافلها الأُمراء فصاحوا بها كي تفزع ولا تعرف إلى أين تذهب، وهنا تكمن مهمّة الطيور الجارحة المدرّبة لهذه الغاية، حيث تنقض على تلك الطيور وتأسرها وســط جــوٍّ مــن الفوضــى والفزع، والسلطان ينظر إلى هذا المشهد، ويراقبه ببهجة وسرور، فوصف الكاتب ذلك المشهد قائلاً: "ومولانا السلطان – خلد الله ملكه – لنافرها مترقّب، ولطائرها بالجارح معقب، فما يدنو الكركي مقروراً حتى يؤوب مقهوراً، ساقطاً مــن سمائه إلى أرضه، ومن سعته إلى قبضته ... والجارح قد أنشب فيه مخالبه، وسدّ عليه سبله في جوّ السماء ومذاهبه"[2].

وفــي خضمّ هذه الأحداث والأحوال يقضي السلطان يومه متمتعاً ومسروراً بهذه المشــاهدة، حــيث يراقب تلك المشاهد المتحرّكة ببصره وعقله وعواطفه، فترتاح لذلك نفسه ويطمئن باله.

ويمضي السلطان يومه بهذه المسرّات حتى يغلّف الظّلام ضياء النهار "ولم يزل -خلّــد الله ســلطانه- عامــة يــومه متوغّلاً في التمتّع بلذّات صيوده، وأوقات سعوده،

---

(1) المصدر السابق، 168/14.

(2) المصدر نفسه، 168/14.

وحصـــول أربه ومقصوده ... حتّى ينسخ النهار الليل بظلمائه ويلمع الطارق بأضوائه، فيعود عند ذلك الركاب الشريف إلى المخيم المنصور"[1].

وهكـــذا وصف الكاتب أحوال السلطان حيث المتعة والملذّات وقطع وقت الفراغ وممارســـة رياضـــة الصّيد، وإخراج النفس من قيود العمل الرسمي، وممارسة دستور الحكم، فالنفس رائعة في مهد سعادتها، بعيدة عن كل ما يكدِّر صفوها، والعواطف شغفها ممارسة هواية الصّيد والتحليق في جوّ السماء بالبصر حيث تحلّق الجوارح وكسبها.

ولـــم يغفـــل الكاتب عن وصف الموكب العائد ليلاً، وسط لمعان الكواكب، ونور الفوانـــيس، والجـــوارح قد أكثرت الكسب؛ ولذا صوّرها الكاتب وشخّصها حيث جعلها مســـرورة، فـــرحة بنشـــوة الظفر والكسب، ويشتدّ الظلام رويداً رويداً، فَيُرفع للسلطان فانوســـان مـــن بين يديه حتى ينيرا له الطريق إلى دهليزه "فيعود عند ذلك الركاب ... والجـــوارح كاســـبة، والأقدار واهبة، والجوارح مسرورة والطيور مأسورة، والنفوس ممـــتعة، والمواهب منوّعة، والأرجاء مضوّعة... فيُرفع أمامه فانوسان توءمان، كأنّهما كوكبان بينهما اقتران"[2].

وهذا المشهد ينقل المتلقّي إلى جوّ مفعم بالنّضارة والمسرّات والملذّات. فقد رسم صورة متداخلة الألوان، حيث أدخل النهار في الليل مشكّلاً صورة لونيّة فريدة، سرعان ما تلاشت لتحلَّ محلّها صورة الكواكب والفوانيس؛ لتعوّض لون النهار المنصرم، وسط حـــركة مـــتموجة لركب السلطان الذي فيه كل شيء في غاية السُّرور، حتى الجوارح التـــــي أعدت لقتل الطيور غدت مسرورة مبتهجة، ولا شكّ أنّ الكاتب مزج عواطف ومشاعر السلطان بكل شيء رافقه، فنالت الجوارح حظّاً من هذه المسرّات.

وجـــدُ الكاتب في رسم تلك اللوحات التصويرية، فقد أبحر في تصوير الليل الذي قضـــاه الســـلطان في ذلك الدهليز، فالأمراء يقضون طوال ليلهم بالطواف حول خيمته،

---

(1) المصدر السابق، 168/14.

(2) المصدر نفسه، 168/14.

رافعـــي الفوانـــيس والشموع حتى مطلع الفجر؛ ليعاود السلطان كرّه وفرّه على صيوده بشـــراهة وبهجـــة، وهكذا استمرّت الرحلة والكاتب جادّ في وصف تفاصيلها عن كثب، وبعـــد أن يكتفـــي السلطان من صيد الطيور ويعود إلى دهليزه يصف الكاتب ذلك الليل بقـــوله: "فعـــند ذلـــك يطـــوف بالدهليـــز أُمراء الحرس بالشموع المرفوعة، والمزاهر المســـموعة، فـــإذا طلـــع الفجر مستطيلاً، وجاء الصبح شيئاً قليلاً عُرِضت عليه النِّعم فأعطاها"[1].

وهكـــذا يتكـــرّر مشـــهد الصيد لدى السلطان، حيث يتبع هذه الطيور بجوارحه وأُمرائه طيلة النهار، ثمّ يعودون مسرورين ليلاً إلى مخيّمهم الذي ضربوه لهذه الغاية.

وتنقضي الأيّام والليالي والسلطان بين كرّ وفرّ مع هذه الطيور، حيث يتغذى على لحمهـــا، ويتمتّع بصيدها، وقد رسم الصفديّ لوحة فنيّة لمشهد صيد وقد خصّ من تلك اللوحة مشهد طهي تلك الطيور، واصفاً مواقد النيران وتطاير الرِّيش، وجريان الدماء، فقـــال واصـــفاً ذلـــك المشـــهد: "بعد أن عرضت صيوده على مواقد النيران، وضربت أطيارها قباب أشلائها على طريق الوحش تتقارع منها على قرى الضيفان، ونشر على ســـندس الـــربيع مـــن ريشها الأزرق ياقوت، ومن دمها الأحمر مرجان، وغدت وجنة الأرض وفمها من الدماء مضرّج ومن الريش خيلان"[2].

وهذا المشهد يشكّل حلقة أساسيّة في لوحة الصيد، حيث يشكّل ذلك المشهد معيناً لا ينضـــب من الملذّات والمسرّات، حيث تسرح النفس على سجيّتها، وتخرج عن نطاق أســـر قيودها، وتكسر حواجز مدنيتها لتسبح في فضاء واسع يبعدها عن بوتقة السلطنة والحكم.

وقد وصـــف الحلبيّ في رسالة له مشاهد الصّيد، والجوّ الانفعالي الذي يشكّله ذلك المنظـــر، حيث النُفوس على سجيّتها بعيدة عن وعث المدينة وكدّ القيود، فوصف لوحة

(1) المصدر السابق، 14/168-169.

(2) الصفدي: أعيان العصر، 2/633.

فنيّة رسم فيها تحليق الجوارح، ومطاردة الوحوش، فجاء فيها من وصف الجوارح قوله "ونهــيُ أنّه سار إلى الصيد ميمّماً وجه إقباله متيمّناً بسعده الذي ما برح يعتلق بحباله، ومعه من الجوارح كل بازٍ شديد الأسر صحيح على ما اتّصف به من الكسر، ينظر من نهــار، ويخطــر فــي ليل رقم به أديم نهار، ذي صدر مدبّج، ورأس متوّج، ومخلف خطــوف، ومنســر لصدغ معطوف، أسرع من هوج الرياح، وآكل من عوج الصفاح، ينحطّ على الطير من علٍ، ويسبق إلى مقاتل الوحش كل رامٍ من بني ثُعَل"(1).

والنّاظر في تلك الرسائل التي دبّجت لغرض وصف صيد السلطان يجدها تتصيّد المشاهد المؤثّرة كما يتصيّد الجارح من الطير. فالكتّاب يركّزون اهتمامهم حول وصف تلــك الجوارح، ويهيمون في التدقيق في رسم لوحاتها، ولا شكّ أنّ ذلك يلقى قُبولاً من نفــس الســلطان، حيث تكتب هذه الرسائل ليبعث بها إلى حضرة مقامه، فيحرص كل كاتــب على أن تكون رسالته لوحة فنيّة شائقة، تجلب انتباه السلطان، وتثير فيه مظاهر الإعجاب والنشوة.

ومهمــا يكــن، فــإنّ وصــف مشــاهد صيد الطيور لا تبتعد كثيراً عمّا وصفه البارنــباري فــي رسالته السابقة، حيث تتكفّل الطيور الجارحة بتلك المهمّة؛ لذلك أدقّ الحلبيّ في نعتها، وبيان خصائصها وسماتها، راسماً صورتها وهي تنقضّ على فرائسها في جوّ السماء.

وتمــثّل لوحة صيد الطيور الفصل الأول من مسرحية الصّيد، فيلي ذلك الفصل فصل مشاهد وصف صيد الأوابد، وهنا يبدأ الكتّاب بوصف الوسيلة الأنجع في صيدها ومطاردتها، فيصفون الخيل والفهود والكلاب.

وفــي وصفهم للخيل يحرص الكتّاب على بيان أصنافها، وشدّة جريها، ورشاقة حــركاتها، فجاء من رسالة البارنباري في وصف تلك الخيول قوله: "فمن أشهب كريم

---

(1) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص347-348.

المغار، ذي إهاب من النهار... إذا استن في مضمار يسبق البروق الخاطفة"[1]. ثمّ أتبع ذلك بوصف الأحمر قائلاً: "كأنّما صبغ بدم الأعداء أديمه ... وله كل يوم ظفر جديد مع أنّه عتيق"[2]، وهكذا يستمر بسرد أصناف الخيل التي قد وردت في مبحث وصف الخيل من هذا الباب.

وقد جاء في رسالة الحلبيّ في وصف تلك الخيول ما يغني عن الشرح والتفصيل، وتقدّم ذلك في مبحث وصف الخيل.

وقــد ركّز الكتّاب في وصفهم للخيل التي ترد في لوحة الصّيد على الصبر على الظمــأ، وشدّة عدوها، ورشاقة حركاتها، فقد تميّزت "بصبرها على الظمأ وشدّة عدوها في النّور والظلما، وسبقها إلى غايات رهانها وثباتها تحت رايات فرسانها"[3].

ويلي ذلك المشهد مشهد وصف الضواري المفترسة التي تختطف نفوس الوحش والأوابد، فجاء في وصفها في رسالة للحلبي مبيّناً هيئتها المرعبة للإنسان قبل الطريدة: "ومــن الفهــود كــل أهرت الشدق، ظاهر الحذق، بادي العبوس، مدبر الملبوس، شثن البــراثن، ذي أنــياب كالمــدى، ومخالب كالمحاجن، قد أخذ من القلق والضّيق إهاباً، وتقمص من بخل الحدق جلباباً، يضرب المثل في سرعة وثوب الأجل به ويشبهه، وتكاد الشّــمس مــذ لقبوها بالغزالة من الوجل لا تطلع على وجهه، يسبق إلى الصّيد مرامي طرفه"[4].

فهذه صورة حيّة ولوحة فنيّة طبيعية رسمها الحلبيّ لذلك الفهد، فقد تعهّد بوصف لــونه، وشــكله، وسرعته، وطبيعة مزاجه، وطريقة وثوبه، وتعيد هذه اللوحة إلى ذهن المتلقّــي مدى اعتناء المماليك بالصّيد وأدواته، حيث إنّ ترويض الفهود وتدريبها على

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 169/14.
(2) المصدر نفسه، 169/14.
(3) المصدر نفسه، 170/14.
(4) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص348.

قنص الصّيود والطرائد يُعدُّ مفخرة في تاريخ ترويض الوحوش واستئناسها، فلولا العناية الفائقة برياضة الصيّد لما تمّ تدريب هذه الضواري.

ومهما يكن، فقد وصف البارنباري لوحة الفهد ولكنّه اختلف مع الحلبيّ، ولا شكّ أن في ذلك أثراً نفسيّاً، حيث أُشير سابقاً إلى تلوين كل شيء بصبغة السعادة التي غلفت نفس السلطان.

فجـــاء في وصفه قوله: "وتليها الفهود الحسن منظرها، الجميل ظفرها، الكاسب نابها وظفرها، تفرّق الليل في أُهبها المجتمعة، وأدركت العواصم في هضابها المرتفعة، وجـــوهها كوجوه الليوث الخادرة، ووثباتها على الطريدة وثبات الفئة المؤمنة على الفئة الكافرة ..."[1].

وقـــد تابـــع الكتّاب وصف هذه الضواري والكلاب المدرّبة لهذه الغاية، فجاء في وصف الكلاب من رسالة البانباري قوله: "ما منها إلاّ طاو الخاصرة وثباته طائلة غير قاصرة، بنيوبٍ كالأسنّة، وساعدين مفتولين تسبق بهما ذوات الأعنّة"[2]، ويصوّر الحلبيّ حركة كلب الصّيد وقد أفزع تلك الطريدة وأدركها بقوله: "فالكلب أعرف باختلاسه منه بكناسه، وأسرع إلى احتباسه من رجع أنفاسه)"[3].

وهكذا صوّر الحلبيّ والبارنباري حركة الضواري المعدّة للصّيد بأدقّ التفصيلات وأحذقها، فقد صوّرا حركاتها وألونها ووثباتها، وشدّة أسرها، وسرعة عدوها، وجاء هذا الوصـــف لـــيكون مقدّمة لوصف الطرائد التي كلف السلطان وأُمراؤه باصطيادها. ولذا تلـــت لوحة وصف الضواري لوحة الطرائد، حيث وصف النعام وحُمر الوحش والظّباء وبقر الوحش، وقد أسهب البارنباري في وصف تلك الطرائد، فوصف النعام وأطال في نعـــوته، فرسم لها لوحة وهي تسابق الرّيح عدواً، وقد خضّب ظليمها واحمرّت أطراف

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 170/14.

(2) المصدر نفسه، 170/14.

(3) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص348.

ريشــه، واشــتدّت قــوائمه، وكأنّها شاركت الطّير في وجود الجناح إلى غير ذلك من أوصاف ونعوت تجعل من لوحة النعامة صورة حيّة[1].

وتابــع ذلك بوصف الظّباء راسماً لها لوحة فنيّة تتموّج فيها الألوان، فهي مسودة الأحداق، مبيضّة البطون محمرّة المتون، ذاكراً جملة من صفاتها ونعوتها[2]، وقد أردف الكاتــب بوصــف حمــار الــوحش وبقر الوحش، وقد أعطى كل صنف منها خواصّه وصفاته.

ومــن الطــريف ذكــره أنّ الكاتــب وصــف الضّواري والطرائد في لوحتين منفصلتيــن خارج نطاق لوحة الطرد، فوصف كل لوحة منفردة ولم يصف مشهد طرد تلك الضّواري لطرائدها، ولكن هذا الحال لم يدم طويلاً، حيث أتى الكاتب بلوحة جديدة تجمــع ضواري الوحش مع نوافر الطرائد، فيصوّر الكاتب ذلك المشهد بقوله: "وعندما تلتقــي حلقــة العســاكر يلحقهــا -خلد الله سلطانه- ومعه الجوارح الصائدة والحوامي الصائلة، والأسهم النافذة، والفهود الآخذة، فتموج الوحش ذعراً، وترى مسالكها قد سدّت عليها سهلاً ووعراً، وضرب دون نجاتها بسور من الجياد والفرسان، وحيل بينها وبين خلاصها بنبال وخرصان، فحينئذٍ تفرّ النعام عن رمالها، والظّباء عن ظلالها، والبقر عن جآذرها، والحمر عن بولهــا"[3].

فهــذه اللوحة جمعت اللوحتين السابقتين مشكّلة جوّاً طرديّاً حيّاً، وفي خضمّ هذه المعركة الوحشية تختلط الضواري بالطرائد، ويكثر الصّيد، ويستمتع السلطان بمشاهدة ذلك المنظر المثير لإعجابه.

---

(1) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 170/14.

(2) انظر المصدر نفسه، 171/14.

(3) المصدر نفسه، 171/14.

وتتـــنوّع تلك الصّيود، وتكثر اللحوم، وتملأ الحقائب، فيذكر الحلبيّ وصف ذلك اللحم بقوله: "فظللنا بين قدير معجّل أو قديد مؤجّل نمشُّ بأعراف الجياد كفوفنا، ونقري من صواف الطير وأصناف الوحش ضيوفنا"[1].

فاللحوم التي تمّ صيدها لم تؤكل في رحلة الصّيد بل بقي منها قسم يعود معهم إلى الحواضر، وهو ما يسمّى بالقديد.

وكما وصف البارنباري ركب السلطان وهو متوجّه إلى مكان الصّيد وسط أمرائه فـــي أبهة الحكم ونشوة الطرد، وصف الموكب ذاته، وقد قفل راجعاً إلى القلعة محفوفاً بكل مظاهر الفخر والعزّة فقال واصفاً ذلك الموكب بعد إتمام تلك الرحلة: " فإذا استكمل أوقات الصّيد من الطير والوحش ثنى ركابه الشريف إلى جهة القلعة المحروسة والقفار قد شرّفت بمرور مواكبه، والوحش والطير قد افتخرت بكونها أصبحت من مكاسبه"[2].

ولـــم يغفـــل الكاتب عن وصف مزاج السلطان بعد مزاولة رياضة الصّيد، حيث نعـــتها بالانشـــراح والبهجة والمسرّة، وقد أثنى على تلك الرياضة، حيث تعود بالفائدة العمـــيمة على القادة والجيوش فهي تكسبهم اللياقة والصّبر والجلد وقوّة المراس، وشدّة الأسر، فقال في هذا السياق: "هذا كله وإن كانت النفس تره لهواً، وتبلغ به كل ما تهوى، ففي طيّه من تمرين الجنود على الحرب ما تشدّ به العزمات وتقوى"[3].

والحقيقة أنّ رسائل الصّيد رسمت صورة حقيقيّة لرياضة الطرد في ذلك الوقت، فقـــد رصـــد الكتّاب في تلك الرسائل لوحات متتابعة لمشاهد الصّيد، حيث يبدأ المشهد الأول باســـتعداد السلطان لاستئناف رحلة الصّيد السنويّة، فيقوم بالإيعاز لأمرائه بنصب الخـــيام خارج الحاضرة، حتى يستكمل جميع لوازم الرحلة من خيل وجوارح وضوار وأدوات أخـــرى، وبعد إتمام هذه الاستعدادات يرسم الكاتب صورة حيّة لتحرّك موكب

(1) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص348.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 174/14.

(3) المصدر نفسه، 172/14.

السـلطان وسط الحقول والوهاد في أبهة الحكم والسلطة، حيث تحفّه الأُمراء من جميع جوانــبه، وتقوم على خدمته، وتسهر على راحته، ويحرص الكاتب على وصف مزاجه النفسيّ، وإضفاء ذلك المزاج على المحسوسات التي ترافقه، فيعكس نفسيّة السلطان التي تغـبطها الفرحة والسُّرور على جميع الأشياء من حوله، وبعد ذلك المشهد يرسم مشهداً آخـر لأول يـوم مـن أيام صيد الطيور، فيصف الجوارح وقد انقضت على الطيور، وأكثرت الأسر فيها، مظهراً تلك اللوحة في إطار من المرح واللهو والنشاط والحيوية، مبدياً مظاهر السرور والبهجة والمسرّات والملذّات على عواطف ومشاعر السلطان.

ويـردف هـذا المشهد بمشهد عودة السلطان مع حلول الظلام إلى مخيّمه وسط الشموع والفوانيس التي يحملها حرّاسه من الأُمراء.

وبعـد هـذه المشاهد ينتقل الكتّاب إلى مشهد آخر يتمثّل في صيد الوحش، حيث تصـوّر الخيل والضواري والكلاب، وتنعت بأوصاف تمكّن المتلقّي من تكوين صورة حـيّة عن تلك الوحوش، ثمّ تردف هذه اللوحة بلوحة أخرى توضّح أطيافاً من الطرائد التـي تـمّ اصـطيادها، وتُدمج هاتان اللوحتان في لوحة واحدة في مشهد الطرد، فتثب الوحوش وتكرّ على طرائدها وتحاصرها في كل المسالك.

وبعـد ذلـك يعرض الكاتب لوصف هذه الطرائد جميعها، وكيفية حفظ لحومها والاسـتفادة مـنها، فمـا تبقـى مـن الشـوي والطهي يتّخذ قديداً، ويحمل إلى المدن والحواضـر.

ويتمـثّل آخر مشهد في رحلة الصّيد بتصوير موكب السلطان وقد أخذ حظّه من الملذّات والمسرّات، وابتهجت نفسه وانشرحت.

قدمات البندق:

إنّ مــن الأمور ذات العلاقة الوطيدة بالصّيد ورياضته ما يُعرف بقدمات البندق وآلــته، وقد جاء في المقترح في المصطلح في صيد الطير لابن البقال قوله في تعريف آلة البندق: "وهي القوس المتّخذ من القنا والقرن، والبندق وهو معروف"[1]، وقد ذكــر القلقشــندي أنّ مــن أدوات الصــيد البــندق وقوسه فقال: "منها قوس البندق – ويسمى الجلاهــق– قــوس يتّخذ من القنا، ويلف عليه الحرير، ويغرّى وفي وسط وتره قطعة دائــرة تسمّى الجوزة توضع فيها البندقة عند الرمي"[2].

والقــدمات جمع قدمة وهي رسائل تخصّ الرمي بالبندق وتصف أحوال الرماة، وتبــيّن أنــواع الطير الذي يتم صيده[3]، وهي تقوم على مبدأ الرياضة السالف ذكرها ولكــنّها لهــا أحوال مخصوصة، فهذه الآلة تقوم مقام الجوارح في صيد الطيور، إذ لا تعدى الطيور إلى الطرائد الأخرى.

---

(1) الـبقال، محمد بن إسماعيل (588هـ/1192م): المقترح في المصطلح في صيد الطير، حقّقه إبراهيم السامرائي، ط1، (1418 هـ/1997م)، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، ص26.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 145/2.

(3) انظر المصدر نفسه، 282/14.

وقد أشار ابن البقال إلى حصر عدد الطير الجليل[1] الذي يرمى بالبندق، فذكر أنّه أربعة عشر صنفاً[2].

وقد اهتمّ المماليك بهذه الرياضة وأولوها العناية الفائقة، فقد عُيّن لها أمير يُدعى البندقدار[3]، وهو الذي يحمل جراوة البندق خلف السلطان أو الأمير، وهناك أمير شكار: وهو لقب على الذي يتحدّث عن الجوارح من الطير وغيرها وسائر أُمور الصيد، ومعناه أمير الصيد[4].

ومن خلال هذه الوظائف التي تُمنح لهذه المهنة يستدلّ على قدر أهميتها في حياتهم، وقد أفصح الكتّاب عن أهمية الصّيد بالبندق، وعدّدوا مراحله، وتحدّثوا عن أحواله وأوقاته، فقد أنشأ الحلبيّ رسالة في الرمي بالبندق استعرض من خلالها أحوال الرماة وأنواع الطير، ووصف الطبيعة الصّامتة والصائتة.

---

(1) وهو المعبّر عنه بطير الواجب، وبه تعنى رماة البندق ونحوها، وهي على ضربين:

• طيور الشتاء: وهي عشرة:

- الكُركي وهو طائر أغبر طويل الساقين في قدر الإوزّة.
- الإوزّ: واحدته إوزّة والمراد هنا الإوزّ المعروف التركي، وهو طير في قدر الإوزّ البلديّ أبيض اللون.
- اللغلغ: وهو دون الإوزّ في المقدار، لونه كلون الإوزّ الحبشيّ إلى السواد، أبيض الجفن، أصفر العين.
- الحُبرج: وهو الحباري.
- =التّمّ: وهو طائر قدر الإوزّ أبيض اللون، طويل العنق، أحمر المنقار.
- الصوغ: وهو طائر مختلط اللون من السواد والبياض، أحمر الصدر وأكثر ميله إلى الخضرة والأشجار.
- العُنّاز: وهو طائر أسود اللون، أبيض الصدر، أحمر الرجلين والمنقار.
- العُقـاب: ومنها الأسود والخوخية، والسفع والأبيض والأشقر ومنها ما يأوي الجبال، وما يأوي الصحارى، وما يأوي الغياض، وما يأوي حول المدن.
- النسر: ذو منسر وليس بذي مخلب، وإنما له أظفار حداد المخالب.
- الأنيسـة: وهـو طائـر حاد البصر، يشبه صوته صوت الحمل، ومأواه قرب الأنهار، والأماكن الكثيرة المياه الملتفّة الأشجار، وله لون حسن، وتدبير معاشه.

• طيور الصيف: وهي أربعة أطيار:

- الكُي: وهو طير أغبر اللون إلى البياض، أحمر المنقار والحوصلة، رجلاه تضربان إلى السواد.
- الغرنوق: وهو طائر أبيض من طير الماء طويل العنق.
- المرزم: وهو طير أبيض في أطراف ريشه حمرة طويل الرجلين والعنق.
- الشبيطر: وهو طائر أبيض، أسود طرفي الجناحين، ورجلاه ومنقاره حُمر.

(ينظر القلقشندي: صبح الأعشى، 2/63-69).

(2) انظر ابن البقال: المقترح في المصطلح، ص27.

(3) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 5/458.

(4) انظر المصدر نفسه، 5/461.

وقبل الخوض في تلك الرسالة نعرض لِمَا تحدّث فيه العمريّ عن وصفه لقوس البندق وفوائده فقال: "وبرز إلى مصارع الطير ومعه من قسي البندق كل صائلة بالحين، صائبة بالعين، قد تلفعت بالحرير، وتوشعت بالحبير، ولبست مثل حلل الربيع، وسلبت من ريش الطير المختلف الألوان ما ظهر عليها حسنه البديع، قد تعققت رؤوسها كأنّها جيمات الأصداغ... ورمت الطيور من أفقها، وأصبح في يد قبضتها كل ملحق بجناحه ومخلق بدمه وجه مسائه أو صباحه"(1).

وهذا يتّضح أنّ البندق تتّخذ لصيد الطيور ولا تتعدّاها إلى غيرها من الطرائد، وقد وصف الحلبي من رسالة له في رمي البندق رياضة الصيد والطبيعة وأسراب الطيور والرماة والصيود، فكانت تلك الرسالة مشهداً حيّاً، ولوحة فنيّة رائقة، فقد بدأها بوصف تلك الرياضة، فقال في حقّها: "الرياضة... تبعث النّفس على مجانبة الدّعة والسكون، وتصونها عن مشابهِ الحمائم في الركون إلى الوكون، وتحضّها على أخذ حظّها من كل فن حسن، وتحثّها على إضافة الأدوات الكاملة إلى فصاحة اللسن، وتأخذ بها طوراً في الجدّ، وطوراً في اللعب، وتصرفها من ملاذّ السموّ في المشاق التي يستروح إليها التعب"(2).

وقد أخذ الحلبيّ يبيّن الفوائد التي يجنيها السلطان من اتخاذ تلك الرياضة، فهي تجعل السلطان في ميدان حرب وإن كان لهواً ولعباً.

وقد رسم الحلبيّ صورة لمنظر طبيعي، وخصَّ بذلك مشهد غروب الشمس حيث تبدأ رحلة قنص تلك الطيور، فأسهب الكاتب في بيان عناصر تلك الصورة، فأدقَّ في بيان ملامحها، فقال في إبراز ذلك المشهد: "فبرزنا وشمس الأصيل تجود بنفسها، وتشير من الأفق الغربي إلى جانب رمسها، وتغازل عيون النور بمقلة أرمد، وتنظر إلى

(1) العمري: التعريف، ص299-300.

(2) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص353-354.

صـــفحات الـــورد نظر المريض إلى وجوه العوّد، فكأنّها كئيب أضحى من الفراق على فرق أو عليل يقضي بين صحبه بقايا مدّة الرمق"[1].

ولا شكّ أنّ هذا الوصف الرائق يبعث في النّفس الرّاحة والطمأنينة، ويشيع جوّاً من المرح والمتعة والملذّات، وقد عدّ الحلبيّ هذا المشهد وما يليه من مشاهد في وصف الطبـــيعة مقدّمة مهيئة للدخول في جوّ الرمي بالبندق وصيد الطّيور. فالطبيعة الصامتة لهـــا أثـــر عميق في مشاعر وأحاسيس الممارسين لتلك الرياضة، وفي هذا السياق يتبع الحلبـــيّ وصـــفه لمظاهر الطبيعة الخلاّبة قائلاً: "إلى أنّ نضا المغرب عن الأفق ذهب قلائدها، وعوّضه عنها من النُّجوم بخدمها وولائدها، فلبثنا بعد أداء الفرض لبث الأهلة، ومنعـــنا جفونـــنا أن تـــرد الـــنوم إلاّ تحلّة، ونهضنا وبرد الليل موشع وعقده مرصّع، وأكليلـــه مجوهر، وأديمه معنبر"[2].

ورصد الحلبيّ مشاهد الطبيعة، واصفاً الأثر الذي تركه السير ليلاً، من شدّة البرد ومـــنع الأعـــين من الغمض، ومحاربة الكرَى ومواصلة السُّرَى وسط أضواء النُّجوم، ولمعـــان الكـــواكب. وهكـــذا مضى الحلبيّ في تصوير تلك المشاهد بريشة فنّان مدرك لجوانب تلك اللوحة حتّى بلغ المكان المضروب للصيّد، فوصف أشجاره وماءه وأنهاره قائلاً: "ونهضنا... إلى حدائق ملتفّة، وجداول محتفة، إذا جمش النسيم غصونها اعتنقت عناق الأحباب، وإذا فرك من المياه متونها انسابت في الجداول انسياب الحباب ورقصت في المناهل رقص الحباب"[3].

وهكـــذا استمرّ الحلبيّ يصف تلك الطبيعة، ويدقّ في وصفها، حتى يخيّل للمتلقّي أنّ كلماتـــه تشـــكّل إطاراً يحوي صورة حيّة لمشهد طبيعي يعيشه، ويتفاعل معه، وهذا المشـــهد لا شـــكّ أنّه يثير في النّفس النشوة والطمأنينة والسكينة، فقد فصّل الحديث في

---

(1) المصدر السابق، ص354.

(2) المصدر نفسه، ص355.

(3) المصدر نفسه، ص355-356.

وصــف الطبــيعة الصّامتة والصائتة، ومزج بينها مزجاً فنيّاً، فوصف الورد والنرجس والريحان والطيور والمياه والأغصان والنسيم وكل ما له علاقة بهذه اللوحة[1].

وقد خصّ الطيور بلوحة أُخرى خاصة، حيث هي مبتغى الرماة وطلبتهم، فرسم لهــا صــورة حيّة وملموسة قائلاً: "وصواف الطير المبيضّة بتلك الملق خيام أو ظباء بأعلى الرقمتين قيام، أو أباريق من فضّة رؤوسها لها فدام، ومناقيرها المحمرّة أوائل ما انسـكب مــن المدام، وكأنّ رقابها رماح أسنتها من ذهب، أو شموع أسود رؤوسها ما انطفأ، وأحسره ما التهب"[2].

وبعــد وصــف هذه المظاهر التي تثير في النّفس مشاعر الغبطة والسعادة، من لــوحاتٍ طبيعــيّةٍ أبــدعها خياله الخلاّق، ورسمها بريشته البديعة، يخلص الحلبيّ إلى وصــف غلمــان صــيده حيث جعل عدّتهم كعدّة الطير الجليل، فقال في وصفهم "وكنّا كالطّيــر الجلــيل عــدّة وكطراز العمر الأول جدّة، ومعهم قسيّ كالغصون في لطافتها وليــنها، والأهلــة في نحافتها وتكوينها، والأزاهر في ترافتها وتلوينها وبطونها مدلجة ومتونها مدرجة"[3].

وقد عدل الحلبيّ عن وصفهم إلى وصف عدّة صيدهم، حيث البنادق المعدّة لصيد الطيــر الجلــيل، فوصف تلك الكرات متقنة الصنعة "ومن البنادق كرات متّفقة السرد، مــتّحدة العكس والطرد، كأنّما خرطت من المندل الرطب أو عجنت من العنبر الورد، ترى كالشُهب في الظّلام، وتسبق إلى مقاتل الطير مسددات السّهام"[4].

وهكــذا هيّأ الحلبي الجوّ إلى بداية ساحة الصّيد، وممارسة تلك الرياضة، بعد أن انشــرحت الصُدور، وأخذت المسرّات مكانتها من النُفوس، ولذّت الأرواح وطابت لهذا

(1) انظر المصدر السابق، ص356.

(2) المصدر نفسه، ص357.

(3) المصدر نفسه، ص357.

(4) المصدر نفسه، ص358.

الجوّ الهادئ الباعث على الطمأنينة والسكينة. فعلى أثر هذه الأحوال قام الكاتب بتوزيع أولــئك الــرماة في أماكنهم متّخذين أهبّة استعدادهم لرمي تلك الطيور والعودة بالظّفر "فاتّخــذ كــل له مركزاً وتقاضى من الإصابة وعداً منجزاً وضمن له السّعد أن يصبح لمراده محرزاً"[1].

وممّــا يلفت النّظر أنّ الحلبيّ جعل لكلّ طير من الطّير الجليل رامياً خاصّاً، فقد جعــل عــدد الــرماة مطابقاً لعدد أصنافها، وممّا يزيد الأمر غرابة أن تجتمع كل تلك الأصــناف فــي بقعــة واحــدة اختارتها جماعة الرماة، وهذا يبرهن على مدى اهتمام الكاتــب بتشكيل لوحته الفنيّة والحرص على ضمان ظهور جميع أجزائها وإن لم تكن هــذه اللوحة في الواقع الملموس، وقد أكّد ذلك الحلبيّ من خلال قوله بأنّ بعض الكتب تعمل رياضة للخاطر فيما يقلّ وقوعه لاحتمال أن يقع أو فيما تمتحن به قوة القريحة[2].

وقــد رســم لكــل طائــر من تلك الطّيور لوحة خاصة به أظهرت جمال لونه وســرعــة حــركته، وقــبل الخوض في هذه اللوحات الجزئية نجتزئ فقرة من رسالة شــمس الدّين بن الصائغ الحنفيّ في الرمي بالبندق لتكشف لنا عن أصناف تلك الطيور التي قد سبق التّعريف بها،فمن تلك الرسالة: "لا يتمّ سرورهم إلاّ برؤية تمّ كبد التمام... ولا يداوي همومهم لغبهم مثل كُيّ لأجنحته الخوافق في الخافقين نشر وطي، ولا تبتهج نفوسهم النفيسة إلاّ بإوزة يزدري دلالها بالكعب المعتزّة، ولا يطرب أسماعهم غير لغات اللغلغــة، حــيث تمتدّ كأنّها مدامة في الزُجاجة مفرغة، ولا يؤنسهم إلاّ الأنيسة الأنيسة والــدُرة النفيسة، ولا يذهب جرحهم غير الحبرج الصّادح، المستوقف بحسنه ينظر كل عــاد ورائــح، تكاد قلوبهم تطير بالفرح عند رؤية النّسر الطائر ... إذا عاينوا عقباناً أعقبهم الفرح ونزح عنهم الترح، وإن كرّ كُركيٌ فرعنهم البوس ... وإن عرض غرنوق غــرقوا في بحار أمكارهم ... وإن لاح ضوّع كالذّهب المصوّغ، ألقوه في الحبال وهو

(1) المصدر السابق، ص359.

(2) انظر المصدر نفسه، ص382.

بدمــه مصــبوغ، وإن مــرَّ مرزم كالخودة الحسناء ضربوا له الآلة الحدباء، وإن مرّ السـبيطر أجنحته كالسّحائب، جاءته المرامي من كل جانب، وإن عنَّ عنز عمدوا إليه حتى يُسقط في يديه"[1].

وقد اجتزأت هذه الفقرة على طولها لحصر لوحة الطّير الجليل الذي يتفانى الرُّماة ويتبارون في رميه، حيث ذكر جميع الأصناف التي تمَّ التعريف بها في موقع سابق من هذا البحث، وكل هذه الطُّيور تُصاد ويؤكل لحمها إلاّ النَّسر والعُقاب، ومن اللافت للنظر حشدها مع الطير الجليل.

وقد رسم الحلبيّ لوحات فرعيّة لكل طير من تلك الطيور تصف مشهد مصرعها، فــأول لــوحة تمثّل مشهد مصرع التم، فقال في وصف ذلك: "فاستقبل أولنا تمائم بدره وعظم في نوعه وقدره، كأنّه برق كرع في غسق، أو صبح عطف على بقية الدجى... عليه من البياض حلّة وقار، وله كرة من عنبر فوق منقار من قار..."[2].

وبعــد وصف تحليقه وجمال ألوانه يتحوّل الكاتب لوصف مصرعه، حيث أرسل إليه الرامي الأول بندقة فسقط وسط الماء صريعاً، وتلت هذه الصّورة لوحة الكي حيث وصــفه بقــولــه: "وتــلاه كيّ نقيّ اللباس، مشتعل شيب الرأس ... ذو غيبة كالجراب ومــنقار كالحـراب"[3]، ثــمّ أتبع هذه اللوحة مشهد مصرعه حيث تعهّد الرامي الثاني بإســقاطه "فثنى الثاني إليه عنان بندقه وتوطاه فيما بين أصل رأسه وعنقه، فخرّ كمارد انقـضَّ علــيه نجم من أُفقه فتلقّاه الكبير بالتكبير واختطفه قبل مصافحته الماء من وجه الغدير"[4].

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 284/14.

(2) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص359.

(3) المصدر نفسه، ص359.

(4) المصدر نفسه، ص360.

وبعـــد تصوير مشهد الكيّ يأتي وصف الإوزّة حيث "حلتها وكناء وحليتها حسناء لهـــا في الفضاء مجال وعلى طيرانها خفّة ..."[1]، إلى أن يصف مشهد مصرعها حيث الرامـــي الـــثالث يتعهد برميها جثّة، ثمّ تتوالى تلك المشاهد التي تصف شقين في كـــل لـــوحة؛ الشقّ الأول يتعهّد بوصف الطائر من حيث لونه وحركاته، وأهم مميّزاته، بينما الشقّ الثاني يهتمّ بوصف مشهد اصطياده، حيث الرّامي المتأهّب، اليقظ الذي يعاجله من النجاة بنفسه. فبعد الإوزّة ترد اللغلغة ثمّ الأنيسة ثمّ الحبرج ثم النّسر ثمّ العقاب ثمّ الكيّ ثمّ الغرنوق ثمّ الصوغ* ثمّ المرزم ثمّ الشبيطر** ثمّ العناز.

وكـــل طير من هذه الطيور يرسم له الحلبيّ لوحة خاصّة مميّزة تحفل بأوصافه، كما تبيّن مكانة مكمن الخطر الذي يستغلّه الرامي عند رميه بكرة البندق، فلكل طير من تلك الطيور منطقة ضعف يصاد من قِبَلِها، بل يسهل رميه من خلالها.

وأشار الحلبيّ إلى الإطار الزمني لتلك الرحلة حيث بدأت مع الغروب واستمرّت حتـــى قبـــيل الصّباح، حيث ورود تلك الطيور الماء في الغلس ولو أنّ بعضها مائي لا يبرح الماء والغياض.

والمثيـــر للدّهشـــة كيفـــيّة صـــيد هذه الطيور قبل وضح النهار، لا بل كيف تمّ تصـــويرها داخل اللوحات السابقة في ذلك الإطار الزمني. والأمر يكمن في بيان قدرة الرماة على رمي تلك الطيور بكرات البندق وإصابتها حيث المهارة والحذاقة مكّنتهم من إصابة أهدافهم بدقّة.

والأمر الآخر اللافت للنّظر تجمع هذه الطيور في بقعة واحدة وتراسلها واحداً تلو الآخر، ولعلّ التفسير الأنجع لهذه الأمور انتظار تلك الطيور بالقرب من مصدر الماء؛

---

(1) المصدر السابق، ص360.

* الصوغ: ورد في رسالة ابن الصائغ الضوع، وهو موافق للسان العرب مادة "ضوع".

** الشبيطر: ورد في رسالة ابن الصائغ السبيطر، وهو موافق للسان العرب مادة (سبطر).

لأنّ الطــيور تــرد المـــاء قبيل طلوع الشّمس، وهنا يستعد الرماة لصيدها وسط غبش السحر.

وفي الحقيقة أن مشاهد تلك الهواية، ووصف تلك الغياض والطيور والرُماة تثير فــي الــنّفس مظاهر السّعادة والسُرور، كما تساعد النفوس المكدودة على تلمّس الحريّة والانطـــلاق، حــيث الأجــواء الفســيحة، والرِّياض المقفرة، وقد جعل ابن الصائغ في ممارســة هــذه الرياضـــة فوائد نفسية وجسميّة أخرى مثل الشعور بالنشاط والانبساط والشجاعة فهي تعود على من يتعاطى الصّيد بالسُرور، فـــ "يحصّل عند متعاطيه نشاطاً ويــزيده انبساطاً، ويشرح خاطره ويسرِّح ناظره، ويملأ عينه قُرَّة، وقلبه مسرَّة، يشجّع الجــبان، ويثــبت الجــنان، ويقــوّي الشهوة، ويسوّي الحظوة ويسوق الظفر، ويشوّق النظر"[1].

فكـــلّ هذه الفوائد التي ذكرها الكاتب يجنيها الرّامي من ممارسة رياضة البندق، حــيث تسمو روحه، وتَطرب أحاسيسه، فهذه الرياضة تعلّمه الصدق والشجاعة، وحفظ العهــد، كما تقوّي علاقة الرُماة فيما بينهم حيث يقضون فترة الصّيد يتجاذبون الحديث والمســامرة، فتقوى لذلك علاقاتهم، وتنمو مودّاتهم وتصفو نفوسهم، وبهذا المعنى يقول ابــن الصائغ: "تقضى رياضات النُفوس السامية بمعاطاة كأسه، ومصافاة ناسه؛ لِمَا فيهم مــن الفــتوّة وكمـــال المروّة، وصدق اللسان، وثبات الجنان، وطيب الأخلاق، وحفظ الميثاق، لا يعرفون غير الصدق وإن كانوا يميلون إلى الملق"[2].

وقــد حفلت كما مرَّ رسالة رمي البندق بثوابت أساسيّة تمثّلت في وصف مظاهر الطبيعة، واختارت الليل إطاراً زمانيّاً لرصد تلك الطُيور، ثمّ تعهّدت بوصف عصابات الطيــر الجلــيل، وأهملــت وصف ما سواه، والعجيب ترتيب هذه الطيور، حيث اتّفقت

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 14/282-283.

(2) المصدر نفسه، 14/283.

رســالة ابن الصائغ مع رسالة الحلبيّ في ترتيب مشاهد تلك الطُيور، وهذا الترتيب لم ينشأ محض صدفة، بل لا بُدّ من تفسير أو تعليل.

كمــا اهــتمّت بوصف الرُماة من حيث حذقهم، ومهارتهم، وسموّ أخلاقهم، ونُبل مشــاعرهم، إضافة إلى الفائدة التي تعود بها هذه الرياضة على الفرد الممارس لها من النواحي النفسيّة والبدنيّة.

وعند المقارنة بين هاتين الرسالتين، نجد رسالة الحلبيّ أكثر صوراً، ومشاهد من رسالة ابن الصائغ، فقد رسم الحلبيّ مشهداً حيّاً لكل طائر من الطير الجليل، فوصف فيه لونه وصفة تحليقه وخصائص حياته وسكناه، وكيفية صيده وصرعه، بينما لم يرسم ابن الصائغ تلك اللوحات بل اكتفى بجمع هذه اللوحات في لوحة واحدة مشتركة مع الحفاظ على ترتيب الطير الجليل.

وقــد لفــت الحلبــيّ الأنظار عندما خصّص لكل طير رامياً لم يشركه فيه أحد، بيــنمــا جعل ابن الصائغ الطيور شركة بين الرُماة يعترضون الطيور دون تخصيص لكل طائر رامٍ.

وقــد اتّفق الكاتبان على وجود جماعة رماة، وهذا أدعى إلى جوّ المرح والمتعة والمــنادمة، وقد أفصح الكاتبان عن دواعي كتابة هاتين الرسالتين، فأنشأ الحلبيّ رسالته رياضــة للخاطر، ولم يكتب بها إلى أحد، ولذا جاءت رسالته مفصّلة لأغراض الرّمي بالبــندق، ومعيناً لا ينضب، يغرف منه كل من أراد وصف تلك الرياضة، بينما رسالة ابن الصائغ أُنشئت من أجل وصف رمي صلاح الدين بن المقرّ المحبوب بن فضل الله، ولــذا أخــذت شخصــيته جانــباً كبيراً من الرسالة ولم يبلغ شأو الحلبيّ في التصوير والتفصيل، فقد أخذ ابن الصائغ حيّزاً كبيراً في إنشاء خطبتها.

ومهما يكن، فإنّ الكاتبين قد اتّفقا على أهمّ أُسس رياضة الرمي بالبندق، ووصفوا مشـــاهد أحداثها، وأحوال رماتها، وأسماء طيورها تماماً كما اتفقا على الأُطر المحيطة بهذه المشاهد من الإطار المكاني والزّماني.

وعلى أيّة حال، فإنّ رياضة رمي البندق تُعدُّ من رياضات الصيد التي شغف بها المماليـك وأولعـوا بها، وعرفوا مواسمها وأماكنها، وطيورها تماماً كما اهتمّوا بصيد الحـيوان. وقد اتّخذت كرات البندق في صيد الطيور، إضافة إلى الطيور الجارحة التي تمّ تدريبها لهذه الغاية.

وبالجملـــة، فـإنّ هـــذه الرياضات أُتّخذت من أجل الترويح عن النفس، وجلب المســرّات، والحصـــول على الملذّات، وإخراج النفس من قيود الأسر وجبروت الحكم، فـتجد الـنفوس في ممارسة هذه الهوايات الأُنس والبهجة والسعادة في منادمة الخلاّن، ومطـــاردة الوحـــوش، وإشـــعال الفوانيس والشموع، ودقّ المزاهر، إضافة إلى جمال الطبيعة ونضارتها.

وقــراءة مثل هذه الرسائل يولّد في الذاكرة أمرين اثنين، حيث يكمن الأمر الأول فـــي تخفّـــي خيوط المديح خلف مظاهر ومشاهد الصيد، فالرسائل في ظاهرها رسائل صـــيد، ولكـــنّ الحقيقة الكامنة فيها تتمثّل في مدح السلاطين أو الأمراء، ففي مثل هذه الرسائل تقرّب من السلاطين والأمراء، وهذا ما يمهّد إلى القول باهتمام السلاطين بالنثر دون الشعر، فقد وجد النثر مكانة في قلوبهم ولاقى هوى في أفئدتهم، فقرّبوا أهله، وهذا الأمر شجّع الكتّاب على ممارسة هذا اللون الأدبي، وعليه فإنّ الكتّاب وجدوا في رسائل الصـــيد فرصـــة مثلما وجدوا في بعض الرسائل الديوانية من قبل في التقرّب من ذوي السلطة، فقد مدحوهم لنيل رضاهم وصلاتهم وأعطياتهم، فظاهر الرسالة وصف الصيد وباطنها يفيض بغرض المديح.

والأمـــر الآخـــر يتمثّل في رسميّة الرياضة، فجميع رسائل الصيد ورسائل رمي البـــندق مـــتعلّقة بالسلطنة والحكّام، وهذا ما قاد الكتّاب إلى العمل على وصف مثاليتها، وخلوّها من الأكدار والأخطار.

فكـــل مشـــهد من مشاهد هذه الرسائل أتى على قدرٍ كبيرٍ من المثالية، فمظاهر الطبـــيعة الصّـــامتة والصّـــائتة يعـــزّ وجودها في الظروف العاديّة، ولوحات الطيور والوحـــوش تـــندر أن تجمعهـــا حدائق الحيوان والطيور، ومواكب السلاطين والأمراء يعصب على ذوي الألباب تخيلها، وخصال رماة البندق يفتقدها كثير من النّاس.

وهكـــذا فكل شيء في هذه الرحلات يطفح بصفات المثالية، والكمال، وهذا يعزّز الغرض السابق الذي جعل من تلك الرسائل مديحاً للسلاطين والأُمراء وذوي النفوذ.

ومهمـــا يكـــن، فـــإنّ رسائل الصّيد ورمي البندق من أكثر الرسائل الأدبية تعلّقاً بالطبـــيعة واحـــتفاءً بمظاهرها، فلا تخلو رسالة صيد من وصف الطبيعة الصّامتة التي تكوّن الدعامة الأساسيّة إلى وصف مشهد الصّيد.

وهذه الرسائل اعتنت بالوصف اعتناءً كبيراً، كما كشفت عن بعض مظاهر الطبّ النفســـيّ، حـــيث تعـــيد مثل هذه الرياضات الثّقة إلى النّفس عند بعض الأفراد، وتقوّي العلاقة بين الممارسين لها، إضافة إلى إيجابيات كثيرة أُخرى تمّ الحديث عنها.

ثالثاً: المفاخرات ـ الأسئلة والأجوبة

اعتنـــى الكتّاب في العصر المملوكي بأدوات الحضارة وأسبابها، فأخذوا يعقدون الرســـائل المطوّلة في وصفها وإبراز مظاهرها، وبيان خصائصها وكشف مواطن القوّة والضـــعف فيها، فجدّوا في عقد المقارنة بين السّيف والقلم، والسّيف والرُّمح، ومختلف العلـــوم والآداب، وهـــذه الرسائل تمثّل ثراءً فكرياً، حيث تعتصر فكر الأديب من أجل الأتيان بكل حجّة ونقيضتها، فتوجد من الأديب شخصيتين متناقضتين تدافع كل شخصية عن مبادئها، وتحطُّ من قيمة مبادئ الأخرى.

والمفاخـــرة لا تعدو كونها رسالة وصفيّة، إلاّ أنّها تتّخذ طابع الحوار والمناظرة والجـــدل وســـوق الأدلّـــة والبراهين، واقتحام الخصم، وافتعال الحجج ومحاولة كسب الانتصار بأي مسوّغ كان، ولو كان في ذلك شتم وهتك لحجج الآخر.

ولـــذا تُعـــدُّ هـــذه الرسالة أدخل في الرمزيّة من نظيراتها رسائل الوصف، فهي تكشف عن آراء الكتّاب بل آراء النّاس في ذلك الزّمان، فمن خلال تلك الأدوات يفصح الكاتـــب عن رأيه؛ ولذا تتحاور وتتجادل وتتبادل الاتّهام تلك الأدوات، مستخدمة نزعة عقلـــية فلسفيّة، فكل أداة بل طرف في المفاخرة يحاول إظهار كل خصلة حسنة وإخفاء كـــل ما سواها، كما يكيل خصال الذّم إلى مناظره وقبيله، وإخفاء كل خصلة حسنة في سيرته من أجل إثارة حماس الطرفين.

ومـــن الملاحـــظ أنّ كل رسالة بُنيت من طرفين أو أكثر، حيث لا بُدّ من وجود قواسم مشتركة في استخدامها أو وظيفتها وحاجة النّاس إليها.

وقـــبل استباق الأحداث والحكم على النتائج، لا بُدّ من تصفّح بعض تلك الرسائل والاطّـــلاع علـــى مضـــامينها، ومعرفة الأساليب المتّبعة في بيان محتوياتها، وصياغة ديباجـــتها. فقد كتب الأديب جمال الدّين بن نباتة رسالة في المفاخرة بين السّيف والقلم،

حشـــد فيها كثيراً من الأدلّة والبراهين، مبيّناً بل كاشفاً عن ثقافة موسوعيّة، وبراعة في تســويغ الأحكـــام، وقـــد تفنّن في كثير من المغالطات والمهاترات التي تدعم حجج كل طرف منهما.

وقد عمد كل من الخصمين إلى اتّباع أقوى الأدلّة وأعظمها أثراً في النّفس لحسم النـــزاع لصـــالحه، حـــيث قصد القلم مسلك الكتاب الحكيم في محاولة إلى كسب الرأي العـــام؛ لِمَا للقرآن الكريم من أثر في نفوس الجمهور فقال: "﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطِرُونَ مَا أَنْـتَ بِـنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾* الحمد لله الذي علّم بالقلم وشرّفه بالقسم، وخطّ به ما قدَّر وقســم، وصـــلى الله علـــى ســـيدنا محمد الذي قال جفّ القلم بما هو كائن وعلى آله وصحبـــه ذوي المجد المبين..."(1).

فالفقـــرة تلك تبيّن تحميداتها مكانة القلم، فقد وقف القلم خطيباً مبيّناً حججه وأدلّته علـــى علوّ مكانته، وحوزه قصب السبق في الأمور كلها، فجعل الكاتب من القلم خطيباً مـــوفقاً فـــي براعة الاستهلال، حين استهلّ خطبته بالأدلة النقلية القوية، فجعل من تلك المقدّمـــة دليلاً ظاهراً وحجّة باهرة على علوّ مكانته حيث أشاد به القرآن الكريم والسنّة النبويّة، فقد صرّح بالآية الكريمة بل الآيات الكثيرة التي مجّدت القلم حيث أقسم المولى بـــه وبـــيّن فضله في أُمور التعليم حين منّ الله تعالى على خلقه بالعلم وفي هذه الآيات حجة كبيرة، ودليل قاطع على علوّ مكانة القلم، ولم يقف الحدّ عند ذلك بل نفذ القلم إلى الأحاديث والسنّة النبويّة المطهّرة التي ذكرت القلم وبيّنت فضيلته وسبقه فـــي الوجود.

وشرع القلم في بيان فضائله، معتمداً أُسلوب الإقناع والتأثير، جامعاً كل فضيلة، متّخذاً أُسلوب المنطق طريقاً، فقد بدأ بالدليل الأقوى لقطع لسان السيف وكسب عواطف الجمهـــور قـــائلاً: "فإنّ القلم منار الدين والدّنيا، ونظام الشّرف والعليا ومجاديح سحب

---

* سورة القلم، آية 1، 2.

(1) ابـــن حجّة، تقي الدين أبو بكر علي الحموي (ت837هـــ/1433م): خزانة الأدب وغاية الأرب، شرح عصام شعيتو، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط2، 1991، 230/1.

الخيـــر إذا احـــتاجت الهمم إلى السقيا، ومفتاح باب اليمن المجرّب أعيا، وسفير الملك المحجب..."[1].

فأخذ القلم يبيّن خصاله الكريمة، ومكانته العليّة، فقد بدأ بذكر الكليات من الأُمور، حـــيث يُعدّ منار الدين والدّنيا، فجمع بين الأُمور جميعها، فهو صاحب الشرف الرفيع، ومسبّب الخير العميم، ومفتاح كل خير، فضلاً عن كونه لسان الملوك وخطيبها، ويرجع الفضل إليه في إقامة سلطان الله تعالى في الأرض، حيث يحكم من خلاله بالعدل، وهو أقدر على القيام بالمهمات الصعبة والبعيدة، وهو قادر على مجابهة الأعداء في منازلهم وبلادهم.

وقـــد عدل القلم عن بيان فضائله وطيب خصاله إلى مهاجمة السيف تصريحاً لا تلميحاً فقال: "لا يعاديه إلاّ من سفّه نفسه ولبس لبسه، وطبع على قلبه، وفلّ الجدال مـــن غربه، وخرج في وزن المعارضة عن ضربه، وكيف يُعادى من إذا كرع في نفسه قيل ﴿إِنَّـــا أَعْطَيْـــنَاكَ الكَوْثَرَ﴾* وإذا ذكـــر شانئـــة السيـــف قيـــل ﴿إِنَّ شَانِئَـــكَ هُـــوَ الأَبْتَـــرُ﴾**"[2].

وبعد هذه الجملة من الحجج المزيّنة التي أفصح القلم عنها وبهرجها، وفصّل في جملـــتها استفزّ خصمه السيف الذي لا يرى في فعله إلاّ القطع، وليس في منطقه مكان للعقـــل أو المجاملة أو اللباقة، فهو لا يعرف إلاّ منطق القوّة والشدّة والقطع والبتر؛ ولذا صـــوّره الكاتـــب بالخطـــيب المتهوّر الذي لا يعرف طريقاً للمداهنة أو الملق فقال في وصف إثارة القلم للسيف حيث وصف حركته وتوتّره، وتشنّج أعضائه "فعند ذلك نهض السيف قائماً عجلاً، وتلمّظ لسانه للقول مرتجلاً، وقال: بســـم الله الرحمـــن الرحيـــم...

---

(1) المصدر السابق، 230/1.

* سورة الكوثر، آية 1.

** سورة الكوثر، آية 3.

(2) ابن حجّة: خزانة الأدب، ص231-232.

﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إنّ الله قــوي عزيــز﴾* الحمد لله الذي جعل الجنّة تحت ظلال السُيوف، وشرّع حدّها في ذوي العصــيان، فأغصّتهم الحتوف، وشيد مراتب الذين يقاتلون في سبيله صفّــاً كأنّهم بنيان مرصوص، وعقد مرصوف ..."[1].

والنّاظــر فــي تلك الخطبة التي أسرع في بنائها السّيف يلمح براعة الاستهلال، حيث ركّز اهتمامه في صياغة تلك الخطبة على الحجج القوية الدامغة، فقد عمد إلى ما عمــد إلــيه نظيــره القلــم فاجتهد في تحصيل ما يخدم قضيته من آي الذكر الحكيم، والأحاديث النبوية الشريفة التي جاءت في ذلك الباب.

وبهــذا الأمر تلحظ بداية تلك المفاخرة، حيث بنيت على حشد الأدلّة والبراهين، وبــيّن كل منهما فضائله التي يفضل بها نظيره، فهبّ السيف بعد تلك الخطبة إلى ذكر فضــائله الســائرة بين النّاس قائلاً: "فإنّ السيف زند الحقّ الوري، وزنده القوي، وحده الفــارق بين الرشيد والغوي، والنجم الهادي إلى العزّ وسبيله، والثغر الباسم عن تباشير فلــولــه، به أظهر الله الإسلام، وقد جنح خفاء وجلى شخص الدين الحنيفي، وقد جمح جفــــاء وأجــرى سيوفه بالأباطح ... وحملته اليدّ الشريفة النبويّة، وحفته على الأقلام بهذه المزية..."[2].

والحقيقة أنّ السيف جدّ في طلب كل فضيلة وبيان كل مزيّة على القلم، وأحصى من الفضائل ما أثار حفيظة القلم، حيث أبدع في حجّته حين قال إنّ النبي ﷺ استخدمه ولــم يمســك بالقلم، فتلك فضيلة لا توازيها فضيلة، وقد اتّخذته الملوك حصناً لممالكها، وقـــد أطــال الســيف في ذكر خصاله، وأغاظ القلم وأثاره بوصفه بالجبن والاستكانة ملمحّــاً تارة ومصرحاً أخرى، وهذه الحال لم ترق للقلم، وأدرك مرامي السيف، وأحسّ

---

* سورة الحديد، آية 25.

(1) ابن حجة: خزانة الأدب، 230/1.

(2) المصدر نفسه، 232/1

باستمالة الجمهور إلى صفّ السيف، وعندئذٍ جدّ في استدراك الأمور فقال: "أيها المعتزّ بطبعه، المغترّ بلمعه الناقض حبل الأُنس بقطعه، الناسخ بهجيره من ظلال العيش فيأ الشراب الذي ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآن ماءً حتّى إذا جاءهُ لم يجدهُ شيئاً﴾* الحبيس الذي طالما عدت عليه عوائد شرّهِ الكمين الإبليس الذي لو أمر لي بالسُّجود لقال ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾** أتعرّض بسبي، وتتعرّض لمكايد حربي"[1].

والطريف في تلك المحاورة استثارة الخصم وخروجه عن طور العقلانية، حيث أخرج الكاتب القلم المتّزن الحليم عن طوره، وجعله يقصد أُسلوب الشتم وإطالة اللسان، بما لا يليق، حيث أوجعه السيف فلم يستطع أن يتمالك نفسه، ويسيطر على ضبط أعصابه، ولذا أخذ يكيل من عبارات الشتم إلى السيف، وهذه صفة إنسانية لا شكّ فيها، ورمزيتها واضحة، ومهما يكن من أمر فإنّ القلم استمرّ في غيّه مقارناً خصاله بخصال السيف قائلاً: "أتفاخرني وأنا للوصل، وأنت للقطع، وأنا للعطاء وأنت للمنع، وأنا للصلح وأنت للضراب، وأنا للعمارة وأنت للخراب، وأنا المعمّر وأنت المدمّر، وأنت المقلّد وأنا صاحب التقليد، وأنت العابث وأنا المجوّد..."[2].

وهكذا أخذ القلم يوازن بين خصاله الحميدة وخصال ضدّه الشنيعة معتمداً أُسلوب الطباق لإظهار فساد صفات السيف، وقد توسّع القلم في ذكر تلك المتباينات، فلم يترك مثلباً من مثالب السيف إلاّ ورصدها، فوصم السيف بالعار والجبروت وعدم الحكمة والقسوة وعي الكلام، فأدخل في وصفه الصفات الجسمية والنفسية الشائنة.

وبعد تلك المقالة التي أصدرها القلم وسمع بها السّيف، احتدّ وتمالكه الغضب، وصبَّ جام غضبه على خصمه القلم، فوصفه بأقبح الصّفات، وكال له عبارات الشتم والسبّ وهدّده بقطع دابره، وهكذا حمي وطيس المعركة بينهما فقال السيف: "أيها

* سورة النور، آية 39.

** سورة ص، آية76.

(1) ابن حجة: خزانة الأدب، 234/1.

(2) المصدر نفسه، 234/1.

المــتطاول علــى قصــره، والماشــي على طريق غرره، والمعرض مني إلى الدّمار، والمتحرّش بي، فهو كما تقول العامة: (ذنبه قشّ ويحترس بالنّار) لقد شمّرت عن ساقك حتــى أغـرقتك الغمــرات، وأتعـبت نفسـك فـيما لا تـدرك إلى أن أذهبها التعب حســرات..."[1].

وهكــذا أخــذ السيف يبيّن ويكشف عن سقطات القلم وعثراته، وقد حوّل السيف كــل فضــيلة للقلم رذيلة، وكل منقبة حسنة مثلبة فاحشة، وحصل الأمر ذاته في كلام القلم، حيث حوّل كل صفة حسنة للسيف إلى صفة رذيلة، وهكذا تناول كل منهما مناقب صاحبه وأخرجها في ثوب الصغار والذلّ.

فقــد عمــد السيف إلى اعتبار كل فضيلة من فضائل القلم ذلاً وضعفاً واستكانة، وهبوط همّة، بينما عدّ القلم كل فعل للسيف حماقة وقسوة وجبروت وعدم احتكام للحكمة والمنطق.

وقد أخذ الجدال بين القلم والسيف كل مأخذ، وحشد كل منهما ما بوسعه من حجج ودلائل، واستنارا بما أوتيا من فصل الخطاب، وتوقّد فكر، وحدّة ذهن، وقد اتّصف كل مــنهما بصفات نمّت عن شخصه، وكشفت مكنون سرّه، وأظهرت ما يخفيه صدره، من الحقد والحسد.

والحقــيقة أنّ هــذه الرســالة تظلم إذا ما وقفنا عند دراسة الحوار الذي دار بين الســيف والقلم مجرّداً عن الجوّ النفسي الذي تعبق به أجواؤها، فليس من الحكمة الحكم علــى مادتهــا بالوصف المجرّد، والوقوف عند طرفيها السيف والقلم بالصورة الجليّة التقلــيدية. والحــقّ أنّ ابن نباتة قد لفت الانتباه إلى قضية حسّاسة في الدولة المملوكيّة، تكمن في المنافسة التي كانت بين طرفي الدعامة الأساسية لتلك الدولة: أرباب السيوف وأربــاب الأقلام، فقد قامت الدولة في ذلك الزمن على هذين الحزبين، ومن تلك العلاقة

---

(1) المصدر السابق، ص236.

الناشـــئة بيـــنهما تمخّضـــت الشحناء والمفاخرة، فكل منهما رأى أنّه أحقّ من صاحبه بالـــتقدمة والعـــناية والتقـــرّب لـــدى السلطان، ورأى في حزبه نصرة الدولة وعزّتها وتمكينها.

وقـــد أنهى الكاتب تلك المجادلة والمشاكسة بين الطرفين بالتصالح، حيث القضية خطيـــرة لا تحـــتمل الحكم لأحدهما على الآخر، فكلا الطرفين مهم، وذراع قويّ للدولة والســـلطنة، ولا يمكن الاستغناء عنه، ولو كانت الرسالة مجرّد وصف وامتحان قريحةٍ لحكم الكاتب لأحدهما على الآخر وربّما رجّح القلم على السيف كونه من أرباب الأقلام، ولكن الخطّ السياسي يحرّم ذلك ويقطع كل ذريعة تشي بإثارة الشحناء بين ذلك الحزبين.

وقـــد أبدى الكاتب تعاطفه مع القلم فقد جعله البادئ بالموادعة والمصالحة حيث قـــال: "فلا تشمت بنا الأضدّاد، ولا تسلّط بفرقتنا المفسدين في الأرض، إنّ الله لا يحبّ الفساد واغضض الآن من خيلائك بعض هذا الغضّ، ولا تشك أنّي قسيمك ولو قيل لك ﴿يـــا داود إنّـــا جعلناك خليفة في الأرض﴾...* فاذكر محلنا من اليدّ الشريفة السلطانية الملكية المؤيديّة ..."[1].

وأخـــذ القلم في الاعتذار عن مقالته السابقة، وذكر كل ما يسوّي الخلاف بينهما حتـــى استمال السيف وأرهف حدّه وجدّ في اعتذاره الملفّق بالعتاب الجارح قائلاً: "فإنّ السّيوف معروفة بالخلل ثمّ قال: أيها الضعيف الجبّار، البازغ في ليل المداد نجماً، وكم فـــي النجوم غرار، لقد تظلّمت من أمر أنت البادي بظلمه، وتسوّرت إلى فتح باب أنت الســـابق إلـــى فـــتح خـــتمه، وقد فهمت الآن ما ذكرت من أمر اليد الشريفة، ونعم ما

---

* سورة ص، آية 26.

(1) ابن حجّة: خزانة الأدب، 239/1.

ذكـــــرت، وأحســـن بما أشرت ﴿وما أنسانيه إلاّ الشيطان أن أذكره﴾*، وقد تغافلت عن قولك الأحسن ..."[1].

وهكـــذا بدأت المصالحة بين القلم والسيف من أنفسهما دون وسيط من الخارج، وفـــي ذلـــك ملمح رمزي آخر، حيث إنّ الشحناء بين السلطتين: العسكرية والمدنية لا يطول مداها، وإن وشت تلك الرسالة بوجودها وتمكينها في النفوس.

وقد اعتاد الكتّاب في ذلك الزمان على جعل قسم من رسائلهم على شتّى أنواعها في مدح السلطان، فقد وجب نصيبه من تلك الرسائل، ولذا امتدح ابن نباتة السلطان في رســـالته، وجعل الحزبين: أرباب السيوف وأرباب الأقلام في خدمته، بل جعلهما يديه، وعـــندئذٍ نشـــط في بيان فضائل السيف والقلم والتغاضي عن سلبياتهما؛ لأنّ المقام مقام مـــدح، ولـــم يحتمل القدح وذكر تلك الهنّات، وقد جعله القاضي بين السيف والقلم، ولذا رضيا بحكمه العادل، وفي ذلك إشارة سياسية إلى المساواة بين هذين الحزبين.

وقـــد سطّر ابن الورديّ معاصر ابن نباتة رسالة في السيف والقلم حاكت رسالة ابن نباتة في التركيب والمعنى، فقد انطق القلم بالحجج ووصفه بالحكمة والعقلانية، فبدأ أدلّـــته بآي الذكر الحكيم والأحاديث النبوية الشريفة الشاهدة بفضل القلم، وقديم سلطانه حيث حاز قصب السبق في الوجود، وهذه حجّة طالما اعتدّ بها القلم وعدّها من فضائله فقال: "فإنّ للقلم قصب السباق، فالكاتب بسبعة أقلام من طبقات الكتاب في السبع الطباق، وجرى بالقضاء والقدر، وناب عن اللسان فيما نهى وأمر"[2].

وقـــد أســـهب القلم في سرد خصاله الكريمة، وصفاته الحميدة، فردّ عليه السيف مفضياً بالأسلوب نفسه، حيث عمد إلى الأدلّة والحجج القوية المستندة إلى القرآن الكريم والســـنّة الشـــريفة، فأكثر من نعت ذاته وبيان خصاله فقال: "فإنّ السيف عظيم الدولة،

---

* سورة الكهف، آية 63.

(1) ابن حجّة: خزانة الأدب، 239/1.

(2) ابن الورديّ: الديوان، ص79.

شـــديد الصولة، محا أسطار البلاغة، وأساغ ممنوع الإساغة، من اعتمد على غيره في قهـــر الأعداء تعب وكيف لا؟ و "في حدّه الحد بين الجدّ واللعب"*، فإن كان القلم شاهداً فالسيف قاضٍ"[1].

واستمرّ السيف في غيّه وجبروته حيث لا منطق له إلاّ منطق البطش والشدّة، ولا عقــل إلاّ الأخــذ بالرؤوس والنفوس، وقد أثار بحدّته سماحة القلم، وأخرجه عن طوره وأخلاقه، فأخذ يكيل له الشتم بلسانه الحاد، وفصاحته المعهودة قائلاً: "يفاخر – وهو قائم عن الشمال – الجالس على اليمين، أنا مخصوص بالرّي وأنت مخصوص بالصّدى، أنا آلـــة الحـــياة وأنـــت آلة الردى، ما لنت إلاّ بعد دخول السعير، وما حددت إلا عن ذنب كبير، وأنت تنفع في العمر ساعة وأنا أفني العمر في الطاعة..."[2].

فأخذ القلم في بيان خصاله الكريمة مقابلاً بها خصال السيف الذميمة، ومن خلال تلك المقابلة طمح القلم إلى كسب الرهان والانتصار على خصمه واستعطاف الجمهور، وسرعان ما ثار السيف قائماً مهدّداً القلم ومقلّلاً من شأنه ومحقّراً أمره، قائلاً: "وطالمـــا جعلت بعض فراخي بصددك وهي السكين، فأصبحت من النفاثات في عقدك يا مسكين، فأخلت من الحشو ختمانك وشقّت أنفك وقطعت لسانك"[3].

وقـــد أفصح ابن الورديّ عن قضية خطيرة في المفاخرة، فقد صرّح بوظيفة القلم الأساسية في الدولة المملوكية حيث ديوان الإنشاء والمحاسبة والقضاة والنقد، فقال على لســـان الســـيف: "إن كنت للديوان محاسب مهموم، أو للإنشاء فخدام لمخدوم، أو للبليغ فساحر مذموم، أو للفقيه فناقص في العلوم"[4].

• عجــز البــيت لأبــي تمّام وصدره: السّيفُ أصدَقُ أنباءً مِنَ الكُتُبِ. أبوتمّام، حبيب بن أوس (231هــ/845م): الديوان بشرح الصولي، دراسة وتحقيق خلف رشيد نعمان، وزارة الإعلام – الجمهورية العراقية، 189/1.

(1) ابن الورديّ: الديوان، ص80.

(2) المصدر نفسه، ص81.

(3) المصدر نفسه، ص81-82.

(4) المصدر نفسه، ص82.

وفـــي هـــذه الفقرة نقدٌ لاذع لأرباب الأقلام، ومهما يكن فإنّ هذه المفاخرة تثبت قضـــية المنافســـة بـــين أرباب السيوف وأراب الأقلام، فقد بحث كل منهما عن التقدمة والأسبقيّة.

وقـــد اتّفـــق الكاتبان على عنجهية السيف ورقّة الأقلام وعيّ السيوف وفصاحة الأقلام، وبطش السيوف وخداع الأقلام.

فـــالأقلام عـــادة هـــي الـــبادئة بالخطاب وذكر فضائلها وسبقها، وحيازتها لكل فضـــيلـــة، وهـــي المتّصفة بالحلم والأناة، المحتكمة لأسباب المنطق والعقل، المتمسّكة بأهـــداب الحكمة، المنعوتة بخصال الكرم وحسن السجيّة، المعروفة بالتواضع والتنازل عـــن الجـــدال فـــي مواطن الصّدام، البادئة بالمصالحة وفضّ الخصام؛ ولذا جعل ابن الـــورديّ القلم البادئ بالتنازل عن نبرة الخصام العالية قائلاً: "فلمّا رأى القلم السيف قد احتدّ ألان له من خطابه ما اشتدّ وقال: أمّا الأدب فيؤخذ عني وأمّا اللطف فيكتسب منّي، فـــإن لنتَ لنتُ، وإن أحسنتَ أحسنتُ، نحن أهل السّمع والطّاعة، ولهذا يجمع في الدواة الـــواحدة مـــنا جماعـــة، وأمّـــا أنتم فأهل الحدّة والخلاف، ولهذا لم يجمعوا سيفين في غلاف"[1].

ومـــرّة أخـــرى يفصـــح ابن الورديّ عن شفافيّة رمزيّته، فقد أشار صراحة إلى خطـــاب مباشـــر دائر بين أرباب الأقلام وأرباب السيوف، فنعت أرباب الأقلام بالسمع والطاعـــة واللطـــف، ولهذا فهم يجمعهم الديوان كما تجمع الأقلام الدواة الواحدة، بينما جعل السيوف أكثر حدّة مستخدماً التورية في صياغة عباراته ومكثراً منها.

وقـــد كشـــف ابن الورديّ عن مثالب كثيرة لكلا الطرفين، فانتقد الكتّاب والنقاد والأدبـــاء مـــن خـــلال قـــول الســـيف فـــي محاججـــة القلم: "مه فقلم البليغ بغير حظ

---

(1) المصدر السابق، ص83.

مغـــــزل"[1]، وهكذا استمرّ الحوار والجدال بين السيف والقلم في جوّ من الخصومة المستحكمة والبغضاء المستفحلة بينهما، وقد احتال القلم وأكثر من مقارعة السيف بلسانه الطلق، إلاّ أنّ السيف بقي صلداً أمامه، ولم يظهر جانباً من اللين أو التعاطف، لا بل زاد فـــي هيجانه وعنفوانه وعنجهيته. فالقلم هدّأ من نبرة خطابه والسيف أجّجها، واستمرّت الحـــال كذلك حتى نصّب الكاتب نفسه قاضياً بينهما، ولكن ليس من المؤمّل أن يصدر حكماً في القضية يقضي بترجيح أحدهما على الآخر؛ لأنّ القضية أخطر من أن يقضي لأحـــدهما علـــى نظيره، ويجعل أحد الحزبين أفضل من مفاخره، ولو حصل مثل هذا الحكم لأيقظ ابن الورديّ مكامن الحقد والمنافسة، وأشعل نار الفتنة، ولكنّ الكاتب أذكى مـــن أن يكـــون الضـــحيّة، فأرجـــأ الحكم للسلطان عندما أدرك أنّ كلا الطرفين محقّ بالـــتقدمة، فقال: "فلمّا رأيت الحجّتين ناهضتين والبينتين بينتين متعارضتين، وعلمت أنّ لكل واحد منهما نسبة صحيحة إلى هذا المقرّ الكريم ورواية مسنده صحيحة عن حديثه القـــويم لطّفـــت الوسيلة ودقّقت الحيلة حتى رددت القلم كنّه، وأغمدت السيف فنام ملء جفـــنه، وأخـــرّت بيـــنهما الترجيح، وسكتّ عمّا هو عندي الصحيح إلى أن يحكم المقرّ المشار إليه بينهما بعلمه"[2].

ومرّة أُخرى يدرك المتلقّي أنّ الرسائل أنشئت بدافع المدح إلى جانب الكشف عن ســـرّ من أسرار العلاقة القائمة بين أرباب السيوف وأرباب الأقلام، فابن الورديّ يوجّه نقـــداً مبطّـــناً حيث لم يستطع الإفصاح عمّا في خلده ويصرّح بالحكم خوفاً من السلطة والحكم.

والحقـــيقة أنّ ابن الورديّ أفصح عن الحكم تلميحاً واكتفى به عن التصريح، فقد نعـــت القلم بكل خصال الأدب والسماحة والتواضع، بينما أسبغ على السيف كل خصال

---

(1) المصدر السابق، ص84.

(2) المصدر نفسه، ص85-86.

الحماقـــة والســـطوة وغياب العقل، في ذلك رأي صريح بالاستمالة إلى القلم والحكم له بالتقدمة.

وقـد أرجأ الكاتب الحكم العلني بينهما للمقرّ؛ لأنّ حكمه لن يكون إلاّ في صالح الطـرفين، فلا يعقل أن يقدم أحدهما على الآخر؛ لحاجته إليهما جميعاً في بناء سلطته، فليس من الحكمة أن يقدّم أحداً على الآخر.

وقد وجد في هذه المحكمة فرصة لمدح المقرّ المشار إليه، فقد نعته بالعلم والحلم والــوقار والسكينة، فقال: "ويسكن سورة غضبها الوافر ولجاجهما المديد ببسيط حلمه، ويعاملهما بما وقر في صدره من الوقار، وسكن في قلبه من السكينة"(1).

وبالجملـــة فـــإنّ المفاخرة بين السيف والقلم واضحة المعالم بارزة الرُسوم، فاتّبع القلــم أُســلوب الــبلاغة والفصاحة في كسر شوكة خصمه، بينما اعتمد السيف أُسلوب الــتهديد والتهوُّر والترهيب والوعيد، واتّصف القلم بالخداع وتوقّد الذهن، بينما اتّصف السيف بالحدّة وسرعة الغضب والعنجهية.

ومهما يكن، فإنّ الرمزية المختفية خلف ركام تلك المفاخرات لا شكّ أنّها ظاهرة لمــن أراد أن يكشـــف عنها حجابها، فأرباب الأقلام في الدولة المملوكيّة يطمحون إلى المكانة العليا في السلطنة المملوكيّة. فالكتّاب والشعراء والنقّاد والقضاة يسعون إلى نيل الحظـــوة لـــدى السلطان وكفلائه، وكذلك الأمر ذاته مع أرباب السيوف، فهم يطمحون كـــذلك إلى نيل الدرجة العليا والأسمى في تلك السلطنة، وقد وازن السلطان بين هاتين الطائفتين لحاجته إليهما جميعاً.

ومـــن الضروري التنبيه على أنّ مثل هذه المفاخرات لا بدّ أن تفصح عن جانب من المنافسة الجارية بين الطائفتين حيث كانت هناك شحناء، وتحاسد، وتسابق إلى كسب الودّ وحيز قصب السبق إلى نفس السلطان؛ ولذا يلاحظ على الكتّاب في معظم رسائلهم

(1) المصدر السابق، ص86.

أُسلوب المدح الظاهر أو المبطّن، فلا تخلو رسالة في الأرجح من تصيّد ودّ الحاكم وكسبه.

ولهذا يمكن القول بأنّ رسائل المفاخرات بين السيف والقلم تكشف من قريب أو بعيد عن علاقة أرباب السيوف وأرباب الأقلام بالقادة أو كفلائهم من جانب، وعلاقتهم مع بعضهم من جانب آخر.

والعلاقة في الحقيقة لا تظهر بمظهر الصّفاء التّام، بل هناك شوائب تكدر صفو العلاقة، ولكن الشوائب تلك مختفية خلف جدار مصطنع يُدعى عدل السلطان ومساواته بينهما.

وقد صوّر الكتّاب تلك الخصومات بأدقّ تفاصيلها، ولكنهم لم يتمكّنوا من إصدار الحكم صراحة على الرغم من إصدار أحكامهم الضمنيّة القاضية بترجيح كفّة أرباب الأقلام على أرباب السيوف نظراً لمكانتهم في طبقة أرباب الأقلام.

وقد أجرى القاضي علاء الدّين بن غانم مفاخرة بين الرمح والسيف، وكلاهما من لوازم أرباب السيوف؛ ولذا فإنّ الرمزية فيها أدقّ وأخفى، ولكن الأمر يتكشّف عند مطالعة مقدمة المفاخرة، حيث يقول الكاتب "بعثت إليك رسالتي وفي ذهني أنك الكمي الذي لا يجاريك ندٌّ، والشجاع الذي أظهر حُسن الإئتلاف لو شكّ الضد ... وها هي احتوت على المفاضلة بين الرمح والسيف ... وقد أطرقتهما حماك لتحكم بينهما بالحقّ السويّ، وتنصف بين الضعيف والقوي ..."(1).

فالناظر في تلك الفقرة، يلمح ما قصد إليه الكاتب، حيث حدّد هدفه بوضوح، فهو يريد من صديقه الصفديّ الحكم بين الأداتين ليستمطر أفكاره، ويمتحن قريحته بالردّ على تلك الرسالة، فهي رسالة أشبه برسائل الألغاز التي تكون في أغلبها امتحاناً للقريحة، وإثارة لأفكار الآخرين.

---

(1) الصفدي: أعيان العصر، 3/493-494.

ومهمـــا يكن فإنّ السيف بدأ بذكر فضائله الخاصة، حيث الرمح يشترك معه في فضــيلة قــتال الأعداء؛ ولذا تصيّد السيف الخصال التي مكّنته من سحق حجج خصمه الــرمح فقــال: "أنـــا الذي لصفحتي الغرر ولحدّي الغرار، وتحت ظلالي في سبيل الله الجــنّة، وفـــي إطلالـــي على الأعداء النار، ولي البروق التي هي للأبصار والبصائر خاطفــة ...فهــل يــتطاول الرمح إلى مفاخرتي وأنا الجوهر وهو العرض، وهو الذي يعتاض عنه بالسهام وما عني عوض"(1).

ومن هنا يلحظ التشابه بين هذه المفاخرة والمفاخرتين السابقتين من ناحية صياغة عــبارتها وســبك نصّها، فقد وقف الأول خطيباً ذاكراً فضائله وطيب خصاله، ثمّ ثنى عــنانه نحو قذف الخصم وتحطيم مثله، ونقض حسناته، وإظهار زيف حقيقته؛ ولذا أخذ الســيف يبيّن عظيم خصاله، وشدّة أسره وفتكه بالأعداء، مقدّماً نفسه على الرمح الذي نعــته بالعــرض الذي ليس له مكانة السيف ودرجته، وأخذ يذم الرمح ويكشف خصاله الذميمة، وصفاته الشائنة، فوصفه بالشؤم فقال: "كم حملته من يد فكانت حمالة الحطب، وكــم فــارس كسبه بحملاته فما أغنى عنه ما كسب، حدّه ليس من جنسه، ونفعه ليس مــن شأن نفسه"(2).

والحقــيقة أنّ أسلوب المحاجّة هنا أضعف من أُسلوب المحاجّة بين السيف والقلم فــيما سبق، فهذه المفاخرة لم تبدأ بالحجج القوية المستندة إلى القرآن الكريم التي تقوّي الحجة وتبرهن على صدقها وقوّتها.

ومهما يكن، فإنّ الكاتب جعل من السيف خطيباً منطقياً أفصح عن محاسنه وقبّح حســنات خصــمه، وهــذا ديدن الكتّاب وعادتهم، فقد تعوّدوا في المفاخرات أن يحوّلوا الحقائــق باطلاً والباطل حقيقة حسب ما تقتضيه الحجّة والدليل، وهذا الأمر كشف عن

(1) المصدر السابق، 494/3.

(2) المصدر نفسه، 494/3.

قـدرتهم في التصرّف في الأُمور كلها، فلم تعجزهم حجّة أو دليل بل لديهم القدرة على تحويل تلك الحجة لصالحهم أو دحضها ونقضها ثمّ الانتصار لها ونقض كل ما يضدّها.

وبعد خطاب السيف الذي بيّن فيه سقطات الرمح وأوهن عضده، وأوهى حجّته، نطـق الـرمح مدافعاً عن نفسه، داحضاً كل حجة مدح السيف بها نفسه، واتّبع أُسلوب السيف في الانتصار لنفسه، فقد أبطل حجج الخصم ودحض آرائه، مفنّداً مزاعم خصمه، ومفســداً حسناته قائلاً: "أنا الذي طُلْتُ حتى اتّخذت أسنتي الشهب، وعلوت حتى كادت الســماء تعقــد عليَّ لواء من السُحب، كم ميّل نسيم النّصر غصني وميّد، وكم وهّى بي ركــن للملحــدين، وللمــوحدين تشيّد ... فهل للسيف فخر يُطال فخري أو قدر يسامي قــدري، ولو وقف السيف عند حده لعلم أنّه القصير وإن كان ذا الحلى، وأنا الطويل ذو العلا ..."[1].

وهكــذا نقض الرمح حجج السيف، فبدأ بذكر خصاله الحسنة ومدح ذاته، ثمّ لوى عنقه تجاه السيف بالشّتم والردّ بالمثل، وكال له عبارات الذمّ والهجاء.

ومــن اللافت للنظر هنا بناء على تلك المفاخرات على أُسلوب التوبيخ والتجريح والشــتم، وهــذا الأمر يثير الدهشة، ويقود إلى القول بالعصبية المفرطة والمزاج الحادّ الــذي يغلّــف النفسيّة القائمة على التحدّي، وسحق الخصم والأنفة، فلا مجال للاستكانة والاعتراف بالتقصير، فكل طرف يرى أنّه الأحقّ بالتقدمة والأفضلية، ولذا فإنّ العقلانية فــي كثيــر من الأحيان مغيبة، والموضوعية مختفية لا سبيل لإظهارها، وربّما تكون الأحكام هنا جائرة، ولكنها في الحقيقة لا تبعد كثيراً عن جادّة الصّواب.

ومهمــا يكــن فإنّ المفاخرة بين السيف والرمح لم تبلغ شأو المفاخرة بين السيف والقلــم، والسبب راجع إلى طبيعة المنصب الذي حلّ به كل من السيف والرمح والقلم،

(1) المصدر السابق، 495/3.

فالســيف والــرمح في حقيقة الأمر في زمرة واحدة تضاد زمرة القلم، ومن هنا ندرك أهمية الجديّة في المفاخرة بين السيف والقلم، وضعف المفاخرة بين السيف والرمح.

فالمفاخــرة بــين السيف والقلم امتدّت طويلاً، وكثرت الحجج والأدلّة والبراهين، وعــلا صــوت المحاجّــة والجدل والخطاب، بينما انتهت المفاخرة بين الرمح والسيف ســريعاً ممــا يــدلّ على ضآلة الشحناء بنيهما، والعكس صحيح بالنسبة للسيف والقلم، فالعــداوة مستحكمة ظاهرة، بينما البغضاء بين الرمح والسيف مفتعلة؛ ولذا لجأ الكاتب إلـــى الاستعانة ببعض الصور المشرقة عند وصفه للرمح، وهذه الصور لا تنسجم وجوّ المفاخــرة القــائم علــى إبراز صفات القوة والشدّة، حيث المقام مقام حرب وخصومة وقتالٍ، وليس وصفه بالجمال والحسن.

وكمــا أســلفنا فــإنّ تلمّس الرمز الذي قصد إليه ابن غانم – إن قصد – يصعب تحديــده، ولكــنّ الأمر المرجّح الذي يذهب إليه أكبر الظنّ القول بعدم الرمزيّة في هذه المفاخــرة، وإنّما تعلّل كما سلف بشحذ همّة ذهن الصفديّ في امتحان القريحة، والإجابة عــن تلــك المفاخرة بأخرى مماثلة، وهذا اللون من الرسائل قد شاع في رسائل الألغاز التــي قــد أشــير إلــيها في مبحث سابق، فالكاتب أراد أن يمتحن ذهن صديقه، مبدياً إعجابـــه بـتلك المفاخــرة، ويعزّز هذا الفرض توجيه تلك الرسالة إلى صديقه، ولم يــوجّهها إلــى سـلطان أو أمير كما سلف في مفاخرتي السيف والقلم لابن نباتة وابن الورديّ.

فالكاتــب أنهــى رســالته بقوله: "وقد أوردهما المملوك حماك فاحكم بينهما بما بصّرك الله وأراك"(1).

وهذا يدلّل على الغرض السابق القاضي بالردّ على تلك المفاخرة، ولكنّ الصفديّ لم يشر أنّه قد أجاب عنها.

---

(1) المصدر السابق، 495/3.

وقد أنشأ ابن حبيب الحلبيّ مفاخرة بين أقسام العام تحدّث فيها عن المفاخرة بين فصول السّنة، مُبدياً كل فصل فضله دون الإساءة لغيره من الفصول، وهذا ما كنّا نطمح إلــيه. فالمفاخرة اقتصرت على عنصر المدح وإظهار المآثر والمحاسن، ولم يكن فيها تعرّض بالشتم للآخرين، لا بلّ تآزرت تلك الآراء في إخراج مفاخرة خالية من أساليب التّجريح والتوبيخ.

وقــد صــوّر الكاتب تلك المفاخرة في لوحة حيّة فقد حدثت المفاخرة في مجلس مشهود، في جوٍّ سلميّ، فقال: "حضر فصول العام مجلس الأدب في يوم بلغ منه الأديب نهايــة الأدب، بمشهد من ذوي البلاغة، ومتقني صناعة الصياغة، فقام كل منهم يُعرب عن نفسه، ويفتخر على أبناء جنسه"[1].

وهكــذا صور الكاتب تلك المفاخرة بصورة مناظرة حضرها جمهور غفير، وثلّة مــن الحكّام ليحكموا بينهم، فقدّم الكاتب الربيع على مناظريه، ونوّه بذكره، وقال مادحاً ذاته: "أنا شاب الزّمان، وروح الحيوان، وإنسان عين الإنسان، أنا حياة النفوس وزينــة عروس الغروس، ونزهة الأبصار، ومنطق الأطيار، عرف أوقاتي ناسم، وأيّامي أعياد ومواسم فيها يظهر النبات، وتنشر الأموات، وتردّ الودائع، وتتحرّك الطبائع..."[2].

وســرد الربيع مفاخره مبيّناً طيب عرفه وعراقة أصله، ففضاله كثيرة وخصاله المحمودة لا يحصيها محصٍ، وهكذا أسهب في ذكر مناقبه التي ترتاح النفوس المكدورة إليها، حيث الخضرة والنضارة وتنوّع الورود والأزهار.

واكتفــى كما أُسلف الربيع بذكر مآثره ونضارته دون اللجوء إلى الحطّ من قدر أقرانه، ثمّ أفسح المجال أمام الصيف ليورد طائفة من محاسنه ومآثره، مقتفياً أثر الربيع فــي السلاســة والعذوبة قائلاً: "أنا الخلّ الموافق والصديق الصّادق، والطبيب الحاذق،

---

(1) ابــن حبـيب، الحسين بن عمر: (779هـ/1377م): نسيم الصبا، تحقيق محمود فاخوري، ط1، 1314هـ/1993م، دار القلم العربي، حلب، ص35.

(2) المصدر نفسه، ص35.

أجـتهد فـي مصلحة الأصحاب، وأرفع عنهم كلفه حمل الثياب، وأخف أثقالهم، وأوفّر أموالهم، وأكفيهم المؤونة، وأجزل لهم المعونة..."[1].

ومضى الصّيف في تعداد مآثره التي كست السهل والجبل، وعمّت الغنيّ والفقير، فأخـذ يذكـر المحاسـن التي بثّها بطلعته، فالأحباب فيه يسمرون، والثياب فيه تخفّ، والطعـام فيه يكثر، والثمار فيه تنضج، وحينئذٍ أرعد قلم الكاتب وأبرق حين تحدّث عن فاكهة الصّيف وقثائه، ولم يذكر شيئاً من مثالب غيره واكتفى بذكر مناقبه ومأثره.

وعلى الشاكلة نفسها سار الخريف حيث تحدّث عن أجمل ما فيه قائلاً: "أنا سائق الغيوم، وكاسر جيش الغموم، وهازم أحزاب السموم، وحادي نجائب السحائب، وحاسر نقـاب المـناقب، أنـا أصدّ الصّدى وأجود بالندى ... في أيّامي تقطف الثمار وتصفو الأنهار ..."[2].

وهكـذا أفصح الخريف عن كل منقبة وجد فيها مفخرة على غيره، دون تقصّي عثـرات أقرانه، وأخيراً أتى الشّتاء الذي لم يجد بدّاً من متابعة نظام إخوانه، فقد التزام الطـريقة ذاتهـا فقال مادحاً نفسه: "أنا شيخ الجماعة، وربّ البضاعة، والمقابل بالسمع والطّاعـة، أجمـع شمل الأصحاب، وأسدل عليهم الحجاب وأتحفهم بالطعام والشّراب، ومـن ليس له بي طاقة أغلق من دونه البّاب ..."[3].

واسـتمرّ الشـتاء في سرد خصاله السجيّة، فأخذ من كل صفة سلبيّة فيه مظاهر الحسن منها، فأظهر نفسه مظهر الحسن والجمال.

---

(1) المصدر السابق، ص36.

(2) المصدر نفسه، ص36.

(3) المصدر نفسه، ص37.

وهكــذا أورد كل فصلٍ من فصولِ العام أجمل ما فيه ليظهر حُسنه على أقرانه، وفــي نهاية المطاف تصالح الجميع، وصفا الجوّ وانشرحت الصُّدور، وتجاذبوا أطراف الحديث، ولكنّ الصّفاء لم يدم طويلاً، فقد: "تفرّق شمل أهله وآخر الصحبة الفراق"(1).

وهذه المفاخرة لا تعدم التفسير الرمزيّ فمهما صفا الزمان للخلاّن، وجمع شملهم وأنس وحدتهم، ولذّت به منادتهم، وصفت أحوالهم لا بُدَّ من التفرّق والتشتّت.

ومهمــا يكــن، فإن الأُسلوب الرمزي في تلك المفاخرات لا شكَّ في وجوده، فلو عدمــته تلــك الرسائل لأصبحت أقرب للسذاجة، فهي رسائل تكشف عن نفسية كاتبها وتبصّــره بالأُمور، فالتيارات في زمانهم متضاربة، والطوائف متنافسة متشاحنة، فوجد الكتّاب بغيتهم في تصوير تلك الأحوال خلف ركام هذه المفاخرات، وقد استعان الكتّاب فــي إنشــاء تلــك المفاخرات بمجموعة من الأدوات البلاغية واللغوية، فقد أكثروا من عناصــر التشــخيص والتجســيد، وألوان البديع والتشبيه والكنايات، فقد أطلق الكتّاب لمخيّلــتهم الفــذّة العــنان في تجسيم هذه الأدوات في مشخّصات إنسانية تحسّ وتنفعل وتتحرّك وتنطق، ويعتريها الشعور بالغضب وتتطلّع إلى التملّك(2).

وهكذا اعتمد الكتّاب على الخيال الواسع، والفكر المبدع في إجراء حوار وجدال يــنجم عــن حجج دامغة، وبراهين دالّة، وهذه الحجج والبراهين تصيّر الحقّ باطلاً في سبيل كسب الرأي وتسويغ هزيمة الخصم.

---

(1) المصدر السابق، ص38.

(2) انظر: الدروبي، سمير محمود: الرمز في مقامات السيوطي، ط1، 1422هـ/2001م، مؤسسة الرسالــة، عمّان، ص719.

الأسئلة والأجوبة:

تــبادل العلماء والأدباء بعض الرسائل التي تدور حول أسئلة تحتاج إلى إجابات، وقــد تميّزت هذه الأسئلة بالإجابات غير المحدّدة، فأغلب الظنّ أنّ تلك الرسائل لم تدبّج مــن أجل الإجابة التقليدية، وإنما تبعث من أجل كشف اللثام عن سلامة قريحة العالم أو الأديــب الــذي بعثت إليه، فغرض تلك الأسئلة محاولة امتحان قريحة المرسل إليه في مجمل الأمر ولو أنّ بعضها قد يكون لحاجة المرسل إلى الإجابة، وقد ذكر القلقشندي حدّ هــذه الرسائل بقوله: "قد جرت عادة مشايخ الأدب، وفضلاء الكتّاب أنهم يكتبون إلـــى الأفاضل بالمسائل يسألون عنها؛ إمّا على سبيل الاستفهام واستماحة ما عند المكتوب إليه فــي ذلــك، وإمّا على سبيل الامتحان والتعجيز، ثمّ تارة يجاب عن تلك الأسئلة بأجوبة فتكتب، وتارة لا يجاب عنها بحسب ما تقتضيه الحال"[1].

والحقــيقة أنّ هذه الرسائل تنمّ عن فكر متّقد، فهي تُثري الحقل الأدبيّ والعلميّ، وتحــثُ علــى الــدأب في التحصيل والجدّ وتستنهض الهمم، وتجلب الفائدة، فمن هذه الرسائل ما بعث بها الأديب جمال الدّين بن نباتة إلى الأديب شهاب الدّين محمود الحلبيّ يشــكره فيها، ويمتحن كتّاب الديوان ببعض الأسئلة عندما علم أنّهم قد نالوا منه، ونافح عنه الحلبيّ[2].

فــبدأ ابــن نــباتة رســالته مادحــاً وشاكراً ومثنياً ثناءً طويلاً تأنّق فيه، مذكّراً بمعـــــروف الحلبيّ في الذّود عنه عندما تناولت الألسن قدحه وتجريحه، فجاء من تلك الرســالة قــولــه: "فأعلى الله كلمة سيدنا العلامة في الدارين، وشكر غنّى جود كرمه وكلمــه الــدّارّين، فهــو صــاحب ديوانهم، وحجّة زمانهم، فلقد وصفني بما يزيد على الجــواب، وشافهني من الشّكر بما لا يتوارى من الرزق بحجابه، وأمّتني العزّ والزّمان

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 240/14.

(2) انظر المصدر نفسه، 241/14.

حـــرب، ونصـــرني والأيام سيوف تتنوّع من الضرب في كل ضرب، وأعطاني كرمه والمحل محل، وفي قلب الزّمان دخل، ونحلني شهدة إحسانه والأوقات كإبر النحل، حتى عذرني في حبّه من كان من اللائمين"[1].

وقد عرّض ابن نباتة بالنفر الذين أساءوا له في غيبته، ووجّه نقده إليهم قائلاً في شـــتمهم والحطّ من قدرهم والتقليل من شأنهم: "لا يحسن أحدهم في الكتابة غير العمامة المدرّجـــة، والعذبة المعوّجة، والعباءة الضيّقة، والأثواب المفرّجة، وتناول السلم باليمين وكتابه إن شاء الله تعالى بالشمال ... لو سئل أحدهم عن "البديع" في الكتابة لم يعـــرف مـــن الســـؤال غير الترديد، وعن "عبد الحميد" لزاد في الفكر ونقص وعبد الحميد عبد الحميد والصّاحب لقال إنّه تبرقع بمجلسي، والخوارزمي لقال سرج فرسي والفاضل لقال ها هو ذا ذيل ملبسي، فإذا كان الأمر كذلك ففيم الملام والتفنيد؟".

والناظر في هذه الفقرة يجدها تفيض بالنقد اللاذع، والاستهجان الواضح، والشتم الموجع، فليس لهم من الكتابة إلاّ التسمية وارتداء زيّها.

ومهمـــا يكن من أمر هذه الرسالة إلاّ أنّ الغرض الأساسي لها هو امتحان كتّاب الديوان، ومحاولة تعجيزهم؛ لإظهار ضعفهم والنيل منهم، فقد أفصح ابن نباتة عن هدف تلـــك الرسالة قائلاً: "وأنا أقترح عليه من مسائل الكتابة بعض ما اقترحه الفضلاء، ونبّه عليه العلماء، وإلاّ فما أنا أبو عذرته، ومالك إمرته ... فإنّه الذي نبّهني عليه وإن لم أكن ســـاهياً، وذكّرنـــي الطعن، وما كنت ناسياً، حتى رميته من هذه المسائل في مجاهل، لا يهـــتدى فيها بغير الذهن الواقد، واقتحمت به في بحار لا يعصم منها جبل الفكر الجامد، على أنّها فيما أغفلت كالثمد من البحار، واللمحة من النهار، ولولا الاختصار لأتيت منها بالجمع الجمّ"[2].

(1) المصدر السابق، 243/14.

(2) المصدر نفسه، 246/14-247.

والمتأمّل هذه الفقرة يدرك مدى الحنق الذي دفع ابن نباتة إلى كتابة تلك الرسالة، فالهدف كشف زيف أولئك الكتّاب الذين نالوا منه حال غيبته، فأراد أن يكيل بما كالوا، فتوعّدهم وأرهبهم، ولم ينسَ التنويه بذاته حيث لا تُعدّ هذه الأسئلة إلاّ نزراً ضئيلاً وكمّاً قلـيلاً مـن علمه ومداركه، ومع ذلك فإنّه قد وضعهم في مجاهل ومتاهات ليدلّل على سـخف عقولهم وضآلة معلوماتهم، فقد استخفّ بهم، وسامهم الخسف، وانتصر لنفسه، ومـن كبيـر دهائـه استقطاب الحلبيّ إلى صفّه، وبذلك خلت له الساحة، وطاب له أن يسرح ويمرح في ذلك الميدان بعد تحييد دور الحلبيّ.

ومـن الطريف أنّ الأسئلة الكثيرة التي أوردها في رسالته لم تبرح دائرة الكتابة والـدواوين، فجمـيع الأسئلة تخصّ باب التدوين والكتابة، وهذا ما جعل ابن نباتة يفحم أولئك النفر ويكشف زيف منصبهم، فقد تنوّعت الأسئلة في ذلك الحقل، فمنها التاريخي كقـولـه: "من كتب في الورق واستنبطه، ومن ختم الكتاب بالطين وربطه، ومن غير طـين الكـتاب بالنشـا وضـبطه، ومن قال أما بعد في كتابه، ومن جعلها في الخطب وأسقطها في ابتدائه في المكاتبة وجوابه...؟"[1].

فأكثـر ابـن نباتة من هذا النوع من الأسئلة التي اعتمدت الأوائل سبيلاً في كل أمـر، وقـد كشـفت كثرة الأسئلة من هذا اللون عن سعة مداركه وثقافته الموسوعية، وإدراكه لأهمية هذه الموضوعات في الكتابة، حيث لا بُدّ لكاتب الإنشاء أن يعرف طرفاً منها.

وقـد عـدل عن الأسئلة التي نحت منحى التاريخ إلى الأسئلة الخاصة بالبلاغة وفنونها، وكيفية التصرّف بالقول قائلاً: "وكيف جاز للكاتب أن يكتب آية من الكتاب في لفظه يحسبها من لا يحفظ أنها من عنده لا من حفظه ..."[2].

---

(1) المصدر السابق، 247/14.

(2) المصدر نفسه، 247/14-248.

وقــد أكثــر ابــن نباتة من أسئلته التي كشفت عن فساد ملكتهم، وسوء تصرّف قــرائحهم، فقــال: "ومـــا الذي يكتب عن المهزوم إلى من هزمه في معنى ركونه إلى الإحجــام؟ وكــيف يهنّى خليفة خلع فرجع، وغرّب عن السجع وطلع، وأسره العدو ثم تخلّــص...؟ وكــيف يهنّـــى مـــن زوّج بعـد موت أبيه أمّه؟ ويعــزّى والــد قتــل ولــده...؟"[1].

وقد بالغ ابن نباتة في الأسئلة وغالى، وأخذ من كل طرف سبباً، وسدّ المنافذ على أولئك النفر، وقطع الذرائع عليهم، وأفحمهم ولم يترك لهم مناصاً من النكوص والندم.

وقد بيّن ابن نباتة وأفصح عن هدف هذه الرسالة، فهي امتحان لأولئك النفر الذين كنّــى عنهم بذلك الكاتب الذي قام بمخاطبته بهذه الأسئلة، فالجواب عنها محرجٌ وتركها دون إجابـــة أكثر حرجاً، ولذا جعل ابن نباتة نجاح ذلك المخاطب يكمن في الإجابة عن الأســئلة جمــيعها والإحاطـــة بتفاصيلها، فقال: "فإذا نشط هذا الكاتب من هذا العقال، وتصـــرّف فـــي فـــنون هذا المقال، وخرج من هذه الأسئلة خروج السيف من الصقال، امــتدّت كــف الثّريّا في هذا النسيان بمسح جبهته، وجاء بجواب هذا النكث كما يقال: برمته وأماط لثامها، وشمّر عن أزهارها أكمامها انقطعت الأطماع دون غايته، وبسطت أيدي رسائل البلغاء لمبايعة رسالته..."[2].

ولا يخفـــى مـــا فـــي هذه الرسالة من أسئلة محرجة لم يكن الهدف من طرحها الإجابـــة عنها، بل الهدف -كما قال كاتبها- واضح وبيّن، فالقصد منها تعجيز المسؤول وبـــيان ســـقطاته وحقيقة زيفه، وسخافة عقله، فهي رسالة أشبه بالهجاء منها بالأسئلة، والحقيقة أنّ ابن نباتة دبّجها لغرض إحراج تلك الثلّة الذين طعنوا في أدبه وعلمه، فأراد أن يكشـــف لهـــم عـــن قصـــور بـــاعهم في صناعتهم التي عملوا بها، وهذا اللون من

---

(1) المصدر السابق، 248/14.

(2) المصدر نفسه، 249/14.

الامتحـــان – حيث الأسئلة من جنس العمل – يبدي حرجاً أكبر، وهذا ما أراده ابن نباتة حيث جعل الأسئلة في بحر الكتابة وعلومها.

وهــذا الــنّوع من الأسئلة لا يريد الكاتب الإجابة عنه وإنّما يبحث عن التعجيز وقهــر الخصم، وإرغام أنفه، والنّيل منه من أجل ردّ اعتباره، وصدّه عن حوضه مرّة أخــرى فهــي أســئلة تنمّ عن تكشير عن الأنياب، وكشف عن العضلات حتى لا يفكّر الخصم في الهجوم مرّة أخرى، والطعن من الخلف.

فالظاهر أنّها أسئلة لا تبحث عن إجابات، والحقيقة أنها هجوم وتكسير مجاديف، بل وعيدٌ وتهديدٌ.

وموضـــوع الرسالة يشهد بذلك حيث اغتاب نفرٌ من الكتّاب ابن نباتة ونالوا من شخصـــه وأدبـــه وعلمه فبعث تلك الأسئلة لتقريعهم، وبيان مقدارهم، والحطّ من شأنهم وضمان عدم العودة إلى مشاكسته في المستقبل أو المثول إلى ساحته، فهو بهذه الأسئلة كشــف عــن مهارته وجودة قريحته، وبُعد نظره، وقوّة فراسته، وشدّة مراسه في علوم الكتابة وفنونها.

وقــد تــبادل صلاح الدين الصفديّ مع معاصريه هذا النوع من الرسائل، ولكنّ الهدف كان أسمى وأعلى، فقد بعث الصفديّ سؤالاً حول الآية الكريمة ﴿استطعما أهلها﴾* ، وقــد نظمـــه شـــعراً وبعث به إلى زين الدّين بن العوينة ونجم الدّين القحفازي وعبد الـــوهاب الســبكي وهم من فضلاء عصره فكان ذلك السؤال يبحث عن إجابة تنمّ عن عميق فكر، وتوقّد ذهن، فقال الصفدي[1]:

ولكنّني في الكهف أبصرت آيــةً بها الفكر في طول الزّمان عنانـــيِ
وما ذاك إلاّ "استطعما أهلها" فقد نرى "استطعماهم مثله ببيــــــانِ

* سورة الكهف، آية 77.

(1) الصفدي: أعيان العصر، 337/3.

فما الحكمة الغرّاء في وضع ظاهر مكان ضمير إنّ ذاك لشـــــــانِ

والحقيقة أنّ الصفديّ أراد من هذا السؤال إظهار حذاقته ومهارته في الكشف عن وجوه البلاغة والبيان في الكلام المعجز، وقصد كذلك إلى امتحان قرائح أولئك الأدباء، فتسابقوا إلى الإجابة عن ذلك السؤال، فقال زين الدّين ابن العوينة: "سأل بعض الفضلاء عـــن الحكمـــة في و﴿استطعما أهلها﴾ دون "فاستطعماهم" مع أنّه أخصر؟ والجواب قلت والله الموفّق إنّه لما كانت الألفاظ تابعة للمعاني لم يتحتّم الإضمار، بل قد يكون التصريح أولـــى، بل ربّما يكاد يصل إلى حدّ الوجوب، كما سنبيّن، إن شاء الله تعالى، ويدلّ على الأوليّة قول أرباب علم البيان ما هذا ملخّصه، لمّا كان للتصريح عمل ليس للكناية كان لإعــادة اللفظ من الحسن والبهجة والفخامة ما ليس لرجوع الضمير 000 فقد يُعدل إلى التصريح إمّا للتعظيم، وإمّا للتحقير، وإمّا للتشنيع والنداء بقبح الفعل، وإمّا لغيرهم..."[1].

وبالجملة، فإنّنا لسنا بصدد الإجابة عن ذلك السؤال وكيفية بيان مداخله ومخارجه وطـــرق معالجته وتوضيح غموضه بقدر اهتمامنا بما أثاره من ردود فعل ظهر نتاجها في تلك الرسائل، فأخذ الكاتب يفنّد إجابته ويحاور ويجمع الأدلّة ويقوّي الحجج، ويبرهن بالمـــنطق والأمـــثلة التوضـــيحيّة النقلية والعقلية، فقد أكثر من أمثلة مشابهة في القرآن الكريم، فقد بدأ بمعالجة المسألة من الناحية البيانية المعنويّة، وأشبع ذلك أمثلة من القرآن الكريم والسنّة المطهّرة والشعر وأيّام العرب، ثمّ عدل بعد ذلك إلى الناحية اللفظيّة، فقال فـــي الشـــقّ المعنوي: "فمن التعظيم قوله تعالى: ﴿قل هو الله أحد الله الصمد﴾*، وقوله تعالى ﴿وبالحق أنزلناه وبالحقّ نزل﴾**، ولم يقل وبه"[2]، والأمثلة التي ضربها المجيب عن السؤال كثيرة لا سبيل لحشدها هنا.

---

(1) المصدر السابق، 338/3.

* سورة الإخلاص، الآيات 1-2.

** سورة الإسراء، آية 105.

(2) الصفدي: أعيان العصر، 338/3.

وفــي الشقّ اللفظي قال: "وأمّا ما يتعلّق باللفظ فلما في جمع الضميرين في كلمة واحدة من استثقال؛ فلهذا كان قليلاً في القرآن المجيد"[1].

وقد حشد الكاتب أدلّة كثيرة تبرهن على سلامة فطرته ونفاذ بصيرته، فقد أدرك مـــا يرمي إليه الصفديّ؛ ولذا احتاط للأمر من جوانبه جميعها، وحاول أن يأتي بالكلام الفصل في هذه المسألة؛ ليظهر عبقرية فذّة، وقريحة سليمة، وملكة عظيمة.

ومهمـــا يكن، فقد أطال ابن العوينة هذه الإجابة حتّى شملت فنون البلاغة واللغة، وقد أظهر فيها براعة في تحليل الأُمور وتعليلها، من خلال استقراء الأمثلة التوضيحيّة والقياس على المثل، والاحتكام إلى قوانين اللغة.

وقـــد جـــاءت إجابة القحفازي عن ذلك السؤال مشابهة في كثيرٍ من الجوانب لِمَا تقدّم، حيث تناول الوجه البياني قائلاً: "وأمّا الجواب عن إعادة لفظ الأهل في قوله ﴿حتى إذا أتـــيا أهل قرية استطعما أهلها﴾*، ولم يقل "استعطماهم"، والمحل محل إضمار، وفيه الإيجاز، فقد علم أنّ البلاغة لا تختصّ بالإيجاز، وإنّما هو نوع من أنواعها، وأنّ مدار حسن الكلام، وارتفاع شأنه من القبول بإراده مطابقاً لمقتضى الحال"[2].

وقـــد فصّل القول القحفازي في الإجابة عن السؤال، وجدّ في البحث عن الإجابة الشافية، وقد وجدت تلك الإجابة من نفس الصفديّ ملجأ، فقد قال معلّقاً على تلك الإجابة "جـــواب الشيخ رحمه الله تعالى في غاية الحُسن، وهو كلام عارف بهذا الفنّ جار على القواعد"[3].

وهـــذا التعليق يقود إلى القول بأنّ الصفديّ لم يجهل الإجابة، ولكنّ هدفه امتحان قـــرائحهم، واستمطار أفكارهم، وعصر عقولهم؛ ولذا فضّل إجابة القحفازي على إجابة

(1) المصدر السابق، 341/3.

* سورة الكهف، آية 77.

(2) الصفديّ: أعيان العصر، 368/3.

(3) المصدر نفسه، 370/3.

ابـن العويــنة معلّلاً ذلك التفضيل، ممّا يدلّ على تمكّنه من تلك المسألة. والدليل الآخر الــذي بـيّن هدفه الامتحاني وليس المعرفي كثرة الأدباء والشيوخ الذين بعث إليهم ذلك السؤال، فقد بعثه إلى ابن العيونة والقحفازي وتقي الدّين السبكي وابن الحاجب[1]، فكثرة الأدبـاء الذين طلب منهم الإجابة عن سؤاله تدلّ على أمر قد يفسّر بجمع تلك الإجابات وموازنــتها وبــيان أفضلها ليتبيّن الصفديّ من خلال ذلك مدى قوّة ملكتهم في التحليل وسلامة فطرتهم في التأليف، وتوقّد قرائحهم في الإبداع.

فهــو ســؤال امــتحان ولم يرد الصفديّ منه معرفة مجرّدة ولو أنّه كان جاهلاً للإجابــة لاكتفى بأحدهم، ولم يبعث لعدد كبيرٍ من الأدباء، ولكنّ الهدف امتحان القرائح واستمطار إبداعها.

وبالجملــة، فمثل هذه الرسائل تُثري الجوّ الأدبي، وتزيد من علاقة الكتّاب، فهي تــتحدّاهم وتسـتنهض هممهم للذّود عن حماهم، ولذا يلحظ على تلك الإجابات التطويل والتفصــيل، وبيان الأدلّة القاطعة، والحجج القويّة الدامغة التي لا تدع مجالاً للتردّد أو التشكيك؛ لأنّ المجيب يريد أن يأتي بما لم يأت به غيره ليفوز بالرّهان، ويحوز قصب السبق.

وهــذه الرســائل لها جانبان إيجابي وسلبي، فالجانب الإيجابي يكمن كما أُسلف بإدامــة المــودّة، واســتمطار الأذهان والأفكار، وتنويع المعارف، واستنهاض الهمم، والتنافس في ميدان البلاغة والعلوم، بينما يتمثّل الجانب السلبي فيما ينتج عن بعضها من تحدٍّ صارخ، وحطّ من شأن الآخرين، وتقليل من قيمتهم، كرسالة ابن نباتة السالفة التي كان دافعها التعجيز، وليس البحث عن الإجابة.

(1) انظر المصدر السابق، 3/370-371.

الفصل الرّابع

الدراسة الفنيّة

أولاً: بناء الرسالة، واللغة والأسلوب، والصورة والخيال

بناء الرسالة:

بلغــت الرســالة الفنيّة مرتبة عالية من النضجّ الفنيّ في العصر المملوكي، وقد حظــيت بــبعض الأدباء الذين نظّروا لبناء تلك الرسالة، فألّفت المصنّفات في أمر بناء الرســالة وخصائصــها، وهذا الاهتمام انعكس على الرسائل الفنيّة، حيث التزم الكتّاب بفنــيّات معيّــنة، رســمها لهــم المقنّنون لذلك العلم. والحديث في هذا الجانب يخصّ الرسائــل الديوانيّة التي يصدرها ديوان الإنشاء، وقد بيّنت بعض الدساتير الأُسس الفنيّة التي ينبغي أن تراعى في بناء الرسالة الديوانيّة، وقد حفلت تلك الدساتير ببناء المقدّمات والخواتــيم، ولذا تميّزت تلك المكاتبات ببعض الفروقات التي حدّدت، وقعّدت في بطون تلك الدساتير.

والمتلقّــي لــتلك الرســائل يجــد بعض التفاوت بين ما هو مدوّن وما عليه تلك الرسائل، ولعلّ السبب يكمن في مَنْ دوّن ونسخ الرسائل، حيث تمّ الاستغناء عن بعض الفنــيّات التــي اعــتمدت فــي البدء والختام، وهذا الأمر لم يقتصر على الرسائل في العصــــر المملوكــي، بــل كــان معروفاً قبل ذلك، فلذا أشار محمد الدروبي إلى تلك الظاهــرة، فأشــار إلى عبث النسّاخ القُدامى في شكل عناصر بناء الرسالة في البسملة والحمدلة والأدعية[1].

والحقيقة أنّ بناء الرسالة في العصر المملوكي أخذ صفة رسميّة، وتقاليد أساسيّة لا يصــحّ تجاوزها، أو حتى مجرّد الاجتهاد في تصحيحها، فأصبحت الرّسوم الأساسيّة واضــحة المعــالم في البدء والختام، لا بل أخذت تتخصّص تلك الرسائل حتى وجدت

---

(1) انظر الدروبي: الرسائل الفنيّة في العصر العبّاسي، ص458.

الفـــروق الدقـــيقة بين موضوع وآخر، وقد تجاوز الأمر إلى إيجاد الفروقات كذلك في الموضـــوع الواحد، حسب درجة أو رتبة الموجّه إليه، ولذا اختلفت الأقلام والورق تبعاً لذلك.

وغايـــة الحـــديث أن نشير إلى بناء تلك الرسائل على أُسس معلومة ومدروسة، ومقنّنة شملتها بعض الدساتير في تلك الفترة، ولم يكن هناك مجال للتغيير أو الإبداع إلاّ في محتوى الرسالة لا في شكلها البنائي.

وعند البحث في بناء الرسالة الديوانيّة في العصر المملوكي، لا يجد المرء مجالاً يتحدّث فيه عن صور البدء والختام يستحقّ أن يضيفه لِمَا أتى به القلقشندي في دستوره الـــذي أطـــال فيه وأطنب حول عناصر تلك الرسائل، ومع ذلك فلا بدّ من الحديث عن بعض صور البدء والختام لتتكوّن صورة واضحة المعالم لبناء تلك الرسائل.

فـــأول صور البدء في الرسائل الديوانيّة البسملة، حيث تكتب في مقدمة الرسالة تبـــرُكاً بالابتداء، وتيمّناً بذكرها[1]، وكما أسلف في واقع الرسائل التي تمّ الاطلاع عليها في مصادرها ندر وجود البسملة، ولعلّ ذلك من عبث النسّاخ كما أشير إليه سابقاً.

ومن الرسائل التي احتفظت بصورة البسملة، رسالة بعث بها الملك الناصر محمد ابن قلاوون إلى الملك غازان، فتوسّطت البسملة رأس الصفحة[2]. والرسائل في مجملها لا بـــدّ لهـــا وأن بـــدئت بالبســـملة، ولكـــن اختصار النسّاخ أخلّ بوجودها، حيث نصّ القلقشندي، وذكر أنّ كتّاب زمانه التزموا بذلك ولكن النسّاخ وكتّاب الوثائق جمعوا معها الحمدلة والصلاة ونحو ذلك[3].

ومهمـــا يكـــن، فإنّ البسملة من أساسيّات صور بدء الرسالة، وكما كانت البسملة رســـماً أساسيّاً في الرسالة كان الأمر بالنسبة للحمدلة، وقد كان لورودها السبب ذاته في

---

(1) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 222/6.

(2) انظر المصدر نفسه، 143/7.

(3) انظر المصدر نفسه، 224/6.

ورود البسملة، حيث التبرّك والتيمُّن، وقد قرنوا الحمدلة بعد البسملة مباشرة تأسّياً بكتاب الله، فـأورد القلقشندي حديثاً شريفاً مرويّاً عن أبي هريرة -رضي الله عنه- مفاده قول الرسول ﷺ: "كل أمرٍ ذي بال لا يبدأ بحمد الله فهو أجذم"[1].

وتعدّدت صيغ الحمدلة وذكر القلقشندي أصنافاً متعدّدة، وقد وردت تلك الصيغ في رسائلهم، وقد ارتبطت الحمدلة في رسائلهم بلازمة تمثلت بعبارة أمّا بعد، وصورة ذلك أمّـا بعد الله، أو أما بعد فالحمد لله[2]، ويؤتى بها لتوكيد الخبر[3]، ويلي ذلك من صور البدء التحيّة المتمثلة في السلام، تليها الشهادتان.

ومـن هـنا يمكـن القول إنّ صور بدء الرسالة التي تحدّث عنها مؤلّفو دساتير العصـر المملوكـي وخاصـة القلقشـندي كثيرة ينحصر أهمها في البسملة والحمدلة والبعديـة والسلام والشهادتين، وقد استوفى القلقشندي الحديث عنها، وهناك أيضاً بعض صور البدء وجدت في الرسائل مثل الأدعية، وقد أصبح الدعاء في تلك الرسائل رسماً أساسـيّاً؛ لكثـرة تداوله فيها، فمن صوره، الدعاء بإطالة العمر أو البقاء والدعاء بدوام النعمة، والدعاء بعزّ الأنصار، والدعاء بعزّ الأحكام، وينبغي للكاتب أن يراعي المقامات التي يخاطبها، فالدعاء الذي يناسب السلطان يتمثّل بإطالة العمر والبقاء ودوام السلطان، وخلـود الملـك، والـذي يناسـب الأمـراء الدعاء بالعزّ للأنصار، ومضاعفة النعمة ومداومتها، وأمّا الوزراء وأرباب الأقلام فيناسبهم الدعاء بسبوغ النعم، وتخليد السعادة، ودوام المجـد، وأمّا القضاة والحكّام فيناسب حالهم الدعاء بعزّ الأحكام، وتأييدها، وأمّا التجّار فيناسبهم الدعاء بمزيد الإقبال، وخلود السعادة، وقد اصطلحوا على الدّعاء لأهل الكفر بطول البقاء[4].

---

(1) المصدر السابق، 6/224-225.
(2) انظر المصدر نفسه، 6/225.
(3) انظر المصدر نفسه، 6/231.
(4) انظر المصدر نفسه، 6/284-286.

وهـــناك طائفة من المصطلحات اتّفق على وجودها في مقدّمات الرسائل الديوانيّة خاصة مثل: صدرت المكاتبة، أو أصدرناها، فإنّا كتبناه، فإننا اتّصل بنا، فإنا قد أرسلنا إليكم، فإنّه بلغنا.

ومـــن صور البدء كذلك الألقاب، ومن اللافت للنظر طولها مع كثرتها، فقد تميّز ذلـــك العصر بالتهويل والمبالغات؛ ولذا كثرت الألقاب وتعدّدت، ولهذا بالغ الكتّاب في حشوها في مقدّمات الرسائل على سبيل التقليد الرسمي الموكل إليهم، وقد أفرد القلقشندي حيّزاً كبيراً لذكر هذه الألقاب[1].

وللتدليل على طول هذه السلسلة من الألقاب والنعوت ما أورده العمريّ من ألقاب صـــاحب الهـــند قـــائلاً: "المقـــام الأشـــرف العالـــي، المولوي، السلطانيّ، الأعظميّ، الشاهنشاهيّ، العالميّ، العادليّ، المجاهديّ، المرابطي، المظفري، المؤيّدي، المنصوري، اســكندر الزمان، سلطان الوقت والأوان، منبع الكرم والإحسان، المعفي على ملوك آل ساســـان وبقايـــا أفراســـياب وخاقان، ملك البسيطة سلطان الإسلام، غيّاث الأنام، أوحد الملوك والسلاطين"[2].

وهذه الألقاب والنُعوت تراعى فيها الرُتب، فيُخصّص للسلاطين والملوك ألقاباً لا تنبغـــي لغيـــرهم مـــن الأُمـــراء وكفـــلاء الممالك والوزراء والقضاة وأرباب السيوف والأقـــلام، بل لكل فئة ممّا ذكر ألقاب خاصة بها.

وأمّا ما يخصّ مضمون تلك الرسائل، فإنّه يحدّد بالجهة التي تكون موجّهة إليها؛ فالموضوعات كثيرة ولا سبيل لحصرها، ولكن السّمة الغالبة على تلك الرسائل الإطناب والـــتطويل في أغراض المدح والثّناء والشّكر، وقد طبعت كل الرسائل بهذه الميزة، فلا تكـــاد تخلـــو رســـالة مـــن إطراء المرسل إليه، وشكره والثناء عليه، وعند النّظر إلى

---

(1) انظر المصدر السابق، 5/6-188.

(2) العمريّ: التعريف، ص66.

مضـــامين تلـــك الرسائل وخاصة الديوانيّة تلمس العناية الفائقة بالتنمّق بعبارات المدح والثناء.

وعلـــى الرغم من هذه، إلاّ أنّ الرسائل في العصر المملوكي اتّسمت بخاصيتين أساسيتين تمثّلتا في التنوُّع والوحدة، فتعدّدت المضامين والأغراض التي دبّجت من أجلها الرســائل، فكانـــت منها الرسائل السياسيّة والإدارية والإخوانيّة والأدبيّة، فكان هنـــاك الهُـــدن والمـــبايعات والعهـــود والأمانــــات والتقاليد والمراسيم والمسامحات والتواقيع والمناشير إلى غير ذلك من الموضوعات.

وقـــد أدّت الظـــروف السياســـيّة والاجتماعيّة إلى مثل هذا التنوّع، وكان لديوان الإنشـــاء الدور الأكبر في هذه التعدّدية، فرسم الحدود الفاصلة بين تلك الرسائل، وجعل لكـــلٍّ صنف منها غرضاً محدّداً تعالجه لا تتعدّاه لغيره، فكانت هذه الرسائل توجّه إلى جهات مختصّة؛ ولذا فالتنوّع في تخاطبهم يوجب التنوّع في الأغراض والمخاطبات.

وقد توسّعت هذه المضامين إلى أبعد من ذلك، فقد تجاوزت الرسائل الديوانيّة إلى الإخوانـــيّة والأدبـــيّة، فكان من الإخوانيات ما يخصّ المدح أو الشكر أو الحنين، ومن الأدبـــيات مـــا التـــزام الوصف كوصف الأمطار والثلوج، أو وصف النيل، أو الغزو والحروب، أو الصيد ... .

وفي الحقيقة ينمُّ ذلك التخصّص الدقيق في تلك المضامين عن التطوّر الهائل الذي طرأ على الكتابة والتدوين، وقد أدّى اهتمام أهل العصر بالنثر إلى مثل هذه التخصّصيّة، فأخذت الرسالة الفنيّة تتبنّى المضامين المختلفة للحياة الحضارية والكوارث الطبيعية، فلم يـــبقَ بـــابٌ من أبواب الحياة الاجتماعية أو السياسية أو العلمية إلاّ وقد تكفّلت بتغطيته الرسائل الفنية؛ ولذا وجدت الرسائل الإخوانيّة والأدبيّة إلى جانب السياسيّة، كما وجدت بعض الرسائل التي تصوّر الواقع الفكري، كالمفاخرات والأسئلة والأجوبة.

ولــم يخلُ هذا التنوّع الواسع في مضامين الرسائل الفنيّة بالمحافظة على الوحدة العضوية في الرسالة الواحدة، حيث شكّلت الوحدة العضوية أساساً قوياً في بنية الرسالة الداخلــية، فعلى الرغم من كثرة القيود في البدء والختام، إلاّ أنّ المضامين تحت منحى التوحّد، فالرسائل على طولها والإطناب فيها إلاّ أنّ سلك الأفكار فيها ينظّمه هدف واحد فـــي كل رسالة، فالمتلقّي للرسالة يظنّها للوهلة الأولى متعدّدة المضامين عندما يجد فيها الأشـــعار والوصايا والخطب، إلاّ أنّه بعد فحصها فحصاً دقيقاً تتبيّن له فكرة المضمون الواحد.

وقــد وجــدت بعض الرسائل التي لم يتجاوز مضمونها العنوان كرسائل وصف أدوات الحضـــارة، كوصف السيف والقلم والسكين والبريد والقصور والحصون والقلاع وما إلى ذلك، وهذه الوحدة متحقّقة كذلك في رسائل الألغاز والتقاريض والمفاخرات.

وفـــي حقيقة الأمر، التزمت الرسائل السياسيّة والإدارية بالوحدة العضوية التامّة، فحملـــت كل رسالة مضموناً معيّناً؛ ولذا وضعت الحدود المميّزة لكل صنف منها، وقد نحت الإخونيات هذا المنحى، مع أنّ بعضها يجمع المدح إلى جانب التهنئة أو التعزية، ولكنّ الأمر في النهاية يصبُّ في بوتقة واحدة تتمثّل في الوحدة العضوية.

وعند الحديث عن خاتمة الرسالة تطالعنا مصطلحات معيّنة مخصوصة تنتهي بها رســائل الديــوان لا مجال للاجتهاد فيها، وهي في مجملها لا تخرج عن صورة البدء مثــل الحمدلة، والصلاة على النبي ﷺ، والمشيئة، والدعاء. فقد ختم العمريّ عهد الملك الأفضـــل بالدعاء والميشئة فقال: "والله تعالى يمدّك –أيها الملك الأفضل– بأفضل مزيده ويحفــظ بك ما أبقاه لك أبوك المؤيّد من تأييده والاعتماد على الخط الشريف أعلاه إن شاء الله تعالى"[1].

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 187/10.

وقـد تـذيّل الرسائل ببعض الأمور كالتاريخ الذي أسقط في مجمله من الرسائل بفعل النسّاخ طلباً للاختصار وعدم إدراك أهميته.

وعند الحديث عن الرسائل الإخوانيّة والأدبيّة نجد صورة البدء والختام لا تخضع للقانـون الصّـارم الـذي تحقّق في الرسائل الصادرة عن الديوان، وإنّما هناك بعض التفاوت، فتبدأ عادة بالأبيات الشعرية أو القصائد ويلي تلك المقطعات الشعرية عبارة "يقـبّل الأرض"، كـذا أو ينهـي، أو المملوك، والعبودية، وكلها عبارات تحمل معنى التواضع، وإيجاد وشائج المحبّة والتواصل.

وللتدلـيل على ذلك، مطالعة الرسالة التي بعثها ابن سيّد النّاس إلى الصفديّ، فقد بدأها بقصيدة طويلة مطلعها[1]:

مننتَ بنُعمى بلّغتْ كلّ منيّة ... ونلتُ بِها المأمول قبل منيَّتـي

ثـم أعقب تلك الرسالة بعبارة "يقبّل كذا وينهي ورود المشرّف". فكتب الجواب الصفديّ عنها فبدأ بقصيدة ثمّ أردفها بقوله: يقبل الأرض[2].

أمّـا مضـامين تلـك الرسائل من حيث التنوّع والوحدة لا تختلف عن الرسائل الديوانيّة، أمّا خواتيم الإخوانيات، فأكثر ما تكون بالدّعاء إضافة إلى عبارة بمنّه وكرمه إن شـاء الله تعالـى، ففي رسالة ابن سيّد النّاس السابقة ختمها بقوله: "والله يحرسه في حركاته وسكناته إن شاء الله تعالى"[3]، وختمت رسالة الصفديّ بقوله: ((والله يمتّع الأنام بحياته التي هي جملة الأماني، ويديم فضائله التي لا توجد إلاّ في العقد ... بمنّه وكرمه، إن شاء الله تعالى"[4].

---

(1) الصفدي: أعيان العصر، 5/221-222.

(2) المصدر نفسه، 5/223-224.

(3) المصدر نفسه، 5/222.

(4) المصدر نفسه، 5/227.

وقـد تأثّـرت الرســائل الإخوانيّة ببعض مصطلحات الرسائل الديوانيّة، فمعظم الكـتّاب اشــتغلوا في ديوان الإنشاء، وجمعوا بين الرسائل الديوانيّة والإخوانيّة، ولهذا تســرّبت بعــض المصــطلحات مثل: المثال العالي، المرسوم، إضافة إلى الأدعية في المقدّمة على سبيل الجمل الاعتراضيّة.

فمن رسالة لابن سيّد النّاس "يقبّل اليد العالية الصلاحية – لا زالت صالحة الشيم، سافحة الديم ... – وينهي ورود المشرّفة"(1).

وعلـــى الجملـــة، فإنّ العبارات التي تبدأ بها الرسائل الإخوانيّة في أغلبها، يقبّل الأرض، يقبّل كذا، يقبّل اليد، ينهي ورود المشرّف، أو ما في معناه، إضافة إلى عبارات العبوديّة والمملوك، وتنتهي بالدُّعاء والمشيئة.

وقــد بلغ من حرص الكتّاب في العصر المملوكي على توحيد رسوم المخاطبات الإخوانــيّة كــتابة نمــاذج لرسائل على الصورة المثال، ولم يكتب بها لأحد، بل كتبت ليحتذى بها وينسج على منوالها، وقد احتفظ القلقشندي بكمٍّ وافر في دستوره الكبير صبح الأعشــى، وللمتلقّي أن ينظر في تلك النماذج في باب الإخوانيات كالتهنئة والتعزية... وقــد تكــرّرت هــذه الطريقة في الرسائل الأدبيّة، حيث نسج الحلبيّ عدداً من رسائل الوصــف، ولم يكتب بها لأحد، كرسالة وصف البندق، والخيل، وبعض رسائل الصّيد، وقــد كثرت هذه النماذج في كتابه حُسن التوسُّل، إضافة إلى دستور العمريّ الذي يطفح بالــنماذج الديوانيّة والأدبيّة، وهذا يدلّ على مبلغ اهتمامهم بالبناء الكليّ للرسالة التي لا يجانب الصّواب مَنْ قال بتصدُّرها السّاحة الأدبيّة متقدّمة على القصيدة الشعريّة.

اللغة والأُسلوب:

إنّ الكــتّاب في العصر المملوكيّ اهتمّوا أيما اهتمام باللغة والأُسلوب في عرض رســائلهم، وعــند الحــديث عــن اللغة يتّضح للمتلقّي أنّ الرسائل في غاية الوضوح

(1) المصدر السابق، 5/228-229.

والبساطة، حيث لا يجد المرء مفردات صعبة في تلك الرسائل إلاّ في القليل النادر. وقد ذكر ابن الأثير أنّ الكاتب يحتاج في تأليفه إلى ثلاثة أشياء: اللفظة المفردة، فعلى الكاتب تخيّرها، ثمّ نظم كل مفردة مع أُختها لكي لا يكون كلامه نافراً قلقاً، يلي ذلك مراعاة الغرض المقصود من ذلك الكلام[1].

وعند مطالعة مجمل رسائل العصر المملوكي يجدها في مجملها تجنح نحو البساطة والابتعاد عن التعقيد، وقد نسب محمود رزق سليم هذه الميزة إلى سهولة البيئة، ووضوح أجزائها وقلّة تعقيد تضاريسها وجوّها، إضافة إلى لون الثقافة الذي كان سائداً، حيث البُعد عن المغيبات والبحث فيما وراء الطبيعة[2].

وفي الحقيقة لا يمكن وصف جميع ما كتبوا بالسُّهولة والوضوح، ولكنّ الخط العام يغلب عليه الوضوح والبساطة، وقد بدت هذه البساطة في رسائلهم، حيث لا يحتاج المرء إلى إعمال فكره كثيراً في تحليل أبعادها.

فقد اتّسمت الرسائل الديوانيّة بالوضوح التّام والبُعد عن التعقيد وحوشي الكلام، وللتدليل على ذلك لا بُدّ من أخذ طائفة من تلك الرسائل لكتّاب مختلفين. فقد جاء في تقليد للشهاب الحلبيّ قوله: "وبعد فإنّه لمّا آتانا الله ملك البسيطة، وجعل دعوتنا بأعنّة ممالك الأقطار محيطة، ومكّن لنا في الأرض، وأنهضنا من الجهاد في سبيله بالسنّة والفرض، وجعل كل يوم معرض فيه جيوشنا من أمثلة يوم العرض..."[3].

والنّاظر في تلك الفقرة يجدها في غاية الوضوح والبُعد عن التعقيد، لا بل اعتمد الكاتب ألفاظاً جزلة تُناسب تقريع متملّك سيّس. فالألفاظ في مجملها جزلة متينة، تلاقي

---

(1) انظر ابن الأثير، ضياء الدّين نصر الله (637هـ/1239م): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1358هـ/1939م، 142/1.

(2) انظر سليم: عصر سلاطين المماليك، 413/6.

(3) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص370.

عذوبة في الفمّ، ولذّة في السمع[1]، والحلبيّ لا تخفى عليه هذه الأمور، حيث تمرّس بهذا الفنّ وتفنّن.

ومــن تقليد لمحيي الدّين بن عبد الظاهر قوله: "وبعد فإنّ أحقّ من جدّد له شرف التقــريض، وخلّــد له إرضاء الأحكام، وإمضاء التفويض وريش جناحه، وإذا لم يكن المهيض، وفسح مجاله، وإن كان الطويل العريض، ورفع قدره على الأقدار"[2].

وهذه الفقرة تنطق بالوضوح والبساطة وتجنّب التعقيد، ووحشي الكلام، ولا يجد المتلقّي عنتاً ومشقّة في تبيّن معانيها.

ومــن كــتاب لابن نباتة تضمّن وصف هدية: "لا زالت الدّول تتفكّه في محاسن أيامها، والأمل يتوجّه إلى حلاوة النجح من تلقاء أنعامها، ولا برحت أيدي الممالك تلتقط ثمــرات الســعود من مساقط أقلامها، تقبيلاً يجتنى من ثمر الأماني، وحلاوة الأُنس بيد التهاني"[3].

وكــذلك جــاء من وصية وزير لابن فضل الله العمري قوله: "يوصى بتقوى الله تعالى، فإنّه عليه رقيب، وإليه أقرب من كل قريب، فليجعله أمامه، وليطلب منه لكل ما شــرع فــيه تمامه، وليجعل رأيه في كل ما تشد به الدولة أزرها، وتسند إليه ظهرها، وليجعل العدل أصلاً يبني عليه أسه، والعمل في أُموره كلها لسلطانه لا لنفسه"[4].

ولصلاح الدين الصفديّ من توقيع: "وتقوى الله ملاك الأُمور، فليكن طراز بروده وواســطة عقوده، المتحلّي بها في صعود سعوده، وليقابل هذه النعمة بشكر يوجب مزيد الخير المستمرّ، والحمد الذي يستقلّ بالإيادي الجزيلة ويستقر"[5].

---

(1) ابن الأثير: المثل السائر، 168/1.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 176/11.

(3) ابــن نباتة، جمال الدين (ت768هـ/1366م): تعليق الديوان لسنة أربع وأربعين، نسخة مصورة مكتبة جامعة مؤتة – الوثائق الخاصة، رقم التزويد 178755، ص28-29.

(4) العمريّ: التعريف بالمصطلح الشريف، ص123.

(5) الصفديّ: أعيان العصر، 252/5-253.

وفي هذا القدر من النصوص كفاية للتدليل على سهولة المأخذ، وفصاحة الألفاظ، حيث المعاني في متناول الإفهام دون ركاكة أو ضعف، والمعنى الفصيح ليس المقصود به التوعّر والغموض، وإنما هو ما سهل فهمه، ولم يكد الذهن في تفسير غريبه.

ومهمـــا يكن، فإنّ الرسائل الإدارية في مجملها واضحة التعبير، فصيحة الألفاظ، سهلة المأخذ، غير عصيّة على الإفهام، وقد تعهّدها كتّاب تعدّدت مواهبهم، وتمرّسوا في فنون الكتابة، وظهرت لديهم الإبداعات في جانب النثر الفنّي.

ولـــم تشذّ الرسالة الإخوانيّة أو الأدبيّة عن الديوانيّة في صفة الوضوح والبساطة في اللفظ والتركيب، ولا تعني البساطة الضعف والسفسفة، كما لا تعني الفصاحة التوعّر والغموض والغرابة.

وكمـــا اهـــتمّ الكتّاب بوضوح أساليبهم، وبُعدهم عن الغموض والغرابة والإبهام، حفلـــوا باختيار وانتقاء ألفاظهم، فجعلوا لكل مناسبة ألفاظاً تروق لها، مراعين الأحوال والمناسبات، رابطين بين الألفاظ ومدلولاتها. فقد اختاروا الألفاظ الجزلة في موضوعات تقريع الأعداء وتهديدهم، وقد علّق على ذلك ابن الأثير قائلاً: "فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب، وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك"(1).

وللتدليل على ذلك نأخذ فقرة من رسالة للشهاب الحلبيّ في وصف خور الأعداء: "وأمّـــا الجبان في القول، والقولُ يذهب في الرّياح، وقد علموا أنّهم ما أقدموا إلاّ وكان أحد سلاحهم الهرب، ولا طمعوا في النجاح، فكان لهم في غير النجاة أرب، يبالغون في الاحتشاد، والجازر لا تهوّله كثرة الغنم، ويستكثرون من السّواد ووجود من لا ينفع أشبه شـــيء بالعـــدم، فقوّتهم ووطأتهم خفيفة، وثباتهم أقصر من حلّ العقال، وصبرهم أسرع مـــن الظلّ في الانتقال"(2).

---

(1) ابن الأثير: المثل السائر، 168/1.

(2) الحلبي: حُسن التوسّل، ص350.

ومن اللافت للنّظر اختيار الألفاظ في هذه الفقرة الدّالة على تقريع العدو والاستخفاف به، فمن تلك الألفاظ الجزلة في الفقرة: الاحتشاد، الجازر، هول، السواد، العدم. وفي الحقيقة أنّ جميع الألفاظ توحي بالشدّة والتهديد. وقد تآزرت هذه المفردات في تشكيل صور تثير الخوف في نفس العدو، كصورة الجازر وسط قطيع الأغنام، وصورة فرارهم من أول وهلة، إلى غير ذلك من صور أُخرى في الرسالة.

ومن رسالة لمحيّ الدين بن عبد الظّاهر في وصف مسير السلطان لفتح قيسارية، جاء قول الكاتب يصف قوة المسلمين وهزيمة التتار: "وأمّا العدو فتقاسمت الأيدي ما يمتطونه من الصواهل والصوافن، وما يصولون به من سيوف وقسي وكنائن، وما يلبسونه من خوذ ودروع وجواشن، وما يتموّلونه من جميع أصناف المعادن، فغنم ما هنالك، وتسلّم من استشهد من المسلمين رضوان، وتسلّم من قتل من الكفّار مالك"[1].

ولا تخفى هنا جزالة الألفاظ وفخامة دلالتها على الحدث، فرسم صورة من خلال ترابط وتآلف هذه الألفاظ، توحي بعزّة المسلمين، وذلّ الكفّار، وعلى هذا السبيل تسير معظم الرسائل التي تعالج قضايا حربيّة أو جهاديّة.

وينتقي الكتّاب الألفاظ الرقيقة الرشيقة، عند الحديث عن الموضوعات التي تتناول الإخوانيات العاطفيّة، وبعض رسائل الوصف، وذكر ابن الأثير أنّ الرقيق من الألفاظ يستعمل في وصف الأشواق، وذكر أيّام البعاد، وفي استجلاب المودّات، وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك[2].

والأمثلة أكثر من أن تحصى في هذا المجال، حيث الرسائل الإخوانيّة التي تتّصف بالرقّة والرشاقة واستجلاب المودّات كثيرة، فمن ذلك ما جاء من رسالة عتاب من إنشاء الشهاب الحلبي: ((وينهي أنّه ما زال يتلو آيات محاسنه وحمده، ويرفع رايات إحسانه ومجده، ويتولاّه ولا يتولّى عن محبّته، ويكثر الثناء على ألمعي فطنته وجزيل

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 14/147-148.

(2) انظر ابن الأثير: المثل السائر، 1/168.

مــروءته، وقد صار يشاهد من المولى ملالاً وصدوداً وإعراضاً يغيظ به صديقاً، ويسرّ به حسوداً"(1).

والنّاظــر في هذه الفقرة يجدها تفيض بجوّ الرقّة والاستعطاف، فالألفاظ مشحونة بهـذا المعنى، وقد استعان الكاتب على إبراز هذا الجوّ المشحون بالعواطف والمفردات المناسـبة للمضـمون، والتـراكيب المؤاتية من قبيل: يتلو آيات محاسنه، يرفع رايات إحسـانه، وكـذلك إكثار الثّناء، والوصف بالفطنة والمروءة، وما إلى ذلك من عبارات جلبت هذا الجو.

وشـبيه بـذلك قـول الصفديّ من رسالة شوق إلى شيخه أثير الدين أبي حيّان: "ويذكـر ولاءه الذي تسجع به في الروض الحمائم، ويسير تحت لوائه مسير الرياح بين الغمـائم، وثناؤه الذي يتضوّع كالزهر الكمائم، ويتنسّم تنسّم هامات الربا إذا لبست من الربيع ملوّنات العمائم"(2).

ولا شـكّ أنّ في هذه الفقرة كثير عذوبة ورقّة واستمالة واستعطاف، والنّاظر في الفقرة يجد جلّ ألفاظها تشي بالرقّة والعذوبة، والملاينة واستجلاب المودّات، والأمثلة في هـذا المجـال كثيرة ومتنوّعة. ويقود اهتمام الكتّاب بالجزل في مواطن القوة والنزاع، والرقة في مواطن الشوق والاستعطاف إلى القول بتمركز الرسالة الفنيّة مكان القصيدة، حـيث تناسـب الألفاظ الجزلة مواطن الفخر والإقدام والتضحيات، بينما تناسب الألفاظ الرقيقة المضامين العاطفية، كالشوق والاعتذار والشكوى والاستعطاف.

ولم يكن من الحكمة أن نطلق أحكاماً عامة بالسهولة والوضوح على جميع رسائل الكـتّاب، بل لا بُدّ من التوعّر والغرابة والغموض في بعض الأحيان لدواعي معيّنة من أبرزها تصيّد السجعات، حيث يضطر الكاتب أحياناً إلى اختيار لفظة غريبة في المعنى مـن أجل وضعها في سجعته، ومن أمثلة ذلك قول ابن نباتة: "لا زالت المحامد بذكرها

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 9/197-198.

(2) الصفديّ: أعيان العصر، 5/338.

متوّجه، ومقدّمات الفضل والفضائل من تلقاء شيمها منتجة، ومطالع الكرم والإكرام هادية إلى حرمها من اتّجه، تقبيل مواظب الدعاء يرفعه الولاء يجمعه، والثناء يقول بضّاع أرجه لا مما يضيّعه بل ما نضوّعه ... أولها التعلّق بحبل رجائه المحصد، وانتمائه المرصد"(1).

فالناظر في تلك السجعات يجد التكلّف واضحاً فيها، ولكنَّ هذا التكلّف لم يخرجها عن السهولة والوضوح والبساطة، على الرغم ممّا في بعض مفرداتها من غرابة وغموض.

ومن ذلك قول الشيباني في رسالة وصف الفريد في وصف البريد "وكم حال دون مرامه من أوجال أوحال، وعلق لبق، ووهق زلق يمنعه في شوقه من استرسال بأوثق شبحه وشكال"(2).

فهناك ألفاظ كثيرة في الفقرة غريبة يكتنفها الغموض على فصاحتها، وهناك أمر لافت للنظر في استخدام بعض المصطلحات اللغوية والصرفية والنحوية، وقد شاعت لدى بعضهم وخاصة ابن الورديّ شيوعاً كبيراً، فكان يطمح من رداء ذلك إلى التورية، فمن ذلك قوله: "وينهي بعد دعائه المبني على الفتح، وثنائه المنصوب على المدح، وشوقه الذي ارتفع فاعله، وتوقه الذي لا يكف ولا يلغى عامله"(3)، وكذلك قوله: "والصلاة على نبيّه محمد الذي شرّف البشر فزادوا به تمييزاً، وحسنوا به حالاً، وعلى آله وصحبه الذي صفاتهم مؤكّدات بالعطوف، فلهذا سمّوا أبدالاً"(4).

وقد جاء من رسالة له ذمَّ فيها القاضي الرياحي: "والغوا فعله المتعدّي بفعلكم اللازم، وسكنوا حركاته العارضة، بدخول الجوازم، وأسقطوا هذه الفضلة من البين، وانصبوه على التحذير لا على الإغراء، فشتّان بين النصبين، وعاملوا هذه اللحنة في

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 141/9.
(2) الشيباني: وصف الفريد، ص64.
(3) ابن الورديّ: الديوان، ص113.
(4) المصدر نفسه، ص187.

النحو بالمنع من التصريف، ونكّروا معرفته بنزع الولاية، فالولاية آلة التعريف، واخفضوا هذا العلم المنصوب على الذمّ، وابنوا يده على الرفع، وقلمه على الكسر، وماله على الضم، وأدخلوا أفعاله الناقصة والمقاربة في باب كان وكاد، واحذفوه فما هو عمدة، ولا أحد ركني الإسناد، واصرفوه عنّا فما له على معرفته وزن فعل دليل، وركبوه من حلب تركيب سيبويه فهي مدينة الخليل"[1].

والحقيقة أنّ ابن الورديّ قد أكثر من تصنّع مصطلحات النحو والصرف، وهذا التصنّع لا شكّ يسهم في ركاكة الأُسلوب ويسلخ المفردة عن جلدها، فتكون في موقعها الجديد نافرة قلقلة.

وقد تنبّه كتّاب ذلك العصر إلى ائتلاف الأُسلوب مع المضامين والأغراض، فلكل مناسبة قول مناسب، بل سياق مواتٍ. فالسياق الذي يناسب الفخر والإقدام لا بُدَّ أن يكون مزمجراً له جلبة وغلبة، بينما السياق الذي يناسب الوصف والغزل لا بدّ أن يكون عذباً رقيقاً سائغاً شائقاً وهكذا.

وقد نبّه محمود سليم إلى هذه الخاصيّة في أُسلوبهم مذكّراً بآراء الحلبيّ التنظيريّة في هذا المجال[2].

والحقيقة أنّ الحلبيّ وضع منهجاً دقيقاً في ائتلاف الأُسلوب مع الموضوع، ومراعاة الأحوال والمناسبات، منظّراً لأبناء عصره الذين يمارسون حرفة الكتابة الرسميّة في المقام الأول.

وحتى يتصوّر ذلك المفهوم تُجمل آراؤه[3] التي طرحها بشأن ذلك الأمر على سبيل الاختصار الذي يفضي إلى الفهم، فقد ذكر أنّ الكاتب إذا أراد أن يكتب عن السلطان إلى أحد نوّابه وقادته وقت الحرب، فعليه الإيجاز، واختيار الألفاظ البليغة الدّالة

(1) المصدر السابق، ص 175-176.
(2) انظر سليم: عصر سلاطين المماليك، 6/414-415.
(3) انظر الحلبي: حُسن التوسّل، 330-343.

على القصد مع عدم التهويل لشأن العدو، ولكن إذا كتب في وقت حركات العدو محذّراً أهــل الــثغور، فعليه بسط القول، وإثارة الحميّة، وهنا يحسن بسط القول، وعند الكتابة بأمــور الفــتوحات والتهاني، فيجب شكر الله والثناء عليه، وبسط القول في ذلك، وإذا كانــت المناســبة لتقريع مَنْ والى العدو بفضل، يذكر ألواناً من أساليب التوبيخ والتهكّم والتهديد، ولكن الكاتب إذا تصدّى لوصف الخيل أو السلاح أو الجوارح أو آلات الحرب والحصــون، فعلــيه بسط القول، وكل هذه الآراء تقدّم لنظرية نقديّة في علم النثر على قرار بعض النظريات التي تخصّ القصيدة.

الصورة والخيال:

قبل الحديث عن الصورة والخيال في الرسائل الفنيّة في العصر المملوكيّ، لا بُدَّ مـــن التنويه عن أمر لافت للنظر، وقد سبقت الإشارة إليه، وهو اتخاذهم الرسالة على أنّهـــا قطعـــة فنـــيّة أو قصـــيدة شعريّة، ولذا أدقّوا في رسم لوحتها، وخاصة الرسائل الإخوانـــيّة والوصفيّة، فقد أطلقوا العنان للخيال، ولهذا قال الحلبيّ، وهو من المنظّرين لهـــذا الفـــنّ: "فأمّا الكتب الإخوانيّة والكتب التي تعمل رياضة للخاطر فيما يقل وقوعه لاحـــتمال أن يقع أو فيما تمتحن به قوة القريحة، ويعتبر به تصرّف الفطنة، ويسبر به غور الذّهن، ويعلم به استعداد الفكر فإنّ الكاتب في ذلك مطلق العنان، يخلي بينه وبين قوّته فيه أو ضعفه، لكن على كل حال يراعى كل مقام بحسبه"[1].

ويكشـــف هذا النصّ عن فهم صائب لموضوع الصورة والخيال، فإطلاق العنان يعني الاهتمام باللوحات الفنيّة والصور المبتكرة، فلم يكن هدف النثر مجرّد الإبلاغ، بل أخـــذ الجانـــب الشعري الذي يهتمّ بالصورة الأدبيّة، وتسريح الخيال، وهذا الفهم لقضية الصورة والخيال لا يبتعد كثيراً عن الفهم الجديد لمعنى الخيال، فقد ذكر جابر عصفور أنّ المدلـــول اللغوي المعاصر لكلمة الخيال يشير إلى القدرة على تكوين صورة ذهنيّة لأشـــياء غابـــت عـــن متـــناول الحـــسّ[2]، فمصطلح رياضة الخاطر، وقوة القريحة، وتصـــرّف الفطنة، وغور الذهن، واستعداد الفكر، ومطلق العنان، كلها تشير إلى مفهوم الخيال وسعته.

وقـــد تنوّعت مصادر الصورة في الرسائل الفنيّة نظراً لثقافة الكتّاب الموسوعيّة، ورغبـــتهم في إخراج رسائلهم على أنّها زخارف فنيّة متباينة في الأشكال والألوان، وقد كان من بين كتّاب ذلك العصر من تعاطى مهنة الرسم كالصفديّ[3]، فانعكس ذلك على

---

(1) المصدر السابق، ص382-383.

(2) انظر عصفور، جابر أحمد: الصورة في التراث النقدي والبلاغي، دار المعارف، القاهرة، د.ت.، ص13.

(3) انظر ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، 176/2.

نتاجه الأدبيّ، وأغلب كتّاب العصر كانوا يجمعون بين الشعر والنثر؛ ممّا أسهم في أدبيّة الرسالة.

ومهما يكن، فإنّ أهمّ مصادر الصورة والإلهام الفنيّ القرآن الكريم، وقد عدّه الكتّاب المعين الأول في جلب صورهم، نظراً لمكانته في نفوسهم والنّاس عامة، وقد كان ذلك المصدر الرافد الأكبر للصورة في الرسالة الفنيّة، فكان رافداً أساسيّاً في الرسالة الديوانيّة والإخوانيّة والأدبيّة على حدٍّ سواء، ولكن الجانب الأوضح الذي تبرز فيه الصورة بشكل أكبر يكمن في الرسائل غير الديوانيّة.

فمن الصور التي مصدرها القرآن الكريم قول الشهاب الحلبيّ يصف كاتباً: "وهذا فلان قد أتاه الله في بلاغته الحكمة، وفصل الخطاب، ومكّنه من أزمة جياد المعاني فهي ﴿تجري بأمره رخاء حيث أصاب﴾*، ومنحه فضيلتي العلم والعمل، فإذا كتب ﴿أخذت الأرض زخرفها وازّينت﴾**، وإذا قال ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾***"[1].

فالنّاظر في تلك الفقرة يجدها تفيض بالصور التي يسرح ويمرح بها الخيال في أجواء القصص القرآني، فقد اختار الآيات التي توفّر كمّاً كبيراً من الخيال والتصوّر، ومثيل ذلك قول الشيباني: "وقد جعل الله سبحانه وتعالى الأفلاك دائمة الحركات، وأرسل الرياح منشرات، وللسحاب مسيّرات، وبأرزاق العباد جاريات، وأقسم سبحانه وتعالى بالعاديات وبالمرسلات"[2].

ولا تخفى مواطن الصورة في هذه الفقرة، حيث تشير كل جملة إلى صورة أو جملة صور، مستمدّة من القرآن الكريم، تخدم غرض تلك الرسالة وتبرزه.

---

* سورة ص، آية 36.

** سورة يونس، آية 24.

*** سورة النمل، آية 40.

(1) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص353.

(2) الشيباني: رصف الفريد، ص59.

ومن ذلك قول ابن نباتة: "وجهّزها على يد فلان بعد أن حمّله من وسائل الشّوق مـا إن حملنا من إحسانه لينضى عقود الأنجم لو تعدّدت ومفاتيح أبوابه لتنوء بالعصبة أولى القوة لو تجسّدت، وهو بين يديه يقدّم نجواها"[1].

ومـن ذلـك قـول الصفديّ: "ونسأل الله تعالى حسن الخاتمة، وفجر هذه الليلة العاتمة، فقد بلغت القلوب الحناجر، وحزّت الغلاصم بالخناجر، وكسرت براني الصبر، وحسد من امتطى ظهر الأرض من استكن في جوانح القبر"[2].

ومـن ذلك كذلك قول ابن عبد الظاهر: "وأخذنا في اختراق غابات أشجار تُخفي الـرفيق عـن رفـيقه ...ما خرجنا منها إلاّ إلى جبال قد تمنطقت بالجداول، وتعممت بالثلوج، وعميت مسالكها، فلا أحد إلاّ وهو قائل: فهل إلى خروج من سبيل أو إلى سبيل من خروج"[3].

والصـور المسـتمدّة من القرآن الكريم أكثر من أن يحاط بها في رسائلهم، ولا تقـلّ الصـور المستمدّة من الحديث الشريف والسنّة النبوية أهميّة عن سابقتها، حيث أكثـر الكتّاب من تصيّد الصور المستمدّة من الحديث لسموّ مكانته في النفوس، وخصبه بالقصـص الشـريف، فمـن رسـالة للشهاب الحلبي: "إذا كان المقصود من مثلهم جدّ الحرب، فهذه صورة لعب يخرج إليها منها تارة تدعوهم إلى البروز إلى الملق وتحدوهم فـي سلوك طريقها مع من هو دونهم على ملازمة الصدق ومجانبة الملق ... وينعمون بوعثاء السفر في بلوغ الظّفر"[4]، وكذلك قوله: "ونهي وصول ما أنعم به من الخيل التي وجد الخير في نواصيها، وادّخر حصنها حصوناً يعتصم في الوغى بصياصيها"[5].

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 145/9.
(2) المصدر نفسه، 142/14.
(3) الصفدي: أعيان العصر، 86/4.
(4) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص354.
(5) المصدر نفسه، ص344.

وكذلك قول الشيباني "فكم قطع أرضاً وركب ظهراً ووجد رفقاً"[1].

وقد اهتمّوا كذلك بالصور المستمدّة من التراث الأدبي، فمن ذلك قول محي الدّين ابن عبد الظاهر: "فبتنا بها وابتنينا، وخيلنا مبثوثة فوق الأحيدب كما نثرت فوق العروس الدراهم"[2].

وقول الصفديّ: "وتبيّن أنّ الفراق جعل القلب مملوك الجوى والعبرات جواري، وتحقّق أنّ الدهر ناقد"[3].

ومنه قول الحلبيّ يصف فرساً: "لين الإعطاف، سريع الانعطاف، يقبل كالليل، ويمرّ كجلمود صخر حطّه السيل من علِ" [4].

وقول ابن نباتة يصف خيلاً: "ما منها إلاّ من تقصر الرياح أن تسكن فجّه والبروق أن تتبع نهجه، ومن تود الثريا أن تكون لجامه، والهلال أن يكون سرجه، ومن يتمطّر كالغمام، ويركض كالسّيل"[5].

ومنها الصور المستمدة من أدوات الحضارة كقول ابن نباتة في شفاعة: "ودارِكَ بكرمه هذا السراج قبل أن يُطفى، ورعى سيرة مباشرته الحسنة الآثار، واغتنم، أدعيته وأدعية أولاده الذين هم كقطع الشطرنج صغار وكبار"[6].

والحقيقة أنّ مصادر الصورة كثيرة في رسائلهم، وقد وفّرت للكتّاب منهلاً عذباً ومسلكاً سهلاً، استطاعوا من خلاله أن يسرّحوا أذهانهم، ويطلقوا العنان لخيالهم.

والحديث عن الصورة يفضي إلى تلمّس، بل إدراك عناصرها في رسائلهم، فقد تعدّدت عناصر الصورة، واهتمّوا بتلك العناصر، فمنها الصور البصريّة التي تجمع

(1) الشيبانيّ: رصف الفريد، ص67.
(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 143/14.
(3) الصفديّ: أعيان العصر، 437/5.
(4) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص344.
(5) القلقشندي: صبح الأعشى، 105/9.
(6) المصدر نفسه، 139/9.

اللـــون والحـــركة، وقـــد أخذت هذه الصور الحيّز الأكبر في رسائلهم، فمن ذلك قول الحلبـــيّ: "ومن حبشيّ أصفر يروق العين، ويشوف القلب بمشابهته العين، كأنّ الشمس ألقـــت عليه أشعتها جلالاً، وكأنّه نظر من الدُجى فاعتنق منه عرفاً، واعتلق إحجالاً ... لــــه مـــن البـــرق خفـــةُ وطئه وخطفه، ومن النسيم لين طروقه ولطفه، ومن الريح هزيزها"(1).

والنّاظر في هذه الفقرة يجدها تطفح بالصور المتعدّدة، فقد جمعت عناصر اللون والحركة والصوت واللمس.

ومن ذلك قوله في وصف من هزم جيشه: "وكذا فليكن قلب الجيش كالقلب يقوى بقوّته الجسد، وإذا حقّ اللقاء فلا يفرّ عن كناسه إلاّ الظبي، ولا يحمي عرينه إلاّ الأسد، وما بقي إلاّ أن تعفو الكلوم، وتثوب الحلوم، وتندمل الجراح، وتبرأ من فلول المضارب صدور الصفاح"(2).

ومن رسالة للصفديّ قوله: "فوقف المملوك منه على روض تدبّج، وكافور بعنبر الليل تسبّج، ورأى بحر فضله وهو بأمواج سطوره مدرّج"(3).

والأمـــثلة كثيرة في مجال الصورة، وتشكّل عناصرها، ولكنّ النّاظر فيها يجدها مستمدّة في مجملها من مصادر ثقافتهم المختلفة، ولم ترد صور تشذّ عن تلك الثقافة، فقد احـــتلّت الصور المرتبطة بمظاهر الطبيعة الصّامتة صفحة كبيرة من عناصر الصورة لـــديهم، فصـــورة الكواكب والنجوم والقمر والهلال وشمس الأصيل، والبرق والرعد، والضياء والظلام شغلت حيّزاً كبيراً.

وقد وردت تلك المظاهر لتبرز الصّفة التي يطمحون لإبرازها، وقد كثرت لديهم الصـــور التشخيصـــيّة، فأضـــفوا على الأمور المعنوية والجسدية صفات الإنسان، فقال

---

(1) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص345.

(2) المصدر نفسه، ص386.

(3) الصفديّ: أعيان العصر، 423/5.

الصــفديّ فــي وصــف وفاء النيل: "حتّى إذا أكمل الستّة عشر ذراعاً، وأقبلت سوابق الخيــرات ســراعاً، وفــتح أبواب الرحمة بتغليقه، وجد في طلب تخليقه، وتضرّع بمدّ ذراعيه إلينا، وسلّم عند الوفاء بأصابعه علينا، ونشر علم ستره، وطلب لكرم طباعه جبر العالم بكسره"[1].

ولا يخفى ما في هذه الفقرة من الصّفات الإنسانيّة التي أضفاها الكاتب على النّيل، حــيث مدّ ذراعيه، سلم عند الوفا، أصابعه، نشر علم ستره، كرمه ... فكل هذه الأفعال مــن صــفات الآدميين، ومثل هذه الصورة قد انتشر وكثر في نثرهم، فجاء من رسالة وصــف حصــن من إنشاء الحلبيّ قوله: "وتقف الرّياح حسرى إذا توقّلت في هضباته، تخاف العيون إذا رمقته سلوك ما دونه من المحاجر"[2].

والأمــثلة كثيــرة في هذا المجال، كما أنّهم أتوا بصور غاية في الطرافة عندما اعــتمدوا ســبيل إضفاء صفات المحسوسات على المعنويات، فمن ذلك قول الحلبي من الرســالة الســابقة: "وطالما شحّت الأحلام أن تُخيل فتحه لمن سلف في المنام، فكم ذي جيوش قد أمات بفصه، وذي سطوات أعمل في أمره الفكر فلم يفز من نظره على البُعد بفرصه"[3].

فشــخّص الحلبيّ المعنويّ، وأعطاه صفات المحسوس، فالشحّ من طبع الإنسان، ولكنّه منح المعنويّ، وهو الحلم، وهذه صورة لا شكّ في علو رتبتها.

وفــي الحقــيقة أضــحت الرسالة الفنيّة وخاصة الوصفيّة منها لوحة فنيّة تتموّج بأطياف من الصور على اختلاف مصادرها وتنوّعها. فقد اقتربت من القصيدة البديعيّة، ومــن أمــثلة ذلك قول الحلبيّ يصف رحلة رمي البندق: "فبرزنا وشمس الأصيل تجود بنفســها، وتشير من الأُفق الغربي إلى جانب رمسها، وتغازل عيون النّور بمقلة أرمد،

---

(1) المصدر السابق، 624/3.

(2) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص349.

(3) المصدر نفسه، ص349.

وتنظـــر إلـــى صفحات الورد نظر المريض إلى وجوه العوّد، فكأنّها كئيب أضحى من الفـــراق علـــى فرق، أو عليل يقضي بين صحبه بقايا مدّة الرمق، وقد اخضلّت عيون النّور لوداعها، وهمَّ الرّوض بخلع حلّته المموّهة بذهب شعاعها"[1].

وهذه الفقرة من الرسالة تمثّل صورة ممتدّة تنمُّ عن ذوق مرهف، وحسّ نقديّ، لا بـــل تكشـــف عـــن ســـعة الخيال، وإطلاق عنانه يسرح ويمرح في متّسع من المساحة المتخيّلة؛ ولذا جمع الكاتب عدداً من الصور في صورة كلية الحديث حولها يفسدها.

(1) المصدر السابق، ص354-355.

ثانياً: الأثر الفاضلي والفنون البديعيّة

أولى كتّاب العصر المملوكيّ الفنون البديعيّة اهتماماً كبيراً، وقد كان مثلهم الأعلى فـي ذلك المضمار القاضي الفاضل، الذي كان هاجسهم في ذلك الأمر؛ ولذا فقد كثرت الإشارات الصريحة التي وردت في رسائلهم تشيد بالقاضي وتثني عليه، وهذا الإطراء لا بُـدَّ له من مبرّر، فالمسوّغ يكمن في الطريقة التي انتهجها في رسائله، ولاقت قبولاً واسعاً لديهم، فترد تلك الإشارات التي تثني على القاضي الفاضل، وذلك من خلال مدح بعضـهم، فيجعلون الممدوح يتفوّق على القاضي الفاضل في فنّه، وهذا اعترافٌ ضمنيٌّ بإعجابهم به، فمن ذلك قول الصفديّ يمدح القاضي كمال الدّين بن ريّان: "يقبّل الأرض حـيث ابن مقلة* لتلك الكتابة شاخص، والفاضل لذلك الترسّل ناقص"[1]، وله كذلك من رسالة تعزية: "وغاب من الإنشاء منه كاتب ليس بينه وبين الفاضل لولا أخوه مثله"[2]، ولـه كذلك في مدح أحد الكتّاب: "والكاتب النّاظم الناثر شيخ أهل الترسّل، ومن سلَكَ الطريق الفاضليّة في إنشائه"[3].

ففي عبارة الطريق الفاضليّة حجّة بالغة على فهمهم الدقيق لتلك الطريقة وترسمها وإدراك مفهـومها، وقـد ذكر القيراطي من تقريض له في أحد الكتّاب قوله: "والقاضي الفاضل لقام من مكانه لمعانيها القاعدة وأقعدها"[4].

---

* الحسـن بن علي بن الحسن بن مقلة، وهو المعروف بجودة الخطّ الذي يضرب به المثل، مولده سنة 278هـ/891م، ووفاته سنة 338هـ/949م. انظر ترجمته الحموي، ياقوت (ت626هـ/1229م): معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، تحقيق إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1993م، بيروت.

(1) الصفدي: أعيان العصر، 77/1.

(2) المصدر نفسه، 432/1.

(3) الصفدي: الوافي بالوفيات، اعتناء هلموت ريتر بفسبادن، ط2، 1381هـ/1962م، 257/17.

(4) القيراطي: مطلع النيرين، ص131.

وذكـــر القلقشـــندي أنّـــه ضرب به المثل في الترسّل[1]، وكل هذه الأمور تشي بـــتمكّـــن القاضي الفاضل من فنّ الترسّل، والإشارات كثيرة في هذا المجال ولا سبيل لحصرها.

وقـــد أبـــدى القلقشندي إعجاباً شديداً في ترسّل الفاضل قائلاً: "ومعاني القاضي الفاضـــل هي التي ترقص لها القلوب، وتطرب لها الألباب، ويهجم قبولها على النفوس من غير حاجب ولا بوّاب"[2].

والـــذي ينظر في رسائل القاضي الفاضل يدرك اهتمامه الشّديد بالبديع، والتفنّن فـــيه، فمـــن ذلك قوله الذي نال إعجاب القلقشندي حيث قال الفاضل: "يا بني أيّوب، لو ملكـــتم الدهـــر لامتطيتم لياليه أداهم، وقلّدتم أيامه صوارم، وأفنيتم شموسه وأقماره في الهـــبات دنانيـــر ودراهم، وأيّامكم أعراس، وما تمَّ فيها على الأموال مآتم، والجود في أيديكم خاتم، ونفس حاتم في نقش ذلك خاتم"[3].

فاكتفـــى القلقشـــندي بالتعلـــيق على هذه الفقرة بقوله: "فهذا هو السحر الحلال، والمعاني التي تخضع لها شمّ الجبال، ولا يقال فيه قيل ولا قال"[4].

والنّاظر في تلك الفقرة يجدها تجمع من المحسنات البديعيّة الشيء الكثير. فالفقرة مسجوعة: أداهم//صوارم، دراهم//مآتم، خاتم//حاتم.

وإضافة إلى السجع تجد الجناس، فجانس بين ماتمّ//مآتم، وخاتم//حاتم.

وطابق بين لياليه وأيّامه، وأعراس ومآتم، ووازن بين لامتطيتم لياليه أداهم وقلّدتم أيّامـــه صوارم. وورّى بخاتم حيث المعنى القريب ما يتّخذ للزينة، والمعنى البعيد الأداة التي تتّخذ لختم الأوراق والرسائل.

(1) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 454/1.
(2) المصدر نفسه، 198/2.
(3) المصدر نفسه، 198/2.
(4) المصدر نفسه، 198/2.

ومهما تحدّث المتحدّثون عن أصناف البديع في تلك الفقرة القصيرة لا يستطيعون إعطاءهـــا حقّهـــا، وهـــذا دليل على تبحُّر الفاضل في هذا الميدان. ومن نثره كذلك في وصيّة بولاية عهد:

"وأمّـــا العـــدل وإفاضـــته، والجـــور وإغاضـــته، والصعب ورياضته، والجدب وترويضـــه، والخطـــب وتقويضـــه، والجهـــاد ورفع علمه، والذب عن دين الله وحفظ حرمـــه، والأمر بالمعروف ونشر ردائه، والنهي عن المنكر وطي اعتدائه، وإقامة الحدّ بالصُّفح والحدّ، والمساواة في الحقّ بين المولى والعبد، وبثّ دعوة الله في كل غور من الـــبلاد ونجد، وأمر عباد الله إنّ عباد الله في زمنك الرغد، فذلك عهد الأئمة الراشدين، وهذا إليك من أمير المؤمنين"[1].

إنّ هـــذه الفقرة من الرسالة لتؤكّد مبلغ اهتمامه بالفنون البديعيّة، فقد أقامها كاملة علـــى الســـجع، ولم يكتفِ بالسجع بل وازن بين الجمل، كما أنّه جانس بين الحد//الحد، وطابق بين العدل والجور، والمولى والعبد، والغور والنجد، وورّى بالصفح والحد.

والمحسّنات اللفظيّة والمعنويّة أكثر ممّا تحصى في نثره، وهكذا كان القاضي في رســـائله، ولـــذا اســـتحقّ أن يترأس مدرسة تحمل اسمه، ويكون له أتباع كُثر يشيدون بترسله، ويمدحون بعضهم من خلال ذكر اسمه وفنّه.

والنّاظر في الرسائل الفنيّة في العصر المملوكي يجد الأثر الفاضلي بارزاً في كل أمـــر مـــن تلك الرسائل، ولمّا كان من العسير والشّاق أمر حصر فنون البديع في تلك الرســـائل، التـــي كانـــت ثمرة لتأثر الكتّاب بترسّل الفاضل، فإنّه لا بُدَّ من الإشارة إلى ذكـــر بعضـــها لأخـــذ صورة مجملة عن المواطن الكبرى التي بلغ التأثر أوجه فيها كالسجع والجناس والطباق والتورية وحسن الاستهلال والخواتيم، وحتى تكتمل الصورة

(1) المصدر السابق، 384/9.

وضوحاً، لا بُدَّ من تتبّع تلك الفنون بشكل منفرد، ودراستها لدى طائفة من الكتّاب لتتبيّن الملامح الكاملة لذلك التأثر.

السجع:

فـأول محسّن بديعي تأثّر به القوم، وأخذوه عن القاضي الفاضل السجع، وتجدر الإشـارة هـنا أن نتعرّف إلى حدّه وآراء النقّاد فيه. فذكر ابن الأثير أنّ السجع "تواطؤ الفواصـل في الكلام المنثور على حرف واحد"[1]، وقريب من هذا قول القزويني حيث ذكـر أنّـه "تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد"[2]، وتابعهما القلقشندي قائلاً: "وهـو المسـتقيم لاسـتقامته في الكلام واستواء أوزانه، وقيل من سجع الحمامة، وهو ترجيعها الصوت على حد واحد ... وهو تقفية مقاطع الكلام من غير وزن"[3].

وأمّـا بالنسـبة لحكم كلمات الأسجاع من حيث الوقوف عليها والتسكين، فيرى الحلبي "أنّ كلمات الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الإعجاز، موقوفاً عليها؛ لأنّ الغرض أن يجانس بين القرائن ويزاوج بينها، ولا يتمّ ذلك إلاّ بالوقوف"[4].

ويقسـم السـجع إلـى أربعـة أقسـام، فذكر الحلبيّ أنّه ينحصر في الترصيع، والمـتوازي، والمطـرف، والمتوازن[5]، ويجمع هذه الأصناف مصطلح السجع الحالي والعاطل، وهو أن تكون القرينتان متّفقتين في الروي[6].

وأعلـى الأقسـام الأربعة درجة التصريع، ويعني الاستواء في الأوزان، وتعادل الأجـزاء، أمّا المتوازي فيعني أن يختصّ التوازن بالكلمتين الأخيرتين فقط، والمطرف يعني مراعاة الاتّفاق فقط في حرف الروي، أمّا التوازن وهو ما يسمّى بالسجع العاطل،

---

(1) ابن الأثير: المثل السائر، 193/1.

(2) القزويني: الإيضاح، ص325.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 279/1-280.

(4) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص206.

(5) انظر المصدر نفسه، ص207.

(6) القلقشندي: صبح الأعشى، 282/2.

ويعني مراعاة الوزن في جميع كلمات القرينتين أو في أكثرها مع مقابلة الكلمة بما يعادلها وزناً مع اختلاف حرف الروي.

ويكمن الاختلاف في النوع الرابع في التسمية فقط، فسمّاه الحلبيّ المتوازن، بينما القلقشندي سمّاه التوازن، ومهما يكن فإنّ القلقشندي ذكر قولاً يؤكّد تأثّر الكتّاب بالفاضل عندما ذكر أنّ السجع الحالي عمل عليه أكثر الكتّاب في زمن القاضي الفاضل إلى زمان القلقشندي[1].

والنّاظر في الرسائل الفنيّة في العصر المملوكي يجدها في مجملها أسيرة السجع الحالي، فقد أغرق الكتّاب في إخراج رسائلهم مطوّقة بحلية السجع، والاختلاف بين الكتّاب يكمن في قدرتهم على صياغة عباراتهم، حيث السجع الطويل والقصير، وتنوّع الأطوال بين السجعات.

فمن النوع الأول، وهو تساوي السجعتين قول ابن نباتة:

"لا زال الدهر يقضي خدمه، ويمضي رأيه وسيفه وقلمه، ويرضي الدول الشاكرة تقديمه فيها وقدمه، ولا برحت الأقدار المعربة تجزم أمره، وتكسر ضدّه وترفع علمه، تقبيلاً إذا لثم الترب التثمه، وإذا أُودع القلب في ذلك الترب ختمه"[2].

والناظر في تلك الفقرة يجدها مسجوعة، وإنّ الأسجاع فيها متساوية في طولها.

ومن ذلك قول الحلبيّ: "جعل الله تعالى دوره رحبة العراص، وسعادته في الازدياد وأعاديه في الانتقاص، الدعاء لإحسانه مقروناً بصدق النيّة والإخلاص"[3]. ولا يخفى ما في الفقرة من تساوي سجعاتها، ومن ذلك قول محي الدّين بن عبد الظاهر:

---

(1) المصدر السابق، 282/2.

(2) المصدر نفسه، 14/9.

(3) المصدر نفسه، 134/9.

"وبات التتار على أجمل ترتيب لأنفسهم وأجمل منظر، وبات المسلمون على أتمّ تيقّظ وأعظم حذر، ولم يتحقّقوا قدوم مولانا السلطان في جيوش الإسلام، ولا أنّه حضر بنفسه النفسية ليقوم في نصرة دين الله هذا المقام"(1).

ومـــن نثـــر الصفديّ: "وما أقول بل انتظر إلاّ نظرة شهابيّة، ولا أترقّب إلاّ همّة عدويّـــة عمـــريّة، تنقذنـــي من نار هذه الغربة، وتعيدني إلى خير عالم وألطف تربة، وتـــتعطّف على من غدرت به أيّامه ولياليه، وأتى كما حكمت عليه الأقدار بذنب عقابه فيه"(2).

والأمثلة في هذا البّاب كثيرة، وهي تشهد بولعهم بهذه الحلية البديعيّة التي شاعت فـــي عصرهم، ووجدت أنصاراً لها وأعواناً، ولم يكن الكتّاب يقصرون أسجاعهم على المتســـاوي بل كان هناك السجع المتفاوت في الطول والقِصَر، وقد ذكره ابن الأثير(3)، وتابعه القلقشندي(4)، فمنه ما تكون السجعة الأولى أطول من الثانية، ومثاله قول الحلبيّ: "لا زال بـــرّه مطلوباً، وجوده مخطوباً"(5)، وقول ابن نباتة: "لا زال قلمها مفتاح الرزق لطالـــبه، والجـــاه لكاســـبه"(6)، وقول محي الدّين بن عبد الظاهر: "ذات بروج مشيّدة، وأركـــان مـــوطّدة"(7)، وقـــول الصـــفديّ: "وردت المشرّفة السامية بحلاها، الزاهيـــة بعُلاها"(8).

(1) المصدر السابق، 142/14.
(2) الصفديّ: أعيان العصر، 225/5.
(3) ابن الأثير: المثل السائر، 238/1-242.
(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 289/2.
(5) المصدر نفسه، 135/9.
(6) المصدر نفسه، 145/9.
(7) المصدر نفسه، 142/14.
(8) الصفديّ: أعيان العصر، 236/5.

أمّـا النّوع الذي فيه السجعة الأولى أقصر من الثانية، فمثالها قول ابن نباتة: "لا زالـت المحامـد بذكرها متوّجه، وقدمات الفضل والفضائل من تلقاء شميها منتجة"(1)، وقول الحلبي: "فسّح الله في مدّته، وسهّل أداء ما يجب من شكر نعمته"(2).

وقد راوح الكتّاب بين هذه الأنواع الثلاثة في رسائلهم، ولم يلتزم كاتب منهم بنوع دون آخـر، بل جاءت الألوان السابقة في نثره كما سلف من الأمثلة، ولكنّ الذي يمكن تعميمه أنّ السجع أصبح لديهم لازمة من لوازم الكتابة الفنيّة.

ونوّع الكتّاب في حروف الروي في سجعهم، ولكنّهم كانوا يميلون إلى التزوُّد من الـروي الواحد كقول ابن نباتة: "لا زال جزيلاً سماحه، جميلاً من الحمد رباحه، جليلاً برّه الذي يشهد به طائر الخير ويمنه وطائل الخيل ونجاحه، وهذه المفاوضة تهدي إليه سلاماً يخفق جناحه"(3).

وله أيضاً "لا زالت متّصلة منَنُ إرفاها وإرفاقها، نازلة على حكمها الأشياء حتّى الطيـر العاقّـة مـن آفاقها، خافقة أعلام نصرها بالأجنحة مؤمّنة لظنون القاصدين من إخفاقهـا، تقبـيل مطلـق لسان الحمد على عوائد إطلاقها، مجتنٍ لثمرات الإحسان من غصون أقلامها وغضون أوراقها"(4).

وكمـا اعتـنوا بتصـيُّد الـروي الموحّد حفلوا بالأسجاع القصيرة لعلوّ مكانتها، ودلالتها على قوّة التكمّن وإحكام الصنعة، لا سيّما القصير منها للغاية(5). فمن ذلك قول الحلبـيّ: "أدام الله ظلّـه، ورفع محلّه، وشكر إنعامه وفضله، وأعزّ أنصاره، وضاعف

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 141/9.
(2) المصدر نفسه، 136/9.
(3) المصدر نفسه، 107/9.
(4) المصدر نفسه، 113/9-114.
(5) انظر المصدر نفسه، 386/2.

اقــتداره، ولا زال مــؤيّداً في حركاته، مسدّداً في سائر فعلاته، مصحوباً بالسّلامة في المهامه والقفار، مخصوصاً من الله تعالى بالأعوان والأنصار"[1].

وبالجملـــة يكاد النّاظر في رسائلهم أن يطلق أحكاماً عامّة تقضي بشيوع السجع لـــديهم حتّى يندر، بل يعزّ عليه أن يجد رسالة فنيّة خارجة عن قيود السجع، ولا يمكن الحكم على سجعهم بأنّه متكلّف مجلوب على حساب المعنى، بل تظهر عليه آثار البراعة والبســاطة والوضـــوح في أغلب الأحيان، وليس من العدل أن يطلق الحكم على جميع الأســـجاع؛ لأنّ ذلك يحتاج إلى طول فكر، وقراءة جميع ما كتبوا، ولكنّ الأعمّ الأغلب يتّسم بالعفويّة والبساطة وعدم التكلّف.

الجِناس:

لقد ولع الكتّاب بالجناس وعدّه بعضهم عمده المحسّنات البديعيّة كالصفديّ، وألّف فـــي ذلــك كتاباً. وقبل الحديث عن محتوى ذلك الكتاب، لا بُدَّ من الوقوف على معنى الجـــناس وأقسامه، فذكر ابن الأثير أنّ الجناس سبعة أقسام، ولكن واحداً فقط من السبعة يمـــثّل حقيقة التجنيس، والأقسام الأخرى مشبّهة به، فالقسم الحقيقي ما تساوت حروف ألفاظـــه فـــي تركيبها ووزنها، وحدّ التجنيس عنده: اتّفاق اللفظ مع اختلاف المعنى[2]، ومعنى اتّفاق اللفظ أن تتماثل حروف الكلمة في العدد والترتيب والشكل.

وقـــد عدّ الأقسام الستّة الأخرى مشبّهة بالتجنيس، وهي ما فقدت شرطاً أو أكثر من الشروط المتوفّرة في حدّ التجنيس الحقيقي.

فالقســـم الأول ما تساوت حروفه في تركيبها، واختلفت في أوزانها، ومثّل لذلك بالحـــديث الشريف: "اللهم كما حسّنت خَلْقي حسِّن خُلُقي"[3]، وأمّا القسم الثاني: وهو أن تكـــون الألفـــاظ متســـاوية في الوزن، مختلفة في التركيب بحرف واحد لا غير ومثاله

---

(1) المصدر السابق، 37/9.

(2) انظر ابن الأثير: المثل السائر، 246/1.

(3) المصدر نفسه، 253/1.

قـولــه تعالـــى: ﴿وجوه يومئذٍ ناضرة، لربِّها ناظرة﴾، والقسم الثالث: أن تكون الألفاظ مخـتلفة في الوزن والتركيب بحرف واحد، ومثاله قوله تعالى: ﴿والتفّت السّاق بالسّاق إلـى ربِّـكَ يومئذٍ المَسَاق﴾، وأمّا الرابع ويسمّى المعكوس: وهو نوعان كما يرى ابن الأثير: أحدهما عكس الألفاظ كقول بعضهم: "ادات السادات، وسادات العادات"، وثانيهما عكس الحروف، ومثاله قول الشاعر:

كيف السُّرور بإقبال وآخـــره إذا تأمّلْته مقلوب إقبــــال

ويســمّى القسم الخامس المجنّب، ذلك أن يجمع مؤلّف الكلام بين كلمتين إحداهما كالتبع للأخرى والجنيبة لها، ومثاله قول القائل[1]:

أبا العبّاس لا تحسب بأنّـــــي لشيء من حلى الأشعار عـــاري
فلي طبع كسلسال معيـــــن زلال من ذرا الأحجار جـــاري

وهـذا الـنّوع أقرب بلزوم ما لا يلزم منه إلى الجناس كما يرى ابن الأثير، بينما يبقى الـنّوع الســادس وهو ما يساوي وزنه تركيبه غير أنّ حروفه تتقدّم وتتأخّر كقول أبي تمام[2]:

بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهنّ جلاء الشكّ والرّيب

والمعكــوس والمجنّب لا شكّ في تكلفهما، ولا يوجد مبرّر لوضع هذين النوعين مع التجنيس، ومهما يكن فإنّ قضيّة التجنيس أثارت جدلاً بين الكتّاب لا سيّما بعدما ألّف الصــفديّ كتابه جنان الجناس، فقد انتقده ابن نباتة وابن حجّة الحمويّ، فقال ابن حجة: "وكـــان الشـــيخ صلاح الدّين الصفديّ يستسمن ورمه، ويظنّه شحماً فيشبع أفكاره منه، ويمــلأ دفاتـــره، ويأتي فيه بتراكيب تخفّ عندها جلاميد الصخور"[3]. ولا شكّ أنّ هذا الحكــم يســري من جهة الشعر؛ لأنّ الكتاب يخلو من الأمثلة النثرية خلوّاً تاماً، وعلى

(1) المصدر السابق، 263/1.
(2) المصدر نفسه، 263/1.
(3) ابن حجّة الحموي: خزانة الأدب، 55/1.

كل حال، فإنّ الصفديّ بيّن أهمية تلك الحلية قائلاً: "فلمّا كان البديع في الزّمن المتأخّر أحسن بدعة، وأوضح لمعة، وأملح طلعة، وأكثر رواية واسعة ولا أقول رياء وسمعة، به تُبنى بيوت الشعر في أشرف بقعة، وتبرز أبكار الأفكار منه في خلعة بعد خلعة، وإذا كان الشعر برّاً، فهو منه أعذب جرعة، والمكاتبات حلّة مرموقة، فهو طراز كل رقعة، وخصوصاً نوع التجنيب الذي هو ركن شريعته، وبيان شرعته، وديباجة صنائعه في صنعته وآية سجدته"(1).

وحشد الصفديّ في كتابه كثيراً من أقوال النقّاد والأدباء السابقين له في حدّ الجناس، وفنّد تلك الآراء رأياً رأياً بالشّرح والتوضيح والنقد، واستنتج من بينها حدّاً للجناس اعتقد فيه الشموليّة عمّا وضعه السابقون فقال: "وهو الإتيان بمتماثلين في الحرف أو في بعضها، أو في الصورة أو في الزيادة في إحداهما، أو بمتخالفين في الترتيب أو الحركات، أو بمماثل يرادف معناه مماثلاً آخر لفظاً"(2).

والحقيقة أنّ هذا الحدّ أكثر صعوبة وتعقيداً ممّا وضعه السابقون عليه، ولكنّه فصّل القول في تفسيره وحلّ غامضه، وأكثر من التمثيل من شعره، ولم يتطرّق إلى نثره في ذلك المؤلّف.

وقد وردت تلك الحلية البديعيّة في معظم نثر الكتّاب، ولكنّ الصفديّ أفرط في ذلك، وقد أخذ عليه بعض النقّاد المحدثين(3) هذا الإفراط، ولكنّ هذه المآخذ مردّها إلى رأي ابن نباتة: "وذلك أنّه لما وقف على كتابه المسمّى بجنان الجناس، وقد اشتمل على

(1) الصفديّ: جنان الجناس (في علم البديع)، تحقيق سمير حسين حلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1407هـ/1987م، ص14-15.

(2) المصدر السابق، ص42.

(3) انظر ضيف، شوقي: عصر الدول والإمارات، الشام، ط2، دار المعارف، د.ت، ص306؛ انظر سلاّم، محمد زغلول: الأدب في العصر المملوكي، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2/479.

كثيـر مـن هـذا النوع قرأه جنان الجناس"(1)، ولا شكّ أنّ النقد موجّه للكتّاب لا لنثر الصفديّ عامة، خاصة وأنّ الكتاب لم يضمّن من نثر الصفديّ شيئاً.

ومهمـا يكـن، فـإنّ القضية ليست كامنة في كتاب الصفديّ وناقديه، بل جاءت حلـيـة الجناس في نثر أولئك النفر بشكل موسّع لا يصل إلى حدّ التكلّف في كثير من أحواله، فمن الأمثلة على ذلك قول الحلبي من رسالة في وصف الخيل: "ومن كميت نهد كـأنّ راكـبه في مهد، عندمي الإهاب شمألي الذهاب، يزلُ الغلام الخف عن صهواته، وكأن نغم الغريض ومعبد في لهواته، قصير المطا، فسيح الخطا، وإن ركب الصيد قيد الأوابد وأعجل عن الوثوب الوحش اللوابد"(2).

فجـانس الحلبيّ بين نهد ومهد، وبين الإهاب والذهاب، وبين صهواته ولهواته، وبـين الأوابـد واللـوابد، وقد سارت الرسالة في مجملها على هذا النحو من التجنيس الناشئ عن السجع. ومن نثره كذلك في وصف من هزم جيشه: "وزاد العدد على الجلد فلم يفد الإقدام على الأوحال مع قدوم الآجال، وأملي للكافرين بما قدّر لهم من الإنظار، وحصـل لهـم مـن الاسـتظهار"(3)، فجـانس بـين الأوحال والآجال، وبين الإنظار والاسـتظهار، وهو كثير في نثره، ومن هذه الحليّة في نثر ابن نباتة من تهنئة: "فالحمد لله علـى أن أقـرَّ العيون بمعاودة ظلّه الوريف، وعلى أن شفى الصدور بقربه وأوّلها وأولاها صدر السّر الشريف"(4)، فجانس بين الوريف والشريف، وبين الصدر والصدر، وبين أوّلها وأولاها.

ومن نثره كذلك في رسالة السيف والقلم: "أمّا بعد فإنّ السيف زند الحقّ الوري، وزنده القوي، وحدّه الفارق بين الرشيد والغوي، والنجم الهادي إلى العزّ وسبيله، والثّغر

(1) ابن حجّة الحمويّ: خزانة الأدب، 56/1.
(2) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص345.
(3) المصدر نفسه، ص385.
(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 37/9.

الباســم عــن تباشــير فلوله، به الله أظهر الإسلام وقد جنح خفاء، وجلى شخص الدين الحنيفي وقد جمح جفاء"[1].

فجــانس بن زند وزنده، وبين الوري والقوي والغوي، وبين سبيله وفلوله، وبين جنح وجمح، وبين خفاء وجفاء، وهذه الجناسات الكثيرة في تلك الفقرة والتي تسير عليها الرســالة بــتمامها تــدلّ علــى ولوع ابن نباتة بالجناس، وهنا يمكن تفسير ذمّه لكتاب الصــفديّ علــى أنّه اعتراض على ما حشد فيه الصفديّ من ألوان الجناس، خاصة في الشــعر ولــيس فــي النثر، فلو ذمّ ابن نباتة الجناس في النثر لما أتى به بهذه الكثرة، وربّمــا يفسّر ذمّه لذلك الكتاب من باب التنافس بين الأدباء والتحاسد.

ومــن نثر الصفديّ في وصف الأمطار: "العجيب سؤال مولانا عن الملوك كيف حاله، وعنده علم هذا العناء الذي نصب على الأين والنصب تمييزه وحاله"[2]، فجانــس بين حاله وحاله، وبين نصب والنصب، نُصب ونَصَب.

ومن الرسالة ذاتها: "أكلُّ هذا تشريع تشرين، وشره شرّه الذي نتجرّع من أمــره الأمــرّين، وشــهرة شــهره، فيا أيام كانون إذا جئت ماذا تبيعين وتشرين، أمّا المساكن فأهلهــا مســاكين، وأفــواههم من الحزن مطبقة فما تفتحها السكاكين، قد انتبذ كل منهم زاوية من داره، وتداخل بعض في بعض لتضمّه بقعة على مقداره، هرباً من توقيع أكف الوكف"[3].

فجــانس الصــفديّ بــين تشــريع وتشــرين، وبين شره وشرّه، وبين المساكن ومســاكيــن وسكاكين، وبين من داره ومقداره، وبين أكف والوكف، وعلى هذه الشاكلة تتواصل الرسالة.

---

(1) ابن حجّة الحموي: خزانة الأدب، 232/1.

(2) الصفدي: أعيان العصر، 221/2.

(3) المصدر نفسه، 222/2.

ولـــه مــن رســالة أخرى في وصف النيل: "وتبدي إلى العلم الكريم أنّه ورد ركابـنـــا الشريف إلى محل ملكه، ومجرّة ملكه ومجرى فلكه، فوجدنا النيل المبارك قد جعل الأرض لجّة وأرخى نقاب تياره على وجه كل محجّة"[1]، فجانس بين فَلَكه ومُلْكَه وفُلْكه، وبين لجّه ومحجّة.

ومــن منشور له: "فهم أبطال تغرف الأسود الغلب من وثباتها وثباتها، وفرسان قــوائم خيلهم صوالج تعلب من رؤوس العدى بكراتها في كرّاتها، وشجعان ألفوا مقاعد الخيل فكأنّهم ولدوا على صهواتها، وأمراء زانوا مواكبنا السعيدة التي لا تخرج الأقمار إلاّ من هالاتها، وقد احتكم إلى يمينه السيف والقلم، وانطوى على نشر العِلْم والعَلَم"[2].

فجــانس بين وثباتها وثباتها، وبين ألفوا وولدوا، وبين صهواتها وهالاتها، وبين العِلْم والعَلَم.

والمتتــبّع لنثر الصفديّ يجده يفيض بالجناس، ويظهر تفوّقه في هذا الباب على أقــرانه، فالجــناس هــو حليته المفضّلة، ولذا عاب عليه ابن حجّة الحمويّ كما أسلف، والحقيقة أنّ في تجنيسه إبداعاً وزخرفة فنيّة، وربما يفسّر ذلك بذوقه الفني كونه رسّاماً.

ومــن كلام العمريّ في وصف المنجنيق: "ونصبنا عليها من المجانيق ما سامى قلاعها، وسام اقتلاعها، وهدم سورها، وهتم ثغورها، وفجّر حجارتها بالأنهار، وأضجر ســيارتها ومـــا غـــاب نهار، وأتت على البلد ومن فيه، ووانت على ما نطق به لسانها مـــلء فيه، وما هان أمرها وهو عتيد، ولا لان قلبها وهو حديد، ولا قصر باعها وهو طويل ... مفتولة الساعد، مقبولة المساعد"[3].

فأكثــر العمــريّ من الألفاظ التي جانس بينها في هذه الفقرة، فجانس بين سامى وســام، وبــين اقــتلاعها وقلاعها، وبين هدم وهتم، وبين سورها وثغورها، وبين فجّر

(1) المصدر السابق، 330/4.
(2) المصدر نفسه، 386/4-387.
(3) العمريّ: التعريف، ص304.

وأضجر، وبين حجارتها وسيارتها، وبين بالأنهار وغاب النهار، وبين أنت وواتت، وبيم مــلء فــيه ومن فيه، وبين هان ولان، وبين عتيد وحديد، وبين مقتولة ومقبولة، وبين الساعد والمساعد.

والنّاظــر فــي تلك الفقرة يجد جلّ ألفاظها على شاكلة واحدة من الجناس، وهذا يسري على الرسالة كاملة.

ومهمــا يكن من كثرة هذه الأمثلة، فإنّ حلية الجناس لا تكاد تخلو منها فقرة من فقــرات رسائلهم، وهذا دليل على ولوعهم بها، وليس الصفديّ وحده، ولا يتّسع المجال لأكثــر من هذه الأمثلة، والحقيقة أنّ هذه الحلية لها وقع خاص في السّمع، لا بل تساهم في الإيقاع وموسيقى النصّ النثريّ، خاصة وإنّ الرسالة الفنيّة ارتقت في عصرهم إلى منافسة القصيدة، وحاولت التفوّق عليها.

الطِبَاق:

يُعدُ الطِبَاق من المحسّنات المعنويّة التي تضيف إلى الكلام الوضوح والإفصاح، حيث المعنى يستبين عند ذكر ضدّه، ويستقرّ في الذّهن، وقد ذكر ابن الأثير أنّ المطابقة -وقــد عنـــى بها الطباق- في الكلام هي الجمع بين الشيء وضدّه، كالسواد والبياض، واللــيل والـــنهار[1]، وقد اتّفق معه الحلبيّ حيث أشار إلى أنّ المطابقة أن تجمع ضدّين مختلفــين كالإيــراد والإصــدار، والليل والنهار، والسواد والبياض[2]، وذكر معاصره القزوينـــي أنّ المطابقـــة تعني الطباق والتضاد، وهي الجمع بين المتضادين أي معنيين متقابلــين في الجملة[3]، وذكر ابن حجّة أنّ الطباق الجمع بين الضدّين في كلام أو بيت شعر كالإيراد والإصدار، والليل والنهار، والبياض والسواد[4].

---

(1) ابن الأثير: المثل السائر، 279/2.

(2) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص199.

(3) القزويني: الإيضاح، ص287.

(4) ابن حجّة الحمويّ: خزانة الأدب، 156/1.

ومهما يكن من أمر هذه الآراء، إلاّ أنّها أجمعت على مفهوم واحد يكمن في المعنى وضدّه، وقد بلغ الاتفاق أن اتّفق على الأمثلة ذاتها في توضيحهم للمعنى.

وقد كثر الطباق في نثر الكتّاب، ولا بدَّ من تفسير لهذه الكثرة، والحقيقة أنّ الطباق يفضي إلى توضيح المعنى واستقراره في الذهن، حيث الضدّ يظهر حسنه الضدّ. فمن الأمثلة التي لا بدَّ من إيرادها قول ابن نباتة من رسالة مفاخرة بين السّيف والقلم:

"أتفاخرني وأنا للوصل وأنت للقطع، وأنا للعطاء وأنت للمنع، وأنا للصلح وأنت للضراب، وأنا للعمارة وأنت للخراب، وأنا المعمّر وأنت المدمّر، وأنت المقلّد وأنا صاحب التقليد، وأنت العابث وأنا المجوّد"[1].

فطابق الكاتب بين الوصل والقط، وبين العطاء والمنع، وبين الصلح والضراب، وبين العمارة والخراب، وبين المعمّر والمدمّر، وبين العابث والمجوّد.

ولا شكّ أنّ في هذه الطباقات إبرازاً للمعنى وتوضيحاً للفكرة، ومن رسالة له أخرى في الشوق:

"وقد جهّزها على يدّ فلان، وحمّله من رسائل الشّوق أوفى وأوفر من رسائل الصّفا، وسأل الإصغاء والملاحظة من مولى كجاره النيل، معروف المنافع والوفا، ولآمال المملوك بمشرفاته وأوامره جمال حين يريح وحين يسرح، وحين يقتصر على مقترحات الأيّام حين يشرح، فيُنعم مولانا بمواصلتها على هذه المقدّمة، ويجعل ذلك من إدرارات صلاته المنجّمة، والله تعالى لا يعدم المملوك في حال كرمه، إمّا أن يفيض في القرب بحره، وإمّا أن يبعث على البعد ديمه"[2]. فطابق بين يريح ويسرح، وبين القُرب والبُعد.

(1) المصدر نفسه، 234/1.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 146/9.

ولـــــه أيضاً من رسالة إجابة عن عيادة: "شكر الله مننها التي إذا أبدت أعادت، وإذا جادت أجادت، وإذا كررت الافتقاد حلا، وإذا تصدّت لمودّات القلوب صادت، تقبيل مخلص في ولائه وابتهاله على حجة العهد والحمد في صحّته واعتلاله"[1]. فطابق بيــن أبدت وأعادت، وبين صحّته واعتلاله.

ومــن نثــر الحلبــي قوله من رسالة وصف حصن: "قد تقرّط بالنّجوم وتقرطق بالغــيوم، وســما فرعه إلى السماء ورسا أصله في التُّخوم"[2]. فطابق بين سما ورسا، وبين فرعه وأصله، وبين السماء والتخوم، وهناك مطابقة في التركيب عامة.

ومن نثره من رسالة في وصف رمي البندق:

"وتــارة تدعــوهم إلى البروز إلى الملق وتحدوهم في سلوك طريقها مع من هو دونهــم على ملازمة الصّدق، ومجانة الملق، فيعتسفون إليها الدجى إذا سجا، ويقتحمون فــي بلــوغها جــرف الــنهار إذا انهــار، ويتــنعّمون بوعثاء السفر في بلوغ الظفر، ويستصغرون ركوب الخطر في إدراك الوطر، ويؤثرون السهر على النوم، والليلة على اليوم، والبندق على السهام، والوحدة على الالتئام"[3].

فطابــق الكاتب بين ألفاظ كثيرة لإبراز المعاني وتوضيحها، فمن ذلك طابق بين الملــق والصــدق، وبين الدجى والنهار، وبين السهر والنوم، وبين الليلة واليوم، وبين البندق والسهام، وبين الوحدة والالتئام.

ومن نثره في وصف ذلّ العدو وخوره من تقليد:

"وحــين تمادى المذكور في غيّه، وحمله غروره على ركوب جواد بغيه، أمرنا جيوشــنا المنصورة فجاست خلال تلك الممالك، وداست حوافر خيلها ما هنالك وسادت فــي عمــوم القتل والأسر بين العبد والحرّ، والمملوك والمالك، وألحقت رواسي جبالهم

(1) المصدر السابق، 214/9.
(2) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص349.
(3) المصدر نفسه، ص354.

بالصـــعيد، وجعلـــت حمـــاتهم كزرع فلاتهم منها قائم وحصيد، فأسلمهم الشيطان ومرَّ، وتـــركهم وفـــرَّ، وماكرهم وما كرَّ"[1]. فطابق بين العبد والحرّ، وبين الجبال والصعيد، وبين قائم وحصيد، وبين أسلم ومرَّ، وبين كرَّ وفرَّ، وبين المملوك والمالك.

ومن نثر العمريّ في وصف الحمارة العتّابيّة:

"وقد تساوى الليل والنهار، واعتدل البياض والسّواد بمقدار، واستقامت خطوطها، وتـــدفّقت فيها أنهار قدرها شطوطها، فشمخت إعجاباً، وجمعت شيباً وشباباً"[2]. فطابق بين الليل والنهار، وبين البياض والسواد، وبين الشّيب والشّباب.

ومن نثره أيضاً في وصف النرد:

"وفصوصـــه تجـــيء مـــثل القضاء والقدر في تصريف الدهر، وخصاله سبعة كالجمعـــة، وبيضه وسوده مثل الليالي والأيام، وكلّه نقص ويطلب فيه التمام))[3]. فتجده طابق بين البيض والسود، وبين الليالي والأيام، وين النقص والتمام.

ومن نثر محيي الدّين بن عبد الظاهر من تقليد بقضاة الشافعيّة:

"فكم أرضى بني الأنام عن الأيّام، وكم أغضى حياءً مع قدرته على الانتقام، وكم أمضـــى لله حكماً لانفصال لعروته ولا انفصام، وكم قضى بالجور في ماله وبالعدل في الأيـــتام، فلو استعداه الليل على النهار لأنصفه من تعدّيه، ولم يواجه لما ستره عليه من تعدّيه في دياجيه، فهو الصادع بما أمر الله به ولو على نفسه، والمستردّ الحقوق الذاهبة مـــن غيـــر محاباة حتى لغده من يومه، ويومه من أمسه"[4]. فطابق بين الجور والعدل، وبين الليل والنهار، وبين استعداه وأنصفه، وبين غده ويومه وأمسه.

---

(1) المصدر السابق، ص371.

(2) العمريّ: التعريف، ص337.

(3) المصدر نفسه، ص323-324.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 11/176-177.

ولــــه مــن توقيع بتدريس: "فهو الأصل ومن سواه الفروع، وهم الأثماد وهو الينبوع"[1]، فطابق بين الأصل والفروع، وبين الأثماد والينبوع، ومن الرسالة ذاتها: "هو منتهـى رغـبة الراغب، ومشتهى منية الطالب، ومن إذا أضاءت ليالي النفوس بأقمار فـتاويه قـيل بياض العطايا في سواد المطالب، ومن تتّفق الآراء على أنه لسنّ الكهولة شـيخ المذاهب"[2]، فطابق بين بياض وسواد، وبين العطايا والمطالب، وفي ذلك مقابلة أيضاً، وطابق بين الكهولة والشيخ.

ومن نثر ابن الورديّ في مفاخرة بين السّيف والقلم:

"يفاخــر – وهــو قائم عن الشمال – الجالس على اليمين، أنا مخصوص بالري، وأنــت مخصــوص بالصــدى، أنا آلة الحياة، وأنت آلة الردى، ما لنت إلاّ بعد دخول الســعير، وما حدّدت إلاّ عن ذنب كبير000 أنت للرهب وأنا للرغب، إذا كان بصرك اليوم حديداً، فبصري ماء ذهب، أين تقليدك من اجتهادي؟ وأين نجاسة دمك من طهارة مــدادي؟"[3]، فطابق بين الرّي والصدى، وبين الحياة والردى، وبين الرهب والرغب، وبين نجاسة وطهارة، إضافة إلى مقابلة قائم عن الشمال، الجالس على اليمين.

وقد أكثر الصفديّ في نثره من هذه الحلية، فقال من رسالة في وصف النيل:

"ويعمّه بكل وارد يقص عليه حديثاً، جعل البرّ بحراً، وملأ البحر برّاً، أصدرناها إلــى مقامــه الكريم تجدّد رعي عهوده، وتفضّ سلاماً يتردّد إليه تردّد أفواج البحر في انحــداره وصــعوده"[4]، فطابــق بــين البحر والبر، وبين تجدّد وتفضّ، وبين انحداره وصــعوده. ومــن الرســالة ذاتهــا: "فبيــنا هو في أقصى الجنوب إذا هو في أقصى الشمال"[5]، فطابق بين الجنوب والشمال.

(1) المصدر السابق، 233/11.
(2) المصدر نفسه، 233/11.
(3) ابن الورديّ: الديوان، ص81.
(4) الصفديّ: أعيان العصر، 330/4.
(5) المصدر نفسه، 330/4.

ومن منشور له: "شهادة ترغم معاطى الكفر والضّلال ونعلي بها كلمة الإيمان بصدور البيض البتر وكعوب السمر الطوال، ونطلع بها في ليل العجاج الظلم أسنة الذوابل تتّقد كالذبال"[1]، فالناظر في الفقرة يجده يطابق بين البيض والسمر، وبين البتر والطوال، وبين الصدور والكعوب. وهناك مقابلة في "بصدور البيض البتر وكعوب السمر الطوال.

ومن توقيع بالحسبة: "فتمّم نقصها بكمالك، ومشِّ النّاس فيها على أقوم المسالك، وأقم المهابة؛ فإنّها ترعى هؤلاء الرعاع، وما لك فيها إلاّ مذهب مالك، وأفعل ما تقتضيه معرفتك من احتكار ومنع، وانخفاض سعر ورفع، وتحرير ما يخرج من دار الضرب من النقود، وتصحيح المعيار ... وقد يتغطّى الزين بالرين، ويشبه الشيء الحسن بالشين"[2].

فطابق بين النقص والكمال، وبين انخفاض ورفع، وبين الشين والحسن، وله من رسالة شوق:

"ويهزّ الواقف على معانيه بالطرب من قرنه إلى قدمه، ويتحيّر الناظر فيه لتردّده بين روض وأفق، ويتخيّر الماهر من لفظه تاجاً لفرق أو قلادة لعنق"[3]. فطابق بين قرنه وقدمه، وبين روض وأُفق.

والأمثلة كثيرة على الطباق في نثرهم، والنّاظر فيه لا يجده متكلّفاً ومصطنعاً في الأغلب، بل يجده مساهماً في توضيح المعاني وكشف غوامضها، إضافة إلى ذلك يكمن حسنه في جمع الضدّين في العبارة الواحدة، فعند ذكر المعنى وضدّه في السياق الواحد تجتمع أطراف المعاني، وتكتمل الصورة في الخيال.

---

(1) المصدر السابق، 648/4.

(2) المصدر نفسه، 648/4.

(3) المصدر نفسه، 226/5.

التورية:

تُعــدُّ الــتورية أو المغالطة المعنويّة من المحسّنات البديعيّة التي تخصّ الجانب المعنوي، وحقيقتها أن يذكر معنى من المعاني له مثل في شيء آخر ونقيض، والنقيض أحسن موقعاً وألطف مأخذاً[1]، وذكر الحلبيّ أنّ "الإيهام ويقال له التورية والتخييل، وهو أن تذكــر ألفاظــاً لها معانٍ قريبة وبعيدة، فإذا سمعها الإنسان سبق إلى فهمه القريب، ومراد المتكلّم البعيد"[2]، وفي المعنى ذاته قال القزويني: "وتسمّى الإيهام، وهي أن يطلق لفظ له معنيان قريب وبعيد، ويراد به البعيد منهما"[3]. وذكر الصفديّ عدّة آراء وردت عــند ســابقيه في حدّ التورية حشدها في كتابه فضّ الختام عن التورية والاستخدام[4]، وبــيّن ابــن حجّة الحمويّ حدّها قائلاً: "التورية: أن يذكر المتكلّم لفظاً مفرداً له معنيان حقيقــيان أو حقيقة ومجاز أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفيّة، فيريد المتكلّم المعنى البعيد ويورّي عنه بالمعنى القريب"[5].

والحقيقة أنّ هذه الآراء جميعها تصبّ في بوتقة واحدة، وتعبّر عن فكرة واحدة، وهــي استخدام كلمة في الشعر أو النثر تحتمل معنيين، فيقصد الكاتب إلى أبعدهما عن الــذهن ليــتوهّم الســامع أنّ المعنى المراد القريب لفهمه الأولي، وقد كثر تداول هذه الحليــة في العصر المملوكي، وزاد إعجاب الأدباء بها، وربّما كان سرّ ذلك الإعجاب يكمن في التعبير عن الواقع بطرق أكثر تستّراً وخفاءً، ولكنّ هذا التفسير لا يبرّر كثرة انتشارها وشهرتها بين الأدباء، وحينئذٍ لا بُدّ من القول هنا بإظهار البراعة والتسابق في حيــز قصب السبق والظفر. فالأدباء يتنافسون فيما بينهم في الإكثار منها لبيان براعتهم وقدرتهم على الإتيان بها.

---

(1) انظر ابن الأثير: المثل السائر، 215/2.

(2) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص249.

(3) القزويني: الإيضاح، ص299.

(4) انظــر الصفديّ: فضّ الختام عن التورية والاستخدام، دراسة وتحقيق المحمدي عبد العزيز الحناوي، ط1، 1399هـ/1979م، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ص152-174.

(5) ابن حجّة الحمويّ: خزانة الأدب، 39/2.

وقد اهتمّ الأدباء بالتورية أكثر من غيرها، فذكر ابن الأثير -وهو سابق عليهم- جماليات تلك الحلية قائلاً: "وهذا النّوع من أحلى ما استعمل من الكلام وألطفه لِمَا فيه من التورية"[1]. وقد ذهب الصفديّ إلى أبعد من ذلك عندما عدّها من عيون البديع قائلاً: "ومن البديع ما هو موجود ومفقود، ومقبول ومردود، فهو يوجد أحياناً ويعدم أخرى، ويعطي إنساناً جزعاً، وآخر درّاً، ومنه ما هو نادر الوقوع ملحق بالمستحيل الممنوع، وهو نوع التورية والاستخدام الذي تزلّ فيه أقدام الورود والأقدام، وتقف الأفهام حسرى دون غايته عن مرامي المرام"[2].

وممّا دلّ على ولع القوم به ما ذكره الصفديّ وعناه بقوله: "وقد حافظ على التورية كثير من المتأخّرين، وسلك سبيلها جماعة من النّاظمين والنّاثرين، وأظن القاضي الفاضل -رحمه الله- ممّن ذلّل صعابها، ومهّد بالأمن مخاوفها وشعابها، وأنزل النّاس ساحتها ورحابها حتى ارتشف هذه السلافة أهل عصره"[3].

وفي المعنى ذاته وبكامل التأييد نهج ابن حجّة الحمويّ الذي كان بالأمس في الجناس يذمّه فقال: "ولهذا وقع الإجماع على أنّ المتأخّرين هم الذين سموا إلى أُفق التورية وأطلعوا شموسها، ومازجوا بها أهل الذّوق السليم، لمّا أرادوا كؤوسها، وقيل إنّ الفاضل هو الذي عصر سلافة التورية لأهل عصره، وتقدّم على المتقدّمين بما أودع منها في نظمه ونثره، فإنّه رحمه الله تعالى كشف بعد طول التحجّب ستر حجابها، وأنزل النّاس بعد تمهيدها بساحتها ورحابها"[4].

ومن خلال هذه الآراء التي أبدت إعجاباً كبيراً بالتورية وعدّتها من أنفس المحسّنات البديعيّة لِمَا فيها من اعتبارات معنويّة وفكريّة وسياسيّة واجتماعيّة لِمَا في التورية من غموض وتمويه؛ ولذا فإنّ الصفديّ وابن حجّة عدّا التورية من مفاخر

(1) ابن الأثير: المثل السائر، 215/2.
(2) الصفديّ: فضّ الختام، ص119-120.
(3) المصدر نفسه، ص124.
(4) ابن حجّة الحمويّ: خزانة الأدب، 43/2.

المتأخّرين، ومن الإيجابيات التي تحسب من حُسن صنيعهم؛ ولذا أثنيا على القاضي الفاضل الذي اعتصر سلافتها، ومهّد سبيلها لمن جاء بعده، وهذا يؤكّد من جديد سلوكهم السبيل الذي انتهجه الفاضل في ترسّله.

ومهما يكن من إعجابهم بهذه الحلية، فإنّهم تنافسوا في تصيّدها وتضمينها منظومهم ومنثورهم، فمن قول لابن نباتة في رسالة استماحة حوائج:

"وينهي ورود مشرّقة مولانا القديم فضلها، الكريم وصلها وأصلها، فوقف المملوك عليها، وأصغى بجملته إليها، وعلم ما رسم به مولانا، وأشار إليه تبياناً، وكذلك بلّغه مملوكه الولد فلان المشافهة الكريمة، فحبّذا من صاحب السرّ إسراراً وإعلاناً"(1).

فأنت ترى التورية في: جملته، ورسم، وصاحب السرّ، فهذه المفردات لها معانٍ بعيدة وقريبة.

ومن نثره أيضاً في رسالة شوق:

"وقد جهّزنا على يدّ فلان وحمّله من رسائل الشّوق أوفى وأوفر من رسائل الصّفا، وسأل الإصغاء والملاحظة من مولى كجاره النيل، معروف المنافع والوفا"(2).

فالنّاظر يرى أنّ في رسائل الصّفا، وفي الوفا تورية، فلو أجريت الأول لكان لمعنى رسائل الصّفا معنيان: القريب المودّة والشّوق والبعيد إخوان الصّفا، بينما المعنى الأول القريب للوفا ضدّ الغدر، والمعنى البعيد وفاء النيل وبلوغ المقياس.

ومن نثره كذلك من رسالة عيادة:

"وتناول كأس ألفاظه الصريحة، وإذا بقانون المزاج قد همَّ اعتداله، وكتاب الشفاء والنجاة قد تسنّت فوائد إقباله، فتميّز حال الصحّة من المرض، واستعمل جوهر الألفاظ فعزم على زواله العرض، وبلّغ الولد فلان المشافهة، وكل مولانا مبتدأة ومبتدعة،

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 182/9.

(2) المصدر نفسه، 146/9.

والمملوك جوابها، وكل أجوبته منوّلة منوّعة، شكر الله عوارف مولانا المتّصلة، ورُسل افــتقاده التي منها العائد ومنها الصلّة"[1]. فتجد أنّ الكاتب أكثر من التوريات هنا، حيث وردت ألفاظ كثيرة يمكن أن تدلّ على معنيين مثل: قانون، كتاب الشفاء، العائد، الصلّة. فالقانون وكتاب الشفاء من كتب الطبّ، والعائدة الصلة من مصطلحات النحو.

ومن نثر الحلبيّ في وصف حصن:

"لا يعلوه من مسمّى الطّير غير نسر الفلك ومرزمه، ولا يرمق متبرّجات بروجه غيــر عــين شــمّه يتهيّب عقاب الجوّ قطع عقابه، وتقف الرّياح حسرى إذا توقّلت في هضباته، تخاف العيون إذا رمقته سلوك ما دونه من المحاجر"[2]. فالنّاظر في الفقرة يجد بعــض التوريات: كنسر الفلك والمرزمة والمحاجر، ومن نثره كذلك في رسالة وصف صيد:

"ومعنا غلمة نحن بسهامهم منها أوثق، وهم بإصابة شواكل المراد من كل ما ذكر يحــذق، إذا أخذ كل منهم حنينته أرانا القمر في القوس، وإن نظم رميته قيل هذا حبيب، وإن لم يكن ابن أوس فما لاح طائر إلاّ وله السهام أجل"[3]، فإنّ القارئ يجد التورية في حبيب وأجل.

ومن نثر ابن الورديّ في تعزية:

"وينهــي أنّه بلغ المملوك انهداد الطود الشّامخ، وزوال الجبل الباذخ، الذي بكته السماء والأرض، وقابلت فيه المكروه بالندب، وذلك فرض ... وساواه في حزنه الوارد والصــادر"[4]. فالقــارئ يلحــظ أنّ ابــن الورديّ ورّى بألفاظ الفقه: المكروه والندب والغرض، إضافة إلى مصطلحات ديوان الإنشاء: الصادر والوارد.

---

(1) المصدر السابق، 214/9.

(2) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص349.

(3) المصدر نفسه، ص348.

(4) ابن الورديّ: الديوان، ص104.

ومن نثره أيضاً في منح إجازة:

"ويقـول الزجاجـيّ أيّهـا الشّاب، قد أخملت جواهرك قوارير صرحي الممرّد، ويـنادي ابن الحديد: يا ويلتي حتى الحديد سطا عليه لسانك والمبرد ... ويرفرف عليه ابـن عصفور بجناحيه، ويحلف أنّه الخليفة من بعده، بتعمّق يرهف حروف الحروف، وينصف حتى لا يعدو ثعلب ولا أكبر منه على خروف"[1].

فالناظـر فـي الفقـرة يجد ابن الورديّ قد تلاعب في هذه الإجازة بأعلام النحو واللغـة علـى سبيل التورية، فتجد: الزجاجي، والمبرِّد، وابن عصفور، وابن خاروف، وثعلـب، وكل هذه الأسماء لها معنى قريب ومعنى بعيد، فالتورية حاصلة على ضعفها في السياق.

ومن نثر محي الدّين بن عبد الظاهر قوله من توقيع بتدريس:

"والله تعالـى يعمر بسيادته معالم الدّين وأكنافه، ويزيّن بفضله المتين أوساط كل مصـر وأطـرافه، ويضيف إليه من المستفيدين مَنْ بإرفاقه وإشفاقه يكون عيشه خفضاً بـتلك الإضـافة، ويجعله لا يخصّص صنوّه بمعهد دون معهد ولا بمسافة دون مسافة ويبقيه ومنفعته إلى سارية سارية الإطافة واللطافة وألطافه بهذه الولاية تقول لكل طالب في القرافة: ألق رافه"[2]. فتجد من التوريات: كل مصر وأطرافه، حيث مصر تدلّ على أي بلد أو قطر مصر، خفض، الإضافة، سارية، ألق رافه.

ومن نثر العمريّ في وصف المقصّ:

"وذكر هنا تبعاً، وهو الذي طالما واصله المرء فقطع، وجهد فلم يقع في كل يدّ له غير درهم فاقتنع، روحان في جسد، واثنان بقلب واحد خلا من حسد، كم صاح فأصبح

---

(1) المصدر السابق، ص101.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 234/11.

كل ذي شقّة بعيدة به صاعقاً، وجثا بين القوم على ركبتيه ثمّ قصّ قصّاً صادقاً"[1]، فتجد التورية في قصّ قصّاً صادقاً.

ومن نثر الصفدي – صاحب فض الختام عن التورية والاستخدام الذي لم يضمّنه مـــن نثره قليلاً ولا كثيراً– ما جاء في رسالة مدح: "يقبّل الأرض، وينهي ورود المثال الكريم، الذي فضح كماله القمر وسلب بسحره الألباب وقمر، وأحيا رسم البلاغة، فساد بما شاد وعمر، وعمى غمام فضله وسقى رياض الفصاحة وهمر"[2].

فـــورّى الصفدي في هذه الفقرة بلفظتين: قمر وشاد، ومن نثره أيضاً ما جاء من توقـــيع بنظر: "فضلاً عمّن يتنقل في المباشرات من البشر، وكم كانت الأموال جمادى فأعادهـــا ربيعاً، غرّد به طائر الإقبال في الجهات وصفر"[3]، فأجرى التورية في أسماء الأشهر مثل: جمادى وربيع وصفر.

وله من رسالة استجازة:

"المتكلّم الذي ذهلت بصائر أولي المنطق نحوه، وأنتجت مقدّماته المطلوب عنوة، ووقـــف الســـيف عـــند حدّه، فما للآمدي في مداه حظوة، وحاز رتب النهاية، فما لأبي المعالـــي بعـــدها خطـــوة، فهـــو الـــرازي علـــى الرازي؛ لأنّ قطب علوه من مصره ومحصولـــه ذهب دخل أوانه وعصره، والفقيه الذي رفع لصاحب الموطأ أعلام مذهبه مُذهـــبة، فمالـــك عـــنه رضوان"[4]. فهناك من الألفاظ محتملة التورية: حدّه، المعالي، الرازي، مصره، عصره، مالك، رضوان.

ومهمـــا يكن من أمر التورية، فإنّ الكتّاب قد ولعوا بها، ولم نأت هنا إلاّ بالنزر القليل، والنّاظر في رسائلهم يجد هذه الحلية تفصح عن أمرٍ ذا بال، وهو إظهار حذاقتهم

(1) العمري: التعريف، ص321.
(2) الصفدي: أعيان العصر، 406/4.
(3) المصدر نفسه، 664/2.
(4) المصدر نفسه، 155/5.

وبراعتهم في تصيّد فرائد تلك التوريات؛ لأنّها تعدّ لديهم من حلي الكتابة والترسّل، وفي الحقيقة لا يقنع كثيراً تفسير كثرة استخدام تلك الحلية بالهروب من مباشرة الساسة والأوضاع السائدة في زمانهم، وإنّما تعلّل هذه الظاهرة بإعجابهم بكل ما أتى به القاضي الفاضل.

ولم يتوقّف القول عند هذه الفنون، بل هناك ألوانٌ كثيرة من الحلى البديعيّة، بعضها سيتم الوقوف عليه في مبحث التناص كالاقتباس والتضمين وحلّ المنظوم، وإضافةً لما تمّ الحديث عنه، نوجز القول في حسن البدء والختام.

إنّ المقصود بحسن الاستهلال أن يجمل الكاتب الغرض الأساسي في استهلاله؛ لأنّ ذلك أول ما يقرع السمع، فمن ذلك قول ابن نباتة في شفاعة:

"وينهي بعد ولاء يحكم على القلوب شافع جماله، وثناء يجرّ على أكمام الزهر فضل أذياله: أنّ العلوم الكريمة محيطة بإيجاب حقّ من هاجر إلى بابها، وشكا غُلّة الفاقة إلى مَنْهل مُنهلٍ سحابها"[1].

فلا شكّ أنّ ابن نباتة أفصح عن الغرض في بداية الأمر، حيث أشار إلى الغرض من خلال حديثه عن الشفاعة والكرم والسّخاء.

ومن كلام الحلبيّ أيضاً من شفاعة في خلاص مسجون: "فسّح الله في مدّته وسهّل أداء ما يجب من شكر نعمته، وألزم الألسنة بحمده، والقلوب بمحبّته، وجعله مفرِّجاً كل كرب، ومسهِّلاً من المقاصد كل صعب"[2]، ففي هذا الاستهلال دقة متناهية وحسن اختيار للألفاظ، فكل الجمل التي اعتمدها تشي بالشّفاعة.

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 138/9.

(2) المصدر نفسه، 136/9.

أمّا حُسن الختام، فهو على الشاكلة نفسها، إلاّ أنّ الاهتمام يبرز بالخاتمة، حيث إنّ آخر ما يقرع الأسماع ما يكون نهاية الكلام؛ ولذا سعوا إلى حُسن اختياره ومناسبته للموضوع.

فمن ذلك قول الصفديّ من رسالة في وصف وفاء النيل:

"ومرّ كالسّهم في خليجة من قسي قناطره، وخنق المحل بعبراته في محاجره، وبشّر أنّ آلاف الأموال أضعاف ما فيه من الأمواج، وخبّرت رقاعه أنّه لم يبقَ فيها محتال ولا محتاج فأكمل الستة عشرة ذراعاً"[1].

فقد ألمح الكاتب إلى النهاية بعبارة تشي بالغرض، وهي البشارة بوفاء النّيل والخير العميم.

ومن كلام العمريّ في وصف الشّتاء والثّلوج:

"وجعل حظّ مولانا من لوافحه ما يذكيه ذهنه من ضرامه، ومن سوافحه ما يولّده فكره من توأمه، وعوّضنا إياه بالصّيف، والله يتقبّل، وأراحنا من هذا الشّتاء، ومشي غمامه المتبختر بكمّه المُسْبَل بمنّه وكرمه إن شاء الله تعالى"[2].

فقد أشعر العمريّ بالختام، وأوجز وأجمل في اختيار خاتمته، حيث أتى بالغرض الأساسي وهو شدّة المعاناة من مقاساة البرد الشّديد.

والقول في البديع واهتمامهم به لا يصفه واصف، فقد أغرق القوم به، وحفلوا بأسبابه، وتباروا في قطف أزهاره؛ ولذا أرجعوا الفضل إلى الفاضل، وترسّموا أثره، وعدّوه رائداً لهم وملهماً لأقلامهم في هذا البّاب.

---

(1) الصفديّ: أعيان العصر، 330/4.

(2) المصدر نفسه، 428/1.

ثالثاً: التّناص

إنّ قضية تعالق النصوص أو تقاطعها لم تكن وليدة العصر الحديث، لا بل لم تكن مسـرحاً فقـط لـنقّاد وأدباء هذا العصر ، بل كانت مسألة ذات أهميّة بالغة في أذهان القـدماء، فهذه القضية لا تغادر أذهان المبدعين أو النقّاد في أي عصر، فمسألة الإبداع أرّقت المبدعين والنقّاد على حدّ سواء.

ولمّا كان الفضل دائماً للمتقدّم، شغلت النقّاد والمفكرين قضية المعنى البكر، فقُدِّم كثيـر مـن الأدبـاء بسبب أعمالهم التي لم يسبقهم إليها أحد، فقد قُدّم امرؤ القيس على الشعراء لاعتقاد النقّاد بأنّه قد سبق الشعراء إلى كثير من الصور والتقاليد الفنيّة.

ومـن هـنا فقضية التعالق أو التقاطع أو النصيّة برزت منذ فجر تاريخ الآداب، حتـى إنّـه يمكن القول أو الاستئناس إلى القول بعدم وجود نصّ بكر صافٍ لم تكدره شوائب النصوص الأخرى، والسبب في ذلك يعود إلى طبيعة النفس البشرية التي تتشابه فـي حالاتها جميعها في التعامل مع الأشياء، فهناك قضايا إنسانيّة كبرى تنضوي تحتها الذّات الفرديّة. ولمّا كان النصّ جزءاً من نفس مبدعه، فلا بدّ أن يكون النصّ معبراً عن حاجـات إنسـانيّة كبرى كامنة في مضمونه، ويمكن أن تطفو على سطح النصّ الذّات الفرديّة التي قد تحمل الفِكَر الإنسانيّة الكبرى.

والمسألة الأهمّ في هذه القضية وسيلة حمل الأفكار وهي اللغة، فاللغة أداة لحمل المعاني والمضامين، وبها يعبّر الفرد عن حاجاته ورغباته، فأي معنى إنسانيٍ عبّر عنه أديـب أو مـبدع ما لا بدّ له من شكل ما يؤدّيه به، وهذا المعنى إذا أراد أن يعبّر عنه أديب آخر، فلا بدّ أن يتقاطع مع المعنى الأول في بعض نسيجه، لا بلّ قد يعمد الأديب التالي إلى نقل لغة الأديب الأوّل لزيادة التأثير في النفس، وخاصة إذا كان النصّ الأوّل قمّة لا تطاول.

وبناءً على ما تقدّم، فإنّ التناص ظاهرة نقديّة تعدّ غربيّة المولد والمنشأ وإن كان لها أرهاصاتها في النقد الأدبي العربي القديم، إلاّ أنّها ظلّت مهملة مختفية تحت مسميات قريبة منه مثل الاقتباس والاستشهاد والتضمين والسرقة وحل منظوم الشعر.

ومع تطوّر الدراسات التي اجتاحت عالم الأدب في القرن العشرين تعدّدت النظريات والمناهج النقدية التي عُنيت بالدراسات النقدية وكان من نتاج هذا التطوّر ظهور مفاهيم نقدية حديثة كثيرة.

وجاء التناص في بدايته عاماً تنقصه الدقّة في تحديد ملامحه، شأنه في ذلك شأن معظم المصطلحات النقدية الرياديّة، كالأسلوبية والشاعرية والبنيوية،[1] وهو نقل لتعبيرات سابقة أو متزامنة أو اقتطاع أو تحويل كما ترى جوليا كرستيفا[2]. فهو يندرج في إشكالية الإنتاجية النصيّة التي تتبلور كعمل النص، وبذا يكون التناص هو ذلك التقاطع داخل النص لتعبير مأخوذ من نصوص أخرى وإنّه النقل لتعبيرات سابقة أو متزامنة[3].

ومن وجهة نظر الشكلانيين يرى (تودروف) أنّ كل ظاهرة أسلوبية تنبثق من نصّ ما هي قضية وجود وحضور في كل أسلوب جديد، فتنشأ داخلياً كجدليّة تقويضية للنص الآخر، أو أنّها معارضة أسلوبية مخفية للأسلوب الآخر[4].

فالقضية عنده قضية صراع وتشاحن وبقاء ووجود، فكل نص يجتاح النص السابق عليه لإثبات وجوده ومخالفته أو إخفاء الآخر، وهذا الصراع والاجتياح يعتمد على الآلية التي يستخدمها المبدع لنصّه الحدث، فكما يشير رولان بارت فإنّ النصوص الغائبة التي تشكّل التناص يتفاوت إنعكاسها في النص الجديد حسب ثقافة

---

(1) انظر الزعبي، أحمد: مقالات في الأدب والنقد، مكتبة الكتاني، 1993، ص77.

(2) انظر المغيض، تركي: التناص في معارضات البارودي، مجلة أبحاث اليرموك، مجلد 9، عدد2، 1991، ص86.

(3) المرجع نفسه، ص87.

(4) المرجع نفسه، ص88.

المتلقّي "فالنصوص الأخرى تنعكس فيه بمستويات مختلفة ومتفاوتة بأنماط ليست عسيرة الفهم بطريقة أو بأخرى، إذ نتعرّف فيها نصوص الثقافة السالفة والحالية"[1].

فهـذه العلاقـات التـي شكّلت هذا النص، والتي كانت متشابكة ومتضافرة تقود ذهـن المتلقّي إلى تفكيك النص وتشريحه كي تمنحه وجوده ومعناه، فالنصّ الواحد قد يكون نصوصاً كثيرة حسب المتلقّي الذي يوجّه تلك التناصات حسب فهمه وتحليله لها. فالنصّ ما هو إلاّ نسيج من نصوص أخرى سابقة للحظة إبداعه.

ولهـذا يعـرّف جيني التناص بأنّه النص الذي يتشرّب تعدّدية من النصوص مع بقائه ممركزاً بمعنى خاص به[2].

وقـد تـناول هـذا المصطلح عدد من النقّاد العرب بالبحث والتمحيص وتحديد مفهومه، فتحدّثوا عن حدّه النظريّ وتطبيقه على النصوص الأدبية من شعر أو نثر، فقد تشابهت رؤيتهم في تحديد أُطره.

فاسـتخلص محمـد مفـتاح حـدّ التناص من خلال دراسة آراء كثير من النقاد الغـربيين مـع تنبـيهه على أنّهم لم يصوغوا تعريفاً جامعاً له، إلاّ أنّه توصّل إلى أنّ التناص هو "تعالق (الدخول في علاقة) نصوص مع نصّ حدث بكيفيّات مختلفة"[3].

وقـد أشار محمد بنيّس إلى أنّ صياغة جديدة تمّت للتناص فسمّاه النصّ الغائب، ويـرى أنّ الـنصّ الشعري بنية لغوية متميّزة ليست منفصلة عن العلاقات الخارجية. فالنصـوص الأخرى وهذه النصوص هي ما يسمّيها بالنصّ الغائب، وينظر إلى النصّ الشـعري علـى أنّـه عبارة عن شبكة تلتقي فيها عدّة نصوص لا تقف عند حدّ النص الشـعري بالضـرورة؛ لأنّه يعدّها حصيلة من النصوص يصعب تحديدها فهي متداخلة

(1) المرجع السابق، ص88.

(2) انظر جهاد، كاظم: أدونيس منتحلاً، مكتبة مدبولي، 1993، ص34.

(3) مفتاح، محمد: تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1985، ص121.

ومتمازجة إلى درجة كبيرة، إذ يختلط الحديث بالقديم والعلمي بالأدبي واليومي بالخاص والذاتي بالموضوعي(1).

وإذا مـا تمّـت مـوازنة ما قاله بارت وما يراه بنيّس يجد الاقتراب في المأخذ، فكلاهمـا يـنصّ علـى أنّ النصّ نسيج من نصوص أخرى متداخلة ومتجاورة يصعب تحديـدها أو حتى فصلها، فيختلط فيها الخطاب الحديث بالقديم. فالنصّ الجديد محصلة لنصوص سابقة، وهذا ما يراه معظم من تحدّثوا عن التناص.

ويـبّن صـبري حافظ أنّ العمل الشعري يتفاعل تناصياً مع كل المعطيات، أي معطـيات التـراث النصـيّ أو الخبرات التناصية في الواقع الذي ينبثق منه، ويتفاعل معـه، ويـؤكّد أنّـه لا يـوجد نصّ من فراغ ولا ينشأ في فراغ، بل في عالم مليء بالنصوص، ومن ثمّة يحاول الحلول محل هذه النصوص أو إزاحتها من مكانها، وخلال عملـية الإحـلال أو الإزاحـة هذه قد يقع النص في ظل نصّ أو نصوص أخرى، وقد يتصارع مع بعضها، وقد يتمكّن من الإجهاز على بعضها الاخر(2).

فالـنصّ عـنده ينطوي على مستويات متباينة مختلفة ترسّبت فيه تناصياً الواحد عقـب الآخـر، دون وعي منه أو من مؤلّفه، وبتحويل هذه الترسّبات يصعب إرجاعه إلـى مصادره التي تشكّل منها، فقد ذابت هذه المصادر كليّة في الأنا التي تتعامل مع النص(3). فالنصّ لديه يلفت اهتمام المتلقّي إلى نصوص غائبة وسابقة، وإلى التخلّي عن أغلوطة استقلالية النص؛ لأنّ أي نص يكتسب ما يحقّقه من معنى بقوة كل ما كتب قبله مـن نصوص(4). ولكن النصوص السابقة لا سبيل لإخفائها نهائياً بل لا بُدّ من أن يكون لهـا حضور "فالنصوص المتناصة مع نص بعينه تمتلك حضوراً لا يمكن تحاشيه، ولا يمكـن نفـيه، فتلك المداخلات النصيّة تتكشّف على سطح النصّ ولكنها – على حسب

---

(1) انظر بنيّس، محمد: ظاهر الشعر العربي المعاصر في المغرب، ط2، 1985، دار التنوير، بيروت، ص251.
(2) انظر حافظ، صبري: أفق الخطاب النقدي (دراسات نظرية وقراءات تطبيقية)، ط1، 1986، دار الشرقيات، القاهرة، ص58.
(3) انظر المرجع نفسه، ص58.
(4) انظر المرجع نفسه، ص58.

منشئه- لا تظلّ منفصلة وسائبة، وإنما تخضع لتحوّلات ومتحولات يتمثّلها النصّ والذي هو جملة توزيعات ملفوظة سابقة عليه أو معايشة له"[1].

والتــناص كمــا يذكــر جعفــر العلاق لا يقصر حركة النصّ على النصوص الأخــــرى فقط، بل يتجاوزها إلى مظاهر غير نصيّة كثيرة، فقد يكون التناص إيماءة مباشــرة أو غائمـــة إلى عمل كامل أو مجتزأ، وقد يكون كذلك تلميحاً إلى شخصية أو مكان أو حادثة[2].

والكاتب أو المبدع لا يقوم باصطياد تلك النصوص بإحضارها أمامه وإخفائها في نصّــه، بل يكون قد اختزل تلك النصوص أثناء تكوينه الثقافي، وتمثّله لتلك النصوص، فعــندما ينشــئ نصّه تتداخل النصوص وتتفاعل فيما بينها، وينفي بعضها الآخر حتى يخرج النصّ الجديد[3].

ويعــزو المخــتار حســني التــناص إلى الاستحضار، حيث تكون هناك علاقة تــزامنيّــة بين النصوص، فعن طريق الاستحضار وغالباً بالحضور الفعّال لنصّ داخل آخر بشكله الأكثر جلاءً وحرفية، وهي طريقة القدماء في الاستشهاد بالتوثيق أو بدونه، وعلى هذا تكون أقرب للسرقات الأدبية[4].

ومهمــا يكــن مــن أمر التناص، فالمديني يقرّبه من النحت والابتكار للعديد من المصطلحات التي يصعب العثور على مصدرها، مثل إطار القراءة، ونحو التعرف وهو سلطة الامتصاص للمفاهيم وإعادة توزيعها ومركزتها، وهذا يأتي من الانسجام والتلاقي فــي لحظــة الإبداع لعدد من الأبحاث المتفرّقة. فمفهوم التناص في رأيه يتّجه للاقتران

---

(1) عيد، رجاء: النص والتناص، علامات في النقد، مجلد 5، الجزء 18، 1995، ص179.

(2) انظر العلاق، جعفر: الشعر والتلقّي (دراسات نقدية)، ط1، 1997، دار الشروق، ص132.

(3) انظر اصطيف، عبد النبي: التناص ظاهرة قديمة، راية مؤتة، مجلد 2، عدد2، 1992، ص50-54.

(4) حسني، المختار: من التناص إلى الإطراس، علامات في النقد، مجلد 7، جزء 25، 1997، ص180.

بمفهوم الحقل بوصفه معارضة سجالية لمفهوم البنية، حيث تعترض على أفكار الإدماج والاقتران والجدوليّة ووقائع الانقطاع، والهامش والتناقض والتمايز"[1].

والتناص في أبسط صوره عند أحمد الزعبي "يعني أن يتضمّن نصّ أدبي ما نصوصاً أو أفكاراً أخرى سابقة عليه عن طريق الاقتباس أو التضمين أو التلميح أو الإشارة أو ما شابه ذلك من المقروء الثقافي لدى الأديب، بحيث تندمج هذه النصوص أو الأفكار مع النصّ الأصلي، وتندغم فيه لتشكّل نصّاً جديداً واحداً متكاملاً"[2].

ويرى الزعبي أنّ التناص ليس جديداً وإنّما هو موضوع له جذوره في الدراسات النقدية شرقاً وغرباً، ولكن تحت مسمّيات ومصطلحات أخرى عديدة، فالاقتباس والتضمين والاستشهاد والقرينة والتشبيه والمجاز والمعنى وما شابه ذلك في النقد العربي القديم تدخل في مفهوم التناص بصوره الحديثة[3].

وبما أنّ النثر الفني في العصر المملوكي كثر فيه الاقتباس والاستشهاد والتضمين، وحلّ المنظوم، يرى الباحث أن يدرس ذلك النثر دراسة نصيّة علماً أنّ تناصهم يندرج تحت ما يسمّى بالتناص المباشر، إذ يقتبسون النصّ بلغته التي ورد فيها مثل الآيات والأحاديث والأشعار والقصص[4]، إلاّ أنّ النثر في مجمله لا يخلو من بعض الإشارات إلى التناص غير المباشر الذي يعتمد الأفكار والإشارات الخفيّة.

تناص القرآن الكريم:

أكثر الكتّاب في العصر المملوكيّ من الاتّكاء على القرآن الكريم؛ لأنّه يمثّل في أذهانهم قمّة البيان العربي، فهم يعدّونه المثل الأعلى في البيان وقمّة لا تطاول، فيأخذون منه ما يزيد كلامهم حُسناً وطلاوة، فضلاً على أنّ بعض قصص القرآن يمكن أن تُكَثَّف

(1) المديني، أحمد: في أصول الخطاب النقدي الجديد، ط2، 1989، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ص113.
(2) الزعبي: التناص نظرياً وتطبيقياً، ط1، 1995، مكتب الكتاني، إربد – الأردن، ص9.
(3) المرجع نفسه، ص15.
(4) المرجع نفسه، ص16.

في كلمة أو عبارة، فالكاتب قد يلجأ للتناص القرآني من أجل أن يضفي على نثره شيئاً مـــن القداسة والخلود. ولا شكّ أنّ الكاتب في الثقافة الإسلامية يتسرّب إلى وعيه بعض الأثر القرآني عند نسجه لنصّه النثري.

وتـــناص القرآن الكريم عند جلّ الكتّاب واضح جداً، إلاّ أنّه يدخل تحت ما يسمّى بالتناص المباشر الذي يعني الاقتباس والتضمين والاستشهاد وحلّ المنظوم.

ولهذا عرّف الحلبيّ أحد كتّاب ذلك العصر الاقتباس بأنه: "تضمين الكلام شيئاً من القـــرآن الكـــريم والحـــديث الشـــريف، ولا ينبّه عليه للعلم به"(1)، ويعلّل الحلبيّ كثرة الاستشهاد بالقرآن الكريم عند الكتّاب بقطع النزاع وإقامة الحجّة حيث قال: "ومن شرف الاستشهاد بالكتاب العزيز إقامة الحجّة وقطع النزاع وإذعان الخصم"(2).

ومهمـــا يكن، فإنّ التطرّق للآلية التي استخدموها عند تناصهم مع القرآن الكريم ستتوضّـــح من خلال تلك التناصات، فمثلاً من رسالة للحلبيّ في وصف هزيمة الأعداء "وحملنا عليهم حملة ألجأهم طوفانها إلى ذلك الجبل، وهل يعصم من أمر الله جبل"(3).

فـــي تلـــك الفقـــرة مـــن الرسالة تناص من الآية الكريمة ﴿قال سئاوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم﴾*، فقد تناص الكتاب مع الآيـــة الكـــريمة، فوظّف تلك الآية في سياق آخر ليزيد المشهد الدرامي حركة ونشاطاً وتصويراً، فالأعداء قد أحاط بهم جُند المسلمين من كل جانب حتى أصبحوا محصورين بـــين طوفان تلك الجموع؛ ولمّا كانت قد سُدّت عليهم الخناق، وتقطّعت بهم السُبل تبادر إلـــى ذهـــنه صورة طوفان نوح وصورة ابنه وقد صعد جبلاً يريد النجاة، ولمّا أنّ ذلك الجـــبل لم يأوه من ذلك الطوفان، فكذلك الحال في اعتصام الأعداء بذلك الجبل لا يقيهم

---

(1) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص323.

(2) المصدر نفسه، ص75.

(3) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 191/I.

* سورة هود، آية43.

ومــن توقيع أنشأه العمريّ بنظر الحسبة: "وفيك من الألمعيّة نور باهر، وكوكب زاهر، فلا حاجة إلى أن تلقى الوصايا أقلامها أيها يكفلك، ولا تنبّهك على زينة العفاف فيها وهي حُلَلُك"[1].

ففـــي هذا الجزء من التوقيع تناص من الآية الكريمة: ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهـــم أيهم يكفل مريم﴾*، فوظّف العمريّ معنى الآية في سياق الوصايا، ولكنّ الأمر مغايــر تماماً، حيث تنافس النّاس في كفالة ووصاية تلك الفتاة القاصرة، التي في أمسّ الحاجــة إلــى المســاعدة، ولكن الكاتب أعلى من شأن ممدوحه، حيث لا حاجة لكفالته وإحاطته بتلك الوصايا التي تنير الطريق له الذي يسلكه في تلك الوظيفة التي ألقيت على عاتقــه، وإنّــك لتشعر أنّ العمريّ وظّف هذه الآية لتدلّ على أنّ ممدوحه أعلى وأرفع مــــن أن تكــتب له الوصايا، وفي ذلك خروج عن المعنى العام الذي تحمله الآية، بل هناك تضاد مطلق من النقيض إلى النقيض، فأراد من إدراج هذا التناص جلاء الفكرة. فالضــدّ يظهــر حسنه الضد، ومهما يكن فإنّ الكاتب لم يتناص بشكل مباشر، بل حذف كثيــراً من مفردات الآية، وعكس المعنى لكن المفردات التي أشارت إلى الآية امتصّت المعنى العام الدّال على الوصاية والكفالة، وهذا اللون من التناص ما تصفه وداد القاضي بالتناقضات المتناظرة، أي مطّ التناقض إلى حدّ القلب أو العكس[2].

ومــن توقيع بالزكاة من إنشاء ابن نباتة قوله: "علماً بأنّه الكافي إذا شدّ سدّ، وإذا قصر رأيه على الصنع الجميل مدّ، والخبير إذا جمع مالاً وعدّده كان مشكوراً"[3].

فقد تناص ابن نباتة مع الآية الكريمة ﴿الذي جمع مالاً وعدَّده﴾*، فالتناص واضح، فقد جرّه الحديث عن جمع مال الزكاة وعدّه، والتدقيق في أموره إلى استحضار صورة

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 64/12.

* سورة آل عمران، آية 44.

(2) انظر القاضي، وداد: بشر بن أبي كبار البلوي، ط1، 1405هـ/1985م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص118.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 305/12.

* سورة الهمزة، آية 2.

ذلــك اللعين الوليد بن المغيرة الذي ذمّه الله تعالى ذاكراً صفّة الحرص من جمع المال وعــدّه، فكــلا الطــرفين قامـــا بجمع المال ولكن الأول مذموم، والثاني مشكورٌ، ومن الطــريف التناص مع تلك الآية، فالسياق الذي جاء به الكاتب يختلف تماماً عن السياق الــذي نظــم هــذه الآيـــة، لا بل يناقضه، وهذا التناقض يخرج الآية عن حدّ الاقتباس المعروف ويجعلها أقرب إلى التناصية الحديثة، فضلاً من أنّ الكاتب لم يأتِ بالآية نصّاً، بــل حــوّر وحذف وزاد من ألفاظه حتى أصبحت من سياق كلامه، وقد نقل الآية من سياق الذمّ إلى سياق المدح، وهذا ما يُدعى بقلب الدلالة.

ولا يجــد المتلقّي عنتاً في كشف خيوط ذلك التناصات حيث تخضع في معظمها إلـــى ما يسمّى بالتناص المباشر، ولا ينفي ذلك وجود بعض التناصات غير المباشرة، وتناص الآيات لا يتعدّى قضية الحذف أو التحوير والتبديل بما يناسب المعنى والسجع.

تناص الحديث الشريف:

لا يختلف تناص الحديث الشريف عند الكتّاب عن تناص آيات الذكر الحكيم؛ إلاّ أنّ تناصهم للحديث الشريف لا يصل إلى الكثرة التي وجدت في الآيات الكريمة، وربّما يعود الأمر لقداسة النصّ القرآني.

ومن ذلك ما كتبه الحلبيّ في رسالة يصف الخيل: "وينهي وصول ما أنعم به من الخـيل التـي وجـد الخيـر في نواصيها، وتتّخذ صهواتها حصوناً يعتصم في الوغى بصياصيها"(1).

يلحـظ في هذا الجزء من الرسالة تناص من الحديث الشريف "الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والمغنم"*، وقد ظهر الحديث جليّاً في هذه الفقرة على الرغم من حلّ ألفاظه، وتقدّم وتأخّر مفرداته، فالحلبيّ عمد إلى بعض مفردات ذلك الحديث ووظفها في نصّه ليشحنه بفكرة الحديث التي تعلي من شأن الخيل، وخاصة في سـاحة الوغى، فهو يرمي إلى زيادة الاهتمام بالخيل كونها وسيلة التفوّق على الأعداء، فلمـا كانـت الخـيل هي أداة الحرب، فلا بدّ من الإشارة لتلك الحديث إبرازاً لأهميتها ووجـوب رعايتها، وقد بقي الحديث واضحاً على الرغم من تعمّد الكاتب إخفاء معالمه في نصّه الجديد.

ومن رسالة له أيضاً في وصف رمي البندق: "ويتنعمون بوعثاء السفر في بلوغ الظفر، ويستصغرون ركوب الخطر في إدراك الوطر"(2)، فقد تناص الحلبيّ مع الحديث الشـريف الخـاص بدعاء السفر، فاستعار من الحديث مفردتين مع قلب دلالتيهما، فقد استعاذ -النبي صلى الله عليه وسلم- من وعثاء السفر؛ لِمَا فيه من المشقّة والتعب وتقلّب

---

(1) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص344.

* الـبخاري، محمد بن إسماعيل (ت256هـ/869م): صحيح البخاري، نقد أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1958، المجلد الثاني، جزء4، ص34.

(2) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص354.

الأمور، ولكنّ الكاتب تمتّع بوعثاء السفر؛ لأنّ السفر هنا يختلف عن السفر المنصوص عليه في الحديث الشريف*. فالسفر في رسالة الحلبيّ جاء طلباً للرّاحة والاستجمام، وصفاء الرّوح، فهو سفر لطلب الصّيد، ولذا فهو يجلب الطمأنينة للنّفس والمتعة، فكلّما تعب الشخص في السفر صائداً، فقد اكتسب شيئاً من راحة النّفس وسلوّها.

وهنا يمكن القول بأنّ الحلبيّ قلب دلالة الحديث كي تتناسب مع الجوّ العام في سياق رسالته، وهذه الآلية إحدى وسائل الكتّاب، وهي أكثر شيوعاً في التناص، وخصوصاً في المحاكاة الساخرة؛ لِمَا فيه من عمل للتضاد يذهب بعكس الخطاب الأصلي المستدخل في علاقة تناصية(1).

ومن تهنئة بالحجّ من إنشاء ابن الورديّ:

"فقد طافت كعبة الجود بكعبة الوجود، وسعى ذو الصّفا والمروّة، بين الصّفا والمرْوة، وكان وادي محسّر مفتوح السّين لرؤياه، فتأرّج بالذكيين من قلبه وريّاه، وأصبح أعداؤه محصرين، وأمسى إلى العلى من المحلّقين، وحسّاده من المقصّرين"(2).

لا شكّ أنّ ابن الورديّ تناص مع الحديث الشريف "اللهم ارحم المحلّقين ... (قالها ثلاثاً) والمقصّرين"** على الرغم ممّا في الرسالة من تورية في لفظتي المحلّقين المقصّرين، فقد وظّف الكاتب اللفظتين في سياق رسالته ليشحن سياقه بمعنى الحديث الشريف الذي تجسّد في تلك المفردتين، فقد عبّر عن تفوّق ممدوحه بلفظة المحلّقين التي تحمل المعنى الأكثر إيجابيّة كما يرشد إليه السياق في الحديث، وجعل لفظة المقصّرين ذات المعنى الأقل إيجابيّة لحسّاد ممدوحه، وهنا التزم الكاتب السياق العام للحديث، حيث لم يقلب الدلالة، إلاّ أنّه تلاعب في السياق من حيث استخدامه للتورية، فالمعنى البعيد

---

* النوويّ، يحيى بن شرف (ت676هـ/1277م): رياض الصالحين من كلام سيّد المرسلين، أوضح معانيه مصطفى محمد عمارة، دار القلم، حلب، 1994، ص395-396.

(1) انظر جواد: أدونيس منتحلاً، ص55.

(2) ابن الورديّ: الديوان، ص62.

** البخاري: صحيح البخاري، 188/2.

الـــذي قصـــد إليه غير المعنى الذي يحمله سياق الحديث، فالمعنى الذي قصده الارتفاع والســـموّ، وكـــذلك التقصـــير عـــن بلوغ الغاية والمرام. ومهما يكن، فإنّ ابن الوردي استحضر الحديث وتناص معه سواء قصد التورية أم لم يقصدها.

والملاحـــظ علـــى الكاتب تحوير الحديث وحذف معظم ألفاظه واختيار اللفظتين اللتـــين شـــحنتا بمعنى الحديث كاملاً، وقد أبقى الكاتب على السياق نفسه حيث لم يقلب دلالـــة الألفـــاظ بـــل شحن النص بدلالة الحديث فالحلق أفضل من التقصير، ولذا منح ممدوحه فضيلة الحلق.

ومن توقيع بنقابة الأشراف من إنشاء الصفديّ قوله:

"ومـــن كـــان حازمـــاً فليقسُ أحياناً على من يرحم، فقد دوّن أهل الباطل مقالات ابتدعوها وزخارف (لا يكب النّاس على مناخرهم في النّار إلاّ حصائد ألسنتهم) من تلك العقائد التي زرعوها"[1].

فيلحظ المتلقّي في هذه الفقرة تناص من الحديث الشريف الذي رواه معاذ بن جبل -رضـــي الله عـــنه- حيث قال: "قلت يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلّم به، فقال: ثكلتك أمّك! وهل يُكبُ النّاسَ على وجوههم إلاّ حصائدُ ألسنتهم"*.

والحقـــيقة أنّ الصفديّ كان يتحدّث عن البدع والمقالات التي يذيعها النّاس حول ســـيرة بعض الصحابة ومحاولات الطعن فيهم، فلم يجد الصفديّ أفضل من أن يوظّف ذلـــك الحـــديث، حيث اقتصر الأخذ على ما يخدم سياقه الذي يتحدّث فيه عن تلك البدع والمقالات. ولمّا كانت هذه البدع والمقالات من فعل اللسان والظنّ السيئ، استحضر ذلك الجوّ الذي قيل فيه ذلك الحديث، وقد أبقى الصفديّ على السياق العام للحديث ووظّفه في ســـياقه الزاجر عن النميمة والغيبة والطعن والتجسّس، دون إحداث أي تغيير أو تحوير

---

(1) الصفدي: أعيان العصر، 354/3.

* النوويّ: رياض الصالحين، ص333.

فـــي المعنـــى واكتفى بآلية الحذف، مبقياً ما يخدم قضيته، ولم ينبّه على أنّه حديث بل أدرجه في سياق كلامه.

تناص الشعر:

أكثـــر الكتّاب في العصر المملوكيّ من تناص الشعر الذي عُرِف في زمنهم بحلّ المنظوم؛ لرواجه في عصرهم، وقد نصَّ الحلبيّ على ذلك صراحة بقوله: "وكيفيّة الحلّ أن تتوخّى هدم البيت المنظوم، وحل فرائده من سلكه، ثمّ يرتّب تلك الفرائد وما شابهها تريب متمكّن، لم يحصره الوزن، ولا اضطرته القافية، ويبرزها في أحسن سلك، وأجمل قالـــب، وأصـــحّ ســبك، ويكملهـــا بما يناسبها من أنواع البديع، إذا أمكن ذلك من غير كلفة"[1].

والحلبـــيّ مـــن خلال نصّه السابق يبيّن كيفيّة توظيف الشعر في السياق النثري، فالعملـــية ليســـت يسيرة يتقنها جميع الكتّاب، بل تحتاج إلى مهارة وحذق، فهي صناعة وإعادة بناء من جديد، وقد ينتج معنى جديد يحتاج إلى سياق آخر مغاير للسياق الأوّل. ويشير الحلبيّ إلى ذلك بقوله:

"ويتخيّر لها القرائن، وإذا تمَّ معه المعنى المحلول في قرينة واحدة، فيغرم له من حاصـــل فكـــره، ومن ذخيرة حفظه ما يناسبه، وله أن ينقل المعنى إذا لم يفسده إلى ما شـــاء، فإن كان نسيباً وتأتّى له أن يجعله مديحاً فليفعل، وكذلك غيره من الأنواع، وإذا أراد الحلّ بالمعنى، فلتكن ألفاظه مناسبة لألفاظ البيت المحلول، غير قاصرة عنه، فمتى قصـــرت ولـــو بلفظـــة واحدة فسد ذلك الحلّ، وعُدَّ عيباً، وإذا حلَّ باللفظ فلا يتصرّف بـــتقديـــم وتأخير، ولا تبديل إلاّ مع مراعاة نظام الفصاحة في ذلك، واجتناب ما ينقص

---

(1) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص325.

المعنى، أو يحطّ رتبته، وهذا الباب لا تنحصر المقاصد فيه، ولا حَجْر على المتصرّف فيه"[1].

والحقيقة أنّ الحلبيّ يقنّن عملية توظيف الشعر في النثر، فلكل تناص من الشعر آلية، وقد لفت الأنظار إلى مسألة اللفظ والمعنى، فالتناص عندهم لم يكن عشوائياً لا تضبطه قواعد، بل ناتج عن قصديّة ووعي تام، ومن تناصات الحلبيّ للشعر ما جاء في رسالة أنشأها في وصف الليل رياضة للخاطر:

"كأنّ امتزاج لونه بشفق الكواكب خليط مسكٍ وصندلٍ، وكأنّ ثرياه لامتداده معلّقة بأمراس كتّان إلى صمّ جندل"[2]. ففي هذا الجزء من الرسالة تناص من بيت امرئ القيس[3]:

كأنّ الثُّريّا عُلِّقت في مَصَامِها بأمراسِ كتّانٍ إلى صمٍّ جَنْدَلِ

فهنا يصف الحلبي الليل بجمال سحره أثناء عودتهم من رحلة الصّيد، مستمتعين بجماله وأنوار كواكبه، وضوء نجومه، ولمعان ثريّاه، وقد قادته الصورة التي رسمها للثريّا والكواكب إلى تخيّل ليل امرئ القيس، فتناص مع بيته السابق ذكره، ولكن من المفارقة اللطيفة نقل البيت المذكور من جوّ الهمّ والسهر وطول الليل لتراكم الهموم، وثبات نجومه للإحساس بطول الزّمن إلى جوّ انفعالي يكشف عن مدى سروره، وجذله ومتعته. فالثّريا التي طالما أرّقت العاشق بعدم تحركها وثباتها ثبات الجبال، قد امتعت الحلبيّ العائد من رحلة الصيد، ولعلّ الفائدة التي جناها الحلبي من النّور والإضاءة لطريقه، وهو عائد إلى بلده ومربعه هي التي حبّبت إليه التمتّع بها؛ بينما نجدها عينها هي سبب قلق امرئ القيس، لحجزها إيّاه عن وصل حبيبته.

---

(1) المصدر السابق، ص326.

(2) المصدر نفسه، ص355..

(3) امرؤ القيس، جندح بن حجر الكنديّ (ت540م): الديوان، تحقيق محمد الشوابكة وأنور أبو سويلم، دار عمّار، ط1، 1998، 243/1.

وقد قلب الحلبيّ دلالة البيت، فنقل المعنى من الهمّ والأحزان والشّعور بالزمن، إلى معنــى آخــر مضاد للمعنى الأول، وهدم الحلبي البيت وأبقى على معظم ألفاظه، ولكنّه أعاد ترتيبه ليناسب وقع سجعاته.

ومن رسالة أنشأها الحلبيّ في ذمّ المهزوم: "وخلّى لهم خزائن سلاحه التي أعدّهــا لقتالهم، فأصبحت معدّة لقتاله، فنجا منجى الحارث بن هشام"[1].

وفــي تلــك الرسالة ذمَّ الحلبيّ ذلك القائد الذي لم يصبر على سود الوقائع، وبذلك مكّــن أعداءه من رقاب جنده، وملّكهم ذخائره وسلاحه، واكتفى بالفرار والنجاة بنفسه، ولم يرعَ حقَّ جنده ورعيته، فآثر البقاء مع زوال هيبته، وأمام تلك الصورة ذات الأبعاد الدرامــيّة، خطــر على قلب الحلبيّ صورة الحارث بن هاشم، الذي فرَّ يوم الزحف في غزوة بدر تاركاً صناديد قومه أسرى وصرعى؛ ولمّا كانت مناسبة قول حسان بن ثابت -رضي الله عنه- ذلك البيت[2]:

إنْ كنتِ كاذبة الذي حدّثتني   فنجوتِ منجى الحارثِ بن هشامِ

فــي معرض الهجاء كانت مناسبة تناصه وحلّه الهجاء أيضاً، فحافظ الحلبيّ على السّــياق نفســه في نقل المعنى، حيث تشابهت حالا الحارث بن هشام الذي ولّى هارباً، تاركــاً قومه، مؤثراً الحياة على التضحية، وحال القائد المهزوم الذي اكتفى بالتولّي يوم الــزّحف، ممكّــناً أعداءه من قتل جنده وأسرهم، ومملّكاً إياهم ذخائره وعدّته، فبدل أن تكــون فــي نصرة جنده أضحت في يد عدوّه، ولمّا تشابهت الحالان أبقى الحلبيّ على معنــى النصّ الغائب، وقد استخدم ذلك التوظيف؛ لأنّ في ذلك معنى كبيراً داخل إطار ضيّق، فالعبارة الشعرية تحمل مضموناً مشحوناً بالانفعالات والعواطف، وهذا المعنى لا تستطيع عبارة ناثر أن تؤديه بانفعالاته؛ فلذا نجد الحلبيّ يحلُّ منظوم ذلك البيت، ويكتفي بالتلميح عن ذلك المعنى الذي تحته.

---

(1) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص388.

(2) حسان بن ثابت (50هـ/670م): الديوان، طبعه وصحّحه عبد الرحمن البرقوقي، دار الأندلس، بيروت، ص417.

وللحلبيّ كذلك من رسالة وصف للخيل: "لين الإعطاف، سريع الانعطاف، يقبل كالليل، ويمرّ كجلمود صخر حطّه السيل، يكاد يسبق ظله ... قصير المطا، فسيح الخطا، إن ركب لصيد قيّد الأوباد، وأعجل عن الوثوب الوحش اللوابد، وإن جُنب إلى حرب لم يزورّ من وقع القنا بلبانه، ولم يشكّ لو علم الكلام بلسانه"[1].

ففي هذه الجزء القصير من تلك الرسالة الطويلة حشد الحلبي كثيراً من النصوص الغائبة، فمن أهمّها تناصه مع قول امرئ القيس[2]:

مكرّ مفرّ مقبلٌ مدبرٌ معاً   كجلمود صخر حطّه السّيل من علِ

لقد أطنب الحلبي في وصف الخيل، وذِكْرِ خصالها المرغوبة، وهذا الأمر قاده إلى استعراض ما قيل في وصفها، فقفزت إلى ذهنه صورة حصان امرئ القيس الذي يمثّل الفرس المثال، والغاية في بلوغ الكمال، والحلبيّ لم يرضَ لحصانه الكرّ والفرّ كما فعل امرؤ القيس، بل أصرّ على الكرّ وحده، فهو مقبل كالليل، ومارٌّ لا يثنيه عن عدوّه ثانٍ.

ولمّا أصرّ الحلبيّ على إقبال حصانه لا فراره، أراد له أن يكون سريعاً، فاستعار له سرعة حصان امرئ القيس، ولكنّه في مشهد آخر يتمثّل بقول امرئ القيس[3]:

وقد اغتدي والطّيرُ في وَكَنَاتِها   بِمُنجَرِدٍ قيدِ الأوابدِ هيكلِ

وقد جاء سياق الحلبي في مدح الخيل كونها أداة الحرب والنزال، ولكنّ سياق امرئ القيس جاء وصفاً لحالة الصّيد في وقت الأمن والسّلم، فلما كانت صورة الحصان

(1) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص345.

(2) امرؤ القيس: الديوان، 247/1.

(3) المصدر نفسه، 245/1.

فــي حـال الأمن لا تفي بالغرض الذي يريده الحلبيّ، عدل به فكره إلى وصف عنترة لحصانه في ساحة الوغى من خلال قوله(1):

فأزورَّ من وقع القنا بلبانـــه وشكا إليَّ بعبرةٍ وتحمحـــم

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلِّـــم

ومــن اللافــت للنّظر أنّ حصان عنترة يشكو ويتألّم ونفد صبره، ولكنّ حصان الحلبــيّ أبدى جلداً وصبراً، فلم يزورَّ بلبانه من وقع القنا، كما فعل حصان عنترة، ولم يحاول الشكوى والتذمّر على الرغم من شدّة الحرب.

وقلــب الحلبــي دلالــة السياق كي يمنح حصانه ميزة أعلى وأفضل من سمات حصـــان عنتـــرة، وهذا التناص يقترب من التناصات الشعرية الحديثة، من حيث تغيير وجهة الدلالة لتعطي معنى آخر نقيض، يخدم قضية المبدع الذي يريدها.

ومن توقيع بولاية نابلس من إنشاء ابن نباتة:

"ليباشر هذه الولاية المباركة بعزم يوضّح بشرها، وينجح أمرها، ويقيم في خطبة علاه عذرها، وحزم يثمّر مالها وغلالها، وينقع غلّتها ويضع أغلالها، وبأس يدع المفسد مــن سـيفه أو قـيده فــي طـوق أو حجل، ويذر السّارق يشير بلا كفٍّ، ويسعى بلا رجــل"(2).

إنّ هذا الجزء من التوقيع يتولّى رسم السياسة التي ينبغي على المولّى نهجها في مكافحــة الفساد، وقطع سبله، واجتثاث بؤرته، ولذا لا بدَّ من الحزم وإعمال السيف في إقامــة الحدود، وأمام صورة من أقيم عليه حدّ السرقة أو الحرابة وقطع الطريق بعد فقد يده ورجله، قفزت إلى ذاكرته صورة الموت التي رسمها المتنبّي حيث تناصّ معه(3):

---

(1) عنترة (ت614م): ديوان عنترة، شرح الخطيب التبريزي، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه مجيد طراد، دار الكتاب العربـي، ط1، 1992، ص183.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 12/323-324.

(3) المتنبّي: الديوان، 3/48.

وما الموتُ إلاّ سارقٌ دقَّ شخصه   يصول بلا كفٍّ ويسعى بلا رجلِ

فقد عمد ابن نباتة إلى هدم ذلك البيت، وتغيير بعض ألفاظه لتناسب السياق الجديد، ولكنّ الصورة العامة بقيت حيّة في السياق، فقد نقل البيت من وصف الموت إلى وصف مرتكبي الجرائم. فالموت سارق ليس له أعضاء أصلاً، بينما مجرموا ابن نباتة بُترت أطرافهم بسبب جرائمهم.

وقد وظّف ابن نباتة ذلك التناص ليرسم صورة منفّرة لأولئك الذين أُقيم عليهم حدّ السرقة والحرابة، فالموت تنفر منه النفوس والسارق كذلك، والموت يسعى بين الناس دون أطراف يستعين بها، وكذلك السارق أو قاطع الطريق يسعى بالفساد حتى تقطع أطرافه، فيبقى من دونها كالموت ولكن لا يستطيع السعي والصولة ويكتفي بالإشارة كما أشار الكاتب. ولمّا رسم صورة ذلك المجرم وقد فقد أطرافه تخيّل صورة الموت كما رسمها المتنبي في بيته السابق، ولا شكّ أن تناصه مع ذلك البيت شحن السياق بطاقات تعبيرية هائلة ومكثّفة، قد لا يستطيع أن يأتي بها دون توظيف شحنات ذلك البيت.

ومن الملاحظ أنّ الكتّاب حشدوا كثيراً من التناصات الشعرية، ولكنها في مجملها تنطوي تحت ما يسمّى بالتناص المباشر، أي عدم إخفاء النص الغائب تماماً في السياق الجديد، بل يبقى النص الغائب يملك سلطته في النصّ الجديد.

ومهما يكن فإنّ الكتاب جنحوا في تناصاتهم إلى أشعار الفحول من الجاهليين والإسلاميين حتى عصر المتنبّي، وهذا الأمر يقود إلى الزعم بأنّهم يرمون من وراء ذلك لاتخاذهم قدوة ومثلاً أعلى في البيان العربي.

تناص الأمثال:

لقـد أولى الكتّاب في العصر المملوكي تناص الأمثال اهتماماً كبيراً، لا يقلّ أمراً عن اهتمامهم بالتناص الديني والشعري، وقد استخدموا الآلية نفسها التي استخدموها في توظيف القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر، المتمثّلة في الحذف والتقديم والتأخير، مـع بقـاء النصّ الغائب حاضراً ذا سلطة في النصّ الجديد، لا بل يحافظ الكاتب على ألفـاظ المـثل عـند حلّه قدر المستطاع، فالمثل لا يجوز حلّه إلاّ بألفاظه عينها؛ وذلك لشيوعه بين النّاس، وندرة تردّده في الكلام(1).

ومن الملاحظ أنّ معظم الأمثال التي ترد في رسائلهم تكثر في الرسائل الديوانيّة، وتتركّـز فـي قسم الوصايا؛ لأنّ المثل يحمل شحنة مكثّفة من المعاني على قلّة ألفاظه، فتوظيف الكاتب له في نصّه يغنيه عن كثير الوصايا، ويزيد كلامه حكمة وعقلانية؛ لأنّ المـثل يشكّل عصارة الفكر الإنساني، ولا يتأتّى لكل شخص إنتاجه، كما تمنح الأمثال المعنى قوّة، وتزيد السياق تماسكاً، وتشحنه بالأفكار المكثّفة.

ومن ذلك قول ابن فضل الله من مرسوم بإمرة:

"وسـبيل كل واقف على تقليدنا هذا أن ينيب إلى نصوصه، ويؤوب إلى عمومه وخصوصه، والحذر من الخروج عنه بقول أو عمل، فالسيف أسبق من العذل"(2).

ففـي هذا الجزء من المرسوم يلحظ المتلقّي مثلاً تصرف الكاتب في بنيته الكلية، حـيث غيّـر ترتيب ألفاظه، فتناص الكاتب مع المثل المشهور "سبق السيف العذل"(3)، فوظّـف ابن فضل الله هذا المثل في معرض حديثه عن تحذير المارقين على القانون، وتحدّي أمر الدولة، وعصيان طاعة الأمير، فهذا المقطع من الرسالة يرشد إلى الطريقة

---

(1) انظر ابن الأثير: الوشي المرقوم في حلّ المنظوم، تحقيق جميل سعيد، مطبعة المجمع العراقي (1409هـ/1989م)، ص59.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 135/12.

(3) الميدانـي، أبـو الفضـل أحمد النيسابوري (ت518هـ/1124م): مجمع الأمثال، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – لبنان، 1413هـ/1993م، ج1، ص328.

المثلى في اتّباع الأوامر، والسلوك في سلك الطاعة، وتجنّب كل ما يؤدّي إلى خلع الطاعة، والخروج على أمر الجماعة، فوجد الكاتب في ذلك المثل الوسيلة الأنجع في تهديد أولئك النفر.

وقد تصرّف الكاتب في بنية المثل الأساسيّة بالتقديم والتأخير، وقد أحدث هذا التغيير مدلولات جديدة، فنقل المثل من الجملة الفعلية إلى الاسميّة. ومن المعروف أنّ الجملة الاسميّة تدل دلالة ثابتة قطعية، وهذا ما أراده الكاتب في ترهيب المارقين بشكل دائم، وثابت ثبات الجملة الاسمية، وأحدث تقديم السيف على الفعل سبق زيادة في الحزم والشدّة لِمَا في لفظة السيف من الرهبة والخوف.

وعلى الرغم من ذلك التصرّف في التقديم والتأخير، إلاّ أنّ الألفاظ الأساسيّة في المثل لم تتغيّر، وبقيت مشحونة بمعاني المثل الأساسية، وقد زادت هذه الشحنة المكثّفة سياق الكاتب وضوحاً وحزماً.

وعلى الرغم من المعاني المستحدثة، إلاّ أنّ المثل بقي ذا سلطة ظاهرة، ومؤثّرة في النصّ الجديد، فلم يستطع النصّ الجديد إلغاء سلطة المثل، وكبحه تحت جناحه.

ومن مرسوم بإمرة من إنشاء الشهاب محمود الحلبيّ قوله:

"وأمّا ما يتعلّق بهذه الرتبة من وصايا قد أُلفت من خلاله، وعرفت من كماله، فهو ابن بجدتها، وفارس نجدتها، وجهينة أخبارها، وحلبة غايتها ومضمارها، فيفعل في ذلك كلّه ما شكر من سيرته، وحمد من إعلانه وسريرته"(1).

ففي هذه الفقرة من المرسوم، وهي خاصة بالوصايا، يلحظ المتلقّي تناصاً من المثل العربي "عند جهينة الخبر اليقين"(2)، فقد وظّف الحلبي هذا المثل ليدلّ على سعة اطّلاع ذلك المقلّد، وطول تجربته للأمور، فهو خبير بأمور تلك الإمرة، لا يحتاج إلى

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 123/12.

(2) الميداني: مجمع الأمثال: ج2، ص3.

كثير وصايا لدرايته بالأمور؛ ولمّا كان حاله كذلك، استعاض الحلبيّ عن كثرة الكلام في الوصايا بذلك المثل الذي كثّف معنى كبيراً في ألفاظ قليلة.

وقد حلّ الكاتب المثل وحذف بعض ألفاظه ليتناسب ونصّه الجديد، فعلى الرغم من حذفه لبعض ألفاظ المثل إلاّ أنّ المعنى بقي مسيطراً، والواضح أنّ الحذف وتحوير بعض البنى الصرفيّة جاء لخدمة السجع في النص الذي نظم عقد رسائلهم عامّة.

ومن رسالة في الغزو من إنشاء محي الدّين بن عبد الظاهر:

"ولمّا خفّت البرور*، ولم يبقَ إلى المرور، ركب فرسه، وعبر الماء، والألسنة له داعية، وعليه من الله واقية باقية، فنزل في وادٍ هناك به مرعىً ولا كالسعدان، ومرأى ولا كشعب بوّان"[1].

وصفت تلك الرسالة الغزوة التي قام به السلطان الملك الظّاهر إلى مدينة قيسارية، وانتزاعها من التتار، وقد أطال ابن عبد الظاهر في سرد أحداث تلك الغزوة، فوصف رحيل السلطان ونزوله، كما وصف أحداثها، وبعد تحقيق النصر وصف قفوله منتصراً، فنزل السلطان وجنوده وادياً معشباً، كثير الأشجار، فأثار ذلك المشهد ذهن الكاتب فتذكّر المثل "مرعى ولا كالسعدان"**، حيث يُعدُّ السعدان من أفضل أنواع العشب التي تقتات عليه الإبل، ويزيد من خصوبة إنتاجها، فضلاً عن كون الغرض الذي يفضي إليه المثل تفضيل الممدوح على أقرانه، فكلا المعنيين وارد في النص: جمال ذلك الوادي، ومدح ذلك السلطان، ولم يكتف الكاتب بوصف الوادي بذلك المثل بل تعدّاه إلى استدعاء صورة شعب بوّان الذي ورد في قول المتنبي[2]:

مغاني الشّعب طيباً في المغاني   بمنزلة الرّبيع من الزّمانِ

---

* البَرُّ: ضد البحر، وهي القفار. انظر الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني (1205هـ/1790م): تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق إبراهيم الترزي، مطبعة حكومة الكويت، 1392هـ/1972م، 154/10 (برر).

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 161/14.

** الميداني: مجمع الأمثال، ج2، ص275.

(2) المتنبّي: الديوان، 251/4.

ومـــن الملاحظ أنّ محي الدّين قد وظّف المثل دون إحداث تحوير أو تغيير، بل سلكه في حديثه، ونظمه في سياقه، فقد واءم بين الضمائر ليندرج المثل في السياق دون إخفائـــه، إلاّ أنّ المـــثل في هذه الرسالة لم يأت به الكاتب ليبرهن على صحّة حجّة أو دليل، بل استدعاه ذلك المشهد.

وفـــي الحقيقة لم يضف المثل معنىً جديداً كما سبق للأمثال التي جاءت في باب الوصايا والنصح التي طمح الكتّاب من ورائها إلى تكثيف المعاني الجامعة.

ومن رسالة في وصف السيف والقلم لابن الورديّ قوله:

"قـــال الســـيف: أأنف في الماء واست في السماء*، أو مثلك يعيّر مثلي بالدماء، وطالمـــا جعلت بعض فراخي بصددك، وهي السكين، فأصبحت من النفاثات في عقدك يـــا مسكين"(1).

إنّ ابن الورديّ في تلك المفاخرة جعل كل طرف يطمح إلى كسب الحجّة، وسحق خصمه، فوجد في توظيف ذلك المثل حجّة قوية بيد السيف يقهر بها خصمه القلم، فالمثل يضرب لمن يعجب بنفسه مع انحطاط قدره، وهذا التناص لا يصدق على القلم بالمعنى المجـــرّد، وإنما تصوّر الكاتب هيئة القلم منكوساً فتخيّل ذلك المثل المضروب للبشر لا الجمـــاد، ولكن إذا ما رُجع إلى رمز القلم، حيث يشير إلى فئة أرباب الأقلام في ديوان الإنشـــاء المملوكيّ كما تقدّم في مبحث المفاخرات، تجلّى لنا هدف ابن الورديّ من ذلك التناص.

ومهمـــا يكـــن من تناص الأمثال، فإنّه لا يختلف عن تناص الأشعار. فالطاقات المشـــحونة بهـــا الأمـــثال تشبه إلى حدٍّ بعيد الطّاقات المكثّفة في النصّ الشعري، وهذه

---

* نـــص المـــثل "أنف في السماء واست في الماء". الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد (ت850هـ/1446م): المستطرف في كل فنّ مستظرف، طبعة جديدة منقحة، منشورات دار ومكتبة الحياة، بيروت، 1414هـ/1994م، ج1، ص45.

(1) ابن الورديّ: الديوان، ص81.

الطّاقات تزيد السياق النثري قوةً وتماسكاً ووضوحاً، والمعاني المتضمّنة في تلك الأمثال أو الأشعار يشحن بها ذلك السياق.

وهناك أمرٌ آخر يتمثّل في تلك التناصات يشير إلى سعة ثقافة الكتّاب، وكثرة محفوظهم الديني والأدبي والتراثي.

شعريّة الرسالة:

لا شكّ أنّه من خلال دراسة الرسالة من الناحية الشكليّة، حيث اللغة والأسلوب، والصور والخيال، والمضامين الدينية والأدبية والتراثية، إضافة إلى العناصر البديعية تبيّن أنّها تخضع إلى حدّ ما من قوانين الأدبية أي الشعرية، وقبل بيان تلك المظاهر لا بُدَّ من وقفة قصيرة مع مفهوم الشعرية.

يرى جون كوين أنّ الشعرية علم موضوعه الشعر(1)، ويكاد يكون هذا الحدّ أبسط مفاهيم الشعرية، والجامع الأساسي لشتات مفهوماتها، والشعرية عند عبد الله إبراهيم تعنى باستنباط القوانين الداخليّة للأجناس الأدبيّة، واستخراج النّظم التي تحكمها، والقواعد التي توجّه أبنيتها، وتحدّد خصائصها وسماتها(2). بينما يصفها عبد الله الغذامي بأنّها تعني مصطلحاً جامعاً يصف اللغة الأدبية في النثر والشعر(3). ومهما يكن فإنّ الشعرية تعنى بالقوانين التي تحكم اللغة الأدبيّة، وتمايز بينها وبين الكلام اليومي المألوف، أي أنها ترافق الأعمال التي يراد لها الخلود، فلم تكن اللغة الشعرية محصورة في كلام شخص دون آخر، وإنّما توجد في ثنايا الأعمال الأدبية بدرجات متفاوتة، فكلما ارتفع النتاج الأدبي عن الكلام اليومي زادت أدبيته والعكس صحيح.

---

(1) كوين، جون: النظرية الشعرية (بناء لغة الشعر)، ترجمة وتقديم وتعليق أحمد درويش، ط4، 2000، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ج29/1.

(2) إبراهيم، عبدالله: السردية العربية (بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي)، ط1، 1992، المركز الثقافي العربي، بيروت، 9.

(3) الغذامي، عبدالله: الخطيئة والتكفير (من البنيوية إلى التشريحية)، ط1، 1405هـ/1985م، النادي الأدبي الثقافي، جدّة، ص19.

والحقــيقة أنّ مصـــطلح الشعرية أخذ أبعاداً كثيرة، فكثر القول في قوانين العمل الأدبي: الشعري والنثري، والشعرية في اشتقاقها اللغوي تعود إلى جذر الشعر الذي بهر العقول قديماً وحديثاً. فقد وقفت الأفهام حسرى أمام فهم كنهه، ولا يخفى على أحد كثرة الخــوض فــي مســألة تفســير الإبداع، التي أشغلت تفكير النقّاد والعلماء منذ عصر اليونـــان، فلخصوصيّة الشعر، وانزياح لغته عن اليومي المألوف أخذت الشعرية معناها ودلالتها.

فالشعريّة تطلق على كل موضوع يعالج بطريقة فنيّة راقية، ويمكن أن يثير هذا اللـــون من المشاعر(1). والجديد في هذا المصطلح إضفاء خواص الشعر على النثر، بل صــبغة العمل النثري بأصباغ العمل الشعري، فعندما تحلّ بعض قوانين العمل الشعري في ميدان العمل النثري تطبعه بطابع الشعر وتقرّبه منه، وحينئذٍ تظهر على النثر سمة الشعرية.

وقــد وجد في هذا المضمار سؤال كبير يبحث عن إجابة مفاده: هل الشعريّة علم الشــعر أم علم الأدب؟ فانتهت المعالجة إلى أنّ الشعرية علم الأدب، بوصفها تبحث عن قوانــين الخطاب الأدبي في كل من الشعر والنثر(2). ومن خلال هذه المداخلة تبيّن أنّ الشــعرية تعنــي كــلّ ما يجعل الإنتاج الفكري القولي (الشعر والنثر) بعيداً عن الكلام العادي اليومي، فكلما ارتقى النثر عن اليومي المألوف نحو شقيقه الشعر أصبح في كنف الشــعرية، ذلك المصطلح الذي اتّسع ليشمل إضافة إلى الشعر الفنون النثرية، ومن هنا أصــبحت الشعرية تطلق على كل أمر لافت للنظر من الناحية الجماليّة، حتى لو تجاوز الأمر فنّي الشعر والنثر.

ومهمــا يكــن، فإنّ ثمّة قواسم مشتركة بين الشعر والنثر، فتأتي اللغة من أوسع أبواب تلك القواسم، فاللغة تنبثق عنها المفردات التي تكون في العادة مأسورة في إطاري

---

(1) كوين: النظرية الشعرية، 29/1.

(2) ناظم، حسن: مفاهيم الشعرية، ط1، 1994، المركز الثقافي العربي – بيروت، ص83.

المعنى المعجمي المجرّد والمعنى الطارئ المتحول، الذي يجاري السياق الذي توجد فيه تلك المفردة، فهي غالباً خارج السياق غير المفردة التي تكون في أسر السياق، ومن هنا فـإنّ اللغـة الشـعرية تنبثق عن المفردات اللغوية المنزاحة قليلاً عن معناها المعجمي المجـرّد، فهي تأخذ شعريتها من الموقع الذي تحتلّه في السياق الأدبي. فشاعرية اللغة ليسـت سمات ثابتة في القول اللغوي نفسه، بل هي سمات مرتبطة بوظائف تسود فيها الوظيفية الجماليّة ذات التوجيه الذاتي[1].

ولذا فإنّ السياق اللغوي الذي يمنح المفردة تلك الشاعرية يحتّم على تلك المفردات بعـض القوانـين الجديـدة القسرية، فقد يقدّم أو يؤخّر أو يحذف أو يقابل أو يطابق أو يجـانس، إلى غير ذلك من قوانين، وعندئذٍ فإنّ اللغة تشكّل العصب الأساسي للشعريّة، فالـتحكّم فـي مسـار المفردات من حيث التقديم والتأخير والحذف والتقابل والمطابقة والجـناس يـؤدّي إلـى انـزياح تلك المفردات عن دلالتها المعجمية الأولى لتدلّ على مفهـومات جديدة ما دامت في فلك السياق الأدبي الجديد، وتكمن شاعرية تلك المفردات في الموقع الذي تتمركز فيه، وتسبح في فلكه.

وقد تنشأ الشعرية عن المستوى الصوتي أو التلفّظي أو الدلالي[2] للمفردة، حيث تكشف المفردة عن جماليتها من خلال جرسها الصوتي، أو من حيث دلالتها المرسومة في المخيّلة، فيظهر من خلال تركيبها في السياق طاقات تخيّليّة كامنة في بنيتها اللغوية.

ولـم يقتصـر التعبيـر الشـعري على المفردات من حيث المعنى أو الدلالة أو الصـوت، بـل يتعدّى ذلك إلى الإيقاع الموسيقي، الذي يكمن في عناصر الموائمة بين الجمـل والتـراكيب. ففـي الرسـالة النثرية يسهم السجع في التشكيل الموسيقي الكلي للرسـالة، بينما يسهم الجناس في الإيقاع الداخلي للنصّ، وهذه الأمور من القوانين التي تقرّب العمل النثري من الشعر، "فالخطاب يمكن أن يبقى شعرياً مع عدم المحافظة على

(1) موكاروفسكي، يان: اللغة المعيارية واللغة الشعرية، فصول، المجلد الخامس، العدد الأول، 1984م، ص37-46.

(2) انظر كاظم: مفاهيم الشعرية، ص85.

الـــوزن"[1]، وفـــي ظلّ الإيقاع الداخلي يمكن الاستغناء عن الإيقاع الخارجي المألوف المتمـــثّل فـــي القافية كما هو الشأن في قصيدة التفعيلة. فالسجع في الرسالة يقوم بتلك المهمّة، بل يشكّل التنويع الموسيقي من خلال تنوّع قوافي السجع في الرسالة.

ويكمن أن يشكّل التكرار نوعاً من الشعرية في النصّ النثري، كما هو الحال في النصّ الشعري، فتكرار بعض الحروف أو المفردات أو التراكيب أو الجمل يشكّل حسّاً موسـيقياً نفسياً، فترديد بعض الأصوات يسهم في بناء الإيقاع الداخلي والخارجي معاً، فضلاً عن كونه وسيلة تؤكّد أموراً تمليها نفس المبدع.

ولا ينحصـــر أثـــر الشـــعرية فـــيما سلف من أُمور، بل يكمن كذلك في عنصر البلاغة، فالصور الأدبية في النصّ النثري ما هي إلاّ صور شعرية، تنزاح بالسياق إلى فضاءات جديدة، وهذه الفضاءات لم يكن لها أن تحصل في الكلام اليومي العادي، فكلّما كثرت الصور الأدبية كان النصّ أدخل في الشعرية، والحقيقة أنّ الصور الأدبية تتآزر فيما بينها لتشكّل صور مركّبة يسهم في بنائها التشبيه والاستعارات والمجازات المرسلة والكنايات.

وذكـــر ابن خلدون أنّ المتأخّرين استعملوا أساليب الشعر وموازينه في المنثور، مـــن كثـــرة الأســـجاع والتزام التقفية، وتقديم النسيب بين يدي الأغراض، وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنّه، ولم يفترقا إلاّ في الوزن[2]، وعليه فإنّ الرسالة الفنـــية فـــي العصـــر المملوكيّ أخذت حظاً وافراً من قوانين الأدبية، فمال الكتّاب إلى الأســـلوب الشـــعري إيمانـــاً منهم بأنّ الرسالة ليست موقوفة على هدف الإخبار، وإنّما تجـــاوزت ذلـــك إلـــى مظاهر جمالية وأدبية جعلتها تزاحم القصيدة في تلك الحقبة من الزمن.

---

(1) المرجع السابق، ص85.

(2) ابن خلدون: مقدّمة ابن خلدون، دار الجيل، بيروت، ص628.

وقــد أســهم فـــي أدبيّة الرسالة آنذاك شاعرية الكتّاب، حيث كان معظم الكتّاب يــنظمون الشــعر، فهــذه السمة طبعت رسائلهم بمظاهر القصيدة الشعرية، وأخضعتها لقوانــين الشعر، ولذا فارقت الرسالة اللغة اليومية القائمة على التراكيب المألوفة، التي تــؤمن بالبســاطة المفضية إلى وظيفة الإخبار، ولهذا اعتمدت الرسالة الجمل المكثّفة، وبعــض الظواهــر التي تسهم في منح التركيب الشعري خصوصيّته الجمالية كالحذف والاعتــراض والــتقديم والتأخير والمحسنات المعنوية واللفظية والتكرار ورد الأعجاز علــى الصــدور وغير ذلك من مظاهر الخطاب الإبداعي[1]. وقد تمثّلت جملة من تلك الخصائص في الرسالة الفنية في العصر المملوكي، جعلت منها مسرحاً لقوانين الشعرية بمفهــومها الحــديث، وليس من اليسير حصر تلك المظاهر في عجالة استكشافية هدفها الوقــوف على بعض تلك المظاهر؛ لتكون شاهداً على شعريّة الرسالة الفنية في العصر المملوكيّ، لا دراسة الشعرية من جميع جوانبها.

فأوّل ما يطالع النّاظر في الرسائل المملوكيّة شعرية الجمل الدعائية الاعتراضية، فقــد شكّلت هذه الجمل خرقاً حقيقياً لقانون المسند والمسند إليه في نظام الجملة العربية، وهــذا الاختــراق يذهب بالذهن كل مذهب، ويكسر التوقّع المألوف، ويزيد الشوق إلى معــرفة الركن المتأخّر من الجملة، فكلّما طالت جملة الاعتراض أو جمل الاعتراض، زاد شــوق المتلقّــي إلى طرف الجملة الآخر، فمن ذلك قول الحلبيّ في رسالة وصف لرمي البندق:

"الرياضــة -أطال الله بقاء الجناب العالي، وجعل حبّه كقلب عدوّه واجباً، وسعده كوصــف عــبده للمســار جالــباً، وللمضمار حاجباً- تبعث النفس على مجانبة الدعة والسكون"[2].

---

(1) انظــر الحســين، أحمد جاسم: الشعرية (قراءة في تجربة ابن المعتز العباسي)، ط1، 2000، الأوائل للنشــر والتوزيع، دمشق، ص157.

(2) الحلبي: حُسن التوسل، ص353.

فالناظـــر فـــي تلـــك الفقرة من الرسالة يجد الكاتب كسر التوقّع، واخترق النظام اللغوي من خلال إيجاد عددٍ من الجمل الاعتراضية التي حالت بين المبتدأ والخبر، فكان لهذه الجمل أثر واضح في تحويل السياق من وظيفة الإخبار العادي اليومي إلى الانزياح نحـــو الشعرية. فجمل الاعتراض التي أتى بها الكاتب زادت من عنصر التشويق، كما أســـهمت في بناء حاجز قويٍّ، فصل بين المسند إليه والمسند، وهذا الفصل شكّل أجواءً من فضاءات التوقّع والتخيّل والانتظار، فأصبح المتلقّي في لحظة ما أسير أفكارٍ كثيرة، وتـــوقّعات متعدّدة، فهو أشبه بمن أمسك بخيط ولا يعرف ما نهايته، أو كمن ينظر إلى ســـارية فـــي البحر ولا يدري أنذير هي أم بشير؟ وهكذا فإنّ الجمل الاعتراضية تشكّل عنصـــراً أساسياً في بناء اللغة الشعرية. وليس من سداد الرأي أن يعبّر عنها بالفضلات كما نُظر إليها من ناحية التركيب الآلي الإسنادي لنظام الجملة بنوعيه.

ومن هنا فإنّ الجمل الاعتراضية تؤدّي معنى في النصّ الأدبي ورسالته الأدبية، لـــم يكـــن ليوجد لولا تلك الآلية، وهذا الأمر واضح، حيث مدح الكاتب الحاكم دون أن يحـــتاج إلـــى جزءٍ مستقلٍّ في الرسالة، بل أدخل ذلك المدح في سياق الجملة الأساسيّة، والغرض الأساسي وهو وصف الرياضة.

وكما استُخْدِمتْ الجمل الدعائية لكسر التوقّع، وجدت سمة أخرى في الرسائل، بل في أغلبها، تتمثّل في خاصيّة التصوير المبني على ضروب من البلاغة، ممّا شكّل نصّاً أقرب للشعر من النثر، فقال الحلبي من الرسالة ذاتها وفي وصف شمس الأصيل:

"فبـــرزنا -وشـــمس الأصـــيل تجود بنفسها، وتشير من الأفق الغربي إلى جانب رمسها، وتغازل عيون النور بمقلة أرمد، وتنظر إلى صفحات الورد نظر المريض إلى وجوه العوّد، فكأنّها كئيب أضحى من الفراق على فرق، أو عليل يقضي بين صحبه بقايا

مدة الرمق، وقد أخضلّت عيون النور لوداعها، وهمّ الروض بخلع حلّته المموّهه بذهب شعاعها ... – إلى حدائق ملتفة"[1].

فالحقيقة أنّ هذه الفقرة تعبّر تعبيراً صادقاً عن مدى تغلغل الشعرية وقوانينها في الرسالة الفنيّة في العصر المملوكيّ، فقد أسهمت كثرة العناصر البلاغية في انزياح اللغة مــن اللغة العادية إلى اللغة الشعرية، فأخذت الرسالة تقترب شيئاً فشيئاً من لغة الشعر، لغة التصوير المكثّف والخيال المتعقّل الخلاق[2].

فقد أسدل الكاتب على الشّمس عدّة صور، فصوّرها بالشخص الذي يحتضر، ثمّ بالشــخص الــذي يوصــي بمكــان دفنه، ثم انتقل ليصورها بعين الأرمد، ثمّ صوّرها بالمريض الذي ينظر شوقاً إلى المعافين، وكذلك بالكئيب والعليل، وعند النظر إلى تلك الصــور تجدها: تمثّل صورة شخص محتضر يعيّن مكان قبره، وإنساناً أرمد، ومريضاً وعلــيلاً وكئيباً، وكل هذه الصور يجمعها عنصر الفناء والخوف من المجهول المنتظر. إنّ مشــهد الأصيل يبعث السّرور والفرح الغامر، ويشعل النشوة بسحر ذلك الوقت، إلاّ أنّ الكاتب كسر ذلك التوقّع المعتاد، وانزاح عن المعنى والدلالة المعتادة، فالشّمس تجود بنفســها، وهــذه نهاية المطاف، ولا يتوقّع أن تأتي صور أُخرى لها، لكن الكاتب يأتي بصور أخرى على عكس ما هو متوقّع، فليس بعد الموت من مشاهد محسوسة، يدركها حــسّ الإنســان إلاّ المغيّــبات، ولكن الكاتب انتقل من الصورة النهائية إلى صور أقل خطورة، فلم يكن الأرمد أسوأ حالاً من المحتضر، وكذلك لم يكن الكئيب أسوأ حالاً من المــريض، فالمتوقّع أن يصفها أولاً بالكئيب الذي أفضى به حزنه وكمده إلى الرمد ثمّ أصبح مريضاً، واشتدّ مرضه فأصبح عليلاً، وعندئذٍ أوصى بمكان دفنه عندما حان دنوّ أجله.

---

(1) المصدر السابق، ص354-356.

(2) انظر الرباعي، عبد القادر: طاقة اللغة وتشكيل المعنى في قصيدة الربيع لأبي تمام: دراسة نصيّة، فصول، المجلد الرابع عشر، العدد الثاني، صيف 1995م، ص105.

ومهمـــا يكـــن فإنّ الكاتب استخدم لغة شعريّة تمثّلت في صوره الأدبية المتعدّدة، التـــي شـــكّلت ســـيلاً متدفّقاً غيّر مجرى دلالة الألفاظ، وانزاح بها إلى معانٍ أدخل في الأسلوب الأدبي، والتعبير الجمالي، وهذا الأسلوب يحصل بالتصوير باللفظ عن طريق تتابع التشبيهات والاستعارات[1].

وقد ألفى الكتّاب في الإيقاع الموسيقي حاجة في نفوسهم، فحرصوا على السجع – كما تقدم في مكانه– أيما حرص؛ لِمَا فيه من الإيقاع الذي يجذب سمع المتلقّي، ويقرّب المنثور من المنظوم، فبالغ الكتّاب في الإتيان بالأسجاع لإقامة الوزن، وتشنيف الأسماع، فقـــال الكاتب: "ومعهم قسي كالغصون في لطافتها ولينها، والأهلة في نحافتها وتكوينها، والأزاهر في ترافتها وتلوينها"[2].

فـــلا يخفـــى مـــا في ذلك التسجيع من وزن يقرّب الرسالة من القصيدة فتآزرت المفردات ذات الطاقة الإيقاعية، وشكّلت تعبيراً شعرياً إيقاعياً. والحقيقة أنّ هذه الأسجاع توفّـــر شحنات من النبر الشعري، حيث "من الممكن خلق نظام إيقاعي يقوم على تنظيم مواقـــع النبر على الكلمات المفردة في اللغة في أنساق تحقّق انتظاماً معيّناً يمكن تسميته تشكّلاً إيقاعياً أو بحراً"[3]، وهذا يوفّره عنصر السجع في الرسالة الفنيّة.

ولـــم يكـــتفِ الكـــتّاب بالإيقـــاع الخارجي المتمثّل في السجع، بل حرصوا على الإيقـــــاع الداخلي الناشئ عن الجناس. فالألفاظ المتماثلة في الصوت، أو المتقاربة في اللفظ تشكّل جرساً موسيقياً داخلياً، فمن ذلك قول الكاتب:

"وكأنّ صوّاف الطّير المبيّضة بتلك الملق خيام، أو ظباء بأعلى الرقمتين قيام، أو أباريق من فضّة رؤوسها لها فدام، ومناقيرها المحمّرة أوائل ما انسكب من المدام"[4].

---

(1) انظـــر عبّاس، إحسان: عبد الحميد بن يحيى الكاتب (وما تبقى من رسائله ورسائل سالم أبي العلاء)، ط1، 1988، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ص175.

(2) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص357.

(3) أبو ديب، كمال: في البنية الإيقاعية للشعر العربي، ط3، 1987، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ص315.

(4) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص357.

فالناظـــر فـــي هـــذه الفقـــرة يجدها تفيض بالموسيقى الداخليّة، وتتموّج بالإيقاع المـــرقّص، فـــتآزرت الجناســـات فيما بينها، إضافة إلى بعض الحروف ذات الجرس الموســـيقي، كحـــروف الإطـــباق: الصاد، الضاد، الطاء، الظاء، وحرف القلقلة القاف، والمكـــرور الـــراء، فهذه الحروف ساهمت في إنشاء جرس إيقاعي داخلي، شكّل تياراً موسيقياً داخليّاً ينبعث من المفردات داخل السياق.

أمّـــا شعريّة التناص، فالرسالة الفنيّة غنيّة جداً بهذا اللون من الشعرية، وقد تقدّم الحديث عن التناص الديني والأدبي والتراثي، وتجنّباً للتكرار نكتفي بالإرشاد إليه.

ومـــن مظاهر الشعرية كذلك في الرسالة الفنية طغيانها على الأغراض الشعرية التقليدية كالمدح والرثاء والوصف ... وكذلك جمعها بين الشعر والنثر، وهذه سمة عامة في ذلك العصر.

وبالجملـــة، فإنّ الرسالة الفنيّة في العصر المملوكي طمحت لأنّ تنافس القصيدة الشـــعرية وتطاولها؛ ولذا حرص الكتّاب على إخراجها مخرج القصائد الشعرية، فكسوا الرسائل بحلى تلك القصائد، وهو ما يدعى اليوم بقوانين الأدبيّة أو الشعرية.

الخاتمة

يمكــن الاطمئنان إلى القول بأنّ هذه الدراسة طمحت إلى رسم خطوط عريضة لمسيرة الرسالة الفنيّة في العصر المملوكي الأوّل، ووضعت بعض النقاط على الحروف فــي مســألة أغراضــها تبعاً لأهدافها، كما كشفت عن طائفة من الكتّاب الذين كرّسوا جهــودهم للــنهوض بها لتوازي القصيدة وتحتلّ مكانتها، وقبل الخوض في غمار هذه النتائج لا بدّ من الوقوف قليلاً لتوضيح صورة العصر الذي نشأت في أحضانه.

فــبعد أن انتهى حكم الأيوبيين في مصر وأحكم السلاطين المماليك قبضتهم على مقاليد الأمور نشأت طبقات اجتماعيّة متفاوتة كان أبرزها طبقتي الخاصّة والعامّة، وكان لكل طبقة منهما ظروف خاصة، وقفت حاجزاً دون التقاء هاتين الطبقتين، كما عصفت بدولــة المماليك الفتــيّة أحداث خارجيّة أسهمت في تشكيل بنيتها إضافة إلى الطبقيّة السائدة. فقد تعرّض مشرق العالم الإسلامي والعربي إلى غزو التتار، بينما استمرّ زحف الغوط في تضييق الخناق على أهل الأندلس، فرحل النّاس إلى حاضرة الإسلام الجديدة القاهرة، كما أسهم في رفع درجتها رحيل الخلافة الإسلاميّة إليها على يد الظاهر بيبرس سنة (659هـ/1260م)، فأدّى نزوح العلماء إلى القاهرة إلى النهوض بها فكريّاً وعلميّاً، فأصــبحت حاضــرة العالم ردحاً من الزّمان، وكل تلك الظروف مجتمعة ساعدت على نضــوج الرســالة الفنــيّة فــي ذلك العصر حتى أضحت تلك الرسالة تزاحم القصيدة الشعريّة، ولا أكون مجانباً للصّواب إذا ما قلت بتجاوزها للقصيدة، وقد مهّد لنجاح تلك الرسالة وجود نفر من الكتّاب مهروا في فنّها وأجادوا.

وقــد تــنوّعت الرسالة الفنيّة وتعدّدت أغراضها، ونهضت بأعباء جِسام ورسالة خالــدة، فقــد تكفّلــت الرسالة السياسيّة ببيان سياسة الحكم من خلال رسائل المبايعات والعهــود والأمانــات والهُدن، فشكّلت هذه الرسائل وثائق ذات أهميّة في سياسة الدولة

المملوكــيّة فــي ذلــك الــوقت، كما أسهمت الرسائل الإدارية في الكشف عن سياسة السلاطين وكفلاء الملك في الأمور الإداريّة الداخليّة.

فكـــان مـــن تلـــك الرسائل التقاليد التي يتمّ بها تعيين كبار الموظفين في الدولة، والتواقـــيع التـــي تكـــون لصغار الموظفين، والمراسيم التي ترسم سياسة الحكم للحكام الإداريـــين فـــي المناصـــب المختلفة، والمناشير التي تحدّد مدى إقطاع كل موظف في الدولة، والمسامحات التي تفصح عن مدى تسامح الدولة في بعض الأمور المالية خاصة مع كبار التجّار تشجيعاً لهم، والبشارات والتهاني التي تكفّلت بذيوع الأخبار السّارة في طبقتي الخاصّة والعامّة وفي الأقطار الإسلاميّة كافة.

وقــد اعتنت الرسالة الفنيّة كذلك برسم السياسة الخارجيّة التي انتهجها السلاطين المماليك مع الدول والممالك الإسلاميّة لمسلمي القفجاق والحجاز واليمن وشمال أفريقيا والأندلس وكذلك الدول غير الإسلاميّة كالتتار في بداية أمرهم والدولة البيزنطيّة والنوبة والحبشة والممالك الأوروبيّة والصليبيّة، وقد عُدّت تلك الرسائل وثائق ذات قيمة تاريخيّة كبيرة، وعلى قدر من الأهمية.

وكما نهضت الرسالة الفنيّة بالأُمور الرسميّة عالجت أيضاً جانباً مهماً من مظاهر الحــياة الاجتماعيّة والإخوانيّة والنظم التعليميّة، فأسهمت الرسالة الفنيّة في إظهار مدى عمــق العلاقــات الاجتماعــيّة وبُعدها الاجتماعي، فكانت رسائل التهنئة تنبع بالأفراح والمسرّات في مناسبات كثيرة وعديدة، بينما كفلت رسائل التعزية بحفظ مشاعر الأخوّة، وزرع روح الأمــل لدى المعزّى، وإرشاده إلى الصّبر والتأسّي بما قد سلف والسلوّ بما جُعِــل لــه في العوض، وشكّلت رسائل الإهداء والشُكر صفحة رائعة في صورة الحياة الاجتماعيّة، كما بيّنت رسائل المدح والهجاء حيويّة المجتمع ومدى تفاعله مع الأحداث، ووضّــحت رســائل العــنايات والشفاعات مدى روح التكافل الاجتماعي وتقديم العون والمساعدة للمحتاج في أي أمر، وكشفت رسائل الصدقات عن مدى البذخ الذي تنعم به

طــبقة الخاصّة في أعراسها، فتدبّج رسائل الصدقات عند عقد قرانهم لإظهاره بالمظهر اللائق بتلك الطبقة.

وأبــدت الرســالة الفنــيّة اهــتماماً ملحوظاً بالعلاقات الشخصيّة بين فئة الأدباء وخاصــة الكــتّاب، فــتكفّلت بحمــل مشاعرهم وأحاسيسهم وعواطفهم، فحملت رسائل الشّــوق والحنين أساهم وأحزانهم وشوقهم، كما شكّلت رسائل العتاب والاعتذار صفحة رائعة في تاريخ صداقاتهم، بينما حملت رسائل الشكوى همومهم وآلامهم، وفزعوا إليها كلّما ألمّ بأحدهم خطب.

ونظّمت الرسالة الفنيّة العلاقات التعليميّة، فتعدّدت رسائل الإجازات والاستجازات والتقاريض وحلّ الألغاز، فكانت الإجازة في غاية الدقّة حيث تمكّن صاحبها من ممارسة حقّــه في الغرض الذي دبّجت من أجله، فمنها الإجازة بالفتيا والتدريس، ومنها الإجازة بالمــرويّات ومنها الإجازة بالعراضات، كما اهتمّ الطلبة بطلب تلك الإجازات، فدبّجوا لــذلك رســائل الاستجازات في الفنون التي يطمحون في الحصول عليها، وقد أسهمت رســائل التقاريض في نهضة الحياة العلميّة من خلال تقريض القصائد والمصنّفات ذات القــيمة العلمــيّة والأدبيّة، ولا تقلّ أهميّة عن ذلك رسالة الألغاز في النهضة العلميّة لِمَا فيها من حفزٍ على التفكير وامتحان القريحة.

ولمعــت الرســالة الفنيّة في الموضوعات الأدبيّة والتعبيريّة، وكشفت عن طاقة هائلــة كامــنة في قدرة تعبيريّة فائقة حظي بها كتّاب تلك الحقبة، فكانت الموضوعات الوصــفيّة مســرحاً لأحلامهم فوصفوا القادة والجيوش في حالتي النّصر والهزيمة، كما وصــفوا القلاع والحصون التي اتّخذت لبيان عزّة المسلمين وتمكينهم، ووصفوا الخيل، وأدقّــوا في نعتها؛ لِمَا لها من أهميّة في حياتهم في ظروف السّلم والحرب، وقد أعربوا عــن قــرائح مبتكــرة من خلال وصفهم لأدوات الحضارة كأدوات الحرب والأطعمة والأشربة والألبسة وأنظمة البريد وغير ذلك من أمور حضاريّة.

ولــم يكــتفوا بذلك بل عبّروا عن مدى فرحهم بالبشارات بوصف فيضان النيل وكسر خليجه، فتباروا في تدبيج تلك الرسائل لتلامس سمع السلطان.

ووصفوا مظاهر الطبيعة الصّامتة، فرصدوا مشاهد أيّام الشّتاء من خلال وصف الأمطــار والبرد والثّلوج، فتبادل بعض الكتّاب تلك الرسائل، فكانت هذه الموضوعات متــبادلة بشــكلٍ كبيرٍ بين العمريّ والصفديّ وبدر الدّين الغزّيّ، وهذا شكّل فنّاً خالصاً عُرف بالشّتويّات، تكفّل برسم صورة واضحة لمظاهر الشّتاء وعبثه وإفساده على النّاس بعض أمورهم، وهدمه للمنازل والجدران وما إلى ذلك من صور رسموها.

ولم تُنْسِ الكتّاب شدّة أهوال الكوارث الطبيعيّة من أمراض سارية فتّاكة، وهزّات وزلازل مــن وصــفها، فوصفوا الأمراض وقوافل الموتى، كما وصفوا الآثار المترتّبة على الهزّات الأرضيّة التي ألحقت الأذى والدّمار بالمباني والحصون والقلاع.

وسجّلت الرسالة الفنيّة مذكّرات السلاطين وقادتهم في رحلات صيدهم، فوصفت رحيل السلطان إلى مكان الصيد، ورسمت مشهداً نهارياً وآخر ليليّاً، كما أعطت تفصيلاً دقيقاً عن طبيعة رمي البندق وعدّة الطير الجليل ورمانه، ومكان وجوده، ووقت صيده.

بينما ساهمت رسائل المفاخرات والأسئلة والأجوبة في كشف قوّة الإبداع وسوق الأدلــة والبــراهين والمحاجــة العقليّة وامتحان القرائح، وإظهار البراعة والابتكار، وشكّلت صفحة مشرقة في تاريخ الرسالة الفنيّة.

ومن خلال دراسة تلك الأنواع تبيّن أنها في مجملها تحمل بناءً مطاطاً، لكنّه أكثر ثــباتاً في الرسالة الرسميّة التي كان مصدرها ديوان الإنشاء، حيث وضع المقنّنون لها الدســاتير التــي كفلــت رسم بنيتها الكليّة من المقدمات والتنوّع والخواتيم، بينما بقيت الرســالة الإخوانــيّة والتعبيريّة في حيّز من أمرها إلاّ أنّ الرسالة التعبيريّة كانت أكثر انطلاقاً من الإخوانية.

وقـد سـلكت الرسالة أسلوباً في مجمله واضحاً بعيداً عن التعقيد والغموض مع تفـاوتٍ فـي بعض الأحيان بين الكتّاب، فكانت لغتهم سلسة سهلة يتخلّلها أحياناً بعض الركالة عند استخدام بعض مصطلحات اللغة والنحو خاصة في نثر ابن الورديّ.

ونـوّع الكتّاب في صورهم، فتعدّدت مصادرها، فمنها المستمدّ من القرآن الكريم وقصصـه، وبعضها من الحديث الشريف إضافة إلى الكمّ الهائل المتكئ على المصادر الأدبيّة والتراثيّة.

وشـكّلت المدرسـة الفاضليّة هاجساً حقيقيّاً في أذهانهم، فولعوا بأُسلوب القاضي الفاضل، وترسَّموا خطاه في فنون البديع، وحلّوا بها رسائلهم، فكثر السجع حتى لا تخلو رسـالة مـنه، وكـذلك اهـتمّوا بالجناس والطباق والتورية وبراعة الاستهلال وحُسن الخواتيم، وغير ذلك من فنون بديعيّة.

وتلمّست الدراسة بذور بعض المناهج النقديّة الحديثة؛ كالتّناص وقوانين الأدبيّة، فرصـدت بعـض النتائج التي تؤكّد وجود جذور هذا المنهج في رسائلهم، ولكنّه تحت مسـمّيات عصرهم؛ كالاقتباس والاستشهاد والتضمين وحلّ المنظوم، فتصدّت الرسالة لبعض الأمثلة بالوصف والتحليل.

كمـا كشفت الخلاصة القصيرة في مبحث الشعرية عن اهتمامهم بقوانين الأدبيّة في رسائلهم الفنيّة، فولعوا بإضفاء مظاهر القصيدة على الرسالة، فاقتربت تلك الرسالة كثيـراً مـن القصيدة، وانزاحت اللغة من وظيفة الإخبار إلى الأدبيّة، وهذا يؤكّد مدى وعيهم بقوانين الأدبيّة السائدة في هذا العصر.

ثبت المصادر والمراجع والدوريات

آل محمـــود، أحمـــد محمود. (د.ت). البيعة في الإسلام (تاريخها وأقسامها بين النظرية والتطبيق). دار البيارق، البحرين.

آل ياسين، الشيخ محمد حسن. (1946). معجم النبات والزراعة. (الطبعة الثانية). مكتبة الهلال، بيروت.

الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد. (850هـ/1446م). (1994). المستطرف في كـل فـن مسـتظرف. طـبعة جديدة منقّحة، منشورات دار ومكتبة الحياة – بيروت.

ابــن الأثير، ضياء الدين نصر الله (637هـ/1239م). (1939)، المثل السائر في أدب الكاتـب والشاعر. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصـر.

ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله (637هـ/1239م). (1989). الوشي المرقوم في حلّ المنظوم. تحقيق جميل سعيد، مطبعة المجمع العراقي.

الإسـكافي، أبو عبد الله محمد (421هـ/1030م). (1997). كتاب مبادئ اللغة. حقّقه يحيى عبابنة وعبد القادر الخليل، (الطبعة الأولى). وزارة الثقافة، عمّان.

إقبال، عبّاس. (2000). تاريخ المغول. ترجمة عبد الوهاب علّوب، المجمع الثقافي، أبو ظبي.

أمين، فوزي. (1982). المجتمع المصري في العصر المملوكي الأول. دار المعارف، القاهرة.

اصطيف، عبد النبي. (1992). التناص ظاهرة قديمة. راية مؤتة، مجلد 2، عدد 2.

ابن حجّة، تقيّ الدين أبو بكر علي الحموي (837هـ/1433م). (1991). خزانة الأدب وغاية الأرب. شرح عصام شعيتو، (الطبعة الثانية). دار ومكتبة الهلال، بيروت.

ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني (852هـ/1448م). (1966). الدُرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. تحقيق محمد سيّد جاد الحقّ، (الطبعة الثانية). مطبعة المدني، القاهرة.

الحجّي، حياة ناصر. (1986). أحوال العامّة في حكم المماليك. (الطبعة الأولى). شركة كاظمة للنشر والتوزيع، الكويت.

الحجّي، حياة ناصر. (1995). أنماط من الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في سلطنة المماليك في القرنين الثامن والتاسع الهجريين. ذات السلاسل، الكويت.

الحجّي، حياة ناصر. (1983). السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده. (الطبعة الأولى). مكتبة الفلاح، الكويت.

الحجّي، حياة ناصر. (1980). العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الإسبانية في القرنين الثامن والتاسع الهجري، الرابع والخامس عشر الميلادي، دراسة وثائقية. (الطبعة الأولى)، الكويت.

الحداد، محمد حمزة إسماعيل. (1993). السلطان المنصور قلاوون. (الطبعة الأولى). مكتبة مدبولي، القاهرة.

حسني، المختار. (1997). من التناص إلى الإطراس. علامات في النقد، مجلد 7، عدد 25، جدّة.

حسين، أحمد جاسم. (2000). الشعرية (قراءة في تجربة ابن المعتز العباسي). (الطبعة الأولى). الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق.

الحلبـــي، الشـــهاب محمـــود (725هـ/1324م). (1980). حُسن التوسُّل إلى صناعة الترسُّـل. تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية.

حمـــادة، محمد ماهر: (1983). الوثائق السياسيّة والإدارية للعصر المملوكي. (الطبعة الثانية). مؤسسة الرسالة، بيروت.

ابـــن حمـــوي، ياقوت (626هـ/1229م). (1993). معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معـــرفة الأديـــب). تحقـــيق إحســـان عـــبّاس، (الطبعة الأولى). دار الغرب الإسلامي، بيروت.

ابـــن خلدون، عبد الرحمن (808هـ/1405م). (د.ت). تاريخ ابن خلدون. ضبط خليل شحادة، دار الفكر.

ابـــن خلدون، عبد الرحمن (808هـ/1405م). (د.ت). مقدمة ابن خلدون. دار الجيل، بيروت.

داعـــي الـــدعاة، المؤيّد في الدين (470هـ/1077م). (1949). الديوان. تقديم وتحقيق محمد كامل حسين، (الطبعة الأولى). دار الكتـــاب المصـــري.

داعي الدعاة، المؤيّد في الدين (470هـ/1077م). (1974). المجالس المؤيّديّة. تحقيق وتقديم مصطفى غالب، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت.

الدروبـــي، ســـمير محمـــود. (2002). حـــركة الترجمة والتعريب في ديوان الإنشاء المملوكي. مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، سنة 26، عدد 62.

الدروبـــي، سمير محمود. (1984). رسائل الإمام النووي إلى الظاهر بيبرس. المجلة الثقافيّة، تصدر عن الجامعة الأردنية، العدد الثالث.

الدروبـــي، ســمير محمــود. (2001). الرمز في مقامات السيوطي. (الطبعة الأولى). مؤسسة الرسالة، عمّان.

الدروبـــي، سمير محمود. (1999). ظاهرة التعدّد والكثرة في مؤلّفات السيوطي. مجلة المنارة، جامعة آل البيت، مجلد 4، عدد 3، 1420هـ/1999م.

الدروبي، محمد محمود. (1999). الرسائل الفنيّة في العصر العباسي حتى نهاية القرن الـثالث الهجـري. (الطـبعة الأولى). دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن.

الدميـري، كمــال الدين محمد بن موسى (808هـ/1405م). (1978). حياة الحيوان الكبـرى. (الطـبعة الخامسة). شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

أبــو ديــب، كمال. (1987). في البنية الإيقاعيّة للشعر العربي. (الطبعة الثالثة). دار الشؤون الثقافيّة العامة، بغداد.

الرباعي، عبد القادر. (1995). طاقة اللغة وتشكيل المعنى في قصيدة الربيع لأبي تمّام دراسة نصيّة. فصول، المجلد الرابع عشر، العدد الثاني، صيف.

الــزبيدي، محمــد مرتضى الحسيني (1205هـ/1790م). (1972). تاج العروس من جواهر القاموس. تحقيق إبراهيم الترزي، مطبعة حكومة الكويت.

الزعبـــي، أحمــد. (1995). التناص نظرياً وتطبيقياً. (الطبعة الأولى). مكتبة الكتاني، إربد.

الزعبي، أحمد. (1993). مقالات في الأدب والنقد، مكتبة الكتاني، إربد.

زقلمة، أنور. (1995). المماليك في مصر. (الطبعة الأولى). مكتبة مدبولي، القاهرة.

أبـو زهـرة، محمـد. (1992). الدعوة إلى الإسلام. طبعة جديدة، دار الفكر العربي، القاهـرة.

السـبكي، تـاج الدين عبد الوهاب (771هـ/1369م). طبقات الشافعيّة الكبرى. تحقيق محمـود محمـد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.

السـبكي، تـاج الدين عبد الوهاب (771هـ/1369م). (د.ت). معيد النعم ومبيد النقم (الإصلاح السياسي والإداري في الدولة العربية الإسلاميّة). دار الحداثة للطبع والنشر والتوزيع، بيروت.

سـلاّم، محمـد زغلـول. (د.ت). الأدب فـي العصـر المملوكـي. منشأة المعارف، الإسكندرية.

سلاّم، محمد زغلول. (1979). الأدب في العصر المملوكي (الدولة الأولى "648-783 هـ"). دار المعارف، القاهرة.

سـليم، محمود رزق. (1955). عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي. مكتبة الآداب بالجماميز، المطبعة النموذجية.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (911هـ/1505م). (1985). الأشباه والنظائر في الـنحو. تحقـيق عـبد العال سالم مكرّم، (الطبعة الأولى). مؤسسة الرسالة، بيروت.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (911هـ/1505م). (د.ت). تاريخ الخلفاء. تحقيق محي الدين عبد الحميد.

السـيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (911هـ/1505م). (د.ت). الجامع الصغير في أحاديث البشر النذير. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (911هـ/1505م). (1968). حُسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، (الطبعة الأولى)، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1387هـ/1968م.

شبولير، بيرتولد. (1989). المغول في التاريخ. ترجمة يوسف شلب الشام، (الطبعة الأولى)، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر.

الشيباني، أحمد بن أبي الفتح (708هـ/1302م). (2002). رصف الفريد في وصف البريد. دراسة وتحقيق سمير الدروبي، (الطبعة الأولى)، مؤسسة الرسالة، عمان.

شيخ الربوة الدمشقي، شمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري (727هـ/1327م). (1965). نخبة الدهر في عجائب البر والبحر. طبع في مدينة بطربورغ في مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية.

الشيزري، أمين الدين مسلم بن محمود توفي بعد (622هـ/1225م) ظناً. الفلاحة. مخطوط، جامعة مؤتة، الوثائق الخاصة، رقم التزويد 110088.

الصالحي، عبّاس مصطفى. (1981). الصيد والطرد في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثامن الهجري. (الطبعة الأولى). المؤسسة الجامعيّة، بيروت.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (764هـ/1362م). (1998). أعيان العصر وأعوان النصر. تحقيق علي أبي زيد وآخرين، (الطبعة الأولى)، دار الفكر، دمشق.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (764هـ/1362م). ألحان السواجع بين البادي والمراجع. مخطوط، جامعة مؤتة، الوثائق الخاصة، رقم التزويد 107421.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (764هـ/1362م). (1987). جنان الجناس (في علم البديع). تحقيق سمير حسين حلبي، (الطبعة الأولى)، دار الكتب العلمية، بيروت.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (764هـ/1362م). (1979). فضّ الختام عن التورية والاستخدام. دراسة وتحقيق المحمدي عبد العزيز الحناوي، (الطبعة الأولى)، دار الطباعة المحمديّة، القاهرة.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (764هـ/1362م). (1962). الوافي بالوفيات. اعتناء هلموت ريتر، (الطبعة الثانية)، بفسبادن.

ضيف، شوقي. (د.ت). عصر الدول والإمارات – الشام. (الطبعة الثانية)، دار المعارف، القاهرة.

عاشور، سعيد عبد الفتاح:

ضيف، شوقي. (1976). العصر المماليكي في مصر والشام. (اطبعة الثانية)، دار النهضة العربية، القاهرة.

ضيف، شوقي. (1962). المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك. (الطبعة الأولى)، دار النهضة، القاهرة.

عاشور، فايد:

ضيف، شوقي. (1995). الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي. (الطبعة الأولى)، جرّوس برس، طرابلس، لبنان.

ضيف، شوقي. (1975). العلاقات السياسيّة بين المماليك والمغول في الدولة المملوكيّة الأولى. دار المعارف، القاهرة.

عــبّاس، إحسان. (1988). عبد الحميد بن يحيي الكاتب (وما تبقّي من رسائله ورسائل سالم أبي العلاء). (الطبعة الأولى)، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان.

عبد الجواد، ليلى. (1986). علاقة الدولة البيزنطية بسلطنة المماليك البحريــة (659-784هـ/1261-1382م)، مجلة كلية الآداب، القاهرة، العدد 46، 47.

عــبد الــدايم، عبد العزيز محمود. (1996). مصر في عصري المماليك والعثمانيين. مكتبة نهضة الشرق. القاهرة.

عــبد الظاهر، محيي الدين (692هـ/1292م). (1961). تشريف الأيّام والعصور في ســيرة الملك المنصور. تحقيق مراد كامل، (الطبعة الأولى)، الناشر الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة.

بد الظاهر، محيي الدين (692هـ/1292م). (1976). الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر. تحقيق عبد العزيز الخويطر، (الطبعة الأولى)، الرياض.

عصــفور، جابــر أحمد. (د.ت). الصورة في التراث النقدي والبلاغي. دار المعارف، القاهرة.

العــلاّق، جعفر علي. (1997). الشعر والتلقّي (دراسات نقديّة). (الطبعة الأولى)، دار الشروق، عمّان.

ابــن العماد، عبد الحي الحنبلي (1089هـ/1678م). (د.ت). شذرات الذهب في أخبار من ذهب. طبعة جديدة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

العمــري، أحمد بن يحيى (749هـ/1348م). (1993). التعريف بالمصطلح الشريف. تحقيق ودراسة سمير الدروبي، (الطبعة الأولى)، منشورات جامعة مؤتة.

عنتــرة (614م). (1992). الديوان بشرح الخطيب التبريزي. قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه مجيد طراد، (الطبعة الأولى)، دار الكتاب العربي.

ابـــن العوّام، أبو زكريا الإشبيلي (580هـ/968م). (1988). كتاب الفلاحة. عربي – فرنسي، مدريد.

عيد، رجاء. (1995). النص والتناص، علامات في النقد، مجلد 5، عدد 18، جـــدّة.

العينـــي، بـــدر الدين محمد (855هـ/1451م). (1987). عقد الجمان في تاريخ أهل الزّمان. تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصريـــة العامة للكتاب.

الغذّامـــي، عبد الله. (1985). الخطيئة والتكفير (من البنيوية إلى التشريحية). (الطبعة الأولى)، النادي الأدبي الثقافي، جدّة.

غـــرس الـــدّين الظاهري، خليل بن شاهين (873هـ/1468م). (1894). زبدة كشف الممالـــك وبـــيان الطـــرق والمسالك. صحّحه بولس راويس، طبع في مدينة باريس.

ف. هايـــد. (1991). تـــاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى. ترجمة أحمـــد رضـــا محمـــد رضا، مراجعة عزّ الدين فودة، الهيئة المصرية العامة للكتـــاب.

أبـــو الفـــداء، الملك المؤيّد إسماعيل بن علي (732هـ/1331م). (1997). تاريخ أبي الفـــداء المسمّى المختصر في أخبار البشر. علّق عليه ووضع حواشيه محمد ديّوب، (الطبعة الأولى)، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (807هـ/1405م). (1942). تاريخ ابن الفرات. تحقيق قسطنطين زريق، المطبعة الأميركانية، بيروت.

قاضي، وداد. (1985). بشر أبي كبار البلوي. (الطبعة الأولى)، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

القزويني، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن (739هـ/1338م). (1991). الإيضـــاح فـــي علوم البلاغة. قدّم له وبوّبه وشرحه علي بو ملحم، (الطبعة الثانية)، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

القلقشـــندي، أحمـــد بن علي (821هـ/1418م). (1963). صبح الأعشى في صناعة الإنشـــا. نسخة مصوّرة عن الطبعة الأميريّة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامّة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة.

القلقشندي، أحمد بن علي (821هـ/1418م). (1964). مآثر الإنافة في معالم الخلافة. تحقيق عبد الستّار أحمد فرج، (الطبعة الأولى)، عالم الكتب، بيروت.

القلقشندي، أحمد بن علي (821هـ/1418م). (1980). نهاية الأرب في معرفة أنساب العـــرب. تحقـــيق إبراهيم الأبياري، (الطبعة الثانية)، دار الكتاب المصري، القاهرة.

القيراطـــي، بـــرهان الدين إبراهيم (781هـ/1379م). مطلع النيّرين، نسخة مخطوط، جامعة مؤتة، الوثائق الخاصة، رقم التزويد 102304.

القيسي، فايز عبد النبي. (د.ت). أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري. (الطبعة الأولى)، دار البشير للنشر والتوزيع، عمّان، د.ت.

الكاتـــب، علـــي بـــن خلف (عاش في منتصف القرن الخامس الهجري). (د.ت). مواد البـــيان. معهـــد تـــاريخ العلوم العربية والإسلاميّة، فرانكفورت، إصدار فؤاد سزكين.

الكاندهلـــوي، محمـــد يوســـف. (1995). حياة الصحابة. (الطبعة الأولى)، دار قتيبة، بيروت.

المغـــيض، تركي. (1991). التناص في معارضات البارودي، مجلة أبحاث اليرموك، مجلد 9، عدد 2.

مفـــتاح، محمـــد: (1985). تحلـــيل الخطـــاب الشعري (استراتيجيّة التناص). (الطبعة الأولى)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

المقريـــزي، أحمـــد بن علي (845هـ/1441م). (1940). إغاثة الأمّة بكشف الغمّة. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

المقريـــزي، أحمد بن علي (845هـ/1441م). (1986). السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب المصرية.

المقريزي، أحمد بن علي (845هـ/1441م). (د.ت). المواعظ والاعتبار بذكر الخطط المقريزيّة. طبعة جديدة بالأوفست، دار صادر، بيروت.

المنصـــوري، ركن الدين بيبرس (725هـ/1325م). (1998). زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة. تحقيق دونالد س. ريتشاردز، (الطبعة الأولى)، بيروت.

ابـــن مـــنظور، جمـــال الدين (711هـ/1311م). (د.ت). لسان العرب. دار صادر، بيروت.

منكلـــي، محمد (784هـ/1382م). (1991). أنس الملا بوحش الفلا. دراسة وتحقيق محمد عيسى صالحيّة، (الطبعة الأولى)، مؤسســـة الرسالة، عمّان.

موركاروفســـكي، يـــان. (1984). اللغـــة المعـــيارية واللغة الشعرية. فصول، المجلد الخامس، العدد الأول، 1404هـ/1984م.

موليـــر، السير وليم. (1995). تاريخ دولة المماليك في مصر. ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، (الطبعة الأولى)، مكتبة مدبولي، القاهرة.

الميدانـــي، أبو الفضل أحمد النيسابوري (518هـ/1124م). (1993). مجمع الأمثال. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان.

ناجي، هلال. (2002). سمات العطاء الأدبي والفكري في القرن الثامن الهجري، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد 63، السنة 26، 1423هـ/2002م.

نـــاظم، حســـن. (1994). مفاهيم الشعرية. (الطبعة الأولى)، المركز الثقافي العربي، بيروت.

ابـــن نباتة، جمال الدين (768هـ/1366م). تعليق الديوان لسنة أربعة وأربعين. نسخة مخطوط، مكتبة جامعة مؤتة، الوثائق الخاصة، رقم التزويد 178755.

النووي، يحيى بن شرف (676هـ/1277م). (1992). رياض الصالحين من كلام سيّد المرسلين. أوضح معانيه مصطفى محمد عمارة، دار القلم العربي، حلب.

هســـي، ج.م. (1984). العـــالم البيزنطـــي. ترجمة وتقديم وتعليق رأفت عبد الحميد، (الطبعة الثالثة)، دار المعارف، القاهرة.

ابـــن الـــوردي، زين الدين عمر بن المظفّر (749هـ/1348م). (1996). تاريخ ابن الوردي. (الطبعة الأولى)، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن الوردي، زين الدين عمر بن المظفّر (749هـ/1348م).(1986). الديوان. تحقيق أحمد فوزي الهيب، (الطبعة الأولى)، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت.